

الهيئة العامة للإستعلامات

كتب مترجمة (٧٨٢)

# BEGIN

A Biography



Eric Silver

من تأليف

بيجين ..  
سيرة حياته

تأليف : إريك سيلفر



0206343

Bibliotheca Alexandrina



# بيجين سيرة حياته

اريك سيلفر



## المحتويات

### شكر وعرفان

الفصل الاول	: وليد لصبيون
الفصل الثاني	: عند اقدام المعلم
الفصل الثالث	: هروب واعتقال
الفصل الرابع	: الانتقال الى « الجولاج »
الفصل الخامس	: الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية
الفصل السادس	: انتهاء الهدنة
الفصل السابع	: مأساة الاخطاء
الفصل الثامن	: النفس بالنفس
الفصل التاسع	: الخروج من عش « التباير »
الفصل العاشر	: كما حدث في دير يلجين
الفصل الحادى عشر	: تجرد على السفينة « ألتالينا »
الفصل الثانى عشر	: اختيار جانب المعارضة
الفصل الثالث عشر	: الخروج من التيه
الفصل الرابع عشر	: التدريب على الحكم
الفصل الخامس عشر	: وحدة أم اخفاق
الفصل السادس عشر	: زلازل جنيف
الفصل السابع عشر	: تجربة ثقة رهيبه
الفصل الثامن عشر	: السلام وفق شروطنا
الفصل التاسع عشر	: بمعسكر اعتقال فلخر
الفصل العشرون	: منح جائزة قبل الاوان
الفصل الحادى والعشرون	: هرق تسد
الفصل الثانى والعشرون	: خيل الحرب
الفصل الثالث والعشرون	: لا أستطيع الاستمرار
الفصل الرابع والعشرون	: البيت الذى شيده مناحم



## شكر وعرفان

يسعدني أن أعرب عن امتناني لأسرة مناحم بيجن ، ورفاقه في السلاح ، وزملائه ، والعاملين معه ، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة . وأخص بالذكر شقيقته « راشيل هالبرين » التى ساعدت كثيرا في الكشف عن خلفيته في السنين الأولى من حياته .

ولقد قدمت لى كل من « سوزان هاتيس رولف » و « إسرائيل ميداد » مساعدة قيمة في البحث في المصادر العبرية ، وقد تكرما مشكورين ومراجعة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى من الحقيقة . كما تقدم « نرومان روز » ، من الجامعة العبرية ، و « ديفيد لاندو » من صحيفة الجيروسالم بوست اقتراحات بناءة في تعديل نصوص الكتاب .

وقد قام كل من « شارون بارنيت » و « رالف مانديل » بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الأخرى . بينما قامت كل من « استرفالينشيا » و « باربرا بيرنو » بتفريغ شرائط التسجيل ونسخ المخطوط على الآلة الكتابة على التوالى .

وانتهز هذه الفرصة لأشكر المديرين والعاملين بسجلات دولة إسرائيل ، ومعهد جابوتنسكى ، وإدارة الملفات بصحيفة الجيروسالم بوست ، ومجموعة كويسيل من تصاممت الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليا ، والمركز الصحفى للحكومة الاسرائيلية .

وأخيرا أقدم شكرى الى رئيس تحرير صحيفة « الجارديان » لمنحه اياى اجيزة حتى أستطيع انجاز هذا الكتاب ، وإلى عبيد وأعضاء كلية سائنت كاترين بجامعة أوكسفورد لكرم استضافتهم لى أثناء المراحل الأولى من اعداد هذا الكتاب .

« اريك سيجافر »

## الفصل الاول وايد لصهيون

ان مناحم بيجين هو اكثر الرجال ثباتا على المبدأ .. سواء من حيث العقيدة أو الاهداف أو الايمان بأساطيره الخاصة . وبالرغم من أنه امضى الجزء الاكبر من حياته في اسرائيل ، فان جنود نزعته القومية اليهودية العنيدة الثابتة ترجع الى مسقط رأسه في « بريست - ليتوفيسك » حيث ولد في ١٦ اغسطس ١٩١٣ ، كان الطفل الثالث والاخير لكل من « زئيف دوف » ، و « هلسيا بيجين » . ولطالما قدم الرجل الذي اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء مفروض الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جابلوتينسكى بمفنته « معلمه وأستاذه » ، بيد ان معظم ذكرياته عن النفس ، فضلا عن معظم اشاراته الى مشاعر الكبرياء والامال البطولية التي ظل يستشهد بها حتى بعد نصف قرن من الزمان ، يمكن اسنادها الى « زئيف دوف » معلم بيجين ومثله الاعلى . اما « جابلوتينسكى » فقد اضاف الى ما سبق اطارا ايدولوجيا وتنظييا ، وادى فكره المستتر الى اشارة حسب الاستطلاع في بيجين واصبح بالنسبة له نبؤجا يقتدى به في أسلوبه الخطابي ، وبطلا معبودا .

وكانت مدينة « بريست - ليتوفيسك » ، التي تعرف ايضا باسم « بريست » ، واحدة من مدن الصدود الموجودة في أوروبا الشرقية والتي لم يكن من المعروف بالضبط ما هي الدولة التي تتبعها . فقد كانت في العصور الوسطى تقع في صميم دوقية « ليتوانيا » . وخضعت ابلان القرن العشرين لحكم روسيا وبولندا وألمانيا . واليوم تعتبر المدينة عاصمة لاقليم « بريست » بجمهورية بيلوروسيا السوفيتية الاشتراكية . وقد نؤحت أول جماعة يهودية الى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقامت بدور قيادي في تنميتها وتطويرها لتصبح مركزا للتجارة والمواصلات . وعلى الرغم من أن اليهود مروا بفترات مختلفة تظلها حصولهم على امتيازات وتعرضهم للاضطهاد ، الا أنهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للأراضي ومقاولين وكرجال علم ودين .

وكانوا يصنفون بالايان العميق ولكن ايمانهم كان ذا صبغة دنيوية وكانت « بريست » مقبلا لجماعة المنتاجم الذين كانوا يرفضون التطرف وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم من ليتوانيا لم يشذ من القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية . وقد سمح لبقى اليهود بالعودة الى المدينة بعد ثلثى سنوات من ذلك التاريخ ،



عندما أعاد الدوق النظر في الموضوع . وأصبح اليهود ، عندما ولد « مناحم بيجين » ، يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة . وبلغ عددهم عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حوالى ٣٠ ألف نسمة . وقد وجد بمدينة « بريست » عندما تم تحريرها من قبضة النازية ، ما يثل من ١٠ فقط من اليهود . وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن « عدد السكان اليهود ( بالمدينة ) بلغ عام ١٩٧٠ حوالى ألفى نسمة . ولا يوجد بها معبد حيث تم تحويل آخرها في عام ١٩٥٩ الى دار لعرض الأفلام » .

وكانت مدينة « بريست » ، التى عاش « مناحم بيجين » شبابه فيها ، مدينة يهودية مزدهرة بالفعل — حتى لو أخذنا فى الاعتبار اللون انوردى الذى قد تضيفه الذاكرة خلال خريف العمر على الفكرات الخاصة بمرحلة الشباب — فهو يذكر أن المدينة : « كانت مليئة بالمعابد والمعاهد الدينية . وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغة العبرية للتعليم . وكثرت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الاعضاء . وكنا نخرج فى عيد « لاج باعوم » ( عيد لليهود — ١٨ أيار ) الى الشوارع فى استعراضات تضم آلاف الأشخاص الذين يحملون الاعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتفاخرون بيهوديتهم . وكانت الحياة الثقافية لليهود غنية ، بها تذاخر به من صحف ومسارح ، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة » .

ويمكن القول بأن مناحم بيجين « كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكمة التى اشرفت على ولادته هى جدة « ارييل شارون » ، الذى أصبح فيما بعد جنرالا اسرائيليا ووزيرا للدفاع . وقد بعث الصهيونيون المحليون بكلمة على هيئة باقة من الورد فى مناسبة الاحتفال بختانه بعد ثمانية أيام من مولده . وكان « زئيف دوف بيجين » و « ثيودور شينرمان » جد شارون من بين الرواد الاوائل للحركة الصهيونية فى « بريست » عندما كانت تلك الحركة مازالت فى مرحلة النضال من أجل اثبات الذات ، وقد قام « زئيف دوف » و « شينرمان » بكسر باب المعبد الرئيسى فى بريست بالفأس ، بعد وفاة « ثيودور هيرتزل » مؤسس الصهيونية السياسية فى عام ١٩٠٤ ، عندما رفض الحاخام « حايميك سولوفيتش » السماح لهما بإقامة الصلاة على روحه ، وأخذا معهما مفتاح المعبد . لقد كان الحاخام يعتبر « هيرتزل » مغرطا فى العلمانية أكثر مما يجب ، ولكن الصهيونيين نجحوا فى اقناعه القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين حضروه .

ولقد كان « زئيف دوف » عضائيا ، ولم يتعد مرحلة التعليم الاساسى وهى مرحلة الدراسة الاولى فى إحدى المدارس الدينية التقليدية الخاصة بأطفال اليهود ، والتى التحق بها فى سن الثالثة وتركها بعد أربعة عشر عاما وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية . وقد أمضى حياته ملتزما باليهودية

ولكن دون تطرف . وتذكر ابنته «راشيل هالبرين» انه كان يرتدى «التيفلين» ( وهى اربطة جلدية شعاعية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباههم ، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله في المعبد . ولم يكن يخلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء . ولم يكن يرتدى ثيعة داخل المنزل الا عند مباركته للطعام . وكانت لحقته مشنبة كما كان يطلب من أطفاله أن يفسلوا أسنانهم أثناء صيام « يوم كيפור » — على عكس التقليد الأرثوذكسى المتشدد — ولكن على شرط أن يحترسوا من ابتلاع الماء . فكان يقول لهم « انكم اليوم ستكلمون الرب » ، ولذلك يجب أن يكون مهمك نظيفاً . وعندما اضطرت « راشيل » ، التى تكبر « مناخم » بخمسة أعوام ، الى التوقيع يوم السبت على بعض الأوراق الخاصة بجامعة وارسو ، قال لها والدها انه يمكنها أن تعمل ذلك دون أن يكون في ذلك اعتداء على السبت « مؤكداً لها أن المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة أو موت ، ولذلك فعليك أن توقعى » .

ولقد اطلع — زئيف دوف — لأول مرة على الحضارة الاوربية بمجرد مغادرته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليعمل في تجارة الاخشاب مع والده . فقد لمس كاتب حسابات المائى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات ، ووجهه على الهرب للدراسة في برلين . ولكن سرعان ما ادركه والداه واعداده اليها واتما بتزويجه على غير ارادته . ولم يلم زواجه أكثر من عام انتهى بطلاق « زئيف دوف » زوجته على الرغم من انه رزق منها بابنة . وبضى خمسة وعشرون عاماً تقريباً قبل أن يفكر في الزواج مرة ثانية . وكانت عروسه « هاسيا كروموفسكى » هى ابنة أسرة « ريفية » بولندية . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً حينما كانت هى فى العشرين من عمرها . ولم تكن تتكلم الا باللغة البولندية ، ( وهى لهجة المانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية ) ، ولكن ذلك لم يحد من تعاطفها للمعرفة ، وتقول ابنتها « راشيل » لقد قرأت أعمال جميع الكتاب العالميين العظيم « بالييدية » ، وكانت تتبعت بفضول عيسق ونكاه حاد وشخصية قوية . وكثت تواة طوال الوقت للمعرفة ولا شيء غير المعرفة (؟) . وكثيراً ما كانت تجارة الاخشاب تقود « زئيف دوف » للسفر الى الخارج ، وبصفة خاصة الى برلين . وتؤكد مسز « هالبرين » : « انه كان من أكثر المحبين للامان » . وتقول : « أفنى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمرى ، فى بداية الحرب العالمية الأولى انه كان يسطحبنى فى نزهات سيرا على الاقدام ويقول لى « الا تعلمين أن الامان قادمون ، ان لهم حضارة مختلفة من الحضارة الروسية » . وكان يتحدث اللغة البولندية والعبرية والروسية فضلاً عن الالمانية . وعندما تعلم إنشائه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم . وكان « زئيف دوف » ، مثل أصغر ابنائه ، يحب التصدق بعبارات لاتينية إمام البسطاء . فقد ردد مثلاً فى احدى المناسبات عندما طلب منه بعض

اليهود السذج أن يتوسط في خلاف ما عبارة باللاتينية معناها « ان التلون قلس ، ولكنه القانون » ، الامر الذى أصلب اليهود بالذعر .

وكان « زئيف دوف » في يهوديته ، يؤمن بمذهب الفعالية . ( وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفة لتحقيق الاغراض السيلسية ) وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقوية اليهودية شيء واحد . وقد غرس في أبنائه الشعور بالنخر ازاء انتميتهم لليهودية . وكانوا أثناء تعليمهم الجامعى يذكرون دائما أن لغتهم الاصلية هى العبرية ، عندما يطلب منهم تحديد لغتهم . وكان اكبر ابناء « بيجين » يرفض التحدث البولندية التى كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية ( ويرفض «مناحم» أيضا حتى يومنا هذا استخدام تلك اللغة ، بالرغم من أنه تلقى تعليمه في مدرسة ثانوية بولندية ثم في جامعة وارسو ) .

وكان « زئيف دوف » يردد دائما على اسماعهم ، ويفرس في عقولهم « المفزى الحقيقى » من قضية « بيليس » التى دار حولها « حملة تشهير دموية » والتى وقعت بمدينة « كييف » ، ابان خريف عام ١٩١٣ ، أى علم مولد « مناحم » كان « مينديل بيليس » ، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما . نفيذا لبعض الطغوس الدينية . وتمت تبرئة « بيليس » بعد أن أمضى عامين في السجن فضلا من شهر استغرقته المحاكمة ، بيد أن حملة التشهير استمرت تغذى الحملات المعادية للسامية في جميع أنحاء أوروبا .

وتقول ممرز هالبرين : « ان والدنا كان يردد علينا مقالة محلى « بيليس » لوكله أثناء المحاكمة : اذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما في سيبيريا ، مع الاثفل الشاقة ، فعليك الذهاب بشجاعة . فان يهود اسبانيا ذهبوا الى حيث اعدوا حرقا وهم ينشدون « اشهدك يا اسرائيل » ( وهى ترونية دينية تتضمن أركان الدين اليهودى ) . وعنتقد قال الحلفون : « لقد شاهدنا الله اليهود » . وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد » .

وثمة محاكمة أخرى كان زئيف دوف « يشير اليها مرارا . وهى محاكمة الكابتن « المفريد درايفوس » ، اليهودى الفرنسى الذى ادين بالباطل بتهمة الخيانة في سنة ١٨٩٤ . وكان والد بيجين يحمل عصا يعملوها قبض من النفضة في شكل راس « أميل زولا » الذى ناصر «درايفوس» وتحت نص من كتاب زولا : « انى اتهم » . وكان « زئيف دوف » يسر بمحبة أحد الاجبار في أحد الايام عندما حاول عسكري بولندى برتبة رقيب ، أن يطلق ثقل الجبر — الامر الذى كان يعتبر بمثابة « رياضة » محبة منتشرة بين الممدين للسامية — ويقول « مناحم بيجين » في هذا الصدد :

« لم يتردد والدي في أن يضربه بعصاه على يده . وكانت عملية ضرب  
أى رقيب بولندي في تلك الايام تعتبر ايذانا ببدء مذبحه . واعتقل الحبر  
والدي ، وسبقا الى النهر حيث هدهدها بالقائتها فيه ، وضربا حتى سالت  
دماؤها . وعاد والدي الى المنزل في حالة سيئة ، ولكنه كان سعيدا . وقال  
انه دافع عن شرف الشعب اليهودي وعن شرف الحبر . ولذلك فقد انطبع  
في ذهني منذ الطفولة شيئا هما : تعرض اليهود للاضطهاد ، وشجاعة  
اليهود » (٧) . لقد قدم مناحم بيجين أقصى ما عنده من اجلال وتقدير وعرفان  
لوالده عندما قال : « لم اعرف قط رجلا أكثر شجاعة منه . ولقد عملت طوال  
حياتي بين اشخاص يتميزون بالشجاعة ، وربما كان هذا قدرا مكتوبا . ومع  
ذلك فاني لن انسى ابدا كيف قاتل والدي دفاعا عن الشرف اليهودي » .

وكثيرا ما عانت أسرة بيجين من العوز . وقد عمل « زئيف دوف » في  
فترة ما بأحد البنوك ، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة  
اليديية « عن فضيحة مالية » بيد ان الاسرة لم تشهد أياها عصبية مثل تلك  
التي مرت بها أبان الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها فقد كلفت مدينة  
« بريست » تعتبر مدينة عسكرية ، وكان حكامها الروس يخشون غزو المانيا  
لها . ونفى « زئيف دوف » الذي كان يتباهى بميوله نحو المانيا ، الى سان  
بطرس بروج ثم الى وارسو ، تاركا وراءه زوجته وابناءه بدون عائل . وعندما  
تقدم الالماني نحو مدينة « بريست » قام الروس بأجلاء جميع السكان عندها  
واحرقوها عن آخرها . واصطحبت « حاسيا بيجين » ابنتها وولديها للاقامة  
عند أحد الأعمام في قرية « دوركينتشين » بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء .

وكان المنزل صغيرا ، يكاد يشبه الكوخ . أقامت أسرة « بيجين » في  
غرفة واحدة ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى توفير مكان بها لمبيت العمسات  
والاعمام القادمين من المدينة . وكان « مناحم » لا يزال طفلا صغيرا آنذاك ،  
ولكن شقيقته « راشيل » تذكر أحداث تلك الفترة بوضوح . فقد تعرضت  
القرية بعد اشهر قليلة لنفس مصير مدينة « بريست » حيث احترقت عن آخرها  
عند تقدم الجيش الالماني نحوها واجبر الفلاحون المحليون على مغادرة القرية ،  
وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدي جنود الفرسان الروس .

وتقول راشيل عن تلك الفترة :

« لقد سمعنا بكاء البروتين . وقيام الروس بطرد جميع المزارعين حتى  
لا يعملوا في خدمة الالماني . والا يزودهم بالأغذية . واذكر حتى يومنا هذا  
صربت نحيب الفلاحين وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من الباندة المغلقة  
والسبدل عليها الستائر والخاصة بحجرتنا . وكان ارتفاع النافذة لا يزيد

من ارتفاع أرجل حصانه ولذلك فلم نستطع رؤيته ، ولكنه طرق بعنف على ابواب وقال صائحا : « من يقيم هنا ؟ زىدى ؟ أم روسى » . وكانت كلمة « زىدى » هى صفة يطلقها الروس على اليهود تحقيرا لهم . وكان عمنا ينكلم باللهجة الروسية ، فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا : « روسى » ولا أعرف كيف اسمعته باليديه ، لكن لولا ذلك لفضى القوزاق علينا » .

لم تستطرد « راشيل » ..

« وفى إحدى الليالى ، صدرت إلينا التعليمات بالاتجاه الى الحقول لان القوزاق كانوا يشعلون النار فى قريتنا . وشاهدت بعينى أحد جنود القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار . واتجهنا جميعا الى حقل كبير ، وكان البعض قد بدأوا فعلا فى حفر الخنادق — وكان كل اليهود تقريبا موجودين هناك . وساد الصمت التام ، ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة واحدة . وكان الالمان قد اقتربوا بالفعل ، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى سمعنا . بعدنا فى الصباح الى منزل عمنا . فوجدناه قد احترق تماما . فأتجهنا الى منزل آخر . ووصل الالمان فى الصباح البكر . كم كانت فرحة اليهود كبيرة برؤية الالمان . لقد كنا جميعا نفتش الارض ، وكنا اعدادا غفيرة . وتبل وصول الالمان كنا مضطرين الى دفع اتلوات لجنود القوزاق حتى لا يفضوا علينا . ولكن الالمان عاملوا اليهود معاملة راعية » .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين ، تمكن « زئيف » من شق طريقه الى القرية التى يقيم فيها أخوه . وتم لم شمل اسرة « بيجين » فى اعقاب تقدم الالمان وعندما مرت الاسرة ، مرة اخرى ، بأوقات عصيبة ، انتقلت الى قرية أخرى ثم الى مدينة كوبرين . وكان « زئيف دوف » يكسب عيشه عن طريق نسخ الالتماسات باللغة الالمانية للامبراطور . وتستعيد مسز « هالبرين » ذكرياتها عن تلك الايام العصيبة التى مرت بها الاسرة ، فتقول :

« لقد كنا نغضو جوعا ، ونتمنى كسرة عيش » وكنا نحن الخمسة نقيم جميعا فى غرفة واحدة . وكان الالمان — الذين كانت تربطنا بهم علاقات ودية للغاية — يصطحبون أمى كل شهر ويرفقتها الصغير « مناحم » فى قرية يجرها الخيل الى القرية حيث كانت تقوم هى وعمى بقطع الاشجار ، واحضار الاخشاب لنا للتدفئة . وكان والدى يبقى مع الاطفال . وكنت قد أصبحت فتاة كبيرة ، فتوليت رعايتهم . وكنا نحتفل بعودة أمى بعد غيابها الذى كان يمتد لبضعة أيام . اذ كان كل شيء معدا لذلك : لقد كان لدينا الخشب والبطاطس للطهى ، ويرجع الفضل لأمى فى استمرارنا على قيد الحياة ابان تلك الحرب . لقد كانت ذات طبيعة رومانسية ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته قوية وتبتغ بشخصية فى غاية القوة » .

وبيعت « بريست » تخضع للحكم الألماني بعد الحرب ، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩ . وكان « زئيف دوف » واحداً من أول اليهود العائدين ، تاركاً أسرته في « كوبرين » . ومرة أخرى عاد الى نسخ الاتفاقيات الألمانية كوسيلة لكسب العيش . وكانت « راشيل » وباتى الأطفال يرتقبون زيارته الأسبوعية لهم في عطلة السبت بفارغ الصبر .

كما تقول مسز « هالبرين » عن تلك الايام

« كان والدى يمتلك قبة سوداء عالية ، من النوع الذى يرتدى فى المناسبات الرسمية . وفى احدى المرات ، خرج مناحم الصغير من المنزل ورأى احدى قريباتنا تجلس على الدرجات ، ومسحة من الحزن تعلق وجهها . فسألها : « لماذا أنت حزينة ياعمة ؟ اليس معك نقود ؟ نحن ايضا لم يكن لدينا نقود ، الا أن أبى اصبحت لديه الآن قبة عالية مليئة بالنقود » . فقد كانت أمى تحتفظ بالنقود فى القبة . لقد كنت ظروفاً قبل ذلك صعبة جداً ، وقد اعتادت أمى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس فى السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسهما ، ثم تقوم يوم الجمعة بكىها ليرتديها بعد الظهر ويخرجاً بها قائلين انها أصبحت يمتلكان بدلاً جديدة لقد كانت أمى قوية جداً ، ولكنها تالت لى انها بكت فى احدى المرات وكان ذلك عندما قلم جار غنى بشراء كعكة من الخبز ، ولم يكن فى وسعنا شراء الكعك ، واتجه أخى الصغير اليه وقال : « أرجو أن تسمح لى بشسها ؟ وعندئذ لم تملك أمى منح نفسها من البكاء » .

وتحسنتم الاحوال عندما انضمت أسرة « بيجين » الى « زئيف دوف » فى « بريست » وعين الأب فى منصب سكرتير علم الرابطة اليهودية الامر الذى ضمن له دخلاً ثلثاً وان لم يكن كبيراً . وعندما بدأ الأطفال الثلاثة يشبون ، ساهموا فى زيادة دخل الأسرة عن طريق اعطاء دروس خصوصية . لقد كان ذلك فى وقت ملئ باعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل « زئيف دوف » فى وقت ما منصب رئيس مجلس ادارة سبع منظمات مختلفة فى وقت واحد . ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان فى حكم المدينة ، انهزموا جميع اليهود بأنهم شيوعيون خطرون . ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل . وسادت « زئيف دوف » سبعة عشر عضواً من الحزب الشيوعى على التحدى كطلبة فى المعاهد اليهودية وبعثهم الى بلدة « فيلنا » الأكثر ابناً نسبياً . وظل شيوعيو « بريست » لسنوات طويلة بعد ذلك يطفئون سبجارهم كلها شاحدهم يدهشى اثناء عطلة السبت ، كرمز على تقديرهم له .

وقد حقق « مناحم » الشاب تفوقاً فى العلوم الانسانية اثناء دراسته الثانوية فى مدرسة بولندية . وتهسك خلال تلك المرحلة أيضاً بيهوديته ، فكان برفض باصرار الكتابة فى أيام السبت . وقد رد محرس اللغة اللاتينية على

ذلك بأن اعطاه تقديرا بمرتبة ضعيف . وقال « مناحم بيجين » في حديث أدلى به لشباب إسرائيل ، بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ : « لقد قلت للمدرس ان هذه هي معتقداتي ولن أغرها ، ون اكتب في عطلة السبت تحت أى ظرف من الظروف . وبعد فترة هذا ومنحني الدرجات المرتفعة التي اعتدت الحصول عليها » .

وظل « مناحم بيجين » أرثوذكسيا في معتقداته ، وان لم يبق ملتزما بمعتقداته المتزمنة . فكان يصر مثلا أثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعي اليهودي ، بينما اشترك في السير في جنازة انور السادات التي جاءت يوم السبت . كما انه لم يعد يذهب الى المعبد كل يوم او حتى كل سبت . وهو لا يخفى انه كان يستمع الى الاذاعة أيام السبت ( سواء اذاعة صوت اسرائيل او اذاعة بي . بي . سي المالية ) ومن المعروف انه علم بمذبحة بيروت في سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الاذاعة . وكان التزامه الديني ينطوي على بعض النفاذ ، لا دراكه انه يمثل الحركة التي ينتمي اليها فضلا عن اسرائيل . فقد صام بمناسبة يوم المغفران ، أثناء اعتقال البوليس السري السوفيتي له . كما انه عندما كان زعيما للمعارضة سنة ١٩٥٣ ، وصل الى جوهانسبرج في وقت متأخر من يوم الجمعة ، نظرا لمعط اصاب الطائرة التي أقلته . وأصيب خمسة آلاف سهيوني من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفرح عندما امتنع عن استخدام السيارة لليهود التي تنظره ، وأبغى الليلة في فندق المطار .

وعانى « مناحم » أثناء دراسته بجامعة وارسو ، من هجمات المعادين للسامية له كما عانى من فقره النفسي ، وقد أرسلت الحكومة البولندية له ، بعد توليه رئاسة الوزراء ، « البوبا » يحتوي على المستندات الخاصة به والتي كانت محفوظة في سجلات الجامعة . وحيث انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، فان الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية في لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم « بيجين » جزيل شكره الى البولنديين ، ولكن بالانجليزية . وكانت هناك من بين الخطابات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مطروفا ، مكتبة تحتوي على التبشير الذي تقدم به طلاب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية في موعدها ، وتفيد بأن أسرته لا تستطيع اعلته وأنه مضطر لأن يعمل أثناء دراسته ، ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على أقساط .

ويمكن القول ان « زئيف دوف بيجين » كان يتصف دائما بالتهور في رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة ، ايا كانت تلك السلطات . ومن حسن حظه انه نجح سنة ١٩١٤ من السجن او الموت على أيدي الروس نتيجة لوالاته الصريحة للامان . وتعتقد ابنته ان السبب الوحيد لصفح الروس عنه هو انه

كان يسبب الشطرنج مع الضباط ( وهى هواية أخرى ورثها أبنة عنه ) . فمثلا ، كان قد التمس فى سنة ١٩٢١ ، بصفته مسئولاً يهودياً ، من « جوزيف بيلسا دسكى » المدير البولندى ، أن يصرف تموين طواريء للطائفة اليهودية . ورد عليه بيلسا دسكى قائلاً أنه سيرسل الطعام الى اليهود ، فى حالة واحدة فقط وهى قيام زئيف دوف ، بأفشاء أسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالاسعار . ورعى « بيجين » الطلب فى وجه الماريشال قائلاً له « أن اليهود ليسوا بمخبرين ، وأنه يستطيع أن يطلب من بوليمس السرى أداء أعماله القذرة . وعندما وصل النازيون الى « بريست » سنة ١٩٣٩ ، أصر مرة أخرى على حقه فى النكلم نيابة عن اليهود . وسرعان ما أدرك « زئيف دوف » — الذى كان قد بلغ العقد الثمان من عمره — أن هؤلاء الألمان كانوا نمطاً مختلفاً من أولئك الذين أعجب بهم أبان شبابه .

ولم ينج من الحرب ، من بين أفراد أسرة « بيجين » ، سوى مناحم وزوجته « اليزا » ، وشقيقته راشيل وزوجها المحلى ، « ياهوشوا » . وهلك والداه وشقيقه « هيرتزل » الذى كان من علماء الرياضيات النخبين . وكذلك هلك طفل « راشيل » الصغير الذى تركته فى رعاية أمها . ومن المعروف أن « هيرتزل » الذى كان يكبر بيجين بثلاث سنوات ، قد تعرض فى سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاسية لعبها الألمان ضده ، إذ أنه كان واحداً من مجموعة من الشباب اليهود الذين أجبروا على الوقوف صفاً واحداً ووجهه الى الحائط فى سلحة البسون . وقد وصف « هيرتزل » « لديفيد جوتان » ، أحد زملاء « مناحم » فى قيادة منظمة « بيطار » — وهى جماعة الشبيبة فى حركة جابوتينسكى — تفاصيل الواقعة وروى له كيف أحاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ، ولكن عندما صدرت اليهم الأوامر بإطلاق النار ، أطلقوا الرصاص فى الهواء . وعندما سئل « هيرتزل » عما كُن يرأوده أثناء ترقبه الموت ، رد قائلاً « أنه ركز تفكيره فى حل مسألة جبر . ولم يتمكن من حلها حتى انقضت فترة الانتظار .

وتتضارب الروايات عن نهاية « زئيف دوف » ويفضل مناحم الرواية الأكثر درامية :

« لقد قيل لنا أنه غرق فى نهر باج مع خمسة آلاف يهودى آخرين حيث أخذوا الى النهر وفتحت عليهم نيران المدافع الرشاشة من كلا الجانبين . وقال الناجون « أن النهر صيغ فعلاً باللون الأحمر من الدماء المرائة . وكان والدى ، بصفته سكرتير الطائفة اليهودية ، أول الهالكين . وقيل لنا أن اليهود بدأوا — ببغارة منه — ينشدون نشيد « هيتلرنا »



( وهو النشيد القومي الصهيوني ) وكذلك أنشدوا « انى مؤمن » . وهكذا مات والدى » .

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على انها من الاساطير الشعبية :

« ان ما أعرفه ، وهو ما ذكره لى اصديقى فى بريسك ، ان الألمان اصدروا قاتسونا يحرم على اليهود دفن موتاهم . وذهب والدى لدفن أحد اليهود فى المدافن . واقترب منه أحد الألمان وسأله عما يفعل . فقال بالالمانية انه يدفن أحد ألوتى ، فقتله الجندى على الفور . وأنا لا اعرف شيئاً عن باقى أسرته . لقد هلكوا مع جميع اليهود الآخرين . ولكننى اعرف كل التفاصيل بشأن أبى . وأنا اعرف اسم اليهودى المقوف وأنه قد دُفن بالفعل .

ومهما كانت الحقيقة ، فان الروایتين كلتيهما تنطويان على نمط من البطولة تتفق وشخصية « ژيف دوف » ، فهو لم يكن من نوع الرجال الذين يساقون فى هدوء الى غرفة الغاز . ويرى « بيجين » أن الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة « الهلوكست » — أو الإبادة الجماعية بالحرق — بطخص فى التحذير الذى وجهه « جابوتنسكى » الى يهود أوروبا : « اذا لم تضعوا حدا لشتاتكم فان الشتات — أو الدياسبورا — ستضع حدا لوجودكم ؟ » . وقل « بيجين » ، بصفتة رئيسا للوزراء ، ان « الهلوكست » كان المحرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله .

« كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هى عدم قدرتنا على الدفاع عن انفسنا ، على مدى قرون عديدة ، وابان جيلنا بصفة أساسية . ولا يجب ان يتكرر هذا مرة أخرى ابداً . ولذلك فقد قررنا أن نحصل السلاح وأن نقاتل من أجل التحرير ، حتى يكون لدينا دولة وجيش — أى تكون لدينا وسيلة للدفاع القومى . ان هذا هو الدافع الأول لجميع تصرفاتنا . وان نضمن أمن الدولة اليهودية وأن نضمن حرمة وحصانة حدودها ، وهو المحرك الثانى لسلوكنا ، سواء كان ذلك عندما كنا فى المعارضة أو الان ونحن فى الحكم » .

ولا يوجد فرد واحد من صهيانة ما بعد الحرب ، يفكر فى مناقشة هذه النظرية . والامر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو اسنوب « بيجين » فى تطبيقها ، وتشبيه جميع اعداء اسرائيل بالنازيين ، وإعادة « الهلوكست » الى الاذهان ككبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية ، وارهاب السياسة الاجانب والضغط عليهم . لقد خاطر « بيجين » فى بعض الاحيان بالتقليل من شأن المأساة اليهودية ، الامر الذى أعطى منتقدي

اسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والقنف بفكرة « الحل النهائي » فى وجهه :  
لقد ختمت مذبححة ٦ ملايين يهودى اوروبى على قلب « بيجين » بكراهية  
ابدية لكل ما هو المائى . ولقد قاوم ، بصلته زعيميا للمعارضة خلال الخمسينيات  
والستينيات ، بمرارة وأحيانا بعنف ، فكرة اجراء اى اتصال بين اسرائيل  
والمانيا الاتحادية ، حتى تحت حكم « كونراد آدينلور » ، المناهض للنزوية .  
وقد حافظ ، اثناء توليه رئاسة الوزراء ، على العلاقات الطيبة مع السياسة  
والدبلوماسيين الالمى ، فى اضيى الحدود ، وقد حلة ثارية ، لا داعى لها ،  
ضده المستشار هلموت شميت ، كما رفض الادلاء بأحاديث للصحفيين  
الالمان او التحدث بلغتهم . وتعتبر مشاعر العداء هذه ازاء الالمان  
امرا شائعا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب ، ولكن لا يسع  
المرء الا ان يتساءل : هل كانت مشاعر « بيجين » ستصبح يمثل هذا العنف  
لو ان « زئيف دوف » لم يعلق كل تلك الامل على المانيا ؟ هل كان الابن يقوم  
بتخليد الشعور المؤلم بالاحباط الذى أصيب به والده ؟

بيد ان اخذه ، التى كانت فى سن تمكثها من تذكر الجنود الالمان الذين  
كانوا يغيبون الملاجئين اليهود فى المريف ابن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، تسيطر  
عليها مشاعر متضاربة . نهى تعترف انها لا تستطيع حتى يومنا هذا ان  
تشعر بالكراهية ، التى « من المفروض ان تسيطر على اى يهودى ازاء  
الالمان » . نانا اذكر الالمان الاخرين . لقد كانوا يمنحون كل الاطفال  
الحلوى والبسكويت . لقد كانوا نوعا مختلفا من الالمان ، وكان الزمن  
مختلفا .

## الفصل الثاني

### عند اقحام المعالم

كل من المفروض أن تصبح حركة الشباب التي أسسها « جابوتنسكي » والمعروفة باسم « بيطار » والتي يسيطر عليها التيار الصهيوني الذين يدين بالقوة ، هي الحركة التي من الطبيعي أن تستهوى « مناحم بيجين » في بريست - ليتوفسك . فبعد أن انتهى مناحم من دراسته الابتدائية في مدرسة مزارعي اليهودية ، التحق بمدرسة ثقوية بولندية ثم بجامعة وارسو حيث حصل على ليسانس في القانون وإن لم يعمل أطلاقاً في هذا المجال . وكان « بيجين » الصغير الحجم يقود أى معركة تقع في المدرسة أو الجامعة ضد زملائه في الفصل الذين كانوا يمارسون العداء للسامية ، بأسلوبهم الخاص ، والذي كثيراً ما كان يتسم بالقسوة . بل بلغ بهم الحال أنهم حاولوا في إحدى المناسبات تطليخ شفتيه بدهن الخنزير .

يقول « مناحم بيجين » عن تلك الذكريات :

« عندما كنا نتعرض للهجوم ، كنا ندافع عن أنفسنا . ولم يحدث مطلقاً أن خضعنا لهم ولذا بالفرار . وكنا نعود الى البيت ملطخين بالدماء ومضروبين ، ولكن يسيطر علينا الشعور بأننا حفظنا على كرامتنا . وصرمان ما أدركنا ان هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب اذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثل » .

ومع ذلك فإن مما يدمو الى الدهشة ان أبناء « بيجين » الثلاثة - مناحم وشقيقه هيرتل وشقيقته راشيل - انضموا الى منظمة « هاشومر هاتزير » التي أصبحت فيما بعد حركة الشباب التابعة لحزب « المايليم » اليسارى . وكل « زئيف دوف بيجين » أحد الكبار الذين تبينوا تلك الحركة . ولكن عندما اتعرفت حركة هاشومر عن اهدافها كمنظمة كثافية ، واتجهت نحو الماركسية انسحب أبناء بيجين منها . وقال زئيف دوف لابنائيه : « يجب عليكم ان تناضلوا أولاً من أجل حريتك الشخصية ، ويمكنكم ان تدافعوا عن حرية العالم بعد أن تصبحوا أحراراً » .

وقد ظل مناحم عضواً في منظمة هاشومر لمدة ثلاث سنوات . وذلك منذ ان كان في سن العاشرة حتى الثالثة عشرة . ثم انضم الى « حركة بيطار » عندما بلغ الخامسة عشرة . ويقول بيجين : « لقد أثيرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة « بيطار » ، وبهدفها الاسمى الخاص بالقلة دولة يهودية محاصرة على أرض اسرائيل التاريخية . ولقد كانت حركة

« بيطنر » تعبر عن كل المبادئ التي تعلمتها من قراءاتي ومن استماعي  
للآخرين والتي آمنت بصحتها ، ولم يراودني أدنى شك في أن هذه  
هى الحركة التى أريد أن أخدم الشعب اليهودى من خلالها طوال حياتى .

وبعد عامين من التحاقه ب تلك المنظمة ، أى فى عام ١٩٢٠ ، استمع  
بيجين لأول مرة الى خطاب « لجابوتنسكى » ، وقد تأثر به تماما . ويقول  
« بيجين » :

ان « جابوتنسكى » كان له اكبر تأثير على حياتى . ولقد أخذت  
بآرائه ، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية . لقد تأثرت حياتى كلها به . ولقد تأثر  
على اثنائه انضمامى الى المنظمات السرية وكذلك على فى المجال السياسى ؛  
فقد أخذت عنه ارادة الفصل من أجل تحرير الوطن وكذلك التحليل  
المنطقى للحقائق فيما يتعلق بالامور السياسية .

بل ان « بيجين » ذهب الى أبعد من هذا . لقد كان « جابوتنسكى »  
يحظى لديه بما يرقى الى مرتبة القدس ، وكان زعيما دوليا ، ومع ذلك  
كان اقرب ما يكون الى مسورة الخطيب الصهيونى الناشئ والقادم من  
الاتايم . ويذكر بيجين :

« ان زئيف جابوتنسكى » كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذى لا يظهر  
الا مرة واحدة على مدى اجيال . لقد كان بمثابة أرسطو أو ليوناردو  
دافينشى أو مايونيدس معاصر ( وهو فيلسوف يهودى أسبقى قديم ) وبمعنى  
آخر ان هؤلاء كفوا يتفوقون فى عدة مجالات وليس فى مجال واحد فقط .  
لقد كان جابوتنسكى خطيبا وكاتبا وفيلسوبا وكان رجلا سيلا وجنديا  
بارزا كما كان ضليعا فى اللغات . ولقد تنوع فى كل هذه المجالات ، ولكنه  
لم يكن بالنسبة لنا — نحن تلاميذه — مجرد معلم بل انه كان ايضا  
رمزا لامنا .

لقد اعترف حتى الد أعداء « جابوتنسكى » المسيلسين — وكانوا كثيرين  
— بجاذبيته الجماهيرية . وكذلك الحال فيما يتعلق باصاليته الفكرية وغزارة  
كتباته . بيد ان من المبالغة ان نقارن مستوى عبقريته وعبقريته ليوناردو  
دافينشى . كان كسبى يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لآرائه حتى أولئك  
الذين ينتمون الى أحزاب صهيونية أخرى . ومع ذلك فلم يحقق اثناء حياته  
سوى أهداف قليلة . كان ينقصه الصبر الذى يمكنه من كسب الطغاء ،  
كما كانت تنقصه أيضا القدرة على التوصل الى الحلول الوسطى . وكان  
« جابوتنسكى » يرى ان التدرج بمثابة الكثر . . . فكان يريد قيام دولة  
يهودية ، على أن يكون ذلك فى الحال ، بل انه كان يرفض التفاوض على  
اقل من ذلك ، حتى لو كان ذلك على سبيل التكيف .

ان حركة التصحيح التى أسسها جلوبوتسكى والتى تعتبر أصل حزب  
 حيروت الذى ترعّمه ييجين فيها بعد ، تميل الى تصويره فى صورة الليبرالى  
 الطيب على النمط الاوروبى القديم وعلى النحو الشائع ابلن القرن التاسع  
 عشر ، والذى يسمو فوق مستوى أعضاء جماعة « أرجون زناى ليوى »  
 الذين يتصفون بالفظاظاة ، اى فى صورة المفكر المهذب . ولقد حظيت وجهة  
 النظر هذه ، على عكس المتوقع ، بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا  
 قد سجنوه فى بادئ الامر ثم قاموا بنفيه من ( الأرض الموعودة ) . وقد  
 قبله « هارولد بيللى » مساعد « ايرنست بينين » لشئون الشرق الاوسط  
 ابلن احلك ايلام النضال الصهيونى — قابل جلوبوتسكى — فى لندن عام  
 ١٩٤٠ . وذلك قبل بضعة اشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح . يقول بيللى :

لقد قمت بزيارته فى المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة ،  
 وأذكر انى شعرت بتفوق بصفة خاصة ازاء اتباعه من البريطانيين . أما  
 جلوبوتسكى نفسه فقد ترك فى نفسى ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأنه ثوة  
 يجب أن يأخذها المرء فى الحسبان ، فوجهت له الدعوة للحضور الى  
 أوكسفورد ليلقى كلمة فى أعضاء منظمة « تشافلم هولس » الموجودة هناك .  
 ولقد تأثروا بلا أدنى شك بطلائعه ، بصرف النظر عن رأيهم فى آرائه . وقد  
 بدا لى أنه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجودا عام ١٨٤٨ — أو أنه  
 كان شخصية تشبه الى حد بعيد « ميلزين » لكن فى عصر متأخر .

ولو أن « جلوبوتسكى » سمع تلك المقارنة لاستضافها كثيرا خاصة  
 وانه كان من المعجبين المخلصين بليطاليا وبنهضتها القوية . بيد ان صفته  
 الليبرالى لا تنطبق عليه تماما . فقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم :  
 الدم والنل والحديد والفسلط ، والاضطباط والتسك بالرسيميل . واستغلال  
 الجباهير ، والتبيز العنصرى بصفته جوهر الامة .

وقد كتب « جلوبوتسكى » فى أحد مقالاته الاولى تحت عنوان : « ان  
 الانسلن عدو للانسلن » يقول :

« اننا نبني احيانا آمالا برافقة حول الاكذوبة التى تقول بأن شعبا معيناً  
 قد عانى الكثير ولذا فانه سيتعاطف مع آلام شعب آخر ويشعر بها . وأن  
 ضميره لن يسمح له بأن يبتلى الشعب الاضعف بما ابتلى به من قبل . . . ولكن  
 الواقع يؤكد ان هذه مجرد كلمت منقاة جوفاء . . . والمكتاب المقدس فقط هو  
 الذى يقول لنا « أن الحاق الظلم بالقرب يعتبر اثما فانكم تعرفون شعور الغربة  
 حيث أنكم كنتم غرباء فى أرض مصر . . . ان مثل هذه المثل الانسانية انطولية  
 لا محل لها فى الاخلاقيات المعاصرة » .

وبالمثل ، يمكن القول أن الليبرالية المعاصرة لا تتسع لمثل هذه الواقعية الصارخة ، حتى وإن كان « جابوتنسكى » يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله . وما قولنا فى تأكيد « ليست هناك قيمة فى العالم أعلى من الآلة والوطن » ، أو قوله « إن أسى ما يمكن أن يحقه جمهور من البشر الأحرار هو أن يستطيعوا العمل معا فى دقة وتلسق مطلق مثل الآلة » ، وأنه « بدون الطقوس والشكليات لا توجد حرية » ، ما قولنا فى هذه الأفكار ؟ ربما كانت نظرة « جابوتنسكى » المتشائمة ازاء الجنس البشرى لها ما يبررها ( وقد استطاع أن يتكهن من خلالها بوقوع الهلوكوست ) ولكنها على أى الحال تعتبر أبعد ما يكون من الليبرالية . وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين ، حتى على الرغم من أنه لم يسع إلى طردهم .

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول :

« من المستحيل أن نتصور امكانية التوصل الى اتفاق تلقائى بيننا وبين عرب أرض اسرائيل .. سواء كان ذلك الآن أو فى المستقبل المنظور .. إن كل أمة سواء كانت متحضرة أو بدائية تؤمن بأن أرضها هى وطنها العومى ، الذى تريد أن تبقى مهيمنة عليه الى الأبد . ولا يمكن أن تفكر مثل هذه الأمة أو تقبل بوجود سيد جديد أو حتى بوجود شريك لها .. وكل قوم يقاتلون المستوطنين طالما كان هناك بارقة أمل فى التخلص من خطر الاستيطان الأجنبى . وهكذا يفعلون ، وهكذا سيعمل العرب المقيمون فى « أرض اسرائيل » ، طالما كانت لديهم بارقة أمل فى أن يتمكنوا من منع تحويل فلسطين الى « دولة اسرائيل » . لقد كان « جابوتنسكى » أكثر صراحة من معظم الصهاينة المعاصرين له . لقد أعلن صراحة عن مضمون أعمالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة أقابة « جدار حديدى من الحراب اليهودية » لاجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالاحتوم . وكان يرى أن « الأسلوب الوحيد للتوصل الى اتفاق فى المستقبل هو التخلي تهما عن أى محاولة حالية للاتفاق » . وقد قام مناحم « بيجين » فى حديث ألقى به بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، بصقل هذا المفهوم ، فقال « إن المقصود بالجدار الحديدى أنه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يقيم بيننا وبين العرب حلز من القوة . وسيحاول العرب منع هذا حتى لو أدى الأمر الى إراقة الدماء . ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع إراقة الدماء . لقد أعلن « جابوتنسكى » إيمانه بمنهج العدالة ، ولكننا اكتشفنا أنه لابد من الدفاع عن العدالة ، بيد أنها كانت مدالة فى أدنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة أمل فى أن يتفتح العرب بالسيادة على أى من ضفتى نهر الأردن .

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف أقالمة منظمة « ببطار » بالقرب من نيويورك ، بعد انقضاء أكثر من أربعة عقود على وفاة جابوتنسكى ، كان

من الواضح انه ظل على اخلاصه لاستاذة ، وتكريسه لذاغبه ، وتخليده لاسلوبه الخطابي ، ابتداء من استخدام نبرات صوته لاثارة الشفقة وانتهاء بخفضها كختم كلامه . وكان يتمسك بها وصفه ككاتب سيرة حياة «جابهوتنسكى» — والذي كان يقيم معه في منزله — « بتقديسه للأنكييت » مملا في الاحتفاء وتقبيل يد السيدات وارتداء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع ، وذلك في وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة منذ الرقبة وينتعلون الصنادل . بل انه استحضّر روح غاريبالدى ، البطل الذى كان « جابهوتنسكى » ييجله ، باللقاء محاضرة على جماعة من أعضاء البرلمان الايطالى الزائرين لاسرائيل ، عن زعيم حركة تحرير وطنهم . وقام « بيجين » ، عندما تخلى عن المعارضة لأول مرة لينضم الى حكومة الوحدة الوطنية على أبواب حرب سنة ١٩٦٧ ، بزيارة مقبرة « جابهوتنسكى » على جبل هيرتزل بالقدس . وكان مثل جابهوتنسكى مستعدا تقبل عرب فلسطين ، على شرط الا يتخلّووا حدود مكائهم ، وان كان قد اعترف بان الضفة الشرقية للاردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية ( لم ترفع جماعة « الليطلر » خريطة جابهوتنسكى التى تضم « كلتا الضفتين » من شعارها الا في عام ١٩٨٠ ) . وربما لم يكن بيجين يمتلئ ببريق جابهوتنسكى وقدرته الاصيل على اشغال الفصاح ، بيد انه كان أكثر مهارة منه في فن المراسلات السياسية العملية . وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لخدمة اسرائيل الحديثة ، وتحويلها الى مجتمع كان « الاستاذ » سيتعرف عليه بلاشك كجنتج احلامه .

ولم يكن « جابهوتنسكى » بالشرير السهل على الاطلاق . وكثيرا ما كانت الشخصيات الصهيونية الاخرى البارزة يجدونه متفطرسا . ولم يكن يرحمهم سواء في كلماتهم المنطوقة أو المطبوعة . وكان متسلطا وتصادرا على اثاره السخط ، ولكن بطول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النيل من مكانته في قيادة الحركة . وقد اكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى في الحرب العالمية الاولى وكأحد قادته ، انه رجل افعال تماما كما انه رجل افكار ، وكرائه للدفاع اليهودى عن النفس فضلا من كونه واعظا بارزا ، ان الامر الذى قاد « جابهوتنسكى » لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه بإقامة دولة يهودية الابن الذى كرس من أجله كل جهود ، فقد كان ذا فلسفة ( وحداثية ) ما كان يستحوذ على أعجاب الشاب « بيجين » . وقد كان الآخرون مستعدين لتقديم تنازلات ، على الاقل بالنسبة لواقفهم الدبلوماسية ومناهجهم قصيرة الاجل ، وان لم يكن بالنسبة لاهدافهم بعيدة المدى . وكان « جابهوتنسكى » يرى أن مثل هذه التنازلات لا تتطوى على الخيانة فحسب بل على سوء التقدير أيضا . فقد كان يؤمن بان قوة اليهود تكمن في قوة قضيتهم المعنوية ، ومن ثم فلا يجب عليهم تبيعها ابدا ، خاصة وأن أحدا لن ينخدع بذلك على أى الحالات .

وجاءت الخطوة الاولى في يناير ١٩٢٣ عندما استقال « جابوتسكى » من اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجا على ما اعتبره عدم مقايمة « حايم وايزمان » لعملية « انكماش » العهد البريطاني المتثل في وعد بلفور لعام ١٩١٧ . ولقد أسر لبعضهم بعد حديث دار والزعم الصهيونى ان ( وايزمان ) يعتقد ان منهجى هو منهج الخيالى العنيد ، بينما انا أشعر ان اسلوبه هو بمثابة التخلّى عن الحق او التخلّى غير المتعمد عن المبادئ ) .

واسفرت تلك الخطوة من تأسيس « حركة التصحيح » الملتزمة صراحة باتتابة دولة يهودية تنتم باغلبية يهودية على ضفتى نهر الاردن كليهما ، تلك جيشا يهوديا للدفاع عنها . وظلت « حركة التصحيح » جزء لا يتجزأ من الحركة الصهيونية الى ان انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر في يوليو ١٩٣١ ببازل ، حيث جاوز « وايزمان » كل الحدود — ليس فقط من وجهة نظر « جابوتسكى » وحده — بقوله ان فكرة الدولة لم تكن مطلقا هدفا في حد ذاته بل مجرد وسيلة الى غاية . وقد كلف هذا « وايزمان » زعامة للحركة الصهيونية ، غير ان « جابوتسكى » لم ينجح في ان يستصدر بيانا واضحا يتضمن برنامجا سياسيا محددا . وعندما لم يعين المؤتمر حتى يطرح القرار الذى تقدمت به حركة « التصحيح » للاقتراع ، اعطى « جابوتسكى » مقعدا وصاح قائلًا « ان هذا لم يعد يشكل مؤتمرا صهيونيا » ومزق بطاقة عضويته .

وخرج « التصحيحيون » ، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد منبوذين . ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل « مناخم بيجن » يحاول ، حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ، تطهير الحركة من آثارها ، ففي ١٦ يونيو ١٩٣٣ ، تناول حايم آرلوسوروف رئيس الادارة السياسية بالوكالة اليهودية ، والتجم الصاعد في الحركة العمالية الصهيونية طعم العشاء وزوجته « سينا » بأحد فنادق تل أبيب . وقلبا بعد ذلك بالسير على شاطئ البحر . ولاحظت مسز « آرلوسوروف » أن رجلين يتعقبانها . وقد شهدت فيما بعد ان احدهما كان اشقر طويل القامة يميل للضخامة ويتهايل في مشيته مثل البطة . ابا الآخر فكان قصيرا ونحيبا وله ملامح شرقية . وقلت ان الرجلين تصديا لمهما . وقام الرجل الضخم باتارة مصباح في وجه « آرلوسوروف » وسأله عن الساعة . فطلب منه « آرلوسوروف » بالك من مضبتيهما . فمسح الرجل الفضيل مسدسا وأطلق عليه النار فاصابه في بطنه وتوفى « آرلوسوروف » في المستشفى بعد خمس ساعات . وذكرت « سينا » ان الرجل الذى هاجمها كان يتكلم العبرية بدون أى لهجة اجنبية .

وقام البوليس البريطانى بنشر أوصاف الرجلين في جميع أنحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وأدت التحريات الى اتهام « افراهم ستانسكى »



عضو منظمة « بریت هابريونيم » الدموية المتطرفة التى تعمل على هدى حركة « جلوبوتسكى » الدموية بفلسطين . وكانت منظمة « بریت هابريونيم » قد ادانت « آرلوسوروف » كمتواطىء مع الاعداء لحاولته ايجاد منفذ لليهود الألمان - الذين بدأوا يترضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصنيعة ممتلكاتهم والهجرة الى فلسطين دون التضحية بكل شىء . وكانت الفكرة التى تلتقى عنها ذهنه هى أن يقوموا بشراء سلع المانية ويصدرونها ، ثم يحصلون ثمنها من البلد الآخر . وقد عاد « آرلوسوروف » الى تل أبيب فى ١٤ يونيو ، بعد قبليه بعدة رحلات ذهباً وإياباً بين برلين ولندن . وفى الوقت ذاته ، كان « جلوبوتسكى » و « التصحيحيون » يشنون حملة على نطاق عالمى تدعو اليهود لمقاطعة السلع الألمانية . وقد نشرت مجلة « بریت هابريونيم » ، يوم الجريمة ، مقالا تنهم فيه « آرلوسوروف » بالتحالف مع « هنر » و « ستلين » . وقال المقال انه باع شرف شعبه .

واعتقل « ستافسكى » بعد ثلاثة ايام من وقوع الجريمة . وتعرضت « سيما آرلوسوروف » على صورته ، بصفته الرجل الذى كان يتمايل فى مشيته والذى اضاء الصباح فى وجه « آرلوسوروف » ، واتهمت عضوا متطرفا آخر فى « حركة التصحيح » وهو « زفى روزنبلات » ، بجذب الزناد . كما اتهم « ابا اهيماير » ، فيلسوف جماعة « بریت هابريونيم » ، بالتواطؤ ، ولم يكن تعرف مسر « آرلوسوروف » على « روزنبلات » قاطعا بنفس درجة تعرضها على « ستافسكى » . وبعد انتهاء اجراءات الاتهام امام قاضى المحكمة الجزئية ، أحيلت القضية الى محكمة الجنايات العليا ، امام اربعة قضاة : اثنان بريطانيان ، وواحد يهودى ، والرابع عربى . وقد تمت تبرئة « اهيماير » فى منتصف المحكمة . وصدر حكم بتبرئة « روزنبلات » على أساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون أدلة « سيما » . وادين « ستافسكى » وحكم عليه بالإعدام ، فاستأنف الحكم امام محكمة اعلى ، قضت برفض الحكم واطلقت سراحه . ف بموجب القانون التركى الذى كان معمولا به فى فلسطين حتى عام ١٩٣٧ ، لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدر حكم بالإدانة . وقد جادل الصهاينة من أعضاء « حركة العمل » ، بأن « ستافسكى » ادين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية . أما « التصحيحيون » فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون . فلحكم بالبراءة امر لا يمكن الرجوع فيه . وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الادلة والادلة المضادة فى معركة حامية تصم الأذان . . واعترف اثنان من العرب اختفيا بعد ذلك ، وتردعت وجهات نظر وجهات نظر مضادة ، من فوق منابر بلرزة ، وعلى لسان شخصيات عامة وهى على فراش الموت . واعتبرت حركة « العمل » أن « التصحيحيين » هم الذين قتلوا « آرلوسوروف » ، أما « التصحيحيون » فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد اثار اليهودى ضد اليهودى فى حملة تشهير دموية .

وقد فتحت قضية « آرلوسبوروف » جرحا دافيا ظل يئزف فى اوروى  
وفلسطين ، حتى بعد أن طوى النسيان أحداثها الاصليه بمدة طويلة . ولقد  
أصيب « مناحم بيجين » بضرر حقيقى ازاء نشر كتفب جديد ، بقلم المسحنى  
الإسرائيلى « شابتاى تفيث » ، يمرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة ، لدرجة أنه  
قام فى مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصى الحقائق . وقال رئيس الوزراء  
لزملائه فى المجلس :

« ان القول بأن تسعة وأربعين عالما قد مرت على تلك الاحداث ، وأصبح  
من الصعب اعادة التحقيق فيها الآن ، يعتبر من سبيل عدم الادراك وتضليلا  
للجمهور ، وتشويهها للحقيقة ، واستمرارا لترويج حملة التشهير الدموية ضد  
حركة صهيونية عظيمة وضد افراد أبرياء ، واستمرارا لظلم لم يسبق له مثيل  
فى التاريخ اليهودى فيها عدا ظلم غير اليهود لهم » .

وأمر « بيجين » ، الذى أكد شعوره بمسئوليته التاريخية ، نشر  
المحاضر الكاملة للمناقشة التى دارت داخل مجلس الوزراء . وتناول بيجين  
المسألة وهو « يرتجف من الرهبة » . وتاجلت جلسات لجنة الاستماع لسدة  
عام آخر نتيجة لحرب لبنان . وجدير بالذكر أنه لم يثق على قيد الحياة من  
الشخصيات التى لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى « زفى روزنبلات » . فقد  
قتل « ستافسكى » على ظهر السفينة « التالينا » ، التى كانت جماعة « إرجون  
زناى ليوى » تنقل الأسلحة عليها ، وذلك عندما قصصها الجيش الاسرائيلى  
من فوق نفس شاطئ تل أبيب الذى شهد الحادث .

وكان « بيجين » البالغ من العمر عشرين عاما ، قد دافع بذاته ، ووصفته  
من العناصر النشطة فى جماعة « بيطار » ، من « جايوتنسكى » عندما تمرض  
لهجوم من بعض اليهود الذين قابلوا بالقاء الحجارة عليه . وقد سئلت له فى  
« بريست — ليتوفسك » ، أثناء وجودها فى أحد محال البقالة : « لماذا يخلط  
ابنك ، وهو الولد الطيب ، بأولئك القتلة ؟ » وكان « ستافسكى » صديق  
طفولة وجار « لبيجين » ، الذى أخذ مسألة برامته كقضية مسلمة . وقد قام  
« بيجين » بوزارة والدته « هاسيلبيجين » ، بقوله « لا تتبأسى ، فانت تعلمين  
أن « ابراشا » لم يقتل أحدا . ولابد للحقيقة أن تظهر » واصططب « بيجين »  
والدة « ستافسكى » لقلبلة « جايوتنسكى » .

وقد كتب فى عام ١٩٨٢ يقول : « ملألت صرخاتها ورجواتها من  
« جايوتنسكى » لانقاذ ولدها ، ترى فى أذنى حتى اليسوم . وقد قبل  
« جايوتنسكى » يدها ، وانهمرت الدموع من عينى الام . ولن تنمى أبدا  
تلك الدموع من ذاكرتى » .

وقد تعرضت الاقلية من حركة التصحيح فى فلسطين لنفس عملية  
الرفض الحادة التى تعرضت لها فى اوروى — وإن كانت قد أسفرت عن عواقب

اكثر تأثيرا على الحياة اليومية . فقد خسر مثلا « يعقوب مريشور » وظيفته  
ومنزله نتيجة لذلك وكان ( مريشور ) الذي أصبح فيما بعد يشغل بمنصب  
نائب « بيجين » في القيادة العليا للصناعة « أيجون » - يعمل آنذاك عاملا في  
في ملطقة تل أبيب . وقد هلك تلك التجربة أمام مجلس الوزراء عمام  
١٩٨٢ ، عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادي بقوله :

جاءني صاحب الدار الذي كان عضوا عاملا في نقابة عمال الطباعة في الساعة  
العشرة من صباح اليوم التالي للجريمة وقال لي مؤكدا بلا أدنى شك ، انها  
جريمة سياسية . ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها . ومع  
ذلك بدا الجو العام يسوده شعور بقرب وقوع نكبة نسيانية . . وأمرني صاحب  
البيت بعد انقضاء يوم بترك غرلتي وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب في العثور  
على عمل »<sup>١</sup>

وقد واجهت أسرة « ارييل شارون » المقيمة في « كفار ملال » - وهي  
مزرعة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل - وقتا عصيبا معائلا بعد أن  
احتج والديه على وسم « التصحيحيين » بالقتلة . فقال لهم مجلس الوزراء .

« أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاما . وقد أخرجوني  
وأنا صبي من المدرسة المحلية . فلم استطع تلقي تعليمي هناك ، وظللت  
طوال عشرين عاما ، حتى بعد حرب الاستقلال ، محرومين من الحصول على  
الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلي للمرض . . ولم استطع تسمييق  
منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية . . ولا زلت أذكر والدي وهمسا  
يقنأوا به الحراسة بجوار الطريق لحماية إنتاجنا من محاولة أعضاء المزرعة  
التعاونية الآخرين اغتياله . لقد زرعنا وانتجنا ، وشبب الأطفال وسارت الأمور  
على ما يرام في النهاية . . ولكن تم كل ذلك في خضم من الصراع المستمر  
يسوده كراهية لا تنتهي » .

وقد ضاعف « ديفيد بن جوريون » ، وغيره من زعماء حركة العمل  
الصهيونية من اتساع الجراح عندما همقوا بتأزئة بين « يابوتنسكي »  
وهتلر « ووصفوا أعضاء « حركة التصحيح باليهود النازيين . وكان « بيجين »  
وإثقا من أن هذا الشقاق ساهم كثيرا في اتساع نطاق « أرولسورف » .  
وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التي أثارها قضية « أرولسورف » ،  
لتمكن جناح الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما في سبيل العمل من  
أجل تهريب المهاجرين من أوروبا إلى فلسطين بالطرق غير المشروعة ، ولربما  
أمكن انقاذ عشرات الآلاف من اليهود .

وقد التى الفتى « بيجين » أول اضطهاد ملم له عندما كان في الثالثة  
عشرة من عمره ، من فوق منضدة بالحديقة العامة في « بريست - ليتوفسك

وكانت المناسبة هي احدى الاحتفالات الصهيونية التي ينظمها والده كل عام احتفالاً بعيد « لاج باعومار » ( عيد ١٨ آيار ) . ولم يكن الخطاب واحداً . من خطب « بيجين » الناجحة ، ولكنه سرعان ما أصبح واحداً من الخطب المتعادين في الاجتماعات السنوية التي تقام احياء لذكرى « هيرتزل » . وقد استمع « اهرون زئى برومبيز » ، الذى كان يرأس الفرع البولندى لجماعة « بيطار » الى « بيجين » - الذى كان فى الثامنة عشرة آنذاك - وهو يلقى احدى خطبه فى عام ١٩٣١ . ويقول « برومبيز » : « لقد كان رائعا وادركت لحظتها أن شابا يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا » . ان شهادة « برومبيز » هذه تتسم بشهامة خاصة ، فبعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ، نعى برومبيز جانباً ليفسح المجال لربييه . وقد وصل « بيجين » الى قيادة منظمة « بيطار » فى حى « بريست » بينما كان لا يزال فى مرحلة الدراسة الثانوية . وعندما التحق بجامعة وارسو ، لدراسة القانون ، اختاره برومبيز ، لمضوية اللجنة العليا « للبيطار » . وقال عنه « برومبيز » حينذاك ، انه : منضبط ، ومحبوب من زملائه ، ويتمتع بالطموح » .

وقد سيطرت على جماعة « البيطار » ، مثلها فى ذلك مثل « حركة التصحيح » التي انبثقت الجماعة عنها . آراء « جابوتنسكى » وأسلوبه وشخصيته . وقد تبناه « بيجين » فى انحاء أوروبا مستمعاً الى خطبه ، دارساً أسلوبه ، مستوحياً لمبادئه . وكانت الحركة الشبابية لا تخفى ميولها العسكرية . فكان أعضاؤه يتدربون ويرتدون زياً عسكرياً . ويقول « ديفيد جوران » ، وهو أحد معاصرى « بيجين » : « لقد غرس « جابوتنسكى » فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار » . وكان « بيجين » ، بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم « بيطار » فى بولندا ، يجوب انحاء البلاد ، ويلقى الخطب ، مدهاناً وساعياً لاجتذاب أعضاء جدد . وبلغ عدد أعضاء الحركة ، بحلول عام ١٩٣٩ الى ٧٠ ألف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع .

زيؤكد يزرائيل ايلداد وهو أحد المعاصرين « لبيجين » فى جماعة « بيطار » ، والذي أصبح فيما بعد فيلسوف « عصابة شتيرن » والنقاد اليمينى العزيق لبيجين :

« ان كليته مهما بدت فى اليوم ، فانها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا . لقد كانت تعبيراً دقيقاً عن مفاهيم الشعب اليهودى . ولم يكن أحد يتساءل آنذاك عن تكاليف اقامة دولة يهودية . انها كانت من وجهة نظرهم مسألة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين . . . وعندما كان المرء يتكلم عن الجندى اليهودى ، فانما كان يعبر عن مثل عليا . فاليهودى كان يلتحق كجندى فى الجيش البولندى ، فى الوقت الذى كان يكره فيه بولندا ولكن عندما كان « بيجين » ينطق بتعبير « جندى يهودى » كان الناس

يشعرون بالفخر ، فقد كانوا يرغبون فى ذلك من أعماق قلوبهم . وكانت جماعة « الارجون » قد بدأت تمارس نشاطها فى فلسطين . وفى بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح ، كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود . وكان الشباب مستعدا للمعاناة والتضحية من أجل المثل العليا ، فالشباب لا يتمتع بالصبر وقد أتاحت لهم منظمة « بيطار » و « الارجون » فرصة انتهاج الطريق الثورى . لقد فتحتا الطريق أمام مئات الألوف الذين لم يكن أمامهم سبيل آخر .

وأدى نجاح « بيجين » فى تنظيم الشباب البولندى داخل « السيطار » الى قيام « جابوتنسكى » بإيفاده الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت الحركة صغيرة وضعيفة . وبدأ « بيجين » يعمل من أسفل الى أعلا ووفقا لاقوال « بروبيز » كان يكتفى بتناول وجبة واحدة فى اليوم ، وكان ينام أحيانا فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة . لقد كان يعمل فى اخلاص ، دون أن بكل أو يشكو . ويقول « بروبيز » متذكرا : « لقد أصيب فى إحدى المرات أثناء وجوده فى وارسو بالتهاب رئوى . ونقلته زوجتى التى كانت تمرضه الى إحدى دور النظافة فى « أوتوك » حتى يسترد صحته . وعندما أجهت لزيارته بهد يومين ، وجدته قد خرج وعاد الى العمل على الرغم من ضعفه الشديد . فالعمل كان يعنيه أكثر من أى اهتمامات شخصية أخرى .

وأثناء أحد جولات « بيجين » ، دعا الدكتور « ليون ارنولد » المحامى والعضو البارز فى « حركة التصحيح » فى بلدة « دروبيز » البولندية الصغيرة ، الى العشاء فى منزل حماء « زفى ارنولد » وهناك التقى بيجين بانبثى « زفى ارنولد » ، التوامتين ، « اليزا » و « ليا » والبالغتين من العمر آنذاك سبعة عشر عاما . وقد عمل « بيجين » لبضعة أشهر وقبل عودته الى وارسو لتولى رئاسة حركة « بيطار » البولندية ، ككاتب لدى محام آخر ب تلك البلدة . وتقابل « بيجين » و « اليزا » فى المعبد اليهودى الكبير « بدروبيز » حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزى العسكرية لحركة « بيطار » ذا اللون البنى ، وأن كان قد ارتدى بعد ذلك الملابس المدنية فى الحفل الذى أقيم لوداعهما فى رحلة شهر المسلى ، حيث ارتدت « اليزا » معطنا اثنيهما يصل الى الركبة وتعبعة ملفنة للانتظار ، بينما ظهر « منلحم » المسائل الى النحافة والذى كان يلبس نظارة طبية على عينيه ، فى البطريق واق من المطر لونه شاحب يخفى تحته تفاصيل جسمه . وكثت العروس فى التسلية مشرة من عمرها بينما كان العريس فى الخامسة والعشرين . وجاء « جابوتنسكى » من باريس بالقطار لحضور حفل الزواج . ولقد استطاع « منلحم » إتمام هذا الزواج الذى دام حتى وفاة « اليزا » ، بعد ثلاث وأربعين سنة من ذلك التاريخ ، تخطى كل الازمات الناجمة عن الفراق ، والفنى ،

والمخاطر ، والمشاكل السياسية الاسرائيلية . وقد شاركت « إلزا » زوجها في تمسكه بمعتقداته وعناده ، ولكنها كانت راضية بالقبضاء في الظل الى جواره ولم تكن ، الا في النادر ، لتفقر لإحد بشر غرضه أو يخونه . وقد رزقا بثلاثة أبناء ، ولدوا ابنتين ، جميعهم من مواليد اسرائيل . وقد هلكت الاخت التوام لاليزا في الهلوكوست ، تملها مثل معظم افراد أسرة « مناحم » .

وعلى الرغم من أن « بيجين » كان سعيدا بالولوس هنسبد أهدام « جابوتنسكى » ، فانه لم يكن مجرد واحد من متلقيه . بل ان التلميذ اصطدم و « المعلم » في مناسبتين مشهورتين . فقد أحتج « بيجين » أثناء انعقاد المؤتمر العالمى للمسلمين « لصيركة التمسح » في يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكو ، على محاولات « جابوتنسكى » ذاته .

وقال « بيجين » : « ربما يكون قد نسيت أن « بن جوريون » نعتك في إحدى المناسبات — « فلاديمير هتزر » ، ولكننا لم ننس » .

ورد عليه جابوتنسكى بحدّة قائلا : « انا لن أنسى أبدا رجلا من امثال « بن جوريون » و « بن زفي » و « الياهو جلومب » لقد ارتدوا في يوم من الايام الى الزى العسكري للفيلق ( اليهودي ) ، وأنا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية الى ذلك ، في ارتدائه مرة أخرى وأن يقطوا تحت لوائه . ولو حدث انتلاف ، فاننا سنترفع عن اثاره الخلافات التافهة . فنحن جميعا قد أظهرنا تمسكا بالقوى بوطينتنا المسيهونية » .

وقد جاء التحدى الثانى ، والإكبر خطورة ، أثناء المؤتمر العالمى الثالث « البيطار » ، الذى انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين في وارسو . فقد تعرضت الحركة آنذاك لشقاق هلم بين أعضاء جماعة « أرجون زفاى ليووى » ذات الميول العسكرية والموجودين في فلسطين ، والذين كانوا يضغطون من أجل انتهاج سياسة انتقام أيجابية ضد الهجمات العربية على اليهود ، وبين « جابوتنسكى » الذى كان يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد . وكانت جماعة « أرجون » تواتة الى شين جرب فسبد البريطانيين ، أما « جابوتنسكى » فكان لايزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن اقناعها باعتبار القضية اليهودية جزء من المصلحة الحقيقية للإمبراطورية . وكان جماعة « أرجون » قد قبلت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشعب اليهودى البولندية ( البيطار البولندى ) ، وفتحت مكاتبها في سويسرا . وأقامت الجماعة معسكرات للتدريب العسكري في بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى ، الذى اقتره فكرة تحويل مئات الآلاف من اليهود بالسجن القتال في فلسطين ، وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية في بولندا ( حيث كقبت الطائفة اليهودية التى تضم ٥٠٠.٠٠٠ يهودى ) تشكّل في أواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما

كانت هذه إحدى المرات الفارقة التي أهتم فيها « جابوتنسكى » بالكتيك بقدر اهتمامه بالبناء . فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركة « البيطار » و « التصحيح » بعيدا عن العمليات السرية لجماعة « الارجون » ، وذلك على الرغم من أنه كان الزعيم المهيمن لكل من الجنحين السبيلسي والعسكري للحركة . وحاول « بيجين » ، الذي كان يتجمل الى العناصر الثورية النشطة وان كان يريد تجنب الدخول في معركة بأنه يجب الجمع بينهما معا تحت سقف واحد . فلابد لجماعة « الارجون » من ان تعمل من خيال

« منظمة بيطار » .

وعندما طرحت المسألة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذي انعقد خلال شهر سبتمبر ١٩٣٩ ، انتظر « بيجين » حتى حضر « جابوتنسكى » قبل ان يلقى كلمته . وقال ان الحركة الوطنية الاسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية العملية ثم الصهيونية السيلسية . وانهم يغنون الان على مشرف الصهيونية العسكرية التي ستندمج في نهاية الامر والصهيونية السيلسية . وذكر ان المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين « كافور » و « غارييلدى » . فما كان « كافور » ليلجج في تحرير ايطاليا بدون « غارييلدى » . ولقد قاطع « جابوتنسكى » « بيجين » مرارا ، مؤكدا اياه بان اليهود يقتربون في وطنهم الى القوة العسكرية البشرية . ورد عليه « بيجين » بقوله انه يجب عليهم الوقوف فوراً في وجه الخطط البريطانية الرامية الى ايجاد دولة فلسطينية تتمتع بأغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الاعداد والنتائج . وأعلن : « حتى لو سقطنا غايه يمكننا اننا نقاتلنا » ، وأكد انه لابد لمنظمة « بيطار » ، وذلك ليصبح « رمزا لعملنا » ومركزنا » ( ولقد كانت مثل هذه الإيماءات حادة جدا بالنسبة له ) . وطالب بيجين بتغيير عبارة « سانشيد سلاحي من أجل الدفاع عن بلدي » ، ولن أحبه الا في سبيل الدفاع » ، بعبارة « سانشيد سلاحي من أجل الدفاع عن بلدي » ، ومن أجل الاستيلاء على وطني » . وجبل بلانهم كانوا يتوقون دائما الى القوة ، هذه القوة أصبحت موجودة الآن . وأضاف : هناك ملايين الاثني عشر شخص ليس لديهم شيء يخسرونه . ومهمتنا تنحصر في استخدام القوة الكهنة لهم » . وتمت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب جابوتنسكى « ولكن ليس قبل ان يوجه الزعيم هجوما مضادا ساحقا ضد الميهلي الشلب المبتدئ » ، حيث قال :

« ان ثمة انواعا كثيرة من الاصوات .. ونحن نتحمل ضجيج المكينات والمريكبات وما الى ذلك . ولكن لا يمكن ان نتحمل صرير الابواب لأنه لا يعود علينا بأى فائدة . والخطيب الرنانة والتصفيق تهيهان صرير الابواب ليس لها فائدة او منطق . ولا يوجد في « البيطار » مكان لمثل هذه المؤثرات . واحيانا تكون هذه الاصوات مبهلة ، ولكن يجب علينا ان نحذرهما . والمقبر الكلمات التي قالها مستر « بيجين » من هذا النمط الأخير ، ويجب علينا ان نكبح مثل هذه الاصوات بكل تسوة » .

لقد وضع « جلوبوتنسكى » كل ثقته في الضمير المحى للعلم ، نظرا لعدم ثقته الكافية في استعداداته العسكرية . وأراد أن تقوم الدول الغربية بنوعير جنة في فلسطين لآلاف اليهود المهددين في أوروبا . وسخر « بيجين » من هذا التفكير لاستلذه القديم . وقد رد عليه « بيجين » بكل حدة ، خلال نفس الشهر الذى كان « نفيل تشامبرلين » يتفاوض فيه مع « هتلر » في ميونيخ من أجل التوصل الى « سلام ( وهمى ) يسود عصرنا » . حيث أعلن المعضو البارز في منظمة « بيطار » والبالغ من العمر خمسة وعشرين عاما : « لقد ملت ضمير العالم ، ولم تعد لعصبة الأمم أى قيمة . وشريكنا البريطانى يفودنا الى المشنقة ويلقى في السجن بأفضل أفراد أمنا » . ورد عليه « جلوبوتنسكى » بقوله انه اذا كان هذا هو ما يشعر به « بيجين » ، فمن الأفضل له أن يفرق نفسه في نهر المستولا .

ويؤكد « يوحنا بانر » — وهو محام بحركة « التصحيح » ، عاش في الجيل الوسيط بين جيلى « جلوبوتنسكى » و « بيجين » — انه بالرغم من شعور الغضب الذى انتلب الزعيم ، فإنه « سعد واغتبط » لمواجهة « الصبيان » له . وثمة روايات متناقضة حول رأى « جلوبوتنسكى » في « بيجين » . فقد قيل مثلا ، أنه اختاره خليفة له . ولكن من جهة أخرى ، تردد انه كان يحترق تزميت « بيجين » والذى يشبه تزميت أبناء الاتاليين ، وكذلك تتواءم الفرجطة ( لقد كلن « جلوبوتنسكى » بعيدا تماما عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية حتى انه كتب في وصيته يقول : « أريد أن يدفن جملتى أو يحرق — فالامر سيان بالنسبة لى — حيثما يلحق بى الموت » ) . ولم يزعم « بيجين » في أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما . فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما في السن والمكانة . وكان من الواضح ان « جلوبوتنسكى » كلن يقدر « بيجين » كشخص قادر على التنظيم وكرموس موهوب ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على انه يحاول مثله ليصبح خليفة له .

وانتهى مؤتمر وارسو بالتصاير الشباب . وتم تجنب الشقاق بين جماعى « البيطار » و « الارجون » وفي ابريل سنة ١٩٢٩ ، تم تنصيب « منلحم بيجين » رئيسا لمنظمة بيطار البولندية ، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية ، وذلك بدلا من « بروبيز » ، الذى ترك منصبه في هدوء تام . وقد أعلن الاتراك الشبان بلا رحمة ان « بروبيز » ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات ، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية ( وقد أسس فيها بعد « مهرجلن اسراييل » ، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨ ) . واحتفل « بيجين » بترقيته بان تزم مظاهرات ضد فرض شيود على الهجرة اليهودية . وأتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن . وأطلق سراحه بعد ثلاثة اسابيع ، وهو حليق الرأس . ولكن كتبت وارسو والعالم بأسره مثسفلولا حينذاك بأمر آخرى أكثر أهمية .



## الفصل الثالث

### هروب واعتقال

لم تكن المسألة التي تواجه يهود أوروبا أبان صيف عام ١٩٣٩ ، هي حل ستقع الحرب بقدر ما كانت متى ستقع . وكان الاهتمام الأول للحركة الصهيونية بجناحيها هو عملية انقاذ أكبر عدد ممكن من يهود ألمانيا . في أعقاب قرارات نورمبرج ، وإن لم يكن قرار الحل النهائي قد صدر بعد . ولم تعد تنبؤات « جلوبوتنسكي » بقرب وقوع الهلاك تبدو كمحاولة لاثارة الذعر . ولم يعد النداء الذي وجهه الى كل يهودي لأن ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة ، يلقى على أذان صماء . ولكن كانت الحواجز قد بدأت تقبصام والحدود تغلق .

وقبل يومين اثنين من غزو « هتلر » لبولندا ، عاد « مناهم بيجين » الى وارسو بعد أن رافق قافلة تضم ألفا من المهاجرين « غير المشروعين » تبليين لمنظمة « بيطار » ، حتى حدود رومانيا . وكان يسيطر عليه شعور بالاحباط ، حيث أن رومانيا كانت تسمح ، حتى تلك اللحظة ، بمرور اليهود المنجيين الى فلسطين عبر أراضيها ، ولكن بعد التوقيع في موسكو على اتفاقية مولوتوف — ريبنتروب في ٢٣ أغسطس لم يعد في وسع الرومانيين تخطي المخاطر نيابة عن الغير . وتشتت جماعة المهاجرين من أعضاء « البيطار » ، وعادوا الى ديارهم . ولقى معظمهم حتفه في معسكرات الموت أو بين صفوف رجال المقاومة البولندية .

وعندما دخل الجيش الألماني بولندا في أول سبتمبر من ذلك العام ، كان رد الفعل التلقائي « لبيجين » منبعا من مشاعره كموطن بولندي وكيهودي في الوقت ذاته . ويسترجع يزرئيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا « دعا بيجين » قيادة منظمة « بيطار » للاجتماع ، وطلب منا تحصين وارسو وحفر الخنادق . وقال لنا ان علينا أداء واجبنا كمواطنين بولنديين ، وأن نلتزم بالقوانين . وجاء الى مكتب البيطار في اليوم التالي ، الشاعر يور زفي جرينبرج من « حركة التصحيح » . واندفع للمشهد الذي رآه أمامه ، فصاح قائلا « ماذا تفعلون ؟ ان الروس قادمون . ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر مخدوها واذهبوا » . وذهب « بيجين » و « ديفيد جوتان » لمقابلة جنرال بولندي وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندي ضد الألمان ، غير أن رده لم يكن مشجعا . وعندئذ تقطع بدأ « بيجين » وغيره من قادة « بيطار » ينادون « وارسو » في جامعات صغيرة . وكانت قتال الألمان قد بدأت تتساقط على العاصمة .

ورحل « بيجين » وزوجته « أليزا » بصحبة « ناتان يلين - مور » وزوجته « غريدا » ، اللذين كان قد تم زواجهما في « سبتيمبر بواسطة الحلقام الأكبر شلومو دافيد كاهانا ، آخر حاخامات وأرسل . وقد شهد « بيجين » وزوجته على عقد الزواج حيث كان « يلين - مور » واحدا من زملاء « بيجين » في اللجنة العليا لمنظمة بيطار . وقد أصبح « ناتان يلين - مور » فيما بعد واحدا من القلائد الذي تنادى الحملة الارهابية التي شنتها « عصابة شخيرين » ضد الانتداب البريطاني . وعندها أهلكم إغلاق المنيعة ، اخلوا يروحون بيعة وذهاها سواء بواسطة اللطار أو المربات التي يجرها الخيل ، أو على الاقدام ، ويخطفون لدى الموالين حركة « البيطار » ، وهم يتحاشون الغاضبات المسيانية ويخفون الدبابات السوفيتية القادمة . وصادت المستوصى والمصالحات ، واحتضنت الأسر الأجنة على جانبي الطرق واكفلت بهم القطار ، وبدأ القلب يسجل أول اصابات بين المدنيين ، الذين أصبحوا يبدون في حالة من الانكسار يرضي لها . وكتب « بيجين » يقول فيما بعد : « كنا ننام ونحن نسير . كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا » . واحتجز الروس « بيجين » لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية بأنه مدعي لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له لمساعدتها على الهرب عن طريق رومانيا ، وسدد الدين . واشترى سريره .

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الاعياء الشديد الإلحاح عليهم بالبقاء في مكان واحد ، حتى يمكن لأعضاء منظمة « البيطار » رحلتهم ، وإن كانوا قد شعروا بامتنان لممكنهم من الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية مع بعض الأصدقاء . واستطاعوا أن يصلوا في النهاية ، وبمهم أن أمضوا سبعة أسابيع على الطريق ، إلى مدينة « فيلنا » التي كانت مركزا هامسا للتعليم والمشروعات اليهودية . وكان الروس قد استولوا على الجزء الشرقي من الأراضي البولندية وأعلنوا « فيلنا » عاصمة لاقليم « ليتوانيا الحرة » ، واحتضنت قيادة منظمة « البيطار » البولندية بكامل هيئتها في « فيلنا » . وسرعان ما انضم اليهم الآلاف من أعضائها . وأخبرهم « بيجين » أن « ليتوانيا » ستوفر لهم سبيل المروج إلى فلسطين . واستأجرت المنظمة منزلا ، وبمشت بالفرداها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق . ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضي ، بأنهم كانوا سخيا ، فقد كان من المستحيل أن تقوم حربة « لتوانيا » ولكن كانت « فيلنا » تعتبر آنذاك رمزا للأمل .

ولقد تعرضت صداقية قادة منظمة « البيطار » للاعتبار عندما وصلهم رسالة من « شيمون جوليتزمان » ، رئيس شركة الشببات في فلسطين ، يطلبهم فيها أولا بأن « أفرادهم شخيرين » ، فقد أكثر أجلحة بجماعة « أرجون زفاي ليومي » عنفا قد قرر العمل بمفرده . ومن ثم ، ومنذ تلك اللحظة ،

أصبحت هناك قوتان سريتان تعملان من أجل تحقيق « الحق اليهودي » جماعة « أرجون زئاي ليومي » أو « المنظمة العسكرية الوطنية » ، التي أصبحت تعرف باسمها المختصر « إيتزيل » المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية ) ، وعصابة شتيرن « المصلوبون من أجل تحرير إسرائيل » ، — « لوهامي حيروت إسرائيل » ( بالعبرية ، واختصارا « ليهي » ) . والأمر الثاني الذي أبلغهم به في رسالته ، وهو الأمر الأهم بالنسبة « لبيجين » ورفاقه في فيلنا هو أن « كثيرين هنا ( في فلسطين ) يعتقدون أنه لا يجب على القبطان أن يفادر السفينة طالما ظلت طافية » . وفهم « بيجين » — بحساسيته المفرطة إزاء مسألة الكرامة ، تماما مثل حساسية « جابوتنسكي » — أن المقصود بهذه العبارة هو انهائه ورفاقه بالتفلى عن مشاعر الآلاف من أعضاء منظمة « بيطار » الذين كانوا لا يزالون موجودين في بولندا .

ويسترجع يسرائيل ألداد هذه الواقعة فيقول : « لقد استدعانا « بيجين » وقال لنا انه ربما كان ( جوينتزمان ) على حق ، وانه يريد أن يعود الى وارسو . ولكننا قررنا في النهاية عدم العودة . وكانت حجة عدم العودة هي أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن في فلسطين ، التي هي وطننا الأم . ولم يعد هناك ما نعمله في بولندا . وقد أصبح من المستحيل العمل هنا من أجل ترحيل مزيد من أعضاء « البيطار » الى فلسطين . ولذلك لقد استعديناهم الى « فيلنا » لأخراجهم عن طريقها .

وكان « ديفيد جوتان » والثاني من أن بقاؤهم في « فيلنا » كان أفضل ، كما كان يرى أن تفكير « جوينتزمان » خاطيء ويقول :

« أولا ، كنا نعتقد أن الانتقال إليها إنما كان مؤقتا . وكنا على ثقة من أن الجيش البولندي بمساعدة البريطانيين والفرنسيين سينتصر . وكنا نعتقد حقنا هي أن « ليتوانيا » ليست سوى دولة يمكن تدمير الخروج منها . وكنا هناك على صلة بالعالم الحر . وأرسلنا برقيات الى الولايات المتحدة — الى منظمة « برويز » وغيرها من المنظمات — للضغط من أجل منعنا تأشيرات وتصاريح هجرة لأكبر عدد ممكن من أعضاء « البيطار » . وكنا في حاجة الى تواجدنا في مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا اليه تصريحات للهجرة المفروعة .

وكنا قد قمنا بأنفسنا ، كذلك ، بتزوير عدة تصريحات . فان الحصول على تأشيرة خروج من « ليتوانيا » كان يستدعي ، على الأقل ، تقديم خطاب يفيد بأن لديك تصريح بالاتجاه الى مكان آخر . ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه الخطابات . كما أن القنصلية الهولندية في « فيلنا » كانت تملك تأشيرات للذهاب الى « كوركاو » . وعندما أغلقت القنصلية ، قمنا بتزوير التأشيرات . وكان الهولنديون أيضا يسمحون تأشيرات خروج .

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لانهم كانوا يحتاجون الى العملة الأجنبية ، وكانت اللجنة المشتركة ( لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة ) تزودنا بالمال اللازم . وكنا في حاجة الى قاعدة ، وكانت « فيلنا » قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها . وكذلك كتبنا نجرى اتصالات مع الصيادين « الليتوانيين » في ميناء « بالانجا » ، وقد منحناهم النقود لاننا كنا نعتقد انهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم الى السويد .

والذي حدث ، أن الحرب لم تنته بسرعة ، كما ثبت أن قرار البقاء في « فيلنا » ، كان غاية في الأهمية . فإن منظمة « البيطار » كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجماعية الوحيدة التي بقيت لتواجه « الحل النهائي » بدون قيادة . ويذكر المؤرخ الاسرائيلي « يهودا بوار » ، الذي كان من أوائل مؤرخي « الهلوكوست » ، أن هذه الحقيقة هي السبب الأساسي وراء ما يصفه « بعقده الهلوكوست » التي يعاني منها « بيجين » ، أو شعوره بالذنب لأنه بقي على قيد الحياة . وقد كتب « بوار » يقول : « أن غدا كبيرا من الناجين من يمرن بتجارب مماثلة ، يعانون من شعور عميق بالذنب . بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له أي مبرر من وجهة النظر المنطقية . وتقدم لنا نظرية البروفيسور « بوار » تفسيراً مقبولا لتسلط « الهلوكوست » على تفكير « بيجين » ، والذي أدى به الى ارسال خطاب اثناء حصار الجيش الاسرائيلي لبيروت في أغسطس عام ١٩٨٢ ، الى الرئيس « رونالد ريغان » ، جاء فيه « اني أشعر بهذه الأيام وكأنني رئيس وزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف في مواجهة « برلين » حيث يختبئ « هتلر » وحاشيته في مجبأ عميق تحت سطح الأرض وسط المدنيين الأبرياء .

وقد ذكر باحث آخر في دراسة له عن « الهلوكوست » ، وهو زليف مانكوفيتز . أن هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة : فكتب يقول :

« أن حروب النازي ضد اليهود لم يكن لها اساس واقعي » . وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من « اليهود » ، بصفتهم قوة شيوعية تعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم . والحقيقة الرهيبة هي أن الشعب اليهودي كان ضحية للهلوسية . بيد أن الشعب الفلسطيني ، هو الشعب الحقيقي ، وتطلعاتهم القومية حقيقية واقعة ، كما أن لهم أهمية رمزية حقيقية في العالم العربي ، وبالمثل فإن التعاطف والاعتراف السياسي الذي كسبه هذا الشعب في أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة .

وكما عرفنا فان « بيجين » دافع في عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع الى وارسو . ومع ذلك « اسرائيل الداد » يعتبر واحدا من الذين يشكون في

انه كان يعنى ما يقول فعلا . فان « بيجين » كان يملك آنذاك ، نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه فى مناسبات أخرى من فرض رأيه على زملائه هذا ، اذا كان هو يرغب فى ذلك .

ويقول الداد : « أنا لا أعرف حتى الآن ما اذا كان جادا فيما بقوله او انه كان مجرد ابياءة ، مجرد مشهد تهيئى . غلطاما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا . وأنا لا أعرف ما اذا كان يريد فعلا العودة الى وارسو » .

هذا وقد وجد تادة حركة « بيطار » البولندية وقتا كافيya فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بالرغم من مشاغلمهم العملية ، لتناقضة مسألة : اوسع نطاقا كانت تهزق حركة « التصحيح » : هل يوقفون مؤقنا النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تشن حربا ضد النازى ؟ أم هل يؤيدون سياسة « بن جوريون » التى تدعو الى الاشتراك فى الحرب وكان « الكتاب الابيض » الذى يفرض قيودا على الهجرة اليهودية ، لم يصدر ، مع محاربة « الكتاب الابيض » وكئن انحرب غير قائمة ؟ وقد أصدر « جابوتسكى » اوامره الى « الارجون » بوقف النضال . ورضخ « دافيد رازئيل » ، قائد قوات « الارجون » فى فلسطين للامر . ووفقا لاثوال « الداد » ، فان « بيجين » ادان عملية وقف القتال باعتبار انها بمثابة خيانة للقضية اليهودية . وكان يعارض وقف القتال .

وقاد « الداد » حملة فى مجلة « بيطار » التى كان يرأس تحريرها فى « بفيلنا » ، من اجل « الحياد العدائى » ، ما لم يمنح البريطانيون اليهود جيشا خلاصا بهم تحت راية نجمة داوود . ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذه فى المؤتمر العالم لمنظمة « بيطار » ، ولكنه عندما أعلن الحرب ضد الانتداب البريطانى بعد اربعة اعوام من ذلك التاريخ ترك انطبعا بان دوايع اتخاذه لهذا القرار كانت اكثر من مجرد استجابة لماساة يهود اوروبا عام ١٩٤٤

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية « بفيلنا » — التى كانت تشتهر بأنها مستوقد للمعداء ضد النامية — للاحتفال بثلاث مناسبات : احياء ذكرى وفاة « تيودور هيرتزل » أبو الصهيونية السياسية ، ووفاء « حليم نلخمان بياليك » شاعر الاحياء العبرى ، والذكرى الخمسة عشرة لانشاء الجامعة العبرية فى القدس . وكان من المقرر أن يلقي بيجين كلمة فى تكريم هيرتزل . ولكن حدث فى منتصف الاجتماع ، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود ، أن مزرت ورقة الى المنصة . وجاء فى المنكرة : « لقد دخلت الدبلجات الروسية المدينة » . وشجب وجه الاستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية راتترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن . ووقف « بيجين » معلنا : « سنواصل عقد

الاجتماع حتى نهايته وسنختمه بالنشيد القومي « هاتيكنا » . وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومي الصهيوني . ويقول « اسرائيل الداد » : « لن أنسى أبدا تلك المرة التي رددنا فيها « الهاتيكنا » . لقد ظننا جميعا أن هذه هي آخر مرة سننشد فيها « الهاتيكنا » بأوروبا .

وادر كقادة « البيطار » آنذاك ان الوقت بدأ ينفد . فان الكرملين لم يكن بمديق للصهيونية ، التي كان يحترها بصفتها « انحراف قومي » عن الطريق الثوري . كما أن « ستالين » كان لا زال الحليف المطلق لهطر . ولكن لم يكن لدى « بيجين » ورفاقه ما يردون به سوى أن يواصلوا ما كانوا يقومون به ، ويستمرؤا في البحث عن منالذ لتخريب اتنامهم عبرها . وكانت « منظمة بيطار » تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية أفرادها الموجودين « بنيلنا » . وعندما وصل الروس قام أحد الشبان — ممن تولوا فيها معد منصباً رفيعاً بدولة اسرائيل بسحب بطاقته حتى لا ينكشف أمره . ففصله بيجين من البيطار على الفور .

وتلقى أعضاء حركة التصحيح في ذلك السيف لكمة مزدوجة فلم يكذبهم أسبوع على دخول اللبابات السوفيتية الى ليتوانيا ، مما أنهى استقلالها الهش ، حتى توفي « فلاديمير زنيف جابوتنسكى » في الولايات المتحدة . وخطر « بيجين » بحريته حيث اتجه الى « كوفنو » لالقاء مرثية بالمعبد اليهودي الرئيسي هناك ثم توفي بعد شهر من رحيل « جابوتنسكى » ، أحد الأخبار البارزين في « فيلنا » واشترك خمسة عشر من أعضاء البيطار في جنازة الحبر التي اشترك فيها الآلاف من أعضاء المائتسة « الحفسيديّة المتطرفة » . وانسلخوا من الجنازة واتجهوا الى قبر شاب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس واسابته بالفرفرنا أثناء محاولته الوصول الى فلسطين . وأقام « بيجين » صلاة الجنائز عليه وألقى كلمة قصيرة ثم رددوا جميعاً نشيد « البيطار » ، بما يتضمنه من اعلان الإيهان بأن اسرائيل سوف تقوم من بين الفساد والرماد . غير أن « بيجين » تأثر بوفاة معلمه بدرجة أكبر مما حاول أن يبيده .

وقد لفتت تصرفاته التي تنطوى على التحدي أنظار البوليس السرى السوفيتى اليه . وتم استدعاء عضو البيطار الى مقر القيادة وسئل عما اذا كان يعرف « بيجين » وعندما رد بالإيجاب قل له الضابط : « لقد ألقى كلمة رائعة بالمقابر اليس كذلك » ؟ وكان « ديفيد جوتان » من أهالى « فيلنا » وقد درس بجامعة . وفي أحد الأيام ، أبلغه أحد معارفه القدامى بأنه وزملاءه ضمن اللقاة التي وضعها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم . وقسام البوليس السرى السوفيتى بزيارة منزل والديه ، بيد أن « جوتان » كان قد ذهب على سبيل الاحتياط ، الى مكان آخر لينام فيه . وبذلك أخذ زعمه

« البيطار » حذرهم ، وانتقلوا من « فيلنا » الى قرية « بافيلنيوس » القريبة ، حيث قاموا بتأجير غرف متفرقة في بيوت الفلاحين .

وتلقى « بيجين » قبل مغادرتهم المدينة بلفرة استدعاء للحضور الى الغرفة رقم ٢٣ في مبنى مجلس مدينة « فيلنا » بشأن موضوع « الطلب الذى تقدمتم به » وادى هذا الى تحذيره بدلا من ايقاعه في الفخ . فلم يستجب لهذه « الدعوة المهنية » ، ولم يكن ذلك فقط الا لانه لم يتقدم باى طلبات . وقد اختار « بيجين » الا يفتبىء او يحول الهرب . وفي كتاب « اللولى البيضاء » ، الذى يعتبر من اول الكتابات الادبية من الحياة في معسكرات الاشغال الشاقة « الجولاج » ، والذى نشر في عام ١٩٥٧ ، قل « بيجين » : « كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الاول من قرارى . فقد قلت لنفسى ، اذا كانت الحكومة السوفيتية ترغب في امتثالى ، فليتعجب عملاؤها انفسهم ويحضروا الى منزلى ، فهذه هى مهمتهم ، ولماذا اختفى وكان الارض ابتلعته » ؟

واضاف يقول بخفيث : « أما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة ، ولا اريد ان أخوض فيه » . ولم يكشف « بيجين » عن هذا السبب الاخير الا بعد مرور عشرين عاما اخرى .

« لقد اظلمت الدنيا في نظرى بعد وفاة جيلوتنسكى . لم يكن « جيلوتنسكى » بالفلسفة لنا مجرد رئيس او زعيم ، بل كان اكثر من ذلك ، فقد كان محل آملنا ، وكنا نتطلع اليه ليخرجنا من المبودية . . . لقد ضاع الامل ذاته ، لقد رحل منا ولم يعد هناك امل . ولذلك فقد كنت مهبطا نفسيا لان اعتقل بواسطة السوفييت لاننا اذا لم نستطع ، كما قلت اننا نجعلنا حول قبر احد اعضاء « البيطار » ، ان نقاتل من اجل بلدنا فليس اقل من ان نعانى من اجله . وبمصرحة تلمة ، لقد كنت لحظة يأس مثاهاى . لم يكن املنا بصيص من الضوء . ولذلك فقد كنت في حالة نفسية تجعلنى افضل الذهاب الى السجن . ولم اتكلم في هذا حتى مع زوجتى . لقد قدم لى رفائى النعيم . . . ولكننى رفضته . »

وعلى اى الحالات فقد انتقل زملاء منظمة « بيطار » الى « بافيلنيوس » ، حيث استأجر « بيجين » و « اليزا » بعض الغرف في منزل احدى الارامل . وقاسمهم مسكنهم كل من « الداد » ( الذى كان يعرف آنذاك باسم « يسرائيل شيب » ) وزوجته « بايا » ، وشخصان آخران ، احدهما زوج شقيقة مسز « بيجين » . وكان عملاء البوليس السرى السوفيتى يتتبعونهم كظلمهم . بل ان « بيجين » كان يلهو بهم . فعندما « اليزا » للذهاب معه بالقطار الى « فيلنا » وقام بتعيين فريق من اعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتنون اثر « بيجين » وزوجته اينما ذهبا — وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم بالقتاء اثر العملاء . لقد كان الجميع يعلمون انها لعبة

ان تستمر طويلا . وسخر بيجين في كتابه « الليالى البيضاء » من رجسالى البوليس السرى السوفيتى لامتقارهم الى المهارة التى يتميز بها المحترفون . فلقد كانوا مكتشفين تماما . ولكن ربما كان الامر ببساطة لا يسبب لهم أى شعور بالقلق . نلو أن قيادة « بيطار » غادرت « ليتوانيا » نالى غير رجعة ، أما اذا ظلوا بها فان رجال البوليس السرى سيستطيعون عندما يريدون ، أن يلتقوا القبض عليهم .

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر ، أى بعد عشرة أيام من لعبة القط والفار . وشمر « بيجين » بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب ، فقد عرف أخيرا أين يقف . ودخل ثلاثة رجال ، وقطعوا على « بيجين » و « الداد » ، مباراة الشطرنج التى كانا يلعبانها . وسال قائد القوة عن السبب فى تجاهل « بيجين » للاستدعاء الذى أرسل اليه بالحضور الى مبنى مجلس المدينة . ورد عليه « بيجين » قفلا : انه لم يكن لديه شان والبلدية . وانهم اذا كانوا يريدون الاتصال به فانهم يعرفون أين يجدونه . وطلب منهم « بيجين » بلهجة الرسمية الشبيهة بلهجة المحامين ، أن يكتبوا عن شخصياتهم . وأبرز قائدهم بطاقة شخصية تفيد بانه من رجال المخابرات « اللتوانية » . وسألهم « بيجين » عما اذا كان معهم أى كتابى بالقبض عليه ، ونلوا ذلك ولكنهم نالوا أنهم جاءوا على أى الحالات لاعتقله . ومستم « بيجين » ، متشبها « بجابوتسكى » ، على ألا يجبره أحد على التعلل ، وعلى أن يحتفظ بولفره . وطلب من « اليزا » تقديم الشاى « لضيوفهم » وبدأ يستعد للرحيل .

يذكر « الداد » هذه المناسبة فيقول :

لقد أدى « بيجين » ، ما أصفه بمثابة مقطوعة موسيقية . فقام بتلميع حدائه وارتداء حلة وربطة عنق ، وكان فى منتهى التهذيب . وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقل لهم : « أنا هنا فى بيتى ، فمتفضلوا أنتم أولا . والتفت الى قائلا : « اننا سنواصل مباراة الشطرنج » . وتلقت فيها بعد رسالة يخطرني فيها باننى فى وضع الفوز ولذلك فانه ينسحب . ولم يكن هذا صحيحا ، فاننا لم نكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس أو ست مرات . وقصد سمحوا له بأن يأخذ معه التوراة وكتاب آخر فقط . وبكت زوجتى . أما زوجة فلم تبك .. لقد كانت فى غلبة القوة والتسلط » .

وبينما كان « بيجين » خارجا تحت الحراسة ، شاهد « ديفيد جوتان » وتبدلا نظرات تم من وقوع المحتوم وكاتهما يقولان : « جسنأ ، لقد حدث المتوقع » وكان زملاء قائد منظمة « بيطار » واثقين من انه يراجه فترة سجن طويلة غير محدودة ، بالرغم من تأكيدات بانه سيعود سرىعا . ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى انتاع « اليزا بيجين » بالذهاب معهم الى فلسطين



بواسطة اوراق هجرة مزورة . ويقول « جوتان » انها كانت تصـاب بالهستيريا .

« أوضحت لها أن السوفييت لن يحفظوا « ينامح » في « نيلنا » وإنهم سيرسلوه الى سيبيريا أو أى مكان آخر مشابه . وإن الحدود ستغلق في القريب العاجل . وأكدت أن السبيل الوحيد للضغط من أجل الافراج عنه هو عن طريق اجراء اتصالات بالعالم للبحر ، وصيغة خاصة بالولايات المتحدة . ولا يسعنا عمل ذلك الا من فلسطين أو استنبول » .

وفي النهاية أمكن اقناع « اليزا » بالرحيل . فسافرت برفقة « إسرائيل » و « باتيا » ، الى حيفا عن طريق « أوديسا » وتركيا . وكانت جماعتهم ضمن ٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغادرة « ليتوانيا » عبر « أوديسا » و فلاديفوسك . ودفعت اللجنة المشتركة ، ألفى دولار عن كل فرد سافر عبر « أوديسا » وأربعة الاف دولار عن المجموعة التي سافرت عبر « فلاديفوسك » . واتجهت المجموعة الاولى الى فلسطين بينما سافرت المجموعة الثانية الى الولايات المتحدة .

وأمكن إبلاغ « بيجين » ، فى زيارته الكريمة الرائحة بسجن « لاكيشكي » نيا فرار زوجته وذلك من خلال احدى الانغاز التى تقوم على التلاعب بالكلمات والتى يحتاج حلها الى جهد ذهنى مضمّن ولكن بمجرد ان تعرف الحل فانه يبدو لك فى غاية السهولة . فقد أرسل له بعض الاصدقاء لفافة تحوى على بعض الملابس الشتوية الثقيلة . وعندما حل بيجين للفافة وجد بداخلها منديلا مطرزا عليه بطريقة بدائية « أولى » . ولاول وهلة ، لم يفهم لماذا كتب اسم التدليل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلا من هكذا : « آلا » . ولكن فى النهاية استطاع احد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز . فان كلمة « آلا » هى تانيث للكلمة العبرية « أوليه » التى تعنى حرفيا « من يذهب الى أعلى » ولكنها ترمز أيضا الى « المهاجر الى فلسطين » . وقد تكلمت صحة هذا الحل للغز فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمع لاقارب المسجونين بزيارتهم . وطلب « بيجين » السماح لزوجته بزيارته ، على احتمال ألا تكون قد رحلت بعد . وحضرت بدلا منها فتاة من جماعة « بيطار » بفيلنا ، تدعى « بولا دايتشيز » وقالت له ان العمة « آلا » موجودة مع العم « شيمشون » . وفهم « بيجين » المغزى المقصود فوراً . فان العم « شيمشون » هو « شيمشون جوتينكران » ، زعيم « بيطار » فلسطين . ثم استطردت « بولا » تقول : ان والديه فى صحة طيبة وكذلك أخوته الموجودون مع العمة « آلا » . وحيث أن « بيجين » لم يكن لديه سوى أخ واحد فقد أدرك انها تعنى ان رفاقه قد نجحوا أيضا فى الفرار . وطلب « بيجين » من « بولا » ان تكتب خطابا الى العمة « آلا » وتبلغها فيه أنه فخور بهم جميعا ، « وقولى لها انى فى صحة طيبة واننى سأعود اليهم » .

وقد أعاد « بيچين » الى الازدهان اللغز المبني على التلاعب بلفظي «آلا»  
و «أولا» بعد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما أهدى نسخة من كتابه  
الليالي البيضاء الى « دافيد جوتن » بمبارة تقول : الى « ديفيد الذي لولا  
ما أصبحت «آلا» هي أولا — أي ما أصبحت زوجته « آلا » مهاجرة  
الى فلسطين •

ولكن شاعت الاعتقاد ان يمر عليه عامان عصيبان قبل ان يتمكن من الرفا.  
بوعنه ويمود اليهم مرة أخرى •

## الفصل الرابع

### الانتقال الى « الجولاج »

سأل « مناحم بيجين » نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجوناً في مقر رئاسة البوليس السرى السوفييتى بملينا وبسجن « لوكيشكى » البار ، لماذا ينتهى أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السرى السوفييتى بالاعتراف ؟ وقد بحث « آرثر كوستلر » هذا اللفظ ذاته فى روايته عن عمليات التصفية الجسدية التى مارسها الكرملين ، والتى نشرت تحت عنوان « الظلام وقت الظهيرة » . وكان جواب « كوستلر » على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين وإسرافه . وقد أدركوا أن المرء الذى تنعابه المشكوك والريبة فى سلامة الطريق الذى يسلكه الحزب إنما يعرض الثورة للخطر وذلك لأنه « يستحق » أصابته برصاصة فى مؤخرة رأسه . ولم يكن « روباشوف » بطل كوستلر ، ضحية للبوليس السرى فحسب بل كان ضحية أيضاً لمنطقه الشيوعى .

وخطا « بيجين » بمسأله خطوة أخرى : لماذا يسلك المسجونون السياسيون الآخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية ، نفس الطريق الى المدم ؟ وتوصل لتكثيره الى أن السبب فى هذا يكمن فى « حائط الشك » الذى يقيمه البوليس السرى السوفييتى حول فريسته ، وهو الحائط الذى لا يحرمه لفظ من حريته بل أيضاً من جمهوره ، فيقول :

إذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة ، وإن أحداً لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذى اتخذ ، كما أن أحداً لن يتكلف تضحيته من بين يده ويتعلم منه كيف يفصح ، فإن الخيط الذى يربط بينه وبين مثله العليا سينقطع فى الغالب . وعندئذ سوف ينمى تماماً إدراكه الداخلى برسائله وسوف تتسائل نفسه المذبذبة : من الذى سيعرف ؟ من الذى سيتبتمنى ؟ من الذى سيحل مكانى ؟ .

ما أهمية معاناتى وما الهدف من العذاب الذى أقاسيه ؟ .

وأضاف « بيجين » الى ما سبق عاملاً إضافياً توصل إليه من تجربته الذاتية ، وهو الحيلة المتناهية التى يمارسها المحققون : حرمان المسجون من النوم ، وهو جزء لا يتجزأ من أى عملية استجواب يجرها السوفييت . لقد كان البوليس السرى يعمل أساساً خلال الليل ، ويتم إعادة السجناء الى

زناياتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة • ويمجد ان يغلبهم النعاس ، يحين وقت الاستيقاظ • وكان النوم محظورا اثناء النهار • وكانت الاوامر الصادرة الى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يغفو اثناء النهار بالسجن الانفرادى اذا تكرر منه ذلك ويقول « بيجين » عن هذه التجربة :

« يأتى الليل حاملا فى طياته ظلام الاستجواب الجديد •• المرة تلو المرة •• والليلة تلو الليلة ، طوال الاسابيع والاشهر ، طوال الزمن اللانهائى • يبدأ الضباب يتكاثر داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه •• ويكاد الاجهاد يزهق روحه ، وتهتز ساقاه تحته ، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى : أن ينام ، كم يتنى أن ينام ولو لفترة وجيزة ، أن يستلقى ولا يقوم أن يستريح وينسى • وأن ينام ، أن يموت ، أن ينام ••• العدم » • ان كل من جرب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها • لقد التقيت بسجناء وقعوا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها ، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به - النوم بلا انزعاج •

وقد عانى « بيجين » ، وفقا لاقواله ، من هذين النوعين من غسيل المخ « فقد وضع فى عزلة تامة الا من جيرانه المباشرين ، والبرقيات التى كانت ترسل بأسلوب النقط والشرط عبر جدران ومواسير السجن • ونادرا ما كانت تتاح له فرصة للمفوم • ويدون محاكمة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثماني سنوات بصفته « عنصرا خطيرا على المجتمع » • لقد ثار ضابط البوليس السرى انسوفيتى وأعلن غاضبا : « محاكمة • امنحوه منحة يمارس من فوقها مهارته الخطابية » ومع ذلك فان « بيجين » لم ينهز • وعندما اعترف فى نهاية الامر ، فانه فعل ذلك وفقا لشروطه الخاصة • فقد رفض التوقيع على مستند يقول : « اعترف بانى مذنب بتولى رئاسة منظمة « بيطار البولندية » واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية ان يقنع المحقق بالقضاء الفقرة التى تشير الى الاعتراف بالذنب • واقتصر اقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح : « انى اعترف باننى كنت رئيسا لمنظمة بيطار البولندية » • لقد استطاع « بيجين » ان يتهك المحقق من خلال المناقشات المضنية ، تماما كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد • وصرخ المحقق صائحا وهم يقودون « مصدر عذابه » الى زنزائنه : « اغرب عن وجهى ، فانا لا أريد ان تقع عيناي عليك مرة اخرى ابدا » •

كيف استطاع بيجين ان يصمد ؟ ان كتاب « الليالى البيضاء » لا يجيب مباشرة على السؤال ، ولكن يمكن للمرء ان يستشف الاجابة من بين طياته لو انه قرأه بامعان • لقد تعامل « بيجين » مع تجربة الاستجواب ، بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مبارزة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة • لقد كان يفكر : كيف يعمل النظام ؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول اليه ؟ لقد

سأمدته هذه التساؤلات التي كان يوجهها الى نفسه مثلما يحاول غيره أن يحل المسائل الرياضية ، على الاحتفاظ بعقله ، ويمسحيه ، واحترامه لذاته . . لقد حافظ على نفسه من ان يتقلب الى حيوان .

وحاول المحقق بما لديه من خبرة اعوام طويلة في السياسة الصهيونية . ولكن كان « بيجين » عنيدا ومتزمتا ومتكبرا . وعلى الرغم من انه كان يعلم ان الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض أن ييسر له بلوغ الهدف . ورفض تلميذ « جابوتنسكي » الموافقة على أن الصهيونية ليست الا انحرافا قبيحا برجوازيا ، وان زعيمه ، الذي كان قد توفي مؤخرا ، كان أداة للامبريالية البريطانية . وكان صمود « بيجين » وروح المقاومة التي يجمع بها أمر غريزيا فكان يناقش ويوجه المحقق ، بالرغم من ان هذا الاخير كان تلميذا بليدا ، وربما جعله يدفع ثمن جرأته ووقاحته غاليا . لقد كان يتصرف تصرفا بطوليا غير علفي ومجرد من أي غرض سوى البطولة ذاتها ، تماما كما فعل « ريف دون بيجين » عندما لم الرقيب البولندي الذي حاول اجتثاث ذهن الحبر . لقد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التي غرسها « جابوتنسكي » في نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار . لقد كان الطرفان يتجادلان ، وهما يشعران بأن ثمة شيء يجبرهما على ذلك . وكتب « بيجين » يقول : « كنت اشعر أحيانا انه قد نسي دوره كمحقق تماما كما نسيت انا دوري كشخص يجري التحقيق معه » .

ولكن كان التبرين الليلي على المجادلة يساعده ايضا على أن يسنن طاميا فوق السطح . وقال : « لقد كتبت التحقيقات بالنسبة لي عبارة عن مناظرة بين عقيدتي ضد عقيدته ، فكان لدى ما أقاتل من أجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق كما كتب يقول عن عملية تحدى لاحقة : « أنا اتنازل ، ولذا فأنا موجود » . ولم يتخل « بيجين » أبدا ، في الوقت ذاته ، من الامل في اطلاق سراحه ، حتى في اكثر اللحظات يأسا ، حينما فكر في ارسال ورقة طلاق مشروطة الى زوجته « النيزا » . وكان السبب في ذلك يرجع جزئيا الى أن « بيجين » رضخ رغبا عنه في النهاية لمحاولات المحقق في أن يجعله يتنازل . فقد وعده بمنحه فترة لإعادة تعليمه . وتنازل بيجين « هل سأعيش حتى نهاية فترة إعادة التعليم ؟ هل سأكملها وأموذ ؟ » يقول « ميرون شيسكين » ، رفيقه في السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح ، في بولندا ، أن « بيجين » لم يفقد الامل اطلاقا في انه سيخرج كان كلانا يعرف انه أينما ذهبنا فأتينا سنذهب في النهاية الى اسرائيل . لم تكن المسألة عقيدة دينية ، انما كانت شعورا راسخا في نفوسنا . وكان « بيجين » يدرك أن نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن ، مشكوك فيها ، وان اصدقائه في الغرب ييذلون الجهود من أجله . لقد كانت المفترقة الملهة بين رفقاء « بيجين » في الزنزانة تؤكد أن « هلتر » سيوجه مذابحه في القريب العاجل نحو حليف « الصلحة »

السوفيتي . وترقب المسجون البولنديون تلك اللحظة في ابتهاج ، بينما ترقبها اليهود في غمور . ولكن المستقل لم يكن مضمونا على الإطلاق . ولذلك فلن الامر كان جديرا ببقاء المرء على قيد الحياة وجديرا بأن يجعل المرء على كسب الوقت .

ولم يكن الوقوف وراء القضبان مسألة جديدة بالنسبة « لناهم بيجين » فلقد دخل السجن البولندي قبل ذلك بـعشرين لتظاهرة امام السفارة البريطانية في وارسو . ولذلك فانه لم يصب بصدمة عندما احتجز في مقر البوليس السري السوفيتي او وراء قضبان سجن « لوكيشكي » ، الذي نقل اليه بعد فترة وجيزة . وكان الظلام والفروق الكبيرة في درجات الحرارة والبرودة ، والمراحة النتنة لجراذل القاذورات الموجودة في الزنازات المكتظة ، والسرير الصلب ، وجبت الطعام غير المشبعة ، والسجان الفظ الذي يقوم بتنفيذ الاوامر الخبيثة الصادرة اليه ، والعزلة عن الاسرة والصديق — كلت كل هذه امور قد تعود عليها .

« لقد وجدت في تفص « الآبجين » كل الاشياء المعتادة — مرتبة قش ، ورف ، ومنفدة مارية ، وتكرسى بلا ظهر وغير متناسك ، واثام صديق صغير ، وبالطبع الجردل . وعلمة يعتبر سجن « ليلنا » شبيه « بسجن وارسو » ، ولا شك ان كل السجون الاخرى التي يقيمها الانسان لسجن اخيه الانسان ، لا تختلف عنها في شيء . فلا يوجد جديد تحت الشمس . وربما كان من الافضل الا يكون المرء سجيناً مستجداً » .

وقد اكتشف ان الفرق الوحيد بين السجن السوفيتي وغيره من السجون هو ان سجين البوليس السري السوفيتي كان يسأل نفسه « هل من المقدر لى ان اخرج ؟ » بدلا من ان يسألها : « متى سأخرج من هنا ؟ » وجاء أول التقاء لبيجين بالواقع ، عندما صادر حراسه الكتاب الوحيد ، باستثناء التوراة الذي سمح له باحضاره معه من « بلانليوس » . وكان الكتاب هو سيرة حياة دزرائيلي بقلم أندريه مورو ، والذي كان قد بدأ قراءته بالانجليزية . وكعقاب له على تعلله مع السجن وكنهه مكتبة عالية يمشى وقته به في القراءة اجبر على الجلوس لمدة ستين ساعة في مواجهة حائط خال ، وركبته تضغطان على الحائط ويمناه تركزان على نقطة واحدة بلا حراك . لقد كان أسلوبا حازقا في التعذيب ، استطاع « بيجين » تحمله باسترجاعه لكل الاوقات الهامة البارزة في حياته . ولقد كان ارتياحه بالغا عند السماح له بالارتقاء على حاشيته ، حتى انه كاد ان يسلب بالهتيلن .

وظل على مدى ثلاثة اشهر يشارك رجلين آخرين زنزانة واحدة . كان أحدهما ضابطا احتياطيا بالجيش البولندي ، في منتصف العمر واعزب مولها بالنظام بدرجة ضابقت حتى « بيجين » نفسه ، والاخر كان ترويسا

شاكيا أصبح فيها بعد جنتيا برتية مساعد عريف ، كما أصبح اثناء وجوده بالسجن تلميذا « لبيجين » . وقد اثار هذا الشاب دهشة الرخصين الاكبر منه سنا عندما عاد الى الكنيسة . وكان زميله البولنديان بالزناينة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسلمية والمتامل في نفسيهما ، ومع ذلك فقد حزن « بيجين » على مفارقتها لها . وفي هذا الصدد يقول بيجين :

« كانت توجد حواجل تفصل بيننا ، بل لنا كنا نتعارك ، ولكننا ضلنا من التعريف على بعضنا البعض ، وتعلمنا كيف نتفاهم وننتسليم . وكنا قد أصبحنا بالفعل مجتمع صغير ، له عرفه وتقاليده . ولم أبارس هنا التدريس الا قليلا ، ولكنني تعلمت كثيرا . ولقد مررت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قرارا مؤلما .

وقد تم وضع « بيجين » خلال فترة انتظار الاتهام المخالفة وصنوع الحكم في زنزانة جهامية تضم ستة عشر سريرا لينام عليها حوالى ستهن سجيلا . وكانوا ينامون على الأرض . وكان رعايته في هذه المرة يتكولون من لص يهودى ، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، ويعاقب باثر رجعى لأنه كان قد حارب في صفوف جيش التيمير . وكان معظم السجنوين الذين انهاروا تحت ضغوط الازدحام والجوع ، هم من اولئك الأشخاص الاتوياء البنية ، الذين اعتادوا على الحياة في الامكن المفتوحة . أما الكفرون « الضمفاء والضعفاء البنية » ، كما وصفهم « بيجين » في كتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس ، فانهم لم يمرضوا أو يشتكوا ، لقد بدا كان ارواحهم كانت بمثابة الدعاية التي تستخدمهم ، وتقوم بهمة الدرع الذى يحى أجسادهم . ولقد اشتركت المجموعتان في اعلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على عدم احداث أى تغيير في نوعية طعامهم الذى كان يتالف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المصنوع من الحبوب ويعرف باسم « الكاشا » ، ويصف « بيجين » هذا الحساء في اكتشف فيقول : « ان رائحته كانت تزكم أنوفنا فعلا لقد كان حساء « الكاشا » كريها بالنسبة لنا ولم نعد نتحمل تناوله مرة أخرى . » وانصر المهربون بعد بضعة أيام . ولاول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من أوراق الكرب الملفدة بدلان « الكاشا » الكريهة .

وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها « بيجين » ، من خلال « تليفراف » السجن ، بوجود « ميرون شيسكين » في الزناينة المجاورة وأبقى اليه زعيم « حركة الفصح » ببولندا ، والذى يكبره بأثنى عشر عاما ، برسالة — عن طريق النفر على الحائط — يستمر فيها عن صحة « جابلوتسكى » . وشعر « بيجين » بفرح وأسى لعدم معرفة « شيسكين » بنيا ولما « جابلوتسكى » ، وإكله أبلغه به بعد فترة وجيزة . وذهل « شيسكين » ووضع قبضه على رأسه وفلا صلاة البنارة . ولقد رد زملاؤه في الزناينة كلمة « آمين » في نهاية الصلاة بالرغم من أن احدا منهم لم يكن يهوديا .

وإثناء فترة عيد الفصح اليهودى ، اشترك « بيجين » و « شيسكين »  
فى زنزانة واحدة . ويقول « شيسكين » متذكرا :

« كنا نأخذ جرابتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه  
على النافذة ليجف ، وبذلك كنا نحصل على خبز « الماتزا » ( أو الخبز  
اليهودى غير المخمر ) وكنا نطو صلاتنا : « ان هذا هو خبز بلاثنا ، نحن  
اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العالم القادم رجال أحرار ، ونحن اليوم موجودين  
هنا ، ولعلنا نكون فى العام القادم بالقدس » . وكنا نغنى بعد ذلك نشيد  
الحركة الصهيونية : وكنا نسمع أصوات ترد علينا من أماكن مختلفة  
بالسجن . ان المسجونين اليهود يرددون النشيد ، حتى بالرغم من حظر  
المظاهرات » .

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة أو بأخرى . ولكن  
الحظ تخطى من « بيجين » عندما سمعه أحد الحراس اليهود يروى « نكتة » ،  
وظن انه هو المقصود بها ، فاشتكى الى مدير السجن ، الذى سارع  
بالحكم على « بيجين » بقضاء سبعة أيام فى الحبس الانفرادى . وقد قبل  
الحكم من وجهة نظر فلسفية ، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الاساليب  
التي يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس .

« لقد انقضت الأيام السبعة ولياليها . لقد أدى الحبس الانفرادى  
الى اصابته بضعف شديد ، ولكنه تعلم منه الكثير . لقد تعلم من الحر  
الخائف أثناء النهار ومن البارد القارس فى الليل ، ومن القذارة والرائحة  
الخائفة الخاصة بالقفص الخالى من النوافذ ، ومن عدم وجود أى غطاء ، ومن  
الرطوبة والارض القذرة المصنوعة من الاسمنت التى كثت افترشها للنوم  
والتي كانت مرتعا للفئران — لقد تعلم من كل هذه الاشياء ان ثمة أماكن  
أسوأ حالا من زنزانة السجن ، تماما كما تعلم فيما بعد ان ثمة أماكن أسوأ  
من زنزانة الحبس الانفرادى » .

وقد استطاع « بيجين » ان يتحمل اسبوع الحبس الانفرادى الذى  
لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء ، ولكنه لم يتس أبدا خيانة الحراس  
اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى . وقد ضم « بيجين » هذا  
الوظف المجهول الى ثمانية « الإبادة » التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم  
ايضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حثه باللغة اليدية على أن  
يعترف « بالحقبة » ، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يعتمد  
عند ضريح لينين ، وسام « بيجين » على النصوص التوراتية المخصصة  
بهيرتزل ، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى  
الاعمال القذرة نيابة عن « سيده » بتهيته « للزيف » برواياته الساخنة عن  
الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة ، وكان هناك آخرون فى حياة « بيجين »  
من أمثال أولئك المرتدين . ولم يتساهل « بيجين » معهم أبدا حتى عندما أصبح



رئيسا للوزراء فكان يستخدم تعبير « ذلك اليهودى المتكبر » ، بلهجة استنكارية في وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى أو يحاول تلقينه درساً في واجبه القومى . وكان هذا الأسلوب أسهل أحيانا في الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كلفوا بثرونها .

وعلى الرغم من أن فترة التسعة أشهر التى أمضاها « بيجين » في سجن « فيلنا » كانت فترة عصيبة ، إلا أن الايام اثبتت انها لم تكن سوى نهيد لنزوله في « المكان الأسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » أو « أرخبيل جولاج » الذى وصفه « الكسندر زولشنتسن — في رواية بهذا الاسم — بالجحيم السوفيتى » الذى يتلقف لرجال والنساء الموصوفين لسبب أو آخر ، بأنهم أعداء الثورة ، غيطويهم النسيان ويحولون الى ما يشبه الحفريات المتحجرة . . وبالرغم من أن اقامة « بيجين » هناك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر فانها تركت في نفسه عداً ابغيا للروس والشيوعية ، وحاسا للحرب الباردة ظل راسخا في نفسه حتى ما بعد « الوفاق » بكافسة اشكاله .

وبدأت رحلة المذاب بحركة تمرد كان يمكن اعتباره في ظروف أخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس ، حيث رفض المسجونون الذين كانوا ينتظرون نقلهم أن يتناولوا طعامهم من المبصقات . وكان سجن « لوكشكى » مكتظا بدرجة انه لم يكن يحتوى عددا كافيا من الاطباك لكل المسجونين . ولكن المسجونين كانوا برون أن المبصقات صنعت خصيصا لعملية البصق ، حتى لو لم تستعمل فى ذلك الفوضى وصمد المسجونين لمدة يومين . وكما حدث من قبل بالنسبة للضراب عن الطعام ، انتصر المسجونون ولكن بشئ باهظ : فقد حصاوا على عدد قليل من الاطباك والفنانجين ككافى يضطرون الى تداولها من يد الى أخرى ، ومن فم الى آخر ، ومازالت بقايا الحساء أو التهوة ملققة بها . وكتب بيجين يقول في ابناءج ولكننا تناولنا طعامنا ، ولم نتناولوه من المبصقات .

وكان « بيجين » واحدا من الفئ سجين تم ترحيلهم فى اوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من « فيلنا » الى الشمال . وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد ، هى معسكر « بيتشور » للاشغال الشاقة على نهر « بيتشورا » ، الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب فى بحر « بارنتس » المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة . وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل اثبتت ما يكون بالكابوس حيث تم حشرهم فى القطارات والبواخر النهرية التى استقلوها فى أعداد أكبر مما لو كانوا ماشية . فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسع أربعين شخصا أو ثمانية خيول ، وجندى حراسة . بيد ان الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب

من سبعين سجيناً في كل منها . وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القضيبان تستخدم كمرحاض ، وطابقين من الاسرة الخشبية المثبتة في الجدران . فلماذا اختار المرء النوم في الطابق الاعلى فإنه يعاني من الجشع اما اذا اختار الطابق الاسفل فإنه قد يتعرض للاختناق . وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين في اعلا العربة . ولم يكن يتم فتح الباب الا ثلاث مرات في اليوم : مرتان لاحياء عدد المسجونين ومرة لاطعامهم وجبة واحدة لا تتدور حارة من خبز وسك مبلع . ولكن التساؤل الوحيد الذي يدخل جوفهم هو ماء لم يشرب عليه ، يشربونه من جردل . وقد شاهد « بيجين » الحراس في احدى المرات وهم يملأون الجردل من بركة راكدة يغطيها وحل لزوج اخضر اللون . ومع ذلك فقد شربه .

واستغرقت رحلة القطار ستة اسابيع تقريبا تخللتها وقتلت كجنت تستمر عدة ايام لاسهل غير معروفة . وعلم المسجونون وهم في الطريق أن المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتي . وابتهج البولنديون واللوانيون ثمان عدويهما سيشتيكان مع بعضهما البعض . ولم يكن « بيجين » يدري أن الحرب الجديدة نحو الشرق والمفخرة بالشر ستؤدي قريبا الى منحه حريته . وكان الخط الحديدي محطها بعد مدينة كوتلاس : « لقد اهترت بنا العربات وكأثنا في سفينة تهتز في وسط عاصفة هوجاء وامسب كثير منا بدوار « قطار » وقمى بستر وانتهكت قوامنا واستغرقنا في النعاس . ولم يعد أحد منا يتقوه بكلمة واحدة » .

وغادر السجناء القطار عند محطة صغيرة اسمها « كوشنا » ثم سلخوا على الاتهام لمدة خمس ساعات عبر جقول موحلة حتى وصلوا الى معسكر الترحيلات . وقام جنود مدججون بالسلاح وكلاب متوحشة بحراسهم . وصاح احد الضباط أن أى شخص يخرج من الصف سيتعرض لابللق النار عليه . وتجاذب « بيجين » ، أثناء المسيرة أطراف الحديث مع أحد الجنود الذى أكد له في قسوة : « لا أحد يخرج من هنا حيا » . وثشق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيلات عبر أراضي المستنقعات حتى ضلّاب نهر « بونتشورا » ، حيث تم شحنهم على قاطرة سفينة نارية مع شحن من القطن الحديدية . وتعرف « بيجين » من حديث اجراه مع حارس آخر ، على بعض ما ينتظره من يؤس . وقال له الحارس وهو يشير بابه الى اللقافة التى يحملها « بيجين » ، وتتضمن حلجياته المتواضعة « سترى ، انهم سيأخذونها منك » . ولم يفصح عن يقصد بكلمة « هم » .

وقد تم نقل « ميرون شيسكين » و « ديفيد كروك » وهو صديق آخر لبيجين من التمشحين : على نفس القطار المتجه نحو الشمال ، ولكن في

مربيات مختلفة . وعند وصولهم الى معسكر « بيتشور » ، قام « كرول » ، الذى يتصف بسمة الحيلة ، برشوة أحد الضباط لوضع ثلاثتهم معا فى مستشفى المعسكر . وقد كلنهم ذلك ثلاثة تمصان من لمفاتهم الثينة . لقد أصبخوا فى منطقة « الليالى البيضاء » حيث تكاد الشمس القطبية لا تغيب أبدا ، ويستمر الشتاء تسعة أشهر فى السنة ، وكان على المرضى أن يركضوا مسافة ميل تقريبا وهم نصف مرأيا فى درجة حرارة تقل عن الصفر حتى يصلوا الى مبنى الصمام . وقيل لبيجين : « ستمتد على هذا ، والا فانتك ستبوت » . وقد خشى « بيجين » فى أول ليلة له بمبنى المستشفى ، من أن يهلك ، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الأحمر وعن ذلك يقول :

« لقد ظلت اعداد هذا العدو الرهيب المصمم على امتصاص دمي ، تتزايد باطراد . وحاولت اللجوء الى استخدام تكتيكات مختلفة لتضليله ، فغيرت وضعى فى السرير ، ولكن لم تفلح هذه manoeuvre . فلن العدو أمسك بى ورفض الخلى عنى ، ولم تغبض لى عين فى تلك الليلة . وقد حدث نفس الشيء لجميع المستجدين الآخرين ، أما المخضرمون فقد نابوا مثل الملائكة . لقد استطاعوا أن يمتلكوا عليه » .

ويعد أن أمضى « بيجين » أسبوعا فى المستشفى ، بدأ تكليفه بالعمل فى بناء الخط الحديدى الممتد من « كوتلاس — ناركوتا » ، « بابر من الحزب والحكومة » . وكان زملاؤه فى العمل خليطا متباينا من الأفراد ، فكثرا يكونون من روس وبولنديين ، ولتوانيين ، ولتفانين وأستونيين ، ورومانيين ، ويهود . وكان من بين الفئة الأخيرة مساعد رئيس تحرير مفضوب عليه بصحيفة برامدا ، يشكو من مرض فى القلب وحرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك « بيجين » ان التمييز الهام الوحيد هو ذلك القائم بين المسجونين السياسيين والمجرمين . وكان للمجرمين اليد العليا حيث كفوا بقباهون بقوتهم الجسدية ويرهبون المفكرين الحقراء . وعندما قام أحد المجرمين بسرقة معظم حلجياته أثناء نومه ، أدرك بيجين قصد الحارس . انهم تمسلا « أخذوها كلها » ، ولكن بالتسيط !

وكان المسجونون يقومون بنقل قضبان حديدية الى مسافة ربع ميل من مركب ترسو عند نهر منشورا ، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقول حتى مرية سكة حديد منتظرة . وكثرا يعملون بمصاحبة فرقة موسيقى نحاسية تعرف الاناشيد التى تشدو بعظمة التجار السوفييتى . وكانت القضبان التى يحملها المنجونون — واحد على كل كتف — تسلخ الجلد ، وتسبب آلاما مبرحة . ومما ساعد على مضايقة الألم ، طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يوميا . ويشكو « بيجين » فى مذكراته قائلا : « ان الناموس يزق ويلدغ ، ثم يشرب

ويزن .. ليس هناك أى مهرب منه » . وكلفت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن ، بالرغم من أنهم كانوا يعملون فى الهواء الطلق . لقد كان البرد قارسا بدرجة لا تحتمل . وكان الرجال يتناظون من أجل كسب مكان بالقرب من المواقف ، وقد لاقى اثنين من الفتيان اليهود كفا يشاركن « شيسكين » فى كوخه ، هتفها نتيجة للتجدد من البرد . وكان العمل مضنيا بينما كانت الجسرية اليومية أقل من أن تقيم الاود . وقال بيجين فى مذكراته « لقد شاحنت على ضفاف « البيتشورا » حيوانات تسير على قدمين » . وكسرا للبلل ، كان يتم تبديل ورديت مجموعات العمل كل عشرة أيام من فترة النهار الى الليل . ونتيجة لهذا النظام لم تتح لهم أية فرصة ليوم من الراحة الاسبوعية » .

وفى صباح أحد الأيام ، بينما كان « بيجين » فى طريقه الى العمل ، سأل أحد الحراس : « هل أنت بولندى ؟ فأخذ « بيجين » يدقته الممهودة يشرح له انه يهودى وان كان موطننا بولنديا ، ولم يكن الحارس مهتما بمثل هذه الفروق الدقيقة ، فان لديه أخبارا يريد نقلها اليه . فقد سمع فى الاذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين ، وانفقت الحكومتان البولندية والسوفيتية على إطلاق سراحهم حتى ينضموا الى المقتل الدائر ضد الالمان . وتكثرت الشائعة ، عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى « البرافدا » ولكن ذلك لم يكن سببا كافيا ، من وجهة نظر « العالم » البيروقراطى الموجود فى « الجولاج » ، للانفراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك . وعلى هذا فيجب عليهم أن يعملوا ، حتى حصوله على تلك التعليمات ، من أجل تحقيق ما أصبح بمثابة « هدف مشترك » قهر العدو الالمانى . وواصل « بيجين » و زملاؤه ، لمدة أيام أخرى ، أداء أعمال السخرة فى معسكر « بيتشورا » للاشغال الشاقة ، وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعا ويحكون جلودهم .

وبدلا من وصول الامر بالانفراج عن البولنديين ، تلقى قائد المعسكر أمرا بإرسال مجموعة من الرجال الى معسكر آخر على النهر نحو الشمال ، حيث يمكن استغلالهم فى أعمال أكثر فائدة . واختار المسجونون البولنديون « بيجين » للاعتراض نيابة عنهم . فما غائدة إرسالهم الى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريبا ؟ ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئا . وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يمددهم « اذا وصل الامر بالانفراج عنكم فانا سنأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم الى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا اليها » .

وكان « بيجين » واحدا من ثلثمائة رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع ، أبحرت لمدة ثلاثة أسابيع على نهر « بيتشورا » ولم يكن فوقها بكن للوقوف أو التحرك أو حتى للجلوس ، بل كان على الشحنة الآدمية أن تنام ليلا

ونهارا فوق سراير خشبية ترتفع الى ثلاثة طوابق على جانبي جدران العنبر الذى تفوح منه رائحة كريهة خائفة . وكنوا يشربون من مياه النهر الباردة الأمر الذى أدى الى اصابة معظمهم بالإسهال . ولم يكف المرحاضان البدائيان لاستيعاب هذا الضغط عليهما . وتمرض المسجونون كذلك لهجوم جيوش القبل . واخذ المجرمون يتكلمون على المسجونين السيلفيين ويجمعون الحشرات ويلقونها على وجوههم . ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المفضوب عليه والذي كان واثقا من أن المجرمين يهدفون قتله - رجسا « بيجين » أن يساعده على ترديد نشيد « الهاتيكفا » الذى يتذكر أجزاء منه منذ أيام شبليه فى « أوديسا » .

وكانت محنة « بيجين » والبولنديين قد اقتربت من نهايتها ، وإن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهودى الروسى من « البرافدا » فقد وفى قائد المسكر بوعده فعندما وصل أمر الانعراج أخيرا بلغه الى ناقلة البضائع ، وأصبح من المقرر إطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس . وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتفا : « بيجين » ثم بدا يردد الاسماء ، الاسم تلو الآخر ، وفقا للترتيب الأبجدي . ورد كل واحد منهم على النداء بترديد اسمه واسم أبيه ، وعلى رأسهم « مناحم وولفوفيتش » . وأعلن الحارس : على الذين ناديت اسمهم ان يجمعوا حاجياتهم ، فقد صدرت الأوامر بالافراج عن البولنديين . مستصحبون أحرارا . وسيطرت الفيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين ، فأشار الى « بيجين » وقال محتجا : « أنه من « الزيد » ( أى يهودى حقير ) وليس بولنديا . وتجاهله « مناحم وولفوفيتش » ، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات .

## الفصل الخامس

### الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية

أخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقتلوا الألمان ولكن دون أن يوجههم أحد إلى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال « غلاديسلاف أنديرز » ، وتركوا ليتوصلوا إلى المكتب بمفردهم . فقد اقلهم الروس فى سفينة إلى معسكر ترحيلات ، ومن هناك منحو أوراق الامراج عنهم من « الجولاج » بلا أى تعقيدات . ومنح كل واحد من البولنديين مبلغا من المال وأطلق سراحه . وقد حصل « ميرون شيسكين » على مبلغ يكفيه للقيام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار إلى « كويشيف » ، حيث حاول اقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق « جلفونيمسكى » الذى اشترك فى الحرب العالمية الأولى ، ولكنهم قبلوا بدلا من ذلك بتعيينه ضابط اتصال يهودى برتبة ميجور بمكتب « أنديرز » .

ولسبب غير مفهوم ، لم يتم الامراج عن « ديفيد كرول » صديق « بيجين » الاخر من « حركة التصحيح » ، والذى كان قد اسندت اليه مسئولية الاشراف على مجموعة العمل ، وذلك على الرقم من اثنه جاء معهم إلى معسكر الترحيلات . وظل « بيجين » يمتدد لسنوات طويلة بعد ذلك انه استشهد فى الشمال الناقى . ولكن فى أوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى إلى اسرائيل قادما من منطقة جبال الاورال ، ليقول : ان « كرول » « حى يرزق » ، ويبلغ تحياته إلى بيجين و « شيسكين » وأبلغهم انه « يطلب منهما ارسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة » غير أن الزائر أبلغهما بعد ذلك وقبل ان يتمكن من تلبية طلبه ، أن « كرول » توفى فى حادث طريق .

ولم تكف النقود التى حصل عليها « بيجين » ، لمد احتياجاته مدة طويلة . فشق طريقا عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار ، الذى كان يركبه بدون تذكرة ، وينام على الارض الوعرة ، ويأكل كلما كانت تسنح له الفرصة وسط هذا « التقطيع المشرذ » من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير هدى نحو الجنوب أبان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١ . لقد تعلم سر البقاء أثناء حياته فى المعسكرات : « أنك تستطيع التعود على كل شيء » . وكان واضحا ان الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال الماتة ، مهما كان ما أثبتوه من قدرة على التحصيل . ورفض طلب « بيجين » ، فواصل طريقه يحنوه الأمل فى العثور على أخته

« راشيل » وزوجها الذي كان قد تم ترحيله قبل اعتقال « بيجين » في « نيلنا » .

وسمع « بيجين » في إحدى الليالي ، وهو ينمى عند محطة سكة حديدية ، واحدة من « المتشردات » وهى تحكى عن مناجم النحاس في « الأورال » ، وذكرى المرأة ، التى كانت تنتظر مثل « بيجين » أن تسنح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل ، اسم « هالبرين » . وسألها « بيجين » دون أن يسمح لآماله بالتطبيق عاليا ، مما إذا كان « هالبرين » هذا الذى ذكرته هو بحلم من وأرسو ، وعما إذا كان اسم زوجته — بالصفة هو « راشيل » . وشاء الحظ أن ترد على تساؤلاته بالإيجاب . واستطاع « بيجين » بمساعدة تلك المرأة ، أن يصل إلى أخيه وزوجها واجتمع شملهم مرة أخرى نيبيا وصفه بكوخ « حقير مبنى من الطين في بلدة أوزبيكية صغيرة ، هى بلدة « ديزيك » الواقعة فيما بين « طشقند » و « سمرقند » ولم يتم وجودهم مما مدة طويلة . فقد سمع « بيجين » أن الروس قد بدأوا مرة أخرى بلقون اللقبض على المزعمة السياسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفا حتى في أوزبكستان ، فقد انتقل إلى مدينة « مارجيلان » حيث كانت ترابط الفترة التاسعة البولندية ثم علم من أخيه بعد أسابيع قليلة أن « أشخاصا لا تعرفهم » قد جاءوا إلى كوخها واستقروا عن مكانه .

كان « بيجين » قد قبل في « مارجيلان » الميجور « شيسكين » واثنين آخرين من أعضاء حركة « البيطار » ، الذين قدموا له الطعام والمأوى . وبموجب اقتراح من « شيسكين » ، قاموا باستدعاء « يوهاتان بادر » محلى حركة « التصحيح » الذى كان يعيش في المنفى بروسيا . لقد كانت شبكة اتصالات « البيطار » ما زالت تعمل بكفاءة ! واستطاع « بادر » قطع مسافة ١٢٠٠ ميل سيرا على الأقدام ، والوصول إلى مكان الاجتماع بالرغم من نشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس وقد وجد « بادر » أن « بيجين » ، بفضل مضيفيه من أعضاء البيطار ، كان بحالة أفضل مما كان يتوقع . واستفسر « بيجين » ، الذى كان يرتدى « جاكته » من الجلد وحذاء برقية عالية ، عن كيفية الوصول إلى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين . ويعود « بادر » بذاكرته إلى الوراة فيقول « كان كلانا يوافق على أن المهمة الأساسية في « ارتز إسرائيل » أى أرض إسرائيل التاريخية ) هى محاربة الحكومة البريطانية . ومرة أخرى بدأ واضحا أن « بيجين » لم يحد من هدفه نتيجة لوجود بريطانيا في حالة حرب مع النازى . بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفييت على تصريح خروج وإنه من الأفضل أن ينضم إلى الجيش البولندى . وقال « بيجين » ، متعلما بعد مرور عقد من الزمان ، قام خلاله بالثورة : « لا أظن أنه قدم لأحد ، على مدى حياته كبحام ، نصيحة أفضل من هذه » .

غير أن « بيجين » كان محجبا عن تعريض نفسه للكشف الطبي على الرغم من انه كان يترك حكمة هذا الامر . فقد تعرض من قبل للرفض لاسباب صحية ، وشعر انه جرح في كبريائه . بيد أن صديقيه الاكبر سنا « بادر » و « شيسكين » اقنعا بان يحول مرة أخرى . وأعلن الطبيب في هذه المرة أيضا عدم لياقته . وقال ان قلبه مريض ونظره ضعيف ، فكيف يكون جنديا لاثقا ببولندا الام ؟ ولم يرض شيسكين بترك الامر عند ذلك . فتناوض سرا والمجور « لنيك » رئيس اركان قلعة الفرقة . وأجرى الضابط البولندي اختبارا شخصيا لبيجين ، ثم ارسل مذكرة الى طبيب الجيش تتضمن تعليمات اليه باجالة لياقة الجندي المستجد للخدمة ولم يكن الطبيب قد نسي حـ . « بيجين » الغلبة او نظارته ولكنه تغاضى عن شكوكه . فأعلن صليها « القلب والرئة في حالة ممتازة » . وحتى لو كنت تصير النظـلـر ، فإليك ستتعلم في الجيش كيف تصيب الهدف جيدا . وكان التحاق « بيجين » بالجيش البولندي ، بمثابة نقطة تحول في حياته . فقد انت به الى فلسطين وإلى قيادة منظمة « أرجون زئاي ليومي » . ولكن المسألة أبان عام ١٩٤٢ ، لم تزد عن كونها مقبرة . فلم يكن لدى زعماء « حركة التصحيح » الموجودين آنذاك في « مارجيلان » أى تأكيد بأن جيش الجنرال « اندروز » مسوف يرسل الى « الارض الموعودة » . ويقول « بادر » : « لم تكن المسألة تزيد من مجرد اعتقاد شائع ، ولم تكن أية قرارات قد صدرت بعد » . ولكن المخاطرة آتت اكملها .

وكانت تجربة « بيجين » البولندية في هذه المرة ، كسابقتها ، غير مشجعة اطلاقا . فقد تلقى تدريبه المبدئي في جو يسوده العداء للسامية والاهانت والاذلال . وكان عزاؤه ان هذا الوضع لن يستمر طويلا . فأرسلت وحدته جنوبا عن طريق ميناء « كرازلوفودسك » الى ايران والعراق ثم شرق الاردن . وكانت الضفة الغربية للاردن قد أصبحت فعلا في نظر « بيجين » هي « أرض اسرائيل » ... أرض الاجداد .

وكتب في مذكراته فيها بعد يقول : « توقفت القافلة العسكرية لتستريح . وغادرت العربية وسرت الى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت بلـء رثتى من هواء وطنى القومى » .

عين « بيجين » في مايو ١٩٤٢ ككتبا في القدس ، حيث عمل في مكتب المجور المسئول من المدينة . وقد ظل بيجين جتقيا ملجيا الى ان أصبح رئيسا لوزراء اسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية في المنفى بمنحه رتبة بريجفيلر جنرال بائر رجمى . والتقى « بيجين » ولزوجته « اليزا » مرة أخرى في القدس حيث انتقل للاقامة بالحجرة التى تستأجرها بالدور الارضى



في المنزل رقم ٢٥ شارع القامى بضاحية « زحافيا » الظليلة والمفضلة لدى  
أساتذة الجملة والمحامين والإطباء اليهود من الطبقة المتوسطة ، وحيث  
تسعد الاحاديث باللغات الألمانية والعبرية والانجليزية على السواء . وقد ولد  
اول ابنائها « بنيامين » في شهر مارس ١٩٤٣ .

وانفمس « بيجين » لغوره في الشئون السياسية « لحركة التصحيح » ،  
ونكته ، على خلاف الجنود اليهود الآخرين ، رفض ترك الجيش البولندي ،  
وتال بيجين لمصريكه القديم في لعبة الشطرنج ، « إسرائيل الداد » ، والذي  
اصبح عضوا نشطا في « عصابة شتيرن » : « لقد وعدت وعد شرف ،  
وأقسمت بي . . ولن اترك الخدمة » . بيد انه عين رئيسا لحركة « البيطار »  
في فلسطين ، « وهو ما زال في زيه العسكري . ولكنه سرعان ما استقال من  
هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات ، وبدأوا  
يتحررون الامر . ومع ذلك ، كانت تجرى استشارته فيما يتعلق بمشاكل  
« منظمة أرجون زناى ليوى » ، وكان يزور معسكرات التدريب النازية  
للمنظمة سرا . وبدأ الحديث يتردد فعلا من توليه قيادة المقاومة السرية على  
الرغم من افتقاره الى الخبرة العسكرية .

كانت « الأرجون » قد وصلت الى درجة متقدمة من التدهور عندما وصل  
« بيجين » الى فلسطين . فقد ضاع منها الهدف بونا « جابوتنسكى » ،  
وما تلا ذلك من انشقاق « افراهم » شتيرن عن الجماعة ، وفقدان ثلثيها  
الشباب الملهم « دانييل رازيفيل » ، الذى قتل في مايو ١٩٤١ ، أثناء قيامه  
بمهمة سرية في العراق بتكليف من البريطانيين .

وقد شهد « ايثن ليفنى » ، الذى أصبح عام ١٩٤٣ ، رئيسا لعمليات  
منظمة أرجون ، بأن « المنظمة كانت في غاية القوة عندما وقع الخلاف » .

« كان الجيش البولندي يزودنا رسميا بالأسلحة التى بيعتها لنا افراد  
شعبنا في بولندا . وكان في استطاعة الأرجون استدعاء أربعة ألوية ،  
أى حوالى أربعة آلاف عضو للقتال . وكنا نملك عدة آلاف من البنادق ،  
وعدة مئات من المسدسات ، وعشرات من المدافع شبه الآلية التى تمسكها  
بتوحيدها من فنلندا ، وبضعة عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة ، كما  
كنا نملك قنابل نغوم بتصنيعها بأنفسنا . وكانت تلك الأسلحة تعتبر حديثة  
آنذاك .

« وعندما وقع الخلاف ، اختفت معظم هذه الأسلحة ، وانضم حوالى  
ثمانمائة رجل من بين أربعة آلاف رجل الى « شتيرن » . وبقي في صفوف  
« منظمة أرجون » أقل من ألف رجل . أما الباقون فقد تطلوا عن مواعدهم  
متذرعين بأنه لم يعد في وسعهم الاختيار بين الجماعتين الوجوديتين — وربما

كانوا صالحيين في زعمهم هذا . وكلفت المماسة الكبرى هني أن أحدا لم يكشف عن مكان مخبأ الاسلحة . ولم يعد لدى « الأرجون » بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الأفراد النظاميين المتفرغين لا يزيدون عن الخمسة تقريبا . أما الهياتون فقد واصلوا العمل في وظائفهم . وكان يتم استدعاهم للتدريب ولاداء مهام خلسة . وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا — اى خمسمائة رجل — الى الجيش البريطاني في الفترة بين عامي ٤٢ — ١٩٤٣ تباهيا كما فعل كثير من المنشعبين » .

هذا وقد خلف « يعقوب مريدور » « يسرائيل » ، حيث رثى من الصف الثاني من قيادة « الأرجون » بعد الشقاق الذي وقع مع « شتيرن » . ويؤكد « ليفني » أنه كان محبوبا : « وكان يترك انطبعا طيبا لدى المحيطين به ، وكان يبدو في صورة « الصابرا » الحقيقي ( من ولد في اسرائيل ) ، الذي تبدد جنوره مميّنا في الارض ، ويميدا تباهيا من صورة القادمين من الشتات . وكنا نعتبر « مريدور » ، آنذاك ، افضل الخيالات ابلهنا . ولكنه اصاب كل مواليد ( فلسطين ) والقادمين الجدد من اوربا بخيبة الامل . لقد وجدده « ليفني » مغرطا في الخيال :

« لقد اثبتت الايام ان مريدور ، لم يكن رجلا عمليا وكان يختار الذين يعينون معه من بين رفاقه ، ولكنه لم يكن موفعا دائما في اختياره . وقامت المؤامرات ، في منتصف عام ١٩٤٣ ، داخل القيادة العليا . . ولم يستطع « مريدور » ان يجمعهم حوله . لقد كان دائما ودودا ، وكان من بين القلة المتروجة بيننا . وقد حاول ان يتصرف كانه يرأس جماعة من الزملاء الذين يتساوون في الكفاءة . وربما كان قد توصل الى استنتاج ذاتي بأنه لا يتبع بالقوة والجاذبية الشخصية اللاتقة بقائد اعلى » .

وصدق « دافيد جوتان » ، رفيق « بيجين » من « فيلنا » على هذا بقوله :

« لم يكن مريدور ، يتبع بشخصية قوية لاتقة بالموقف . لقد كان صادقا ، ويتبع بخبرة عسكرية واسعة ، كما كان محبوبا . ولكن الظروف كانت تستدعي في ذلك الحين وجود شخص يتبع بزعامة شعبية . ولم يكن « مريدور » طموحا ، لقد كان شجاعا اثناء العملية ولكنه في الواقع مغرطا في التواضع .

وتحولت الانتظار ، بصورة متزايدة ، نحو « بيجين » ، ولكن كان لابد أولا من اخراجه من الجيش البولندي . ولما كان من الصعب اتناعه

بترك الجيش تلقائيا ، كما كان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب شريف ، فإن السبيل الوحيد الباقى كان العمل على أن يمنحه البولنديون اجازة طويلة الاجل ، مع احتمال مدها . وأسندت هذه المهمة الى «هايك كاهان» المحابى للبلغ من العمر ٤٠ عاما ، الذى قدم من وارسو . وقد وصل «كاهان» الذى كان من التصحيحيين فى وارسو ، الى فلسطين قبل بضعة اشهر من وصول «بيجين» . وكان مسئولوا خلال الثلاثينيات من الاتصال بالنظام البولندى الحاكم والذى كان يعرف كثيرين من اعضائه منذ ان كان فى المدرسة والمجلمة ، كما كان وسيطا فى الحصول على جوازات السفر وتأثيرات الخروج لاعضاء «منظمة بيطار» ، فضلا عن أنه كان قد تلقى تدريبا هنسكيا ، وكان من حقه ارتداء زى «الوحدة الخاصة» فى سلاح طلابة الكلية العسكرية . وقد تعرض هو ايضا الى الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية ، قبل أن يفرج عنه لينضم الى الجيش البولندى . وتكن «كاهان» عندما كان يخدم فى العراق ، ومن خلال معارفه السابقين ، قبل الحرب من أن يحصل على تسريح من الجيش لأسباب صحية . واتجه الى فلسطين مستخدما تصريح اجازة . لها بالنسبة لحققة الاتصال التى كانت ستؤدى الى خروج «بيجين» من الجيش وانضمامه للمقاومة السرية ، فقد كانت مزورة .

فقد كان «كاهان» يزور بانتظام الادارة الاعلامية البولندية بالقدس ، حيث قابل «تريزا لييكووسكى» ، التى كتبت من الارستقراطية البولندية وأحدى تربيئات رئيس بولندا ، الجنرال «فلاديسلاف سيكورسكى» . وكانت «تريزا» مهتمة بالمسألة اليهودية ، فتولى «كاهان» تعريفها بالصهيونية . وتبنى «كاهان» فكرة استغلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية - يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة ، يروج لهما ليهود «هيلل كوك» وغيره من «التصحيحيين» هناك . واقترح كاهان ان يقوم البولنديون ، كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود وارسلونهم للقيام بجولة فى أمريكا . وفى ذلك الوقت ، عاد «ارياه بن - اليمسور» ، الذى كان أحد مندوبى الأرجون فى الولايات المتحدة ، الى فلسطين ، حاملا معه «البوما» يتضمن صورا تبين كيف قُتل «التصحيحيون» بجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من أجل انتقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية . وربما كانت الصور تبألغ بعض الشيء فى تقدير تأثير هؤلاء المنقذين ، بيد أنهم حازوا ،عجاب البولنديين ، فطلبوا تزويدهم بقائمة بأسماء الجنود اليهود الذين يمكن إرسالهم الى الولايات المتحدة . وكان اسم «بيجين» من بينها ، ولكن بدا أن المؤامرة قد دفنت فى الرمال عندما رفضا البريطانيون .

الا أن الخطوة أمكن اتخاذها عندما نقلت قيادة الأركان العلمية البولندية من العراق الى «ريجو عوت»، الواقعة بين القدس وقل أيبب. وأجرى كاهان بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم فى وارسو. ولم يحصل على رد فوري، ولكنه تلقى فى يوم خاتق الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣، دعوة لتناول المفءاء مع أحد الجنرالات ( وهو الجنرال نفسه الذى دبر له مسألة تسريحه من الجيش ). وقال له الجنرال : « لقد صدقت اليوم على منح كل رجالك اجازة طويلة الأجل ». وكان « بيجين » منهم ، حيث حصل على اجازة لمدة عام ، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة فى أداء مهمتها بالولايات المتحدة ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا : اننا لم تكن ننوى اطلاقا ، ارسال « بيجين » الى هناك . وعلى أى الحالات فان البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر ، ولم يكثر البولنديون باستدعائهم مرة أخرى . ويقول « مريك كاهان » : « لقد كان الضباط البولنديون متعاطفين مع منظمة « الارجون » .

ولم يكن طريق الوصول الى قيادة الارجون ممهدا تماما . فعلى الرغم من أن مريدور لم يكن يمانع فى أن يعمل تحت قيادة بيجين كسكران له ، كان يشعر من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة اسناد هذا المنصب الى رجل عسكري واعترضوا على « بيجين » لانه وافد حديثا على البلاد وليس لديه خبرة فى تخطيط العملية أو كقائد ميدانى . بل أن بعض القادة الاقليميين الذين شعروا بالاحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم ، « تركوا » بعد أن استولى « الببطار » البولندي التى كانت أكبر مصدر لتزويد الارجون « بالقوة البشرية » وخاصة بالنسبة للمسنويات العليا . ولو كان « ارياه بن اليعازر » لم يفادر فلسطين ويسافر الى أمريكا عام ١٩٣٩ ، لاصبح منافسا قويا لبيجين حيث انه كان رجلا يجمع بين القدرة على الخيال والقدرة على العمل . بيد ان « بن - اليعازر » كان يشعر بأنه يعتمد عن المسرح اكسر من المطلوب وان عمله فى الخارج جعله مللتا للانتظار أكثر مما ينبغي . ولذلك فقد تلقى بكل ثقله وراء ترشيح « بيجين » . وكان « بن - اليعازر » قد عاد أساسا للبحث عن العلة فى عدم فعالية « الارجون » ، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة . يقول « ايتان ليفنى » فى هذا الصدد: لقد كان هو الذى اقنع مريدور بضرورة الانسحاب ولقد استطاع ان يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل الحرير . كان « بن - اليعازر » الشخصية السياسية الوحيدة الأخرى التى كان « بيجين » يتعامل معها على أساس التندية كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة .

وافقت الاغلبية العظمى من قادة الارجون مع « بن - اليعازر » على حاجتهم الى قائد يستطيع اشغال جذوة النار القندية للمنظمة وحياء ثقها بنفسها. ووفقا لأقوال « ديفيد نيف » العضو المخضرم فى « الارجون » ، والمؤرخ الرسمى

لها فان « المسألة لم تعد ، بحلول نهاية عام ١٩٤٣ ، مجرد مسألة تحطيط عمليات عسكرية ، لكنها كانت مسألة اتخاذ موقف . لقد حان الوقت لان يتولى الحركة رجل سياسة بدلا من قائد عسكري محترف ، فان كل القرارات اصبحت تحتاج الى حساسية سياسية » . وكانت هذه الملاحظات تنطبق تماما على « بيجين » ، فهو يحظى بالاعجاب ، وكانت سمعته الثورية تسبقه في كل مكان ، كما انه كان يملك الادراك السياسى اللازم . أمسا المعرفة العسكرية ، فهو يستطيع الحصول عليها من غيره .

## الفصل السادس

### انتهى الهدنة

قال « ايتان ليفني » ، رئيس عمليات منظمة « ارجون زفاى ليومي » ،  
ننلحم ببجين « فى نهاية عام ١٩٤٣ : » أن القرار الذى ستتوصل اليه سينم  
تنفيذه . فإتني ورجالي على أهبة الاستعداد » وبذلك أصبح « ببجين » هو  
القائد الاعلى الجديد « لمنظمة الارجون » الذى أعلن من أول فبراير عام  
١٩٤٤ ، التمرد على الحكم البريطانى ، دون أن يعوقه عن ذلك ادراكه أن  
« ليفني » ما كان يستطيع أن يدفع الى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب  
وكان « ببجين » قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه الى يهود فلسطين .  
بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى ، أى قبل عدة اشهر من ذلك  
التاريخ . والان حان الوقت لطبعه فى منشورات ورقه على اللافتات . ولم  
يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى ، وكانت بريطانيا  
لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك ، ألمانيا النازية ، ولكن كانت  
الهدنة بين اليهود البريطانيين قد انتهت فى نظر « ببجين » الذى أعلن :  
« ان كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاثل » . وكما رأينا من قبل ، فإن  
« ببجين » لم يكن لديه ، على أية حال ، فائض من الصبر ليضيفه على تلك  
الهدنة . وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا ، وما  
شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود قرضها « الكتاب الابيض » ،  
الذى صدر عام ١٩٣٩ ، على الهجرة اليهودية ، ومن تصد قاس للمراكب  
المحملة باللاجئين - أدى كل هذا الى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت  
قد دفعته الى معارضة « جابوتنسكى » منذ ستة أعوام . لقد أن الأوان  
للنضال و « لتحطيم الأبواب من الداخل » .

وأعلن :

« لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب ، وتبخرت كل الآمال التى  
نخرت بها صدورنا وكتبها لم تكن . ان أحدا لم يمنحنا مكثنة دولية ، ولم يتم  
انشاء جيش يهودى ، ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد . لقد أحكم النظام  
البريطانى خيائته المخزية للشعب اليهودى ، ولذلك لم يعد هناك أى أساس  
معنوى لبقائه فى أرض اسرائيل التاريخية .

« اننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والادارة  
البريطانية فى أرض اسرائيل ، والتى تسلم اخواننا لهتلر ، ان شعبنا يعلن

الحرب على هذا النظام - الحرب حتى النهاية • وتنحصر مطالبنا فيما يلي : نقل السلطة فوراً داخل أرض إسرائيل التاريخية الى حكومة انتقالية عبرانية •

لقد وصم « بيجين » البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر • فان ما يعرفه كان كافياً لاتقاعه بأنهم كانوا يشركون ، على الأقل ، المعادين للسامية في سلبيتهم وعدم اكتراثهم بمصير اليهود • وقد أدرك « بيجين » هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر الى الماضي من خلال منظور تحليلي والتي يملكها المؤرخون • ولم يكن يرى أمامه حلاً بديلاً للقتال • ومع ذلك أعلن « بيجين » ان قتال « الارجون » سيكون فضلاً سياسياً بالاماليب العسكرية • فان « بيجين » رجل السياسة ، كان يفرض قيوده الخاصة : فمُنظمة « الارجون » ، على خلاف « عصابة شتين » ، لم تكن تقاتل الامبراطورية البريطانية ، بل كانت حربها موجهة ضد الادارة في فلسطين ، وليست ضد الحكومة والامة البريطانية • وكان « بيجين » يصّر ابان مفاوضات علم ١٩٤٤ التي دارت من اجل توحيد الجماعتين المشتتين ، على ضرورة كلف اعضاء « عصابة شتين » عن استخدام تعبيرات مثل « الحكم الاجنبي » و « الاستعمار البريطاني » في دعائيتهم • وعندما تسال زعيما « عصابة شتين » ، « ناتان يالين - مور » و « اسحاق شامير » عم يستخدمان من عبارات بدلا من ذلك ، اقترح « بيجين » استخدام تعبير « الحكم الظالم » •

ولم يكن اصرار « بيجين » المتناد على ضرورة الدقة اللفظية ، والذي كثيراً ما كان يثير الغيظ ، يهدف الى مجرد الالتزام بعلم معاني الكلمات • فكان يرى ان مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساساً على عاتق الادارة الفلسطينية • ولذلك فان الواجب يحتم توحيد القتال ضد الادارة في القدس بدلا من الحكومة في لندن التي يجب اقناعها بأن سياسة تلك الادارة تتسم بالافلاس ، وبالتالي فانها ستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفاً تجاه قضية اليهود • وعند ذلك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقنها فيهم وتعتمد عليهم بدلا من العرب • وغنى عن القول ، ان اعضاء « عصابة شتين » لم يتأثروا بمنطق « بيجين » •

وقد كتب « بلين - مور » يقول :

« حاولت أن أشرح له أن التصور بإمكانية الفصل بين الإدارة المحلية وحكومة لندن ، ليس الا وهما • وانه غير قائم على أساس من الواقع • ويجب علينا أثناء حرب التحرير ، ضرب الجهاز العصبي للحكم البريطاني في لندن • ان « أرض إسرائيل » ليست لها أهمية بالنسبة للامبراطورية البريطانية سوى انها قاعدة عسكرية لفرض الحكم البريطاني على دول المنطقة ، كمحطة على الطريق الى المستعمرات والممتلكات التي تقع نحو الشرق •

وتمسك « بيجين » بموقفه مؤكدا أهمية التفريق بين التعيينين ، وذلك في الاجتماع السري الذي استغرق خمس ساعات مع « موشيه سنيه » ، الذي كان آنذاك نائبا لقائد قوات « الهاجاناه » الدفاعية ، والذي كان يصره منذ أن كان طالبا في وارسو . وقال « سنيه » ، أثناء نقاشهما الذي امتد طوال إحدى ليالي شهر أكتوبر ١٩٤٤ ، « لقد قمت بإعلان الحرب على إنجلترا » فصيح له « بيجين » معلوماته قائلا : « ليس على إنجلترا ، إنما على الحكم الظالم ، فإن إنجلترا ليست عدوا لنا ، إن هذا هو ما يقوله أعضاء « شتيرن » انهم يشنون حربا ضد العدو الانجليزي » .

ولما كتبت بريطانيا ، على هذا الأساس ، ليست العدو وكانت قواتها تحارب الفاشيين ، فقد فرض « بيجين » على رجاله الالتزام بضبط النفس : فعلمهم أن يمتنعوا تماما عن مهاجمة أي أهداف عسكرية حتى تضع الحرب في أوروبا أوزارها ، وبالمثل ، لم يكن للارجون اية مصلحة في اغتيال افراد الجنود أو الضباط أو رجال الشرطة البريطانيين . وبدلا من ذلك فقد جعل « بيجين » هدفه هو النيل من مكانة بريطانيا ، وكان يقول ان كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية أنجلا ، حتى لو لم يكن نجاحا عسكريا :

« لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة أن نجاحنا في تدمير مكانة الحكومة في « أرض إسرائيل » ، سيؤدي تلقائيا الى انتهاء حكمها . وبمذ تلك اللحظة فصاعدا لم نكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه . وظللنا طوال سنوات نبردنا نوجه الضربة الى مكانة الحكومة البريطانية ، عبدا ، ومن غير هوادة وباستمرار » .

« فإن مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد أو بالشنق أو التعذيب أو الترحيل ، وأن هذه المسائل لا تؤدي الى قهرها أو اضلاعها ، لابد وأن يؤدي في نهاية الامر الى تقويض مكانة أي نظام حكم استعماري يبنى وجوده على تصور غير واقعي لقدراته الشاملة . ويعتبر كل هجوم توجهه المقاومة ويفشل النظام في منع وقوعه ، بمثابة ضربة موجبة الى مكانته . وحتى لو لم ينجح الهجوم فإنه يترك ندبة في تلك المكانة ، وتبدأ تلك الندبة لتتسع لتصبح شرخا يمتد مع كل هجوم لاحق » .

ولكن « بيجين » في حديثه مع « سنيه » أن الهدف هو اجبار بريطانيا على إعادة تقويم سياستها ، واضطرابها الى الجلوس الى مائدة المفاوضات حيث لم يكن في وسعها المخاطرة بتعريض نفسها للاذلال في نظر الدول العربية .

« ان هذا الشيء لن يستطيع البريطانيون ابتلاعه ، ولن يستطيعوا تجاهله . انهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تصاعد موجة نفاطنا ،



فلن يستطيعوا ابتلاعه . وسوف تأتي اللحظة التي سيفعلون عندها الى التفاوض معنا : ان ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية .

وكان « بيجين » يؤدي « معزوفته » ايضا لهم متفرجين امريكيين . وقال ان الولايات المتحدة تريد مد نفوذها الى الشرق الاوسط وأكد ان اي انهك لقوة بريطانيا في المنطقة سيكون اضافة لصالح الامريكيين . وفي الوقت ذاته ، فان استمرار الاضطراب في الشرق الاوسط من شأنه ازعاج الامريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين . ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة في التسوية . وأعرب « بيجين » لـ « سفيه » عن توتره أن يستيقظ الرأي العام الأمريكي ، ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها .

وبدا « بيجين » يمارس نشاطه في فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق ايمانيه بالتأثير في كل من العرب وزملائه اليهود على السواء . لقد كن يؤمن بان الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاما في خطأ جسيم ، حيث كانت تتعامل مع العرب على أنهم اعداء ، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار . وحاولت « جماعة ارجون » أن تبين في عملياتها وفي المنشورات ، التي قامت بتوزيعها في المدن والقرى العربية ، ان الحركة الدائرة انما هي معركة بين اليهود والبريطانيين . ومرضوا على العرب ، تشبها مع مفاهيم « جابوتنسكي » المنبع بالمساواة والحكم الذاتي ، طالما أنهم يتكلمون أن يعيشوا كاثلية في دولة يهودية . أما اذا لم يرضوا بذلك ، فان اليهود سيثبتون لهم أنهم يعرفون كيف يمارسون عن القتال . ولقد كان هذا أسلوبا تكتيكيا أكثر من كونه تفكيراً فلسفياً . ففي عام ١٩٢٨ لم يتردد « الارجون » ، تحت قيادة « رزائيل » في الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود ، ولم تتردد ، وهي تضعف لقيادة « بيجين » اعتباراً من عام ١٩٢٧ ، في مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم .

ولقد صمم « بيجين » ، عندما كان وافداً حديثاً نسبياً من أوروبا ، ازاء استكانة واستسلام « اليشوف » - اي طائفة يهود فلسطين . وتعامل في مناقشاته مع « سفيه » : بهذا ضحى « اليشوف » ؟ أنهم لم يساهموا الا بالقليل في حملة جمع الاموال ، والتعبئة واعمال الاغثة ، وكنوا يتكثفون باغلاق حوائطهم لبضعة ساعة قليلة في مناسبات الحداد ، ولكن كانت المعايير متروحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الارباح . وأوضح ان « منظمة الارجون » تحاول ان تثبت لهم أن واجبهم يحتم عليهم القتال ، وأن هناك شهاباً في سن صغيرة مستعدون لأن يضخوا بأرواحهم . وادعى « بيجين » بان اليهود يساقونهم ، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجول وما الى ذلك

من اساليب المتوكلت الجماعية « اننا نركى مشاعرهم ونعدهم للحرب .  
وينبون الاعداد المسبق ، فلن « اليشوف » لن يهوا للكانح في اليوم المحدد .  
اننا نعددهم لهذا اليوم » .

ونكر « بيجين » « لسفيه » ، الذي جاء بصفته الممثل للشخصى « لدينيدي  
ين جوروين » ، ان المتنافس بين الجماعات العسكرية المظفلة يخدم هدفا  
مفيدا من حيث توزيع الادوار : « فالشيرنيون » يقومون بتنفيذ استراتيجيات  
مبنية على الارهاب الفسردى ، بينما يقوم « الارجونيون » بتنفيذ عمليات  
عسكرية متفرقة في حين تستعد قوات « الهاجقاء » للدخول بقتلها في المعركة  
النهائية . الا ان هذه كانت نظرية افراضية ربما كلفت لها جانيبتها في وقت  
من الاوقات ، غير ان عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الاوقات . ورد عليه  
« سنيه » بحدّة : « لو ان تقسيم الادوار هذا ينبع من مفهوم سياسى موحد ،  
غربا امرا ، ايا وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، فانه لن يسممر  
عن ثمر طيبة » .

وبدأت « الارجون » عملياتها الهادفة الى تقويض المكانة البريطانية ،  
بقيامها في مساء ١٢ فبراير بالقاء القنابل على مكاتب الهجرة في القدس وتل  
ابيب وحيفا . لقد كان عملا رمزيا ولم يسفر عن اضرار تذكر او الى ضحايا  
( باستثناء خنجر عربي أصيب بصمحة بعد ان استدرج بعيدا من موقع جراسته  
بواسطة اثنين من الحبين الهاتمين ، وقفا يتطارجان الغرام داخل بوابة بنى  
مجاور ) . وكلفت الرسالة التى نقلها « بيجين » عن طريق هذا العمل هى ان  
منظمة « الارجون » لن تسكت على ما تبارسه الادارة الحاكمة من صد لليهود  
عن « الأرض الموعودة » بينما هم يساقون الى حتفهم في أوروبا . وبعد اسبوعين  
من هذه الغارات تبهما رجال « الارجون » بالقاء القنابل على مكاتب  
« الضرائب على الدخل » في ثلاث مدن رئيسية ، ويهجوم شنه في ٢٣ مارس  
على مقر قيادة المباحث البريطانية . ومهما كلفت ثوابا « بيجين » فانه اراق  
في هذه العملية الاخرة النساء لأول مرة منذ ان تولى القيادة ، حيث قتل ستة  
من رجال المباحث ، بينهم أحد المنتشين ، واثنين من رجاله . واثار هذا الحادث  
اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودي الفلسطينيين « اليشوف » . وتكلم  
ضابط مخابرات بريطاني عن مخاطر « الهجمات المفاجئة » التى يشنها القتل  
المتعمدون ، الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة :  
« وقال آخر انه بالرغم من ايمان « الارجون » بان عليهم القيام بهمة مقدسة  
وهى اخراج البريطانيين من فلسطين فان « هذا لا يعنى انهم غير مهتمين  
بالوسائل الكفيلة بتحقيقها ، فهم يجمعون بين المهارة والخبت بالاضافة الى  
الجرأة والشجاعة . وفرض حظر التجول وألقى القبض على المشبهين ،  
واعيدت مرة اخرى عقوبة الاعدام ضد كل من يوجد في حوزته أسلحة او . ن  
يقوم بوضع المتفجرات . وتعلمت جماعة « الارجون » درساً لم تعره اهلها

وهو إن عمليات التخريب تعرض حياة الأفراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين أو تلقوا تحذيرات بالتزام الحرم ، وتصاعدت حدة الجراحة والطبوح في الهجمات .. فاصابت في هجماتها التالية محطة إذاعة .وسكك حديدية وحمام الشرطة .

وكانت جماعة الارجون ، في ذلك الوقت ، بمقاتليها البالغ عددهم ستمائة مقاتل ، اقرب الى كونها جماعة ثورية منها الى جيش هجومي . ونلوا ما كان اعضاؤها العاملون يزيدون عن ألفي شخص . وكانت متماسكة ومرتبة ، ويربط بين اعضائها مشاعر الولاء الشخصي والاضباط الايديولوجي . وكقائد عسكري مستجد ، لم « بيجين » تعلم بسرعة . وكان منذ البداية يحسن تحديد الهدف . ولم يشترك خلال العام الأول في وضع التفاصيل التكتيكية ، ولكنه استطاع تدريجيا ان يصبح القائد العسكري الاعلى داخل مقر القيادة ، وان لم يكن كذلك في الميدان . وكانت لديه ثقة متناهية في رؤساء عملياته المتفكرين ، سواء كان ذلك « ليفني » او « اميهاي ( أوجيدي ) باجلين » وكان يوجه دائما الاسئلة المناسبة . ويقول « ليفني » الذي كان يجتمع يوميا و « بيجين » .

« كان تواتر دائما الى معرفة التفاصيل ، ويهرقني بوابل من الاسئلة . لقد كان « بيجين » يريد معرفة كل ما يجري . مثلاً كان على ان اقوم بتوضيح قائد كل عملية ، واسماء الذين يجب ترفيقهم ، وكذا نمزج ، مع اني ذو طبيعة منطوية . وكنت اقول له أسهل على ان اكرر نفس العمل من ان اقوم بشرحه له . اما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة في عملية التوصل الى القرار . ونتيجة لثروته على الانتقال من عملية الى عملية اخرى تزايد لديه للمسلل العسكرية .

ثم يستطرد « ليفني

» وكنت اقدم الاقتراحات ، ولكن كان « بيجين » واعضاء القيادة العليا الخبسية هم الذين يختارون الاهداف وكان « بيجين » يهتم بما اقوله بالنسبة للمسائل الفنية ، ولكني ما كنت لارى ، مثلاً ، ان من الملائم ان يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانية . لقد بدأنا تدريجيا من المنصر حتى كبرنا . وكان علينا ان نكتسب الخبرة ، فلم تكن قد تمنا بعمليات منذ اربع سنوات ولكن « بيجين » كان يطلب في اجتماعات القيادة العليا ، التي كانت تتم كل اسبوع ، بتحديد اهداف تترك انطبعا ضخما في اتجاه العالم . واحيانا كان يطلبنا بوقف العمليات ، ان الامر الذي كان يثير اعجابي ببيجين ، هو منطقته التحليلي وقدرته على التحليل

السياسي ، لقد ساعدني ذلك على الاقتناع بإمكانية نجاح حربنا ، وبالفرص المتاحة أمامنا في المستقبل » .

وكانت « منظمة الأرجون » ، مثل كل المنظمات الثورية السرية ، تواجه مشاكل داخلية متعلقة بالامن والموارد ، ومشاكل خاصة بالخيانة والتمويل والمؤن . ووفقا لشهادة « بيجين » نفسه وزملائه ، فمعه كان يتردد كثيرا في اصدار حكم اعدام ضد الخونة الوشاة . وكانت هذه شخصية « بيجين » ، المحلى مع وقف التنفيذ ، والرجل الرحيم الذي يؤمن بقدسية حياة اليهود . ووفقا لاقوال « ليفني » فلم يعد رميا بالرصاص أثناء قيادة « بيجين » للأرجون ، سوى اثنين فقط من الخونة ، في حين صدر العفو عن عشرة آخرين : « لقد كنت أقيد صدور احكم بالاعدام في احدى القضايا ، ولكن « بيجين » قال لي : « لقد درست المحللة ولن يقبل أى قاض مدنى الادلة التى نغذيها للحكم بالادانة » ، ولقد أخذنا برأيه » .

وقد أدى تردد « بيجين » الى افلات واحد من اكثر وشاة الأرجون حياته بدون عقاب . وكل هذا الشخص هو « يعقوب شيليفنتس » ، عضو « حركة التصحيح » القادم من « فيلنا » والذي كان يشترك في حملة جمع التبرعات . وكانت له اتصالات قوية داخل « الأرجون » . وقام « شيليفنتس » في مارس ١٩٤٤ عندما كان « بيجين » لا زال يعيش في القدس وأسرته ، بشراء هدية بمناسبة عيد الميلاد الأول « لبنيامين بيجين » . وحضرت الشرطة في اليوم التالي لاعتقال قائد الأرجون ، الذي تصادف أن كان خارج المنزل . وكانت زيارة الشرطة بمثابة انذار فاجتفى « بيجين » في « تل أبيب » . وكان وانقا من أن « شيليفنتس » أحضر الهدية خصيصا من أجل معرفة مكان سكن « بيجين » وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الأرجون — ومن بينهم « بيجين » و « مريدور » و « بن — اليعازر » — الى المباحث البريطانية . وتم اعتقال « بن — اليعازر » بناء على ذلك البلاغ . ووقعت القائمة في يد الأرجون .. فلم تكن « منظمة الأرجون » هي الوحيدة التى تعاني من مشاكل أمنية .

وعندما أوصى ضباط الأرجون بتنفيذ العدالة الثورية في « شيليفنتس » أمر « بيجين » منحه نرسمة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له . واستدعى سمير اسم محكمة من ثلاثة أعضاء . وعندما رفض الحضور استدعى مرة أخرى . مر الى مصر . ورأى زملاء « بيجين » أن هذا الفرار يعتبر دليلا كاليا على ادائته ، بيد أن القائد لم يكن قد انتزع بعد .

ويقول « بيجين من هذه الواقعة » :

« لقد قلت انه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع اليه ، وربما كان هذا هو السبب في غزاره الى مصر . وقلت ان من الضروري ان نرسل له امرا بالعودة لمواجهة المحكمة . وكان يوجد آنذاك جنود في الجيش البريطاني من امضاء الارجون . واتجه اثنان منها لمقابلة « شيليفتس » في احد فنادق القاهرة ليطالباه نيابة عنى بالعودة . فقام بتسليمهما الى الشرطة العسكرية .

وعندئذ فقط وافقت على ان يكون هذا دليلا كافيا على ادائته . وقام البريطانيون بابعاده عبر المحيط الى الولايات المتحدة . وقد كنا نعرف هذا . ويقال انه مازال موجودا في امريكا ، ولكننا لا نكثرث بأمره » .

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت « الارجون » من الحصول على الاموال والمعدات ، فقد كان عليها ان تحاول الحصول عليهما من اى مكان . لقد كان لدى « ايتان ليفنى » في مستهل عام ١٩٤٤ ، ستون مسدسا صالحة للاستخدام ، وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر بريطاني ، وعدد من البنادق وبضعة مئات من القنابل اليدوية ، وطلن من المتفجرات . ولم تكن هذه الاسلحة تكفى للقيام بثورة . وملتس أعضاء « الارجون » من أجل الحصول على المزيد من الاسلحة عمليات السرقة والنهب والاغتصاب من اليهود المذنين كانت المنظمة تتطلع الى قيامهم في يوم ما . وأمكن في عام ١٩٤٥ الاستيلاء على ما يقرب من ٢٨ ألف جنيه من الماس أثناء غارة على بعض الرسائل من الطرود البريدية ، كما استولوا على مبلغ مائتين تقريبا نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال المسكة الحديدية . وقد قتل في تل أبيب اثنان من المارة حولاً التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الارجون على خزانة شبك تذاكر سينما « عدن » بالمدينة ويؤمن « ليفنى » انهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلها أمكنهم ذلك . ويقول « لقد ساعدنا في احدى المرات أموال بنك يهودى . وكنت قد اقترحت هذه العملية على « بيجين » الذى طلب منى ان استكشف الشركة التى يؤمن لديها البنك . وعندما اكتشفت ان شركة التأمين هى « لويذ » اللندنية ، وافق « بيجين » على العملية . ومهما يكن من أمر ، فان مخبرات « الهاجناه » حصلت على قائمة بأسماء « المساهمين » الذين يمولون « الارجون » ، وكانت تتضمن ٦٤ فردا وشركة ومؤسسة يهودية في تل أبيب وحدها ، بما في ذلك عدد من أعضاء الهاجناه ذاتها الذين تعرضوا للارهاب حتى يدفعوا .

وكان السبب الاساسى الذى ادى الى فشل اتصالات « بيجين » المبكرة مع « عصابة شتيرن » و « الهاجناه » ، بصرف النظر عن الواجهة الايديولوجية هو : رفض قائد الارجون المشاركة في السلطة أو الاستسلام لرأى احد آخر

لا ينتمى الى صفوفه . لقد كلن « صاحب فكر احدى » ، عنودا ، يتمتع بثقة متناهية في النفس . فليس هنك شىء او مخلوق من حقه ان يتصور انه يستطيع الموقوف في سبيله ، حتى لو كان القيادة الحطية «لحركة التصحيح» التى حرص « بيجين » طوال فترة التمرد الذى قادها ، على الفصل في ازدياد بينها وبين الارجون . فان « التصحيحين » كانوا مهذبين اكثر من اللازم ، ومازالوا يتمسكون بسياستهم القابلة على التعاون مع بريطانيا في زمن الحرب .

ووفقا لاقوال « يلين — مور » ، فان « بيجين » قدم انذارا نهائيا الى عصابة « شتيرن » ، معلنا ان عليهم ، كشرط لمودة الوحدة بينهما ، ان يعترفوا « بجابوتنسكى » كوجه للجبل . وكان « يلين مور » مثل « بيجين » قد ترمى في ظل « جابوتنسكى » ، ولكنه ، على خلاف « بيجين » ، تطور وبعد عنه ، ولم يعد « جابوتنسكى » هو مرجعه الاوى ، ولقد ابدى « يلين — مور » بعد عدة عقود من ذلك الحين ، نفس الروح الاستقلالية المدعومة عندما نادى بالتمائى السلى مع الفلسطينيين العرب ، بينما كلن « بيجين » لا يزال يردد الاقوال التى ادلى بها « جابوتنسكى » امام « لجنة بيل » في علم ١٩٣٧ . وكان « يلين — مور » و « شلير » يشعران في عام ١٩٤٤ انها لا يمكنهما السجود لروح « جابوتنسكى » دون ان يخونا ذكسى زعيمها ، ابراهيم ( او ، ياثير ) شتيرن . الذى قتل في فبراير ١٩٣٢ عندما اطلق بريطانى الرصاص عليه . وكان « شتيرن » قد تمرد على دموع « جابوتنسكى » ، عندما اشتعلت الحرب في أوروبا ، بوقف اطلاق النار على البريطانيين . ولكن كما يقول « يلين — مور » ، كان وراء رفض « عصابة شتيرن » لشروط « بيجين » ، سبب عملى اهم من الاسباب المبدئية :

« اننا كنا سنضطر عند اى اختلاف في الراى يقوم بينها — ولا بد لعل هذه الخلافات ان تقوم — ان نلجأ دائما الى تعاليم « جابوتنسكى » للبحث من حلول لمشاكل لم يكن لها وجود في عهده . واذا وقع اى اختلاف في الراى في تفسير آرائه المدونة ، فمن الذى يحق له حسم المسألة ؟ وسالت « بيجين » مستغوشا : « كيف يمكن الامر اذا ظهرت خلافات في الراى بين الملتزمين ؟ من الذى سيحكم بينهما ؟ ولم يتردد بيجين في القول بأسلوب اشبه بالاشتراط : في هذه الحال فان حق اتخاذ القرار يكون له . وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القديمة ببعضنا وتعاوننا معا على مر السنين ، فقد اصبت بالذهول . فقد كان « بيجين » واثقا كل الثقة من نفوذه المهنوى ، حتى انه لم يشك لحظة في انه وحده هو صاحب الحق ، بلا منازع في اصدار الاحكام » .

وقد اعترف « بيجين » في حوارها و « موشيه سنيه » نائب قائد قسوات « المهلجانه » ، بان « بن — جوريون » هو الزعيم السيلسى « لليسيف » ( يهود فلسطين ) . واعلن ان الارجون لم تكن لديها الرغبة في الحكم ، وانها

مستسر وراء راية بن جوريون بمجرد ان يعلن الحرب على الحكم البريطاني . ولكن حتى يحدث هذا ، فإن أي تفكير في ان المهاجانه حق الاعتراض على نشاط « الارجون » ، مرفوض ولا يمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التهاون بينهما . وأريد بيجين يقول لـ « سنيه » ( أي سنيه ) انها يتكلم معه لجورد ان « الارجون » تتقبل ، ولو لم تكن المنظمة تتقبل لما أصبح لها ذكر . واكد ان الرضوخ « لبن — جوريون » قبل الاوان المناسب انها سيعنى القبول بالتصفيه الثلاثية للمنظمة . ولم يتأثر « بيجين » بلحجج القليلة بان القيادة الرسمية وحدها هي المنتدبة من قبل « البشوف » ، كما لم يتأثر بقول « سنيه » في مجلداته ان « بن جوريون » اكفر علنا بما يجري في المحيط الدبلوماسي الاوسع نطاقا ، ومن ثم فانه اقدر على اتخاذ القرارات الصوب بالنسبة للمصلحة اليهودية .

وقد تم لقاء الصديقين القديمين في جو يسوده الشعور بان ثمة أزمة وشيكة الوقوع ، فقد لاحظت القيادة الرسمية ، سواء كانت مخطئة أو على صواب في ذلك ، دلائل تشير الى تحسن في الموقف البريطاني من التطلعات الصهيونية . وأطلع « سنيه بيجين » على التلميحات التي ادلى بها « ونستون تشرشل » لحاييم وايزمان بإجراء تقسيم جيد « بمجرد انتهاء الحرب . كما تمت أخيرا الموافقة على انشاء كتبية يهودية ملحقة بالجيش البريطاني ، وهو الامر الذي طالما أجرى الصهينة اتصالات ومارسوا الضغوط من أجل تحقيقه . وكان القلق يسيطر على « بن — جوريون » وزملائه ازاء احتمال ان تتعرض هذه الامال للاسقاط نتيجة للحملة الارهابية . كما كانوا يخشون في الوقت ذاته من الا يتوقف تمرد المنشقين عند الاضرار بالبريطانيين ، على الرغم من عدم وجود ما يشير في تصريحات « بيجين » حتى تلك اللحظة ، الى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة . بيد أن ردود « بيجين » لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف . فقد أعرب قائد « الارجون » عن عدم ثقته في انصاف الوعود التي يقدمها « تشرشل » وأعلن « بيجين » أنه لا يمكن وصف أي تقسيم خاصة اذا كان قاصرا على « أرض اسرائيل الغريبة » بأنه « جيد » . وكان « سنيه » يشعر ، ربما أكثر من « بيجين » ، بتزايد حدة المطالبة بقيام « المهاجانه » بوقف المنشقين عند حدهم . وقد انتهى الاجتماع بينهما ، كما جاء في تقريره بنصه يائسة : قلت له : « لا أعرف اذا كان هناك يهودي آخر يريد تجلب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض ، أكثر مما أريد .. وعلى هذا ، فانا أقول لك انني اخرج من هذا الجوار وأنا أشعر باكتئاب تام .. فالخلاصة كانت واضحة تماما : « انهم يريدون فرض طريقتهم على الجميع » .

وكان « بن جوريون » قد أبلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر في ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود أي حل بديل « وعطينا أن

نقابل القوة بالقوة . ولا شك ان هذا القرار يعتبر كارثة ، ولكن وتوقع كارثة محدودة : كان أفضل من نجاح مجموعة صغيرة . في فرض سيطرتها على « الليشوف » . وأصبح كابوس القتل بين الاخوة حقيقة وأتت بحلول نهاية العام . فقد عقد اجتماع آخر بين « بيجين » و «ياهو جولوم » ، رئيس « موشيه سنيه » الذي كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية الى لندن . وخرج « جولوم » من الاجتماع وقد ازداد اقتناعا بمدى فداحة الضرر الذي يلحقه المنشقون بالمسامى الديبلوماسية الصهيونية . وأعلن في مؤتمر صحفى : « اذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد أولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المتوهمة ، فلنأمن نتردد في ذلك » . وأكد « جولوم » بعد اجتماعه المقيم مع « بيجين » ان على « الليشوف » ان يتخذوا كافة الاجراءات الكفيلة بسوقف نشاط الاربعون .

ولقد سبق السيف الممذل في ظرف أسبوع واحد ، اذ حدث في ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ، ان قام رجلان مسلحان من عصابة « شترين » في القاهرة باغتيال اللورد « موين » ، الوزير في حكومة تشرفل لشئون الشرق الاوسط . ولم يكن « بيجين » وجماعته قد تلقوا أى اذار مسبق بالعملية ، على الرغم من أن الجماعتين كانتا تهران بمرحلة اتصالات ايجابية بينهما . ودعت منظمة « أرجون » ، بدلا من « عصابة شترين » ثمن مقتل « لورد موين » . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية نور النشر النبا وتقررت دعوة « الليشوف » الى نبذ جميع اعضاء هذه العصابة المخربة والمدمرة ، وحررتهم من الماوى والملاجى وعدم الاستسلام لارهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من اجل وقف افعال الارهاب وتصفية المنظمة المسؤولة ، فان بقائنا في حيز الوجود يتوقف على هذا . وكتب «ياهو جولوم » يقول : « لم يعد هناك مجال لمنقشة اساليب القضاء على وياه الجرائم الارهابية . وأصبحت الحاجة الى منع هذه الجرائم نورا تنصدر كل الاعطيات الاخرى ، وتستدعى اتخاذ كافة الاجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم .

لقد تركت تلك الفترة التي أصبحت تعرف باسم « السيزون » ( موسم الصيد ) نغمة جديدة في نفسية « مناحم بيجين » . لقد كان الامر يبدو وكأن تلليل وهليل قد بعثا من جديد في العصر الحديث . واذا لم يقتل الاخ اخاء ، فانه يترك وظيفته ويفصل أبناءه من مدارسهم . ووفقا لما جاء في سجل التاريخ الرسمى للهلجته قام « المتطوعون » اليهود باحتجاز عشرين رجلا لاستجوابهم كما تم التحرر عن واحد وتسعين آخرين بدون القبض عليهم . وسلطت أسماء ما يقرب من سبعمائة شخص ومؤسسة كانت لها علاقتة بالاعمال الارهابية والابتزاز الارهابى ، فضلا عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين او الرافعين على تمويل « الأرجون » الى المباحث الجنائية البريطانية ويقتل ان ثلاثائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم . وتديت



تفكيرات أخرى بأن عدد المقاتلين من « الأرجون » والمؤيدين لها الذين سلموا  
إلى نابوليس بلغ ألف شخص . وقد أمكن خلال « موسم الصيد » (أو السبيزون)  
الذي استمر على مدى ٧ أشهر القتيض على كل القيادات العليا تقريبا  
واحتجز رجال « الهاجاه » أحد هذه القيادات وهو « إيلي تابين » رئيس  
مخبرات « الأرجون » ووضعه في الحجز الانفرادي من شهر فبراير حتى  
أغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة « عين حيروت » . وكان محتجزه يريدون  
انتزاع المعلومات منه . وكانوا مستعجلين في سبيل ذلك لان يضربوه ويملقوه  
على الحائط وأن يلكوه في أسنانه حتى تتخلع ثم تركه مسلسلا في تذارته  
ويومئذ بانهم سوف يعدونه . وعندما انتهى « الموسم » في شهر يونيو ،  
شعروا في بداية الامر حرجا شديدا منهم من اطلاق سراحه فوراً .

وقد تمكن «بيجين» نفسه من مراوغة جماعة المطاردة . وقال « شيمون  
انيدان » ، الذي قاد « موسم الصيد » : أجريت عدة محاولات للايقاع ببيجين ،  
ولكنها فشلت جميعا . وكنا كلما نبلغ المكان الذي تصلنا الاخبار بوجوده فيه  
نجد أنه قد تركه . وكان من بين المكلفين بالبحث عنه ، «ماتير باميل» القائد الشاب  
لاحدى وحدات الهاجاه والذي أصبح فيما بعد العضو اليسارى بالبرلمان .  
ووصلت انباء الى « باميل » ورجاله تفيد بأن « بيجين » سيتناول غدائه وهو  
متخفى بأحد المطاعم في شارع الانبياء بالقدس يقول باميل « صدرت إلى الاوامر  
بالقبض عليه واحضاره الى «عين حيروت» ، حيث أقلم «الهاجاه» سجناء  
صغرا . وانتظرنا منذ المطعم أربعة أيام ولكنه لم يحضر . وكنا نتناول  
الطعام في المطعم بالتلويح . فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر  
في الخارج مع سائق التاكسي » .

وقد سأل بيجين ، عندما أصبح رئيسا للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو  
البرلمان ، عما اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فرد عليه « باميل » بالإيجاب  
وأكد له انه لو كان قد أمسك به ، لما أبكته الاناث منه .

« وماذا كان سيحدث لو حاولت المقاومة ؟

« كنا سنضربك .

« وإذا كان هناك أشخاص مستعدون لمحاكمتي

« كنا سنضربهم أيضا . أما اذا استسلمت ، كنا سنضربك في سيارة  
التاكسي ومعك ثلاثة أشخاص يمسكون بذراعيك . وكنا سنضع نوعا من  
الكلمة في فمك ونلقى بك في حقيبة السيارة ونطلقها عليك لو أننا شككنا في أنك  
مستسبب لنا متاعب » .

وأضاف « عيل » كنوع من المواساة أن مهمته كانت تقتضي على أي حال  
تسليمه حيا — ولكن ليس للبريطانيين . وقام رئيس الوزراء عندئذ واحتضنه .

ولم يكن الغموض في المسألة ينصب على السبب في فشل « باميل » في القبض على « بيجين » ، بقدر ما كان في السبب الذي دعا الهاجاتاه الى الاعتقاد بأنه سيحضر الى القدس . فان «الارجون» ظل ، في الواقع ، مختبئا تحت أسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية القرد ، بمنطقة تل أبيب وكان اول ملجأ له هو فندق السلوى المواقش الذي يقع بين شارع « المينى » وشاطئ البحر ، وخيف لئول تحت اسم « مناحم بن — زئيف » . وقد قامت جباغة أرهابية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاما من نزول بيجين بالفندق ، بالاستيلاء عليه . وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيرا وجر نصف المبنى المستوع من الاسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية اسرائيلية وقتلت جميع الارهابيين باستثناء واحد منهم فقط . وكان « بيجين » قد اختار ذلك الفندق لعدم خضوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان أفضل ، وايضا عملا بالبدأ القائل بأن « أكثر الامكن ظلاما هو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح » . وقد ترك « السانوى » بعد ان نجسا بأعجوبة . فقد ناد مدير الفندق فرقة تفتيش بريطانية بتغطيا بحذر الفرقة رقم ١٧ التي لم يكن يعرف شخصية « بيجين » الحقيقية ، ولكنه شعر انه غادر الفندق بغرض قضاء اجازة : « هذه هي كل الغرف عندي » .

وانتقل « بيجين » من الفندق بعد ذلك ، وبمصحبه زوجته وابنيه الى منزل بمنزل في القطاع المينى في « بتاح تيكناه » ، وكتب يقول عن تلك الفترة : ان الظروف هناك كانت صعبة ، وكان المنزل مهلا . وكثت الريح تغصف ليلا ونهارا من خلال ثوابذه الحطية . وفي المساء كان الطقس باردا والظلام حالكا . فلم يكن هناك كهرباء او تدفئة مركزية . ولكن من دواعي سروره انه كان يلهم على ملاقات ثم شراؤها خفيصا للمندوب المسلم البريطاني ، سير « هارولد ماك — ميتشل » الذي كان « الارجون » قد وضموا خطة في يوم ما لاختطافه . كل البيت الصغير غير مريح ، وبالأمانة الى ذلك كان معرضا للمخاطر وكثت العائلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار في وسط المينيين من ذوى البشرة السمراء ، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ التساؤلات تتردد حول الثريب الذي لا يخرج أبدا الى العمل .

وتولى « الارجون » نقل « بيجين » وأسرته الى منطقة « حاسيدوف » ، وهي منطقة عشائية على اطراف « بتاح تيكناه » حيث انتحل مناحم لنفسه اسم « اسرائيل هالبرين » . وكثيرا ما كان المسكن يتعرض لانقطاع المياه ولم تكن الكهرباء قد انحلت اليه بعد ، بيد ان « بيجين » ، الذي كان ما زال في مرحلة « الاختفاء المفتوح » كان يجد عزاء في الحثول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والاشجار الكثيفة . وقدمت عائلة « هالبرين » نفسها على أنها عائلة بولندية لاجئة . وعسرته « الميزا » سبب مندم

خروج زوجها الى العمل بأنه عاكف على الدراسة ليتقدم الى الامتحان في القناصون الفلسطينى . وذكرت ان اللجنة المشتركة وهى جمعية خيرية يهودية هى التى تتولى مساعدتهم حتى يتخرج . وكانت القيادة العليا للارجلون تجتمع فى المطبخ على ضوء مصباح الجار أو الشنوع . وكانت العائلة تنزه سيرا على الاقدام فى أيام السبت فى حدائق البرتقال . وتعرضت عائلة « بيجين » أثناء اقامتها فى منطقة « حاسيدوف » لأول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشامل التى يقوم بها الجيش البريطانى . وفى فجر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة « بتاح تيكفا » ، التى كانت مشهورة بلاء الارهابيين ، وغرض فيها حظر التجول . وقرر « بيجين » ، وواحد من ضباط قيادته الذى أمضى الليلة معه أن ليس هناك أى مخزى من فرارهما للاختباء فى الغابة لان ذلك من شأنه أن يلفت نظر الجيران اليهما ، ان لم يكن نظر القسوات ، ومن ثم يصبح القبض عليهما أمرا محتوما . وقررا أن يتصرفا بأعصاب هادئة ويتمسكا بمظهر البراءة فجلس القائدان على سلم المنزل وهما يتنرجحان على الدبابات والمدركات البريطانية أثناء مرورهما عند آخر الشارع . وأسرت جارتهم مسز « سيجل » فى انزعاج لمسز « بيجين » قائلة : « ليس هنالك ما يزعجك يا مسز « هالبرين » . أما أنا ففى حوزتى احدى بطاطين الجيش بالمنزل » . وزال الخطر بحلول الظهر . ورفع حظر التجول ، وقد تجاهل الجيش لسبب غير معروف حى « حاسيدوف » . ولكن عندما امتد القوتر الذى سبق « موسم الصيد » ، الى المنطقة بدا الحى أقل أمنا وبدأ الناس يتنقلون فى فضول ، وحل وقت الانتقال الى تل أبيب .

واختفى « إسرائيل هالبرين » من الوجود ، وجاء « إسرائيل ساسوفز » اليهودى الارثوذكسى الملثى الذى يرتدى طاقية سوداء ، للاقامة فى شارع « ياهوشا بن نان » الواقع بين مذهب البلدية وملاوى كلاب البلدية . واضهت الذئق عشر سنوات الى عمر « بيجين » . وكان قد غسر للجيران فقدم حلاقته لثقته خلال الشهر الاخير من اقامته فى « بتاح تيكفا » بأنه فى حالة حداد . وكان أثناء وجوده فى « تل أبيب » يذهب للصلاة بنظام فى المبد المحلى ، مثل اليهود التنين وكان الجيران يرتلون فى انه واحد من الطلبة « المستديمون » فى المعاهد الدينية ، والذين لا يزالون أبدا أى عمل ويمسحون من ربح مهور زواجهم . ورزق بيجين أثناء اقامته وعائلته فى شارع « يهوشا بن نان » ، بثلاث أطفاله . وكانت فى هذه المرة طفلة أسماها « هابيا » ، تيمنا باسم امه . وسجل المولودة باسم : « هابيا ايشتاين » ، نسبة الى إسرائيل ايشتاين ، أحد اصداق « بيجين » المقربين ، والذى اضطر الى القيام بدور الاب المسعيد «زار « اليزا » وابنتها فى المستشفى .

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختفاء « بيجين » فيما بين المذبح ومأوى الكلاب ، مرتين : المرة الأولى عندما مسحوا شارع «يهوشا بن - نون» بالأنوار الكاشفة ، وجابوا الشارع جيئة وذهابا بحثا عن مخبئ الأسلحة . ورابط « بيجين » مترقبا في منزله ، ولكن أحدا لم يطرق بابه . وانتهت عملية التفتيش بحلول الفجر . كان هذا في أواخر عام ١٩٤٥ ، أما المرة الثانية فجاءت بعد ذلك بمقام تقريبا عندما نسف نفثق « الملك داوود » في القدس .

وفي هذه المرة الأخيرة كان من الواضح أن الجيش يمرض جيئدا بما الذي يبحث عنه . واختبأ « بيجين » في غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها « يعقوب مريدور » خصيصا لمواجهة مثل هذه الطوارئ . وشعر « بيجين » أن التفتيش عنه أخذ يقترب . وعلم من الراديو الذي تركته « اليزا » مفتوحا عليا عن عهد حتى يسمعه ، أن حظر التجول سيستمر عدة أيام ، وأن التفتيش سيمتد إلى كل منزل وكل ركن . وعسكرت جماعة من الجنود في حديقة منزل « بيجين » واسطحبوا « اليزا » مع طفلها لاستجوابها . وادعت أنها لا تعرف الانجليزية . وقالت من خلال مترجم أن زوجها ذهب إلى القدس . وأعاده رجال الشرطة البريطانية إلى منزلها . ولكن عاد رجال الجيش مرة أخرى للتفتيش المنزل ، حيث قلبوا بفتح الدواليب والبحث تحت الأسرة ، والتفقر على الجدران ( بل أنهم تقروا على المكان الذي يختبئ فيه « بيجين » ) . وظل بيجين محشورا في ملجئه الضيق لمدة ثلاثة أيام مضيئة بلياليها خلال حرارة شهر أغسطس. وقد أعادت هذه الفترة إلى ذهنه تجربة الحبس الانفرادي التي مر بها في « فيلنا » ويقول بيجين :

« كان هناك بعض نواحي التشابه بين التجريبتين ، ففي سجن « لوكيشكي » كان الطقس حارا نهارا ، باردا ليلا . أما هنا فلن الحرارة كانت لطيفة ، وخاتمة نهارا » . وكانت الأرض هناك من الحجارة أما هنا فكانت من الخشب . وكانت عظم المرء هناك تصرخ من الألم — ولم يكن الألم هنا أقل حدة . وكان المرء لا يجرؤ على التحرك إطلاقا . وهناك كانت الحاجة ماسة إلى الطعام ، وهنا إلى الماء . وفي هذا الصدد يقول :

لقد كانت هذه هي أسوأ لحظة أهر بها : لقد عانيت من عدم وجود الماء . ومن عدم تناول الطعام في « لوكيشكي » وفي غيره من الأماكن وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والمطرش — انها تجربتان مأسيتان من الأفضل ألا يتعرض المرء لهما . ولكن إذا كان لي خيار في الأمر لاخترت التجوع بلا تردد . فليطش المبتد رهيب . .

وبدأت أشعر بالدوار . وبدأ الجفاف يشمل جسمي . وما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين في الحقيقة أخذوا يدلفون الى المنزل ، طالبين الحصول على شراب . ولكنهم انصرفوا في اليوم الرابع ، فدفقت « اليزا » على المحبأ بيد المكتسة . واحتفل بيجين بخروجه من سجنه الاختياري بأن اغرق رأسه في أناء مليء بالماء البارد ، المرة تلو الأخرى ، وهو يشرب . « لم أستطع أن أصبر ، فقد كنت أشعر بجفاف تام . كن كل ما احتاج اليه هو الماء . »

اعترف فيما بعد الجنرال سير « افلين ياركر » ، القائد العام البريطاني أن أسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة جدا ، وقال :

« عندما انظر الى الوراء ، لم أجد أى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه في معالجة المشكلة . وعندما ذهبنا الى تل أبيب كان « بيجين » موجودا هناك مخفيا داخل دواب . وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرابطون في حديقة بيته ، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة . ان هذه هي واحدة من مشاكل حملات التفتيش ، اذ يجب عليك أن تعتمد على أفراد من المرتب الدنيا ، فإذا أخطأوا يمكن أن تنهار العملية بأكملها » .

واتملت عائلة « بيجين » في المنزل الكائن بشارع « بهوشوا بن — نان » لمدة عامين تقريبا ، ولكنه بدأ هو الآخر يفقد عزله . وظهر البريطانيون اهتماما متزايدا بالحي ، وكانت منظمة « الهاجاناه » قد علمت بمسألة لحيه « بيجين » . وأوصى رجال أمن « الارجون » بضرورة انتقاله مرة أخرى . وحلق « يسرائيل ساسوفر » ذقنه وجاء الدكتور « جونا كونيچسوفر » ليقوم في المسكن الذي يقع عند ملتقى شارعي « روزنبوم » و « يوسف الياهو » ، بالقرب من مسرح « حليبا » في قلب تل أبيب . وقد استوحى « بيجين » هذا الاسم الذي يعطى انطباعا بأن صاحبه من اليهود الألمان المحترسين ، من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها في مكتبة عامة . ووضعت صورة « بيجين » على البطاقة ، وقد علا وجهه في هذه المرة شراب . وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتقال الذي تم في أوائل عام ١٩٣٧ ، آخر تنقلات « بيجين » ، أبان فترة مبرسته للعمل السري . وولد « لبيجين » أثناء وجود العائلة في المنزل الكائن بشارع « روزنبوم » ، ابنة ثانية هي « ليا » . وتم تسجيلها هي أيضا تحت اسم « أبشتاين » . ولم يتوان البريطانيون أبدا من بحثهم عن « الإرهابي الأكبر » . وعرضت جائزة قيمتها ألفان من الجنيهات الاسترلينية لمن يساعد في القبض عليه ( كانت الجائزة على رأس « نكلن يلين — مور » من عصابة شترين لا تتمدى اليه جنيته استرليني فقط ) ولكن لم يفذه أحد .

لقد سيب « موسم الصيد » ( ١٩٤٤ — ١٩٤٥ ) لبيجين توترا شديدا  
مما اثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم في مثاليه من الشباب .  
لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم ألما وشعورا بالخسرة .  
وكانت مشاعرهم تدفعهم الى الرد على العدوان بمثله . وقد عكس منشور  
لاذع كتبه « بيجين » في فبراير عام ١٩٤٥ ، تحت عنوان « سنملكك بالمثل  
ياقاييل » مدى ما شعر به من مرارة :

« لقد استخدمت كل قوتك ياقاييل ، ولكنك لم تستغلها عندما كان  
الملايين من اخوانك يموتون وعيونهم متجهة نحو « صهيون » — ارض  
« صهيون » المغلقة الابواب ، ارض « صهيون » التي تستعبدوها حكومة  
شريرة ، انك لم تبتد قوتك هذه عندما تم ترحيل الناجين من المقصلة ،  
ولم تكتشف عنها لتحطم الابواب التي اوصدها « الكتائب الابيض » في وجههم .

« لقد عدت يا « قاييل » الى تعبئة ثروة الامة ولكنك لم تنفتحها من أجل  
الاغاثة ، ولمساعدة أسر الجنود ، ولا من أجل تنظيم الهجرة المجانية من دول  
الابادة . انك تختلس أموال الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات ، وتنفقها  
على المخبرين والمختطفين وعصابات الواشين . لقد اخترت لنفسك حليفا ،  
ياقاييل ، ان حلفاءك هم نظام الحكم الظالم القائم في الوطن والمباحث الجنائية  
البريطانية — النازية . انك تسلم اخوانك الى هؤلاء الحلفاء . . انك تسلمهم  
الى الايدي الملوخة بدماء ملايين المبعدين عن ابواب الوطن ليدخلوا أفسران  
« ميدانيك » . .

« انك تمارس ياقاييل الخطف حيث تقتحم في ظلام الليل بيوت العبرانيين  
بواقع عشرة ضد واحد — وتوجه ضربات حتى تسيل الدماء . . انك تقتلع  
من تعتبرهم « مشكوك فيهم » مستخدما الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل  
قسوة ، وتنقلهم الى جهات مجهولة ، لتعذبهم بالسلايل لجستجو في القلب  
المظلم لحداثق البرتغال ، ثم تقوم في النهاية بتسليمهم الى حليفك ، المباحث  
الجنائية البريطانية — النازية ، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم  
بنفيهم الى « اريتريا » . .

ومع هذا فان « بيجين » اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس . اذ انه  
كان وثاقا من أن الوقت سيحين عندها تضطر « الارجون » و « الهاجاتاه » الى  
الى القتال جنبا الى جنب . وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق  
من شأنه تهديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون ، بل ان من شأنه تهديد حتى  
احتمالات قيام دولة يهودية . ولم يكن من اللائق أن ينتهج المسرع في ذروة  
« موسم الصيد » سبيل « فرض الرأي » ، ويقرر يعقوب ( يول ) أمراي ،  
الذي خلف « ايلي تالين » في منصب مدير الاستخبارات ، عدد معارضي وجهة

نظر بيجين تلك ، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا . ولكن استطاع منطوق « بيجين » أن يسود في النهاية . بل أنه أصدر منذ وقت مبكر يرجع إلى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة إلى أتباعه تتضمن :

« محظور عليكم رفع أيديكم أو استخدام السلاح في وجه الشعب العبراني ، لانهم اخواننا وغير مسؤولين عما يحدث ، كما انهم يخضعون لتوجيه خاطيء للتحريض . ولكن سيأتي اليوم الذي سيدركون فيه خطاهم فيقفوا الى جانبنا في وجه الغاصب الاجنبي . ان سلوككم هو سلوك الوطنيين الذين لا يحددون عن هدفهم ، وهذا سيساعد على زيادة سرعة انفصانهم عن الذين يستغلونهم ويبرونهم ضدنا ، وعندئذ سيحظى المحرضون تنابها بعكس ما كانوا يسمعون اليه . وان تكون هناك حرب بين الاشقاء ، وسيأتي اليوم الذي سيهب فيه الشعب .. رغبا عن اولئك الذين يضعون العراقيل .. ليوقف صفا واحدا ، وهذا هو المهم .. ان هذا هو السبيل الوحيد لانتقاذ يهود فلسطين من الحرب بين الاشقاء ، ولانتقاذ البلاد من الخراب ، وللحفاظ على نقاء رايتنا ونزاهة سلاحنا ، ولرفع اسرائيل عاليا في نظر الغرباء . وهذا ايضا — صدقوني — هو الطريق الى النصر » .

ووافقت قيادة الارجون على مضمون . وربما تكون معرفة زملاء « بيجين » ان قيلم حرب سافرة بين « الارجون » و « الهاجانه » الاكثر عددا واعتادا سينتهي بلا أدنى شك بدمار منظمة الارجون — ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا على استمالتهم الى الموافقة . بيد أن العامل الاساسي الذي حسم الموقف تمثل في النفوذ الفريد الذي يتمتع به القائد . وكانت النتيجة أن ساد الانضباط ولم يرد أعضاء « الارجون » على أي محاولات استفزازية . ويعترف « يعقوب أمراي » الذي كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس ، « بأن الايام أثبتت في النهاية أن « بيجين » كان على حق . فبعد مضي ثمانية أشهر من ذلك الحين ، انضمت قوات « الهاجانه » البنا في القتال ضد البريطانيين » .

واسفرت حملة المطاردة من توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن تاضية . فقد عاد « الياهو جولوم » — المؤرخ الرسمي للهاجانه — ونقض فيما بعد قوله السابق بأن « موسم الصيد » قد كسر شوكتهم نهائيا . وفي الواقع فإن « الارجون » و « عصاة شتيرن » ظلنا مشغولتي الحركة طوال السبعة أشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وقد تجنب الشتيرنيون قسوة «موسم الصيد» بأن أوقفوا تلقيا عملياتهم بعد اغتيال اللورد «موين» . واعترف «يعقوب مريدور » ، الذي تم اعتقاله في خريف عام ١٩٤٥ وترحيله الى شرق افريقيا قاتلا باستثناء توزيع المنشورات فاننا لم نقم بأية عمليات خطيرة » ، ولكن

• ببجين » استطاع أن يراوغ « الصيادين » وسرعان ما وجدت « الارجون » قادة جدد من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون في الأسر .

وكسبت « الارجون » في الوقت ذاته ، تعاطف الرأي العام اليهودي في فلسطين نحو تجنب الانتقام . ولم يستسغ أعضاء « الهاجاناه » كثيرا عملية المطاردة لدرجة أن التقارير الرسمية تطن أن الذين شاركوا في « موسم الصيد » كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية . وأكد « موشيه سنيه » فيما بعد أنها لم تكن بأى حال من الأحوال حملة نفذتها «قوات الهاجاناه» ويقول « سنيه » عن ذلك :

« لم تتخذ مطلقا أى مؤسسة تابعة للهاجاناه أى قرار بشأن حملة المطاردة ، كما لم يصدر أى قرار الى أى مؤسسة للهاجاناه » بتنفيذ المطاردة لقد طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية حيث تم اتخاذ القرار ، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس المستعمرات الذي أصدر قرارا في هذا الشأن . ولم تأخذ « الهاجاناه » المسألة على عاتقها . بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أساس شخصي لتنفيذ « المطاردة » . ولم يحدث مطلقا أن ناقش مجلس الهاجاناه ، هذه المسألة أو تلقى أمرا في هذا الصدد أو أصدر أمرا بشأنه .

وقد اهرب « سنيه » عن أسفه إزاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بأنه كان بمثابة « خطأ فادح » . ومع ذلك فقد قبله في جيبه . ويؤزم نقيبته . « إسرائيل جليلي » ، أنه هو نفسه عارض تسليم المنشقين الى المباحث البريطانية . وكانت المشكلة التي تواجهها « الهاجاناه » هي أنها لم تكن تملك الجهاز القضائي أو التحكيمي اللازم للتعامل معهم بنفسها . ووفقا لأقوال « جليلي » فإن السبب الرئيسي الذي منع تسببة « الهاجاناه » ، ككيان مستقل في هذه العملية هو أن مبادئها الأساسية تنص على أنها كيان عالمي فالهاجاناه لم تكن « الجيش الأحمر » لحركة العمل ، بل كانت قوات الدفاع عن يهود فلسطين . وكفت المؤسسة المتحركة في « الهاجاناه » تتيج ولو من حيث البدء على الأقل ، فرصا متكافئة لكل من حركة العمل والأحزاب الصهيونية اليمينية وأحزاب الوسط . وكان موقف شركاء « حركة العمل » من « الارجون » و « عصابة شترين » متكافئا على أحسن تقدير . ولم يكن « بن - جوريون » رافيا في أن يخسر ولاء هؤلاء الشركاء .

ولكن ، من الناحية العملية فإن الهاجاناه وقوتها الضاربة التي تعرف باسم « البالاخ » هما اللذان نفذتا حملة المطاردة . وقد اعترف أحد الأعضاء العاديين من تكلما في الندوة التي عقدت عام ١٩٦٦ حول هذه المسألة والتي تكلم أمامها أيضا « سنيه » أن الأوامر صدرت اليه ووجده في « رايحون صهيوني »



من قائده المباشر بتنفيذ عملية المطاردة ضد أحد أفراد الحركات السرية ثم ضربه • ولابد أن هذا هو نفس ما حدث في أماكن أخرى ، على الرغم من التفروق الدقيقة على السياسات الانتحالية الصهيونية •  
وانتهى « موسم المطاردة » أو « الصيد » ، بانتهاء الحرب في أوروبا .  
واقتراب موعد الانتخابات البريطانية ، وأصبحت القيادة الرسمية بخيبة الأمل إزاء عدم إبداء تشرشل أى ميل إلى مكافأة اليهود على مساعداتهم • وتقول السجلات التاريخية للمهاجرين بمنتى الموضوح والصراحة : « الإجراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر أعضاء المهاجرين ضرورة مبررة ومؤسفة • وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة ، راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم « اليشوف » • أما « مناحم بيجين » فهو لم يغفر ولن ينسى أبدا •

## الفصل السابع

### مأساة الاخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة « لمناحم بيجين » هو العام الذى اثبت صحة توقعاته . فقد احبط البريطانيون - فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء - آمال رجال من امثال « وايزمان » و « بن جوريون » ، ممن كانوا لايزالون يأملون فى امكانية المتوصل الى حل سلمي ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة باقلية دولة يهودية فى فلسطين . وثبت ان شكوك « بيجين » كان لها اساس من الصحة تماما . ونتيجة لهذا ، تحققت نبوءة اخرى من نبوءاته ، تتعلق « بالهاجاناه » . وهذه النبوءة كانت قد اثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة « ارجون زفاى ليومي » . فقد اقترحت « الهاجاناه » اقامة جبهة مشتركة مع منظمة « ارجون » و « عصابة شتيرن » اى شن حملة متحدة للمقاومة الايجابية ضد الحكم البريطانى .

وبدأت بريطانيا لتكفي بلفتها الحرب فى أوروبا ، مع حقيقة انها لم تعد قوة عالمية مهيمنة . فاقتصادها مجهد نتيجة للحرب التى استمرت ستة اعوام . وبمجرد ان غمرت نشوة النصر ، بدأ عالم ١٩٤٥ مختلفا عن العالم فى سنة ١٩٣٩ ، وان لم يكن اقل خطورة منه . ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين ، فان القادة البريطانيين لا يمكن ان يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخذونه على علاقات بريطانيا مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والدول العربية والاسلامية ، او مع مصادرها التقليدية للبترول فى الخليج والعراق . وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موال للصهيونية ، حتى قبل الانتخبات العامة فى يوليو . فلن تعلطف « وينستون تشرشل » تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخا فى احسن الاحوال . وادى اغتيال اللورد « موين » الى تحييد هذا التعلطف . ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته « اتونى ايتن » ، النصح لمجلس الوزراء قائلا : « اذا خسرتنا الصداقة العربية ، فلن الامريكيين والروس سيسارعون للاستفادة من اخطائنا » .

الا ان معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واقفين من ان الاحتمالات ستكون افضل لو تولى العمال السلطة . فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ « ببلاكلول » ، بأنه سوف يلغى القيود التى فرضها الكتاب

الابيض لعلم ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية الى فلسطين كما انه سوف يؤيد انشاء وطن قومي لليهود هناك . ولكن الحزب بدأ يتراجع عن تمهيداته خلال اسابيع قليلة من وصوله الى الحكم . حيث قامت وزارة المستعمرات بـ « حاييم وايزمان » في ٢٥ أغسطس بأنه لن تحدث أية زيادة في حصة الهجرة التي تصل الى ألف وخمسمائة مهاجر يهودي شهريا . ولقد كان هذا القرار ضربة فادحة أصابت النفوذ الشخصي « لوايزمان » بصفته نصر اجراء حوار مع البريطانيين ، كما أصابت حركة العمل الصهيونية في فلسطين ، التي راهنت بالكثير على العلاقة الخاصة التي تربطها بحزب العمال البريطاني . وجاءت نقطة التحول المباشرة في تلك العلاقات عندما وقع اختيار « كليمنت آتل » على « ايزنست بينن » ، الزعيم النخبوي الجليلي ووزير العمل ابان الحرب ، ليكون وزير خارجيته بدلا من « هيو دالتون » ، ذو الميول الصهيونية . ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على « دالتون » ، فيها عيدا أن وزارة الخارجية كفت ستجد صعوبة أكبر في اقتناعه بالانظر، عن برنامج الحزب المعلن قبل الانتخابات .

وكان « دالتون » ، الذي أصبح وزيرا للخزانة ، مدافعا متحمسا عن القضية الصهيونية . ولم يكن « بينن » حديث العهد بشئون السياسة الخارجية ، كما كان يسود الاعتقاد العام ، كما لم يكن رجلا يتصرف بدافع من عواطفه بدلا من عقله . فقد كان ضليعا في الاوضاع المالية وكان قد درس جيدا وضع بريطانيا في العالم . وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينات حليفا لهم . حشد جهوده أثناء اشتراكه في حكومة «تشرشل» الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح اليهود الحريى . ويشك « هارولد بيللى » الذى كان مستشاره الاول في وزارة الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، ان يكون لدى «بينن» علم بقرار « بلاكبول » ويقول : لقد تم التخلي عن سياسة الحزب منذ البداية . وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان « بينن » ، يدرى شيئا عنها . أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار ، من أمثال « دالتون » ، و « كريس » ، فإن « بينن » كان يرفضها بشدة لأنه كان يعرف انهما يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما .

ومر « بينن » بمرحلة « اتصاف » من جانب وزارة الخارجية إلى قامت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع واقمته . بأن الصهيونية مبيجة بالعرب وضارة بالنسبة لبريطانيا ، وأن اقامة دولة يهودية عند « نقطة التقاء » مواصلات بريطانيا مع الهند وأستراليا والشرق الأقصى ، غسلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسى الذى يفتنى الامبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعا للخطر وحلول وزير الخارجية ان يسلك طريقا وسطا ويجمع بين ترضية العرب وعدم الغضب الأمريكين . ولم ينمخش « منحام بييجين » لعلم تعاطف « بينن »

ازاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لصلهم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار . فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن على اليهود ، اذا كانوا يريدون الحصول على دولة الاستيلاء عليها بأنفسهم .

ومع هذا ، اذا اراد المرء أن يصدق شهادة « بيلي » وغيره ، وأن يعتقد أن « بين » لم يكن يحبل مشاعر معادية للسلية ، فانه يصعب عليه أن يهيم مدى عدم احساس البريطانيين بالمعاناة اليهودية . وقد شعر « بين » ، و « واتلي » ، بالضييق ازاء الضغوط الامريكية التي اعتبروها نتيجة لاثارة المشاعر في الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس « هارلي ترومان » . وقد ضامف من هذا الضيق أحجام « ترومان » عن المشاركة في الاعياء المالية والعسكرية الناجمة من فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية . وكان البريطانيون أيضا يشعرون بقلق ازاء تأثير اتخاذ قرار موال للصهيونية ، على تسعين مليون مسلم في الهند ، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد ، وعلى الاطباع السوفييتية في تركيا واليونان وايران . فضلا عن هذا فان العسكريين البريطانيين في فلسطين ذاتها ، كانوا يحذرون رؤسائهم من صحوة عربية جديدة . ويقول المدافعون عن سياسة « بين » انها كانت تهدف مصلحة بريطانية أكثر من مصلحة العرب . بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب في اغماض زعماء حزب العمل اعينهم عن ادماء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصلة خاصة بتعاطلهم معهم ، أن لم يكن وقوفهم بضيقهم معهم وأن فلسطين هي الملاذ الطبيعي للاجئين .

ويؤكد « بيلي » أن « بين » كلن يشعر بأنه يتعرض للضغوط الامريكية من جهة ، كما يتعرض زملاءه في مجلس الوزراء لمحاولات التأثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى من جهة أخرى . وكان يرغب كل هذا بشدة » .

ومهما كان من حسن النوايا التي انطوت عليها سياسته ، فان هذا الشعور بالاستياء الذي سيطر على وزير الخارجية دفعه للدلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية . فقد كان ينظر الى العالم من منظور بريطاني ديمقراطي اشتراكي . فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية ، وأصبح اليهود يستطيعون العودة ، كفرهم ، لاستئناف حياتهم العادية ، بعد أن تم القضاء على « هتلر » . ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالمحنة الذي يسيطر على اليهود . فلكل كانوا ضحايا برنلج إبادة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودى لا لى فنب اقتروهم سوى انهم يهود .

وقال « بين » : صحيح انهم تعرضوا لانقطع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجربة انتهت ونجا عدد منهم . ويجب الآن اغفلتهم ومسامحتهم

ومعاونتهم على العودة للاستقرار في ألمانيا ، والتغلب على المخاوف والتوترات  
الناجئة عن مثل هذه التجربة .

ثم قام وزير الخارجية ، بعد ذلك ، باقتباس عبارة تالها « اتلى » دون  
أن تلت نظر أحد . فقال أن اللاجئين اليهود في أوروبا ، يجب ألا يحاولوا  
« الضغط من أجل الوصول الى مقدمة الطابور » . وأعلن أن بريطانيا لم  
تعدهم بدولة يهودية في فلسطين وإنما وعدتهم بوطن قومي . وأكد  
« أن الفرصة لازالت سقحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بأن عبء  
الافئدة الشعب اليهودى لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها . وكانت الاساءة  
الافئدة التى ارتكبها وزير الخارجية هى مهاجمته امريكا أثناء انعقاد مؤتمر  
حزب العمال فى « بورنلوث » خلال شهر يونيو التالى ، بسبب مطلباتها فزع  
فلسطين أمام هجرة ١٠٠ الف يهودى : « أرجو ألا يساء فهمى فى امريكا  
لو قلت انها تقدمت بهذا المطلب بنية صلفية تماما . فانا أعرف انهم لا يريدون  
فى نيويورك وجود أعداد كبيرة من اليهود عندهم » . ولم يكن هناك أى لبس  
فى فهم المغزى من كلامه .

لقد كانت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة . فقد اقنعت وزارة الخارجية  
« اتلى » و « بيفن » بانتهاج سياسة تقوم على تطبيق مسألة فلسطين .  
بيد أن ديناميكيات الواقع جعلت ذلك أمرا مستحيلا . فأن اليهود الذين صعدوا  
عندما انكشفت لهم مظاهر « بيلسين » و « لوشفيتز » ، سيطرت عليهم حالة  
من انبئاس الفاتل . وألمح عدم الاكتراث البريطانى بمأساتهم ، تضائل الأمل  
فى أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم ، انتهاج سياسة معتدلة . وفى الوقت  
ذاته بدأ صوت العرب فى فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا فى سبات لمدة خمسة  
أعوام . وبدأ مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الأمور تزداد تعقيدا بصورة  
نفوق إمكانياتهم على معالجتها .

كان « بن جوريون » ، الزعيم المنتخب « للييشوف » ( يهود فلسطين )  
يشعر دائما بقدر أكبر من عدم الثقة فى النوايا البريطانية من « حاييم وايزمان »  
الرئيس المتقدم فى العمر للحركة الصهيونية العالمية . وقد كتب « بن جوريون »  
سطرا واحدا فى مذكراته بعد أن تجول فى شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات ،  
ولكن كان يسودها فى ذات الوقت الشعور بالانتهاج العارم حيث أن ذلك كان  
هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى يوم النصر . سجل « بن جوريون » بمذكراته  
فى ذلك اليوم سطرا واحدا يقول : « يوم النصر — يوم حزين ، حزين » .  
فاليهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب . لقد قتل منهم ستة ملايين ، ومازال أمامهم  
أن يدخلوا معركة للحصول على دولة — وينهاية شهر سبتمبر أصبح « بن  
جوريون » واقفا من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت الى طريق مسدود .  
فانه قتل الطائرة من لندن واتجه الى باريس . وفى أول أكتوبر بعث من هناك

بيزترية نكتوبة بالرموز ، الى « مؤثنيه سنه » قائد الهاجاناه ، تأمره بتنظيم تمرد مسلح ضد بريطانيا . وقد اصدر « بن جوريون » الامر على مسئوليته الشخصية ، دون اخطار « وايزمان » وكلفت معارضة « بن جوريون » لاستخدام العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية ، ويقول كاتب سيرة « بن جوريون » ان هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد اعلنه من قبل امام زملائه في لندن :

« لم يحاول « بن جوريون » ايهام نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدي الى اخراج بريطانيا من فلسطين ، وانما كان يأمل فقط في أن يؤدي الى اثاره موجة من التعاطف العميق بين الرأي العام العالمي تدفع بريطانيا الى تغيير سياستها . ولذلك فقد أعلن في مؤتمر محفى عقده ببريس ، وهو يضع هذا الهدف نصب عينيه ان « تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة هتلر الغداية » .

وكانت اول مشكلة واجهها « سنه » في فلسطين هي كيفية الاتصال « ببجين » . فان حملة المطاردة ( او السيزون ) لم تكن قد انتهت بلها الا بالكاد . كما ان الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام . وقرر « سنه » ان يبدأ اتصالاته من خلال « عصابة شتين » . وتولى « نكاش بلين - مور » الذى كان قد نجح في حملة « الشترينين » من اخطار حملة المطاردة بالتهاج سياسة تنطوى على مزيج من الرضوخ والتهديد - تولى مهمة تسليم الدعوة لبجين ، الذى اسعده كثيرا ان « بن جوريون » قد بدأ أخيراً يتكلم ويتصرف مثله وأعرب تلك الأرجون عن استعداده للتعاون - ولكن كالغناد ، بناء على شروطه هو . فقد رفض « ببجين » على الفور ، اثناء اجتماع سرى ضم كلا من « سنه » و « يسرائيل جليلي » من الهاجاناه ، و « يالين - مور » من « عصابة شتين » ، اقتراحا بطل الجماهعات المنفصلتين وانضمامهما الى « الهاجاناه » .

وقال « ببجين » : اننا نحتاج الى قيام جبهة مشتركة في مواجهة البريطانيين . وطالما التزمت « الهاجاناه » بالقتال ، فان الجبهة المشتركة ستكون ثقيلة . ولكن اذا تخلت « الهاجاناه » عن الحملة العسكرية ضد البريطانيين ، فاننا سغواصلها .

وكان « ببجين » مدركا ندى تعقيد موقف « الهاجاناه » . فانها كانت بمثابة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية ، التى تعتبر تقوينا المثل المنتخب « للييخوف » . فاذا مارست « الهاجاناه » اغيالا غير مشروعة ، فانها تعرض بذلك المكاة القانونية للمنظمة الام للخطر وستضطر « الوكالة اليهودية » الى أن تتخار ، في وقت ما ، بين الانحراف الى العمل السرى أو اعادة تأكيد شرعيتها عن طريق اجبار « الهاجاناه » على الالتزام بالقانون . أما بالنسبة « لبجين » فانه كلن يرى أن قوة موقف الأرجون تكن في أنها تعتبر أصلا

منظمة مثل سرى ولم يسبق لها ان ادعت غير هذا مطلقا . ولقد اوضح منذ البداية ان « الارجون » ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من ارض اسرائيل ، مهما بلغ امد الحرب .

واقتر « سنيه » و « جليلي » منطق « بيجين » ، ولكلتهما اصرار على ضرورة ان تصبح « الهاجاناه » الشريك الاكبر فيها اصبحت يعرف باسم « حركة المقاومة العبرانية » . ووفقا « لجليلي » ، تم القوسل الى تفاهم دون المساس بكرامة الشريكين الاصفر :

« لم تكن القضية هي ان يملنا صراحة » اننا نمتزف بسلطة الهاجاناه « ولكن ان يكون من الواضح للجميع بلقنا نتمتع بحق الاعتراف ( او الفيتو ) . وبمبنى آخر الا يقوم اى احد باى عملية الا في حدود الموافقة الضمنية عليها . وكان الهدف هو منعهم من القيام باعمال تعتبرها ضارة ، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى او من حيث الخطة العملية . ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التى قد تدوى الى ان تتسبب منظمة ما في تمزق منظمة اخرى » .

واعترف كل من « بيجين » و « شبول كاتز » المسئول الاول عن الاضطحية في « الارجون » ، بتتبع « الهاجاناه » بسلطة الاعتراض ، غير ان المقتنين تسكوا بحقوقهم في حرية سرقة الاسلحة من البريطانيين و « مصاهرة » الاووال من امكان اخرى . وقد اظهر الهجوم الذى وقع على فندق « الملك داوود » في يوليو ١٩٤٦ مدى ضعف قبضة الشريك الاكبر . فكان « بيجين » ، اذا لم يفتنح بالمنطق وراء قرار اتخذه « الهاجاناه » يشعر بان له مطلق حرية التصرف وفقا لتقديره الشخصى . وكانت المشكلة هي عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التى تشكل الجبهة المشتركة ، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تأثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديمة قائمة ، ولم يكن هناك احساس بدوام التمايش السلمى بين هذه الجماعات ، ناهيك عن التزاوج بينها . فلم ينس ، مثلا اعضاء « الهاجاناه » و « عصاية شتيرن » ، السنوات الاولى من فترة الاربعمينيات عندما كانت منظمة « الارجون » ، وقبل عهد « بيجين » ، تتعاون مع البريطانيين ، فتضى بالشتيرنيين . اما « الارجون » و « الشتيرنيون » فلم ينسوا مؤسم « المطردة » .

ويقول « جليلي » :

« لم يكن هناك ما يدعو للاهتمام على الارجون . . ولا نغصد « بيجين » شخصيا ، لاسمح الله ، لماته شخص نستطيع الاعتماد عليه . ولكنه كان رجلا يتأثر كثيرا بمن يعملون معه ، خاصة اذا حاولوا ان يشرحوا له الامور بنطق نغنى او عملى . ولكننا لم تكن نعلم من هم بطلقته كما ان احدا لم يكن يعرف من

هم بطلاني . فما كان في وسع المرء أن يعرف المحرضين مسبقا ، ولكن مـقط  
يعد أن يقوموا بالتحريض ، ومن المستحيل أن تعرف قبل ذلك . قد تظن أن  
هؤلاء اليهود لا يثقون في بعض ويخافون بعضهم البعض . نعم ، ان هذا  
حقيقى » .

واستمرت الخلافات الايديولوجية والتكتيكية ، وان كان العائق الخاص  
بعدم محاربة البريطانيين اثناء مقاتلتهم « لهتلر » ، قد أصبح غير ذى مـوـزـع  
فـالـهـاجـانـاء ، كانت أكثر تدقيقا من الارجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على  
الارواح في حين كانت « الارجون » بدورها تطرح على أسلوب « عصابة  
شتيرن » في استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع . وكانت « الهاجاناء » تتطلع  
دائما نحو القيادة السياسية المنظورة . وكانت تحرص على تبرير عملياتها  
سواء على أساس كونها ردا يتناسب وحجم الاستنزاف البريطاني أو انها جزء  
من الهدف الآخر لخاومتها السرية ، ألا وهو الهجرة غير المشروعة . فمثلا ،  
قامت قوة من « الهاجاناء » بقيادة « اسحاق رابين » باطلاق سراح ٢٠٨ يهود  
من أحد معسكرات الاعتقال البريطانية في « اتليت » ، جنوب حيفا ، وذلك في  
١٠ أكتوبر من عام ١٩٤٥ ، أى قبل إبرام اتفاق « المقاومة العبرانية » . وكفت  
أهدافها المفضلة هي الهجوم على نقاط المواصلات ، خاصة السكك الحديدية  
ومراكز حفر السواحل .

وبع هذا فقد عملت « حركة المقاومة العبرانية » ، منذ أكتوبر عام ١٩٤٥  
حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ ، بقدر معقول من التنسيق . وقد تدمرت الجبهة  
بسبب كارثة الهجوم على فندق « الملك داود » ضمن أمور أخرى . ووجد  
لأقوال « بيجين » أن أسعد أيام حياته كانت هي أيام وحيدة العمل بين  
المنظمات الثلاث . إذ أن أحلامه بأقلية جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب ،  
بل انه ورجاله لم يعمدوا يعتبرون خارجين على القانون . لقد ظل طـوـال  
أربعين عاما يفرق في التعريف بين « الارهابيين » و « المقاتلين من أجل الحرية » .  
ولم يكن ليرضى أن يضحى بالمبادئ في سبيل الاحتفاظ بظهر الاحترام ، ولكنه  
كان يشعر براحة أكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الأمرين :

« لم يكن هناك اعتراف رسمى بنا في عهد « حركة المقاومة » ، ولكننا مع  
ذلك كنا نتمتع بالاعتراف . ورفع من على كاهلنا جزء من المسؤولية — حتى ،  
لو كان ذلك جزءا ضئيلا مـقـط . والشعب كله كان يقف وراءنا » .

هذا ، وقد وجهت « حركة المقاومة العبرانية » ضربتها الاولى ابل ليلة  
٣١ أكتوبر والأول من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وأسفرت الهجمات عن نجاح  
« البالماخ » في اغراق ٣ زوارق دورية شرطة في حيفا ، ويـلـسـا ، ونجحت  
الهاجاناء في نسف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة في جميع أنحاء فلسطين  
وأصابه مئات السكك الحديدية في القدس وتل أبيب بالاضرار ، بينما نجحت



« الارجون » في تدمير قاطرة واصابة ست قاطرات اخرى باضرار وذلك في غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة « اللد » . وكانت عصابة « شتين » هي الوحيدة التي مثلت في تحقيق اهدافها الطموحة للغاية ، فقد انفجرت شحنة ناسفة قبل الاوان وقبل النجاح في غرسها بخزان للبترول في معمل التكرير بحيفا ، وشنت « الارجون » و « شتين » طوال فترة الشتاء ، وفي اطار بنود الاتفاقية ، غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثا عن الاسلحة . وقد خسر البريطانيون في احدى الليالي وبالتحديد في ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحا . واستؤنف الهجوم المشترك مرة اخرى في ٢٥ فبراير عندما نجحت « منظمة الارجون » في تدمير حوالي عشرين طائرة من السلاح الجوي الملكي البريطاني وهي مرابطة في مطارات اللد » و « قصطينا » و « كفر سركين » ، مما اسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ الف جنيه استرليني ومليونين من الجنيهات الاسرائيلية . واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس ، ونجحت « عصابة شتين » في ليلة ٢٦ ابريل في اثارة غضب البريطانيين وحققهم الى اقصى حد ، عندما قتل باغتيال ستة جنود مظليون وهم نائمون على أسرهم بممسكر في تل ابيب . كما اصيب اربعة آخرون بجراح . واعلن الليفنتل جنرال « جون دارسي » القائد العام للقوات ، في تقريره الذي رفعه الى رئيس الاركبان في لندن ، أنه لم يتمكن من السيطرة على رجاله اذا وقعت هجمات مماثلة اخرى عليهم ، وبخاصة ان بعضهم قد اتجهوا في حالة هياج شديد الى شوارع « نيناثا » . وشنت « المقاومة العبرانية » آخر عملياتها خلال شهر يونيو ، حيث تسببت « الارجون » في الحاق خسائر قيمتها مائة ألف جنيه استرليني في مخزن عربات السكك الحديدية ، ونسفت فرق المتفجرات المتابعة للبلماخ « عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الاحدى عشر طريقا ومعبرا التي تربط فلسطين بجيرانها . بيد ان « عصابة شتين » اصيبت بخسارة ملححة اخرى عندما قتل احدى عشر من رجالها واسر عشرون منهم في طريق عودتهم من غاراتهم على ورش السكك الحديدية في حيفا .

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ، ثمانين ألف جندي وعشرين ألف شرطى مرابطين في فلسطين التي لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة الف نسمة تقريبا . ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون ان يردوا على حملة التخريب والارهاب التي قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلي « حركة المقاومة العبرانية » ولقد كتب « جيه . بوبريل » يقول في الحراسة التي اجراها حول « الارجون » و « عصابة شتين » : « لقد أصبح الانتداب بمثابة دولة عسكرية تخضع لحالة حصار مستديم وعلى الرغم من حجم الحامية ، ومعداتها ، وعزيمتها ، فانها مدينة الفعالية ، تهزم نفسها بنفسها » . وكانت الفرقة السادسة المحبولة جوا تشكل القوة البريطانية الرئيسية ، ولكن لم يكن لانرادها من

المجاريين القدامى في « نورماندى » و « آرنهيم » بن ذوى « البريهات الحمراء » ، أى خبرة بكيفية التعامل مع المصائب الذين يختفون داخل المدن المزدحمة التي تزدهم بملاذ ملثم تملأ . وكان الجيش عاجزا عن الحركة ، فلم يكن من المتصور شن حرب شاملة ضد يهود فلسطين . في أعقاب تعرضهم للإبادة الجماعية أو ( الهلوكوست ) . وعلى أى الحالات فإن الأمريكيين ما كانوا سيمسكون على ذلك . واستمر الجدل يدور في حلقة مفرغة : فالإدارة في القدس كتبت ترى أن الحل الوحيد هو التسوية السياسية . وايد الجيش هذا الرأي ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتعرض لتبريخ أئنه في القرب ، حتى يتم التوصل الى مثل تلك التسوية واستطاع مارشال « بيرناردى مونتجرى » ، رئيس الأركان العامة للقوات الإمبريالية ، أن يقتنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد « ليلة الجسور » ، وقيام الأرجون باختطاف خمسة ضباط بريطانيين من أحد أندية تل أبيب كرهائن حتى يتم إطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما بالإعدام . وقال يعد أن زار فلسطين إن الجيش مستعد تماما لـ « حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر » . وأكد مجلس الوزراء أنه لم يعد يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة الى الحضيض . وقد أدرك البريطانيون بذلك الوقت ، أن العدو لم يعد هو مجرد شرزمة القاتلين التابعين « للأرجون » عصابة شتيرن » . وصدرت التعليمات الي السبير « أثر كاندجهام » ، المندوب السامي البريطاني ، تفويضه بسحق « العناصر الأكثر تطرفا » داخل الوكالة اليهودية ، الذين كان من المعتقد أنهم يجبرون الحملة الإرهابية من خلال « الهلجاء » .

وبدا البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ في تنفيذ العملية التي أطلق البريطانيون عليها اسم « عملية أجاثا » بينما وصفها اليهود « بالبيت الاسود » وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطة الموجودين من أجل اقتحام مقر رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الأخرى في القدس وخمس وعشرين مستعمرة في أماكن متفرقة من البلاد ، وتم اعتقال ٢٧١٨ يهوديا من بينهم شخصيات بارزة « موشيه شاروت » ، « والعاهام » يهودا لوب « شـمان » ، وعثر على ترسانة اسلحة تابعة للهاجاناه في كيوتر ياچور ، واهى جنوب شرق حيفا . وفرض حظر التجول في المناطق اليهودية بفلسطين . ومع هذا فإن العملية لم تحقق النجاح المملوك الذي كان — بوتجرى — يسعى اليه . فإن أهم شخصية ، وهى بن جوريون ، كانت موجودة في باريس بعيدا عن مثاله . واحتس « موشيه سنيه » ، قائد « الهاجاناه » بعد أن وصله تحذير في اللحظة الأخيرة . ونجح نائبه « إسرائيل جاليلى » و « اسحاق سبه » : مؤسس « البالماخ » ، في أن يتواريا عن الأنظار ، بينما ظلت منظمة « الأرجسون » و « عصابة شتيرن » دون مبالى وقد كتبت هذه واجدة من المرات الوحيدة التي لم يأسف فيها « بيجين » على اغتيال المنشقين الى قواعد ريفية في

في الكيويوات « و » « الموشيفات » - أي « القرى الجماعية والتعاونية التابعة لحركة العمل » . فلم يسهطع البريطانيون الجثور على مخاريطهم ، وكان الفضل الاساسي « ليوم السبت الاسود » هو انه لم ينجح في ذاته في دفع « وايزمان » وغيره من المعتدلين الى تشكيل قيادة بديلة ، كما انه لم ينجح في تقويض وحدة « حركة المقاومة » . وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما . وكانت المشكلة هي كيف يكون هذا الرد . واقتضت « جولدا مائير » التي كانت واحدة من الزعماء السياسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم - اعلان العصيان المعلن . ولكن كان « موشيه سنيه » و « مناحم بيجين » يتطلعان الى القيام بأعمال أكثر ابهارا من ذلك .

كان « بيجين » معنيا بالتأثير النفسي الذي تركه يوم « السبت الاسود » على يهود فلسطين ، أكثر من اهتمامه بالاثار الاستراتيجية . ولم يكن ذلك اليوم قد نجح في تحييد « الهاجناه » و « البالماخ » ، على الرغم من خسائرها في الأزواج والعنادر . وكانت هناك دواع أكبر من أي وقت سابق لقيام جبهة مشتركة نشطة ، تضم كلا من « الأرجون » و « جبهة شتيرن » . ولكن كان « السبت الاسود » استعراضا مذهلا للقوة البريطانية ، وخشى « بيجين » أن يؤدي ذلك الى فرس بذور الانهزامية بين اليهود ، حيث أن الانهزامية تعتبر أمرا قاتلا بالنسبة لأي حرب تحرير . « كنا نسدرك أن الطريق الوحيد لاستعادة الثقة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم مضاد ناجح » .

وكان لقد « الأرجون » يحتفظ في جعبته بالخطة المناسبة لمكان قد يهيئ في أوائل العام . أن اقترح عليه مدير عملياته ، « الواسع الحيلة » ، « جيدي بلجلين » ، قيام المنظمة بتخريب فندق « الملك داود » الذي يأوى جناحه الجنوبي ، مقر رئاسة الإدارة البريطانية ، مع وجود مقر للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة في جناح ملحق به . أما باقي الفندق ذوى الأدوار الستة ، الذي كان المستثمرون المصريون اليهود قد امتتحوه عام ١٩٣٢ ، بصفته أول فندق حديث ، فحجم يقام بالقدس ، فقد كان ملقى للشخصيات البارزة في حكومة الانتداب حيث تتناول الكوكيتل وتدير المؤامرات . وكان من بين تلك الشخصيات البارزة « تقيسي تشانون » الذي نزل في الفندق عام ١٩٤١ ، بصفته عضوا في البرلمان ، ووصفه الفندق بأنه « يعتبر بلا جدال أفضل فندق في العالم » بعد الريتز ، في باريس » . وكانت « الهاجاناه » قد استخدمت حق الفيتو في ربيع عام ١٩٤٦ ضد خطة « بلجلين » على أساس أنها استغرافية أكثر من اللازم . ولكن عندما عاد « بيجين » يعرض الخطة بعد يومين من السبت الاسود ، باركها « سنيه » . وتم إتني « عملية المونتشيك » ( كلمة « مالوك » تعني « فندق » بالهبرية ) ثم أضيف إليها صيغة التصغير باللغة « اليسدية » - وتم بعد

ذلك اختصارها ، كاحتياط أمن اضافي الى « عمليات » تشيك « كجزء من « الليشوف » الانتقامي الثلاثي الشعب : فاسند الى « عصاة شتيرن » تدمير مبنى « اخوان دينيد » المجاور والذي يستخدم كمقر لمكتب الاعلام الحكومي ، بينما يقوم « الهلجانه » بالاعارة على ترسانة الاسلحة في « بكت جاليم » بحيفا ، واستعادة الاسلحة التي استولى عليها البريطانيون في « يلجور » . وكان الاسم الحركي « الكودي » للعملية التي ستنفذها « عصاة شتيرن » هو « عبيدك وغداك » ، أما بالنسبة لخارة الهلجانه فكان « استعادة الممتلكات المفقودة » ويرر « سنيه » موافقه على هذه العمليات على أساس انها تتفق ومبدأ « العين بالعين » — فهي تشن هجوما على الحكومة البريطانية في مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية . وقد صدقت لجنة « اكس » السرية العليا ، التي كانت تشرف على « الملقوة العبرانية » ، نيابة عن الوكالة اليهودية ، على الخطط الثلاث دون اطلاق اعضائها الخمسة على التفاصيل حيث اخطروا فقط بان « مبنى حكوميا هاما »

سيتم ضربه ، ولكن لم يشرؤا الى اسم المبنى بالتصديد . ويتفق كل من « بيجين » و « جاليلي » على أن الهدف من تدمير فندق « الملك داود » كان اذلال البريطانيين وليس قتلهم . ويقول جاليلي الذي كان نلقبا « لسنيه » وشريكه في السكن آنذاك ، « كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للمسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك ردا على « السبت الاسود » ولقد كان عملا جريئا ، جسورا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة الى المركز المعصب . ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته . كما لم يكن الهدف منه . بكل تأكيد ، هو أن يسفر عن وقوع ضحايا » وقد صدرت الاوامر الى « باجلين » منذ البداية بمنح أفراد المسكرتارية والنفس الموجودين بالفندق ، فرصة كلية لخفلاته .

غير أن هناك فقرة يصعب سدها بين كل من تقارير « الأرجون » و « الهلجانه » ، حول المشاورات الفنية التي دارت بين « باجلين » واسحاق سسله ، فوفقا لاقوال « بيجين » ، اقترح « بيجين » منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٥ دقائق ، بينما اقترح « سده » خمس عشرة دقيقة فقط . ولكنهما اتفقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة . ويؤكد أعضاء « الأرجون » ان « سده » ضغط على « باجلين » لزيادة قوة الشحنة الناسفة التي ينوي غرسها في « بدروم » الفندق . ويقولون ان « الهلجانه » كانوا يريدون ضمان عدم اتاحة فرصة كلية للبريطانيين لنقل مئات من الوثائق المخبئة التي استولوا عليها من مكتب « الوكالة اليهودية » .

وقد نفي « جاليلي » هذا التقرير كلية ( كان هو و « بيجين » الوحيدين اللذين على قيد الحياة ابلن الثمانينيات ، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد

بالنسبة لمل هذه المؤامرات ، لم يتم تسجيل اى تفاصيل كتابية ) . ويمصر على أن « الهاجاناه » لم يكن لديها اى مصلحة في وقوع انفجار مسدوى . بل انها كلفت تنظر الى العملية اسلحا كرمز فقط . وكان « مسده » مهتما الى اتمى حد بتقليل احتمالات حدوث اسبابك بين الاشخاص لدرجة انه اقترح توقيت القتل لتفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا الى بيوتهم ( وهذه نقطة لا يدور حولها جدال ) اما عن الوثائق فان « جاليلى » يرفض فكرة انها كلفت عملا دخل في حسابات « الهاجاناه » . وليس هناك شك في أن كلا من « الارجون » و « الهاجاناه » كان لحيهما بعد وقوع الحادث ، ودافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسئولية التي يحملها كل منهما . بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا اساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض ، أو على الاقل أن يكون كل منهما قد حاول اشداء اكبر قدر من البريق على الدور الذى اداه . وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات « الهاجاناه » الى حد ما ، التصريحات التي ادلى بها البريطانيون بانهم لم يحصلوا تقريبا على شيء من وثائق الوكالة اليهودية يريد مما كانوا يعرفونه من قبل ، وربما كان أبسط سبب وراء ذلك هو عدم توفير مترجمين للعبرية يثقون بهم ( أى من غير اليهود ) . ولقد جاء في صحيفة « باليستين ترانجيل » ، ( المثلث الفلسطينى ) ، نقلا عن رجل شرطة يهودى انهم : « لم يكن لديهم احد يستمعون به في العمل ضد « الهاجاناه » سوى اشخاص من امثالى — ممن كانوا يدينون بالولاء للهاجاناه . وكنا نفرز جميع الاوراق ، ولكننا ، اذا عثرنا على ورقة تدعى « الوكالة اليهودية » ، أو تضربها : كنا نلقى بها في المراض وتفرقها بالماء . وبعد يومين أصبحت جميع مواشير الصرف في مقر رئاسة المباحث الجنائية البريطانية مسدودة تبلى .

وفي اول يوليو ، تلقى بيجين الاوامر بتنفيذ « عملية تشيك » ، وواصل باجلين عمله في تنقيح خطته التنصليية للتسلل الى قاعة « ريجانس » للطعام بالفندق ، عن طريق مدخل الخدم وطرقة « بالبدروم » ثم بطول الفندق . ولكن طلبت الهاجاناه في ١٧ يوليو من بيجين تأجيل التنفيذ ، وذلك لاسباب لم يطلع عليها ابدا . وكان « سنيه » قد حظى بزيارة من « ماير وايزجال » ، المساعد الشخصى للنشط والمخلص جدا « لهليم وايزمن » ، ويبدو أن وايزمن كان يعلم أن ثمة شيئا ما يدبر ، وأن كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشيء . وحاول وايزمان أن يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه ، في محاولة بطولية اخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية . وأعلن وايزجال هو يقرأ من بيان مكتوب :

« اننا نقف على حافة هاوية . . وإذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فسان

هذا سيكون بمثابة إعلان الحرب على بريطانيا العظمى . وأنا واثق من أن بريطانيا لن تسكت وبذلك ستخسر كل ما كاتحننا من أجله . ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية ، ومن المعترف به عامة في الانظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الأعلى للقوات المسلحة . . . وأنا استخلم الآن سلطتي هذه . وأنا آمرك أن توقفوا فوراً جميع العمليات التي تقوم بها الجمعيات السرية الثلاث » .

وهدد وايزمان بالاستقالة فوراً وبأن تكون استقالته مسببة إذا لم يخضع « سنيه » لهذا الإنذار النهائي . وأصر على أن أقل ما يرضى به هو تأجيل كل العمليات إلى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا « للوكالة اليهودية » في اغسطس التالي بباريس ، ليبحث أفضل أسلوب لمواصلة النضال . وعلى الرغم من أن « سنيه » لم يشارك « وايزمان » في مفاوضاته ، بل على العكس كان تواقاً للعمل ، فإنه لم يجد أمامه مغراً من الرضوخ . فهذه أول مرة يتدخل فيها الزعيم المسن بطريقة مباشرة في شأن من شئون « الهاجاناه » . ونصح « جاليلي » « سنيه » بالاتجاه فوراً إلى « لجنة اكس » ، ويقول « سنيه » : « أن هذا كان خروجاً على الأساليب المشروعة . وكنا نستطيع مجزأته ونقل لوايزمان أنه يستطيع الاتصال بين جوربون . ولكن كانت المسألة أخطر من أن تباطئ فيها على أسس التمسك بالإجراءات الشككية . فكان لابد من عرضها على « لجنة اكس » ، وكان لابد للجنة أن تتخذ قراراً بشأنها . وشرح « سنيه » للجنة بدقة اعتراضات وايزمان ، وأن لم يحسد لها المبنى الذي سسيتم ضربه . وعبدل أحد امضاء اللجنة — وهو « ليفي اشكول » الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء — من موقفه ، وبذلك سحبت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث .

ولم يكن « بيجين » يعلم شيئاً عن هذه الاتصالات المتبادلة . واكتفى « سنيه » بأن طلب التأجيل . ولم تجد « عصابة شتيرن » بأساً من الانتظار . أما « بيجين » فكان قلقاً . فكلها زادت الفجوة الزمنية ، قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية « الملك داود » . ووافق مرتين على منح « سنيه » مهلة أخرى ، ولكن بدأ صبره ينفذ . وكان قائد « الهاجاناه » يسلك طريقاً ملتوياً وعمراً في محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون . ومن الواضح أن « سنيه » كان يأمل في تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع « بن جوربون » قبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا في باريس ، ولكنه لم يكن يلق ببيجين بدرجة تكفي لأن يطلعه على الحقيقة ووفقاً « لجاليلي » ، فإنه لم يكن يرغب في إزعاج قائد « الارجون » :

« لم يذكر الحقيقة كلها . فاقولا وقبل كل شيء ، فهو لم يكن مضطراً لذلك . لم يكن مضطراً لأن يطلع ببيجين على أسرار الحركة الصهيونية : أي اسرار تنظيم « البيشوف » . ولكن كان هناك سبب أكثر خطورة ، فهو لم يكن يرغب

في تشبيط صم « بيجين » - فلو ان بيجين شعر بالاحباط نتيجة لاطلاعه على حقيقة ان الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل الى نتائج مبددة المسمى .

وايسفرت مراوغات « سنيه » من تحقيق النتيجة التي كان يحاول تجنبها بالذات . فقد قام قائد « الهاجاناه » في ٢٠ يونيو بإبلاغ « بيجين » بأن «الوكالة اليهودية» تستعد لإعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك في ٢٥ يوليو . وكان هذا سببا آخر « في عدم تنفيذ أى عمليات قبل ذلك التاريخ » ولم يستجب « بيجين » . وبعد « سنيه » في صباح ٢٢ يوليو بأخر نداء وجهه اليه في جملة واحدة : « يجب ان تمتنع مؤقتا عن تنفيذ عملية القدس » . ولكن كانت « الارجون » قد كتبت بالفعل عن تلقى أى أوامر .

وكانت القنابل المخبأة في أربعة أوعية لبن ، قد وصلت الى القدس فعلا . وكان هناك كثيرون - في الارجون و الهاجاناه « وعصابة شتيرن - يعرفون بخطة الملك داود حتى انه لم يعد ممكنا تجهيزها لفترة اطول . وكان بيجين يرى انه قد حصل فعلا على موافقة « الهاجاناه » على عملية « تشيك » . ولم يكن أحد قد أبلغه بلغاتها ويقول يعقوب ابرامى ، الذى خلف « ايلي تامين » كرئيس لمخابرات الارجون ، ان المنظمة ضاقت ذرعا بتأجيلات « سنيه » .

« لم تكن نعلم شيئا عن انذار وايزمان ، ولكننا كنا ندرک ان وايزمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وانسه يحاول التقليل من شأن هذا النضال . وكنا نظن انهم انما يريدون مجرد التأجيل . وكنا نعتهد بدرجة اكبر على حقيقة انهم كانوا يطلبوا منا أصلا تنفيذ العملية » ولم نر ان هناك سببا يدهو للتأجيل . ولم يقدم « سنيه » أى تفسير .

هذا وقد امتنع بيجين من جلبه عن الخوض في المسألة اكثر مما ذكر في كتابه «التمرد» الذى لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد «الهاجاناه» .

وفي الساعة الثانية عشرة و٢٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليو من عام ١٩٤٦ ، انفجرت شحنة ناسفة من مادة « تى . ان . تى » وزنها ٣٥٠ كيلو جراما ، داخل مطعم « الريجانتس » ، الذى كان خاليا في ذلك الوقت ، وذلك قبل موعدھا المحدد بست دقائق . ودهرت الدمام الوسطى الموجودة تحت الجناح الجنوبي بفندق الملك داود ، وانهزلت خمسون غرفة من غرف مكاتب الإدارة المدنية والعسكرية البريطانية ، محدثة صوتا موحيا وسط سحابة من الدخان وتراب الاسمنت . وتطايرت قطع الحجارة في الطريق الرئيسى الذى يطل عليه الجناح ، لتقتل المارة وتصيبهم بالماهات . وقذفت الانتفاض المطايرة بأحد المسؤولين البريطانيين وقذفت به ليرطم بحائط مبنى « جمعية الشبان المسيحيين » المقابل للفندق ، ويخترقه بجسمه تاركا وراءه رأسه

المنزوعة من أثر قوة الانفجار ودماءه المتناثرة على الحائط . وظل عمال الانقاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الانقاض حتى بعد اسبوع من وقوع الحادث وأعلن في ٣١ يوليو الحصر النهائي لعدد ضحايا العملية التي أسفرت عن ٩١ قتيلا من بينهم : ٢٨ بريطانيا ، و ٤١ عريبا ، و ١٧ يهوديا ، واثنان من الارمن ، وروسي واحد ، ويوناني ومصري . وبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصا . وكان اكثر من نصف القتلى من الكتليين ومن مواطنات الالة الكتبة والسعاة وغيرهم من صفار الموظفين في السكرتارية وفي الفندق . وصدم « مناهم بيجين » ازاء فداحة الاصابات ، ولكنه سارع بالدفاع عن رجاله ، وظل حتى بعد ٤٠ عليا من وقوع الحادث ، يلقي بمسئولية جرم الفسار على البريطانيين . فهم لم يكتفوا بالتحذير الذي ابلغ تليفونيا الى تحويلة تليفونات الفندق . واعلنت اذاعة « الارجون » السرية الحداد على الضحايا من اليهود — الذين اختصتهم بالذكر تشبها مع أسلوب بيجين في التمييز . وامتنعت الاذاعة عن اعلان الحداد على القتلى البريطانيين ، حيث ان بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهوديا الذين هلكوا في محرقة النازي . واعلنت « اننا سنواصل المسير في طريقنا — طريق المعاناة ، وطريق النضال — ونحن نظوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب ازاء مأساة اليهود المؤلمة » ويدا ان « الارجون » لم يلاحظوا ان معظم القتل لم يكونوا يهودا أو بريطانيين بل كانوا عربا . وكما يقول « ثيرستون كلارك » : بالنسبة للارجون ، فان المصرب لم يكن لهم اى وجود ، بل كانوا كالاشباح غير المرئيين .

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة ان الارجون قد قبلوا عملا بتوجيه الانذار ، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بأسلوب يوحى بالجدية ولا قبل فترة كافية صبح للعاملين بخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة الناسفة . ان ما وقع في ذلك اليوم الحزين اثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الاخطاء . ولكن لا يمكن اعتداء « منظمة الارجون » وقائدها من المسئولية الكاملة . فمهما كانت قلة تجاربهم السابقة ، لا يمكن تصور تنفيذ اى عملية تخريب على هذا النطاق الضخم دون أن يوضع في الاعتبار احتمال وقوع خطأ . فمن شأن القنابل مثلا أن تنفجر قبل موعدها ، كما أن الرسائل قد تضل الطريق فلا تصل الى وجهتها المحددة . وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الانذارات الكاذبة وكانها وباء . ولم يكن هنك ما يضمن عدم التعامل مع الانذار الذى وجهه « الارجون » على أنه واحد من تلك الانذارات الكاذبة . كما كان من المصروف جيـدا ان يوم الاثنين يعتبر أكثر أيام الاسبوع ازدهارا بالعمل بالنسبة للسكرتارية حيث انه يأتى فى اعقاب أيام الاجازة الاسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين ولذلك فان معظم العاملين لم يتصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر . وكان هذا هو السبب وراء اقتراح « الهاجاناه » تنفيذ العملية فى الوقت



متأخر من المنهار حتى ولو أدى ذلك إلى زيادة المخاطر التي يتعرض لها فريق  
« جيدي باجلين » .

لقد أبلغ التحذير إلى الفندق تليفونيا بواسطة « أدينا هاي » السالفة  
من العمر ستة عشر عاما والتلميذة بلحدي مدارس القنص التي كانت تتولى  
نقل رسائل الأرجون . وبدأت « أدينا » في إجراء اتصالاتها بمجرد أن انسحبت  
فرقة التخريب من « بدروم » الفندق . وتقول ان قائد العملية اعطى الإشارة  
التي سبق الاتفاق عليها تقول « ادينا » :

« دخلت حانوتا قريبا من فندق الملك داود - وكان محلا للمطور أو لبيع  
المنظارات - أو ربما كان يجمع بين الأمرين ، واتصلت بالفندق . وقلت بالعبرية  
والانجليزية : « هنا المقسومة اليهودية » . لقد غرسنا القنابل بالفندق ،  
فالرجاء إخلاء الفندق فوراً . لقد أنذرناكم ، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج .  
وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حالياً حديقة عامة . واتصلت  
بالقنصلية الفرنسية وابلغتهم ان ثمة قنبلة ستنفجر في فندق الملك داود وطلبت  
منهم فتح النوافذ حتى لا تحدث أضراراً ، ثم اتجهت إلى شارع يافا بالقرب  
من محطة الاتوبيس القديمة ، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات  
واتصلت بصحيفة « بالستين بوست » وابلغتهم بالعبرية اننا قمنا بزرع قنابل  
في فندق الملك داود ، واننا حذرناهم هناك ، وطلبت من الصحيفة تحذيرهم مرة  
أخرى واتجهت بعد ذلك إلى معسكر اليهود ، وعندما وصلت إلى محطة البويلس  
هناك ، تردد صوت انفجار هائل ، لقد كان هذا هو صوت انفجار فندق  
الملك داود .

ويمكن القول ان من المستحيل اتمام مثل هذه الرحلة ، حتى لو قامت بها  
فئة مراهقة في عجلة من أمرها ، في مدة تقل كثيراً عن نصف ساعة ، اذا أخذنا  
في الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التي اجريت خلالها . وثمة دلائل مستقلة  
تؤكد ان المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل . ويقول « نعيم نيسان » ، رئيس  
الخدم في فندق الملك داود ، انه استدعى إلى تحويلة التليفونات بالفندق :

« كان عامل التليفونات شاحب الوجه تماماً . وقال ان امرأة اتصلت به  
وابلغته ان ثمة قنبلة في الفندق . وطلبت منه ان يهدأ ولا يؤثر الرعب . وهرعت  
إلى المدير ، مستر ( ماكس ) « هالبرجر » ، الذي قال لي أن من السهل جداً  
على أى شخص ان يظن أن قنبلة توجد بالفندق . فقلت له : لماذا المجازفة  
ولماذا لا يبلغ السلطات . وللتقط سماعه التليفون وأدار على النور رقم ممر  
القيادة البريطانية . ثم قال لي : « لا تقل لأحد . فان أحداً لن يغادر الفندق » .  
وكان قد سال البريطانيين : « هل اخلى الفندق ؟ » . ولم اسمع الرد ولكنى  
اعتقد انهم ردوا بالنفى ، وان هذا هو السبب في طلبه منى عدم ابلاغ احد ،

وإن أخذ لن يغادروا الفندق . واتجهت بعد ذلك لإستئناف اعمالى بعيدا عن قاعه  
« الريجانس » وكنت فى موقعى هناك عندما وقع الانفجار .

ولم يوجه « نيسان » ، فيها بعد ، أى أسئلة الى « هاببرجر » حول  
هذا الموضوع . : انه لم يتحدث أبدا بعد ذلك من المسألة ، ولم يحدث أبدا  
ان أثرتها معه مرة أخرى . فهو فى غاية التشدد . . وكان « نيسان » يهوديا  
عراقيا ، عمل من قبل لدى الاسرة المالكة فى بغداد . وقد تزوج ، بعد الحادث  
بأربع سنوات ، من « أدينا هاى » ، ولكن لم تكن له أى صلة « بالارجون » .  
وهو كان على صلة بعم « ادينا » ولكنه لم يحدث ان قابلها الا بعد فترة طويلة  
من الحادث . ويؤكد « اميل سوتير » المدير المساعد بالفندق ، صحة رواية  
« نيسان » فى مضمونها . ولكن « اميل » قد استبعد صدق التحذير فى البداية  
على اساس انه خدعة . ويعترف « سوتير » وهو مسيحي سويسرى متزوج من  
بريطانية ، بأن عمال الفندق أخطروه ثلاث مرات بالتحذير .

وقد تأكدت أيضا صحة الانذارات الأخرى . حيث اقترعها كل من  
« اليالستين يوست » ( او المجرى سالم بوست حاليا ) ، والمصلية الفرنسية  
بل ان غابل تحويلة المصححة تمام باخطار الشرطة . وقد عثر على تلك الرسالة  
بمسجلة فى سجلات المباحث الجنائية . وقد بعث جندى فرنسى كان يخدم فى  
قوات حفظ السلام للأمم المتحدة بجنوب لبنان ، عندما أعيد فى عام ١٩٨١ نشر  
رواية « فارسون كلارك » من أحداث ذلك اليوم — بعث برسالة الى « أدينا  
نيسان » يبلغها فيها ان والده كان قنصل فرنسا بالقدس عام ١٩٤٦ ، وأنه  
يذكر كل تفاصيل الحادث منذ أيام طفولته .

وبالقائم نظرة تحليلية على الماضى ، نجد انه من الواضح ان البريطانيين  
كانوا سيتصرفون بسرعة أكبر ازاء التحذير لو ان « أدينا هاى » اتصلت  
تليفونيا بالسكرتارية مباشرة ولم تكف بالاتصال بتحويلة تليفونات الفندق .  
ولم يكن رقم السكرتارية سرا . ولكن كانت « منظمة الارجون » تعتقد ان  
اجراء مكالمات واحدة هو افضل طريق لتحذير كل من الفندق والسكرتارية فى آن  
واحد . وكان « اسحاق افينوم » ، قائد الارجون المحل بالقدس الذى تلقى  
بنه « ادينا » الاوامر ، يعتقد انه مجرد ابلاغ التحويلة يكون بمثابة اطلاق  
جرس الانذار ، وأنه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير الى كل من ادارة  
الفندق والبريطانيين فى آن واحد . ولكن ، على خلاف ظن « الارجون » ، من  
الواضح ان عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة اطلاق الانذار على مسؤوليتهم  
الشخصية .

ويظل التساؤل معلقا : لماذا لم يتم البريطانيون باخلاء السكرتارية عندما  
علموا بالانذار من « هاببرجر » ومن الشرطة ؟ ان أبسط رد على هذا هو ان  
الوان كان قد قلت . ولكن المسألة تتطوى على ما هو أكثر من ذلك . فنان

« منلحم بيجين » ظل يروى في الاحاديث التي أدلى بها حتى وقت قريب - وكان آخرها فى عام ١٩٧٦ - أن السير « جون شو » ، سكرتير عام الإدارة البريطانية ، تلقى التحذير ورد تقبلا فى غطرسه المعتادة : « اننى موجود هنا لاصدار الاوامر الى اليهود ، وليس لملقى الاوامر منهم » . وكانت هذه الرواية قد نقلها اسرائيل جاليلى ، عضو الهلجاناه ، الى « بيجين » فى ظرف ايام قليلة من وقوع الكارثة . ويقول « جاليلى » بدوره من صحفى امريكى ( توى بعد ذلك ) وقد رفع « شو » دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية مسفيرة منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٩٤٨ ، عندما قامت بنشر الخبر . وقد اقسم « شو » وسكرتيته انها لم يطلقها أى انذارات . وقد سحبت الصحيفة زعمها بدلا من الدفاع عنه ، حيث انها لم تستطع العثور على أى شهود اثبات . وتقول « جوزفين » ، زوجة « شو » ان الخبر مختلف تماما بهدف الاسماء الى سمعة السير « جون » ولتخفيف جزء من المسؤولية عن كاهل الارجون ، ولكن ليس هناك أى دليل أيضا يثبت هذا الادعاء . ويسلم « شمويل كانت » ، مدير دعاية « بيجين » ، فى تسجيله لتاريخ كفاح « الارجون » ، « بإمكانية استبعاد » الرواية الخاصة برد « شو » على الإنذار .

ومع كل هذا ، فان شخصا ما بالإدارة البريطانية تلقى الإنذار ، وهناك الكثير من المعلومات التي تؤكد ان شيئا ما قد وقع خطأ . وربما كان هذا هو سبب المشكلة . فان « باجلين » ورجاله كانوا قد دخلوا الى « بدروم » الفندق متخفين كعمال عرب . واثناء أعداد قتال المتفجرات فى قاعة « الريجنس » للطعام شاهدتهم ضابط بريطانى برتبة « ميجور » فاطلق الإنذار . واثناء الارتباك الذى وقع ، اطلق أحد رجال « الارجون » النار عليه . وأبلغ الحادث الى رجال الامن البريطانيين ، ولكن ساد اعتقاد خاطئ بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب . وقام رجال « الارجون » بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى « طريق جوليان » ، وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داود ، لاجبار البوليس على اغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الإصابات المحتملة . وانفجرت القنابل قبل موعدها ، مما زاد من الارتباك العام . وسمع سير « جون شو » هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع ، فمسر الممر الواقع خارجها لتقصى الامر ، وتوصل الى أن المسألة لا تزيد عن كونها واحدة من الحوادث « العادية » المألوفة فى عام ١٩٤٦ . وراى أن البوليس بوسعه معالجتها حيث أن لديه أشياء أهم من ذلك يؤديسها . ومن الواضح ، بذلك ، ان التحذير الذى وجهته « أدينا هاى » ، من خلال شبكتك اتصال الفندق والامن ، لم يتم تقييمه على اعتبار أنه حدث منفرد ، بل على أساس أنه جزء من الفوضى التي كانت تسود القدس حيث كانت أصوات الانفجارات والطلقات والهرج والمرج من الامور المعتادة . وإذا كان قد وقع اهمال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالامن ، فانه لم يتجاوز نطاق الاخطاء البشرية

المسبوح بها . ولقد دفع البريطانيون ، والعاملون لديهم ، وزوارهم ثمننا  
نحدا للغاية مقابل هذا الخطأ .

بيد انهم قضوا على الجزء الاكبر من مشاعر التعاطف التي حظوا بها  
في بداية الامر ، وذلك عندما وصل الى الصحف والمصايف خطابات دوري  
اصدرة القائد العلم الجديد للقوات البريطانية ، الجنرال سير « اغلين باركر » ،  
الى تواته . وكان سير « باركر » قد كتب الخطاب الذي ندم فيها بعدد على  
اصداره ، في ثورة من الغضب ، ولكنه استغل كثرينة تؤكد اسوا المشكوك  
السائدة ازاء النوايا البريطانية ، فقد أعلن :

« يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن اقلية اى علاقات  
اجتماعية مع اليهود ، ويجب الا تجرى اى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات  
الرسمية فقط ، وأن يكون ذلك في اضياع الحدود المكنة . وأنا أدرك ان هذه  
الاجراءات من شأنها اثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات ، ولكنى واثق من  
انهم لو فهموا تماما الاسباب التي دفعتنى الى اتخاذها فانهم سيدركون انها  
لائقة ، وانها كفيلة بمعاقبة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس أكثر من شىء  
آخر ، الا وهو تفريغهم ماليا واظهار احتقرنا لهم » .

وقد ضاعفت عملية « الملك داود » من كراهية الجبهـور البريطانى  
« للملاهاب اليهودى » . ولكنها ساعدت في الوقت نفسه على زيادة ايمان  
الحكومة بحتمية التوصل الى حل سلمي . فان الكرامة البريطانية تأثرت فعلا  
كما تأثرت معها ارادة الاستمرار في حكم فلسطين . اما داخل المسكر اليهودى  
فان هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم باعدام المقاومة المشتركة . فاجبر  
« موشيه سنيه » ، أكثر قادة « الهاجاناه » ثورية ، على الاستقالة . ووافق  
« بن جوريون » في باريس على العودة الى الوسائل الدبلوماسية التي شملت  
الموافقة رسميا على قبول مبدأ التقسيم . وتوقفت الهاجاناه تقريبا عمن كل  
عابليتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهرا . وكما توقع « بيجين » فان  
« الأرجون » و « عصاة شتيرن » ، وجدوا انفسهم مضطرين الى مواصلة  
الطريق بمفردهم ، دون الحصول على معونة من احد . وكانت هذه هى  
احدى التوقعات التي أثبتت الايلم صحتها ، دون أن تترك لديه اى شـمور  
بالاغشـاط ازاء انتصار رايه .

## الفصل الثامن

### « النفس بالنفس »

كان لعبارة « فلننتقم الله لحياتهم ! » ، التي جاءت في البيان الذي أصدره مجلس الوزراء الاسرائيلي في ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ ، في نهاية اجتماعه الاسبوعي ، صدى محويا . وأحدث هذا الدعاء باستفزال اللعنة ، هزة عنيفة في اعضاء السلك الصحفي بالقدس الذين كانوا يشعرون بالتعب المعتاد الذي يسيطر عليهم في عطلة نهاية الاسبوع ، وأيقظهم من انقذاتهم بعد ظهر يوم الاحد المذكور . لا يمكن ان يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع ان يكتب مثل هذه العبارة : « لناحم بيجين » الذي يتولى رئاسة وزراء اسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة . وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على اجازة لسفير مخضرم ، ثم اشارة غامضة الى استمرار المسائل الدبلوماسية والامنية ، فإن هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعا عاديا . فقد جاء في الفقرة الثالثة من البيان اعلان من اصدار مجموعة جديدة من الطوابيع البريدية ، الامر الذي كان من الممكن اعتباره ، في ظروف أخرى ، بمثابة مسألة غير مثيرة للاهتمام تماما كما كان الحال بالنسبة للبنود التي سبقتها . ولكنها كانت طوابيع تثير الشعور بالورع بنفس درجة اثارها لاهتمام هواة جمع طوابيع البريد . اذ ان هذه الطوابيع العشرين صدرت « تخليدا لذكرى شهداء الجبل الذي أسس دولة اسرائيل » . وقد تضمنت المجموعة ، من أجل المحافظة على المظاهر ، شخصيات وطنية بارزة من أمثال « حنا سنيش » ، « شامير » الكيبوتز « الذي أصبح الثأري بعد أن قفز بالمظلة الى داخل أوروبا المحتلة » و « ايلى كوهين » الجاسوس من دمشق . ولكن احدا لم يندهش عندما ظهرت على عشرة طوابيع من ضمن العشرين طابعا ، صور المناضلين من « الارجون » و « عصابة شتيرن » اللذين اعدمهم البريطانيون شنقا ، ورجلين نجرا نفسيهما أثناء وجودهما داخل زقزاة المحكوم عليهم بالاعدام .

لقد كان قائدهم القديم يدفع الدين الذي في عنقه لهم . فهؤلاء الاشخاص كانوا بالنسبة « لناحم بيجين » آخر الشهداء ، وإبطال ملحمته الشخصية ، وكان « بيجين » يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة أخرى لغيرهم من المقاومين في صفوف « الارجون » الذين سقطوا في ميدان المعركة ، والذين يحمل لهم في نفسه كل تقدير . ان أولئك هم الرجال الذين قاتل عنهم ، وهو يفيض في التعبير عن اعجابه بهم في كتابه « التمرد » ، انهم اجتازوا الاختبار :

« ليست هناك معركة مجيدة ، ولا هجوم عاصف . ولكن هناك نقطت التفكير والتأمل — التفكير في الوقت الذي أخذ يتفقد مع كل دقة من دقائق

الساعة . والتفكير فيها وراء الزمن . أن الايلم تمر بطيئة وطويلة ولكن الليالى اطول . والوقت يمتد ويتيح فرصة اطول من اللازم للتأمل . ويطسوف بالذهن ذكرى شيء ما أو شخص ما . ذكرى صوت أم مسنة ، أو زوجة شابة ، وهو يأتى من بعيد ولكن بوضوح كامل . ان الملابس الحمراء التى يدثره بها الجلاء ، تذكره على النوم بأن ايامه اصبحت معدودة ، وأن الشمس التى تسطع خارج زنزانته المظلمة لا تعمل على محو الليل وانما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الازلى . ان المرء لا يستطيع هنا كبت غريزة حب البقاء . فان الصراع المؤلم يستمر معها ، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة ، ويستمر يدور فى ذهنه عندها يخلد الى النوم وعندما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنزانته المظلمة » .

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة ، وانما فى الانضباط والالتزام وشرح « يعقوب امرامى » ، مدير مخابرات « الارجون » ، هذا الامر قائلا : « لقد ذهبوا الى المشنقة لانهم لايعترفون بالحكم البريطانى ، وكان بعضهم على الاقل يستطيع أن ينجو بجلده لو انهم قبلوا السلطة القضائية للحكم البريطانى ولم يجبرهم أحد على الرفض ، وكأنت لديهم حرية اختيار مطلقة . فقد مزق « دوف جرانيير » ، وهو اكثر هؤلاء الشهداء اخلاصا ، توكيلا روسيا كان قد وقعه بفوض فيه أحد المحامين باستئناف الحكم . لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلية : رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف . كانت تضحياتهم تشكل جاذبية خاصة بالنسبة « لبيجين » الروماتسى والمقاتلى ، القائد والمتفرج فى وقت واحد . لقد كانوا يتصرفون وكأنهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم « جابوتسكى » ، حيث يقومون بتوجيه قضائهم ثم ينشدون « الحليكا » ( نشيد الحركة الصهيونية ) وهم يقفون عند المشنقة . وعندما توفيت « اليزا بيجين » فى نوفمبر من عام ١٩٨٢ ، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر « مائير فينشتاين » و « موشيه برازاني » ، اللذين خدعا الجيلاء بأن نجرا قبلة يديوية مهرة اليهما فى سجن القدس المركزى . وكان « بيجين » قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيسا للوزراء فى عام ١٩٧٧ ، أن يدفن هو وزوجته بجوارهما .

وكان « بيجين » بصفته قائدا للارجون يقدم ارواح المقاتلين حق قدرها . فكان يصر قبل تنفيذ أى عملية على أن تتضمن خطة للهروب قبلية للتنفيذ . ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال أن يتعرضوا احيانا للقتال ، وأن يموت بعضهم أو أن يصابوا بجراحات ، بينما يعتقل آخرون بل وتعرضون للنفى أيضا . وهذا هو شين « التهرد » . ماذا كانت الحركة ذات قبة فانها تكون جدية بالتحضية . وكان « بيجين » يرفض السكوت على الاذلال بواسطة المشنقة أو المنوط . فقد مائى اليهود فى شتاتهم بالمعجز فى

صبت من مثل هذا الاذلال ، ولكنهم لن يسكتوا عليه في وطنهم القوي . ولم ينس « بيجين » عندما كان طفلا وأجبر على مشاهدة تنفيذ عقوبة الجلد العلني في زعماء اليهود « بيديست - ليتونيك » ، بناء على أوامر أحد الجنرالات البولنديين ، ويقول « كنت آنذاك في السابعة ، ولكن بشاعة هذا المنظر المريع لم يح مح من ذاكرتي مطلقا » .

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسياط من الاساليب التي اعتاد البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وان كان ذلك في الحالات القصوى ، وكنوا ينفذون الاعدام في اعداد من عرب فلسطين تنوق عدد اليهود . ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثل ، من بين الجماعات المتمردة ، سوى « منظمة أرجون زناى ليوى » . وقد تكتت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد التي مارستها السلطات البريطانية بمارستها الشنق والجلد بالسياط ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الاهانة بالمثل ، ليس ضد الجنود كالفرد محسوب بل ضد النظام ككل . وما زال الالم الفاجم من تلك الاهانة قلها حتى اليوم . ويتردد ان « مارجريت تاتشر » قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الاحداث ، لرئيس وزراء آخر في الكومنولث ، انها لا تستطيع مطلقا مصلحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سرجنت ( ومع هذا فقد استقبلت مناخم بيجين في مقر رئاسة الوزارة في داوننج ستريت ) .

وقد اثير أول تهديد وجهته الأرجون ، فقد التى القبض على كل من « ميشيل آشيل » و « يوسف سمحون » ، مضوى المنظمة ، وهما في طريقهما الى المستشفى بعد ان اصيبا أثناء اشتراكهما في غارة مسلحة وقعت في ٧ مارس عام ١٩٤٦ ، ضد أحد معسكرات الجيش بصرافند . وكانت خسرقة من « الأرجون » قد تسلمت الى القاعدة العسكرية مخفين في زى جنود مظلات بريطانيين ، ولكن اكتشف أمرهم عندما طبع أحد أفرادها وحاول انتزاع مدفع آلى من طراز « فيكرز » من فوق إحدى الدببات . وانسحبت الفرقة في غير نظام . وصدر الحكم بالاعدام ضد « آشيل » شاعر الأرجون ، و « سمحون » وبتت المنظمة على ذلك باختلاف ستة من الضباط البريطانيين : خمسة من أحد نوادى تل أبيب والسافس من القدس . وقد تمكن الأخير من الهرب ، مما سبب « لبيجين » الشهور بالفرزى الإبدى . وقرضت السلطات حظر التجول في تل أبيب ، وبدأت عملية التفتيش من بيت الى بيت وأعلن « بيجين » ان الأرجون سترد على « الشنق بالشنق » . وجرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسطاء اليهود . وأطلقت « الأرجون » ، كتعبير عن حسن النية ، سراح اثنين من الضباط المحتجزين وأعطيت كل واحد منهما جنيتها كتعويض عن أى اضرار لحقت بهما . وأعلن الضابطان انها لغيا معاملة طيبة . وعندما تم استرداد عضوى

«الارجون» ، التي الرهائن البريطانيين اليافون في وسط تل أبيب ، وهم محشورون داخل صندوق شحن . وخرجوا منه ، وهم يرتدون زيهم العسكري الاتيقي الذي كان قد تم كيه ، مما أثار سخرية وضحك المرة . لقد عقدت «الارجون» صفقة ولم تتراجع من تنفيذها .

ولكن لم تكن للعملية التالية نهاية سعيدة مماثلة ، وان كانت قد أسفرت عن تحقيق نصر آخر «للارجون» . فقد صدر حكم ضد «بنياهو كيمتشي» المقاتل في الارجون البالغ من العمر سبعة عشر عاما ، بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع جلده ثلثي عشرة جلدة مقابل له عن حمل السلاح . وردت «الارجون» على ذلك باعلان : «إذا استخدمتم السوط ضدنا ، سنستخدم السوط ضدكم» . ومع ذلك تم جلده «كيمتشي» ونفذ «بيجين» وعيده ، حيث تم اختطاف ضابط بريطاني برتبة ميجور وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيثانيا وريشون لوزيون . وتلقى كل واحد منهم ثلثي عشرة جلدة قبل الامراج عنهم . وقد أكد البيان الذي صدر وهو يحمل شعارا يصور صفتي الاردن وبنديقية وتحتهما مقبرة تقول «ليس أكل من هذا» : ان المنظمة لن ترد «بالسوط فقط مستقبلا» ، اذا استمرت عناصر القهر في جراتها التي تهدف الى إلحاق الإهانة الجسمانية بالشباب اليهودي وشرهه القوي والانساني ، بل انفسا سفرد بالنار . وابطلع البريطانيون كبرياءهم . فاعفى شلب آخر من «الارجون» كان قد اعتقل مع «كيمتشي» من عقوبة الجلد . ولم يوقع البريطانيون بعد هذا عقوبة الضرب بالسوط على أي من اليهود أو العرب طوال المدة المؤلمة الباقية لهم في «الارض الموعودة» ومهما يكن من أمر ، فقد تحققت أمنية أحد الجنود البريطانيين ، كتب عبارة على أحد ملصقات «الارجون» التي تحذر جميع ضباط الجيش البريطاني من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط . . كتب يقول : «لا تنسوا الضابط الذي برأسني برتبة سرجنت — ميجور» .

أما استخدام حبل المشقة فقد احتاج الى جهد أكبر لايقانه . اذا احتاج الامر الى تنفيذ الأعدام شنقا في سبعة من رجال «بيجين» قبل أن يتم ايقاف مثل هذا الحكم ، كما استدعى الامر أن يلحق بهم اثنان من الجنود البريطانيين برتبة سرجنت ، تم تنفيذ الأعدام فيهما شنقا بمقصلة أثبتت خصيصا لهذا الغرض ، لا لاي نذب ارتكابه سوى كونها بريطانيين موجودين بفلسطين في ذلك الوقت . وكانت حكومة «أطي» والإدارة البريطانية في القدس ، في وسط هذا الجو من الارهاب الذي يزداد جراءة ، تتعلمان تحت ضغوط مكثفة من الرأي العام لاستعراض قوتها . ومن ثم فقد أصبح «دوف جرائر» المهاجر اليهودي المجري البالغ ثمانية وعشرين عاما



والذى اصيب بجراح مرتين اثناء خدمته في الجيش البريطاني رمزا لروح  
التحدى الميزة للارجون ، وللاصرار البريطاني .

وقد تلقى القبض على « جرائر » في اعتاب غارة مسلحة على مركز  
شرطة « ربات جان » في ٢٣ ابريل ١٩٤٦ وكنت مفرقة من الارجون قد  
دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جاءوا للتسليم مجموعة من المعتقلين  
العرب . وعندما لم يمتروا على مفتاح خزانة الاسلحة ، قاموا بنسف الباب ،  
مما نبه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى واحد رجال الشرطة الذى  
اجرى اتصالا تليفونيا طالبا النجدة . وفقدت « الارجون » في هذه  
المركة غير المدبرة ، ثلاثة من رجالها . وتحطم فك « جرائر » عندما اصاب  
برمصلة فيه ، وكلا ان يفارق الحياة عندما عثر عليه رجال الجيش .  
واجريت له سلسلة من العمليات الجراحية ، واصبح لائقا للمثول امام القضاء  
حيث جرت محاكمته في يناير سنة ١٩٤٧ بالقدس . ووجه « جرائر »  
اثناء شرحه للانسبب التى تجعله يرفض حق الحكمة في مقاضاته ، اتهامها  
الى بريطانيا بتحويل « ارض اسرائيل التاريخية » الى قاعدة عسكرية  
وباغتصابها من الشعب اليهودى « لذلك فلم يعد هناك اى اساس قانونى  
لحكيم ، الذى اصبح لا يقوم الان سوى على مبدأ واحد فقط : القوة  
الغاشية ، المظلة في استخدام السلاح وسيادة الارهاب المتخفى في صورة  
القوانين المزعومة . لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حاملي الحراب .  
وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقض مع الحقوق الاساسية للانسان  
ويتعارض مع ارادة الشعب المحلى والقانون الدولى » .

وعندما اصدر القضاة العسكريون الحكم عليه بالاعدام شنقا ، رفع  
صوته مرددا التهديد الصهيونى وهو يقف في قفص الاتهام . وكئن  
« جرائر » يفضل الحياة على الموت ، ولكن على ان يكون ذلك وفقا لمبادئه ،  
وليس لمبادئ قضائه . وكان المعتقلون من رجال « الارجون » يعرفون  
جيذا الفرق بين الاستشهاد والانتحار . وكانوا يودون ان يتم انتحارهم  
او مبادلتهم ، ولكن على الا يكون المقابل هو التماس الرأفة . واصدرت  
« منظمة الارجون » انذارا ، وان كل اقل تحديدا من الانذارات السابقة :  
ان اعدام اسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الاصرار . ونحن ننذر  
نظام الحكم البريطانى بارتاة الدماء ردا على ارتكابه مثل  
هذه الجريمة . . وكان رد فعل « بيجين » المبدئى ، مرة اخرى ، هو  
اختطاف رهائن بريطانيين . فاختطف الميجور ه . ا . كوليتز ، الذى قيل  
انه ضابط مخبرات ، ولكنه كان في واقع الامر ضابطا متعامدا يشغل في  
الامسال الحرة ، وذلك اثناء تناوله الشاى بمدينة القدس . واختطف كذلك ،  
القاضى « رالف ويندام » من قاعة الحكمة في تل ابيب . ويبدو ان عملية الاختطاف

الآخيرة أزعجت البريطانيين أكثر من الأولى ، وإن كان من المشكوك فيه أن السبب في ذلك هو صلاته بالملبقة الأرستقراطية ، كما كان يزعم « بيجين » ، وبدأت الحكومة تحاول كسب الوقت بعد أن كانت قد قررت في بداية الأمر تنفيذ حكم الإعدام على « جرائر » بصرف النظر عن المواقف . فأعلنت تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له لتقديم التماس إلى « المجلس الملكي الخاص » . وكان هذا الإعلان بمثابة نقطة تحول في القضية وكانت جماعة « الأرجون » تواجه توفيقا محددا . وقرر « بيجين » أن استمرار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئا ، خاصة وأن المخبا الموجود به المتأذى « ويندام » ، لم يكن آمنا على الإطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كفوا لا يزالون مصممين على شنق « جرائر » وثلاثة آخرين — هم « يحيل دريزنير » ، و « مرفضاي الكوشى » و « الأيزر كاشاني » — لم تدبر « الأرجون » عملية الإنقاذ بسرعة كافية . وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية ، ونقل الرجال الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام من القدس إلى حصن عكا ، حيث أعدموا في ١٦ أبريل عام ١٩٤٧ ، تحت سطر قانوني من الدخول . وتلم بعد أسبوع واحد « فينشتاين » و « برازنى » ، من الأرجون و « عصاينة شتيرن » ، على القوالب ، بفجر قبلة يدوية ، تم تهريبها اليهما داخل برتقالة . وكانا يتويان أن يصحبا معها الجلاذ إلى القبر ، ولكنها رجعا من ذلك عندما أصر حاخام السجن على مراقبتها حتى حبل المشنقة .

وقد حققت « الأرجون » ، إبان سيف ذلك العام ، أكبر انتصاراتها ، اقتحام حصن عكا ، الذي كان يبدو منيعا منذ عهد الصليبيين — ولكنها عاشت أيضا من آلام تنفيذ أحكام أعدام أخرى واتخذ القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سيرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة . وبتت عملية اقتحام الحصن الكائن في وسط المدينة العربية ، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج . وقد بلغ المجموع الكلى للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التي فُجرت في الجدار الحجري السيك ٢٥١ سجين منهم ١٣١ عربيا ، والباقي ١٢٠ من اليهود . ولكن كانت الحسابات فادحة في المقابل ، حيث قتل خمسة عشر يهوديا أثناء المطاردة كما ألقى القبض على خمسة آخرين . وكان من بين القتلى « ميتشيل أشيل » الذي كان قد نجا من حبل المشنقة منذ عام مضى . وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد — وهم « إشفالوم جيب » ، و « مائير ناكاز » و « يعقوب ويز » — إلى المحكمة بتهمة عقوبتها الإعدام . وقال أحدهم للقضاة :

« أننا نعلم أن هذه المعركة ستسفر عن نتيجة واحدة . فإن شبعنا سيحصل . على حريته وسيجلو المستبد من الأرض . ولهذا فائنا نحتفظ بهدوئنا . بل الأكثر من هذا فائنا سعداء . فليس هناك سعادة أكبر من أن نهب حياتنا من أجل مثل

أعلى ، وإن نعلم ونعلم بما لا يترك مجالاً للشك ، أننا من بين أولئك الذين يلعبون دوراً مباشراً في سبيل تحقيقه .

وأذكر « بيجين » أنه يجب على « الأرجون » أن تأخذ رهائن من رتب عالية ، حتى يستطيعون إنقاذهم . ولكن منذ تنفيذ عمليات الإعدام السابقة أصبح البريطانيون على حذر ، مما جعل تنفيذ ذلك أمراً صعباً . واضطر « الهميادون » في نهاية الأمر إلى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت ، أثناء عودتهما إلى مسكنيهما سيرا على الأقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد أن قضيا ليلة في مصيف ناتانيا بدون تصريح . وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت « كليفورد مارتن » و « ميرفن بيس » بالبرواوت وتخديرهما بالكورفورم ثم نقلهما بسرعة إلى مخبأ أعد خصيصاً لهذا الغرض أسفل مصنع لصلل الماس بناتانيا . وكان حارس سجنهما هو « جيدي باجلين » رئيس عمليات الأرجون . وأعلن البريطانيون تحديد اقلية جميع سكان المدينة اليهودية ، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصاً منهم ، ولكن بقي الجنديسان في زنازينهما الخائفة بمرحاضها المصنوع من قماش سبيك والأكسجين المعبأ. ونفذ حكم الإعدام في ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧ ، في المسجونين الثلاثة من منظمة الأرجون - « جيب » « نكار » و « نيس » ، حيث اقتيدوا إلى حبل المشنقة في عكا . وفي ظرف ساعات قليلة من ذلك ، لحق بهم كل من السيرجنت « مارتن » والمسيرجنت « بيس » . وتولى « باجلين » بعد التشاور مع « بيجين » ، مؤكداً له إمكانية تنفيذ العملية وتم شنتهما بواسطة عارضة خشبية في سقف مصنع الماس المهجور . ثم نقلا إلى غاية صغيرة من أشجار الكافور حيث تركت جثتيهما لتتدليان من شجرتين . ووضع « باجلين » لغماً بالقرب من الشجرتين على أمل أن يقتل جندياً ثالثاً حتى يتحقق التبادل ، ولكن عندما تأخر البوليس في العثور على الجثتين أخطرت منظمة « الأرجون » الشرطة بمكانتهما ، مع تحذيرهم من وجود الغام فإن « باجلين » كان يخشى أن يصيب اللغم أي جندي يهودي قد يشترك في مهمة البحث وبناء على التحذير ، فإن البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الجبال والخطافات ، معتقدين أن الجثتين ذاتهما ملفومتان . ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الانقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين ، أن الجثة الأولى عند انزالتها لمست اللغم الذي زرعه « باجلين » ففجرت وتطايرت أشلائها . أما الشجرة التي تحمل الجثة الثانية فقد انقلعها الانفجار من جذورها وأصيب ضابط برتبة كابتن من سلاح المهندسين الملكي كان يشرف على العملية ، في وجهه وكتفه .

تردد مدى عملية شنق الجنديين في جميع أنحاء العالم ، مطلباً حدث لعملية الانفجار في فندق « الملك داود » وعملية الهروب من حصن عكا . ومع هذا فقد كان « مناهم بيجين » الذي صدق على العملية ، بحفظاً بصورة غريبة

ازاء هذا القرار . وكتب يقول في مذكراته التي نشرت في كتابه « التمرد » :  
« وفي اليوم التالي تم شنق البريطانيين . لقد حملنا مدونا بالمثل . ولقد حذرنا مرارا وتكرارا . ولكنه تجاهل تحذيراتنا بالصرار . لقد أجبرنا على الرد عليه بأسلوب « الشنق بالشنق » . وكانت أيام ساد الظلام نهارها كالليالي الخالية من النجوم » هذا هو كل ما قاله في المساحة التي تقل عن صفحة واحدة والتي خصصها لعملية الشنق ، عن هذا القرار أما باقى المساحة فقد ملأها بتوجيه اللوم للبريطانيين لتنفيذهم « احكام الاعدام » التي لا معنى لها .

بيد أن قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة ، فقد بذل « بيجين » جهودا هائلة في مشاورات مع زعمائه بالقيادة العليا للارجون ، على الرغم من عدم وجود ما يفيد بأنه كان يعارض قرار الشنق . ويمتد « يعقوب امرامى » أن « بيجين » لم يكن يعرف تماما ما يجب عليه عمله . يقول « امرامى » :

« لقد سال الجميع عن آرائهم ، ولم يكن يريد ان يؤثر على الآخرين عن طريق اعلان موقفه . وأنا شخصيا كنت أؤيد القرار . وقام بمشاوره ستة او سبعة منا — متى وفراى . ولم يكن هناك من يعارض القرار . وأنا لا انى أن البعض كانت تراودهم المخاوف . لقد كانت المسألة نسبية . وكان رأى البعض قاطعا ، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم . وكان « بيجين » ، يريد أن يسهل المسألة على أى أحد يريد أن يقول لا ، أو يعبر من أى تحفظ .

« وكانت مشاورة كل أعضاء القيادة العليا بهذه الصورة ، عملا غير عادى ، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة أغلبية الاعضاء الموحدين . ولم أسمع « بيجين » يعترف مطلقا بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض الشكوك . ولو أنه كان لا يوافق على القرار لمعارضه بكل قوته ويدافع بقوة عن وجهة نظره . ولم يكن هناك آنذاك ، أى دليل على أنه كان يعارض القرار . وكان « بلجلين » أقوى المؤيدين لقرار الشنق — فلن البريطانيين شنقوا رجاله هو .

وجدير بالذكر أن أحد الدارسين الاسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين عاما أن والدة السرجنت « مارتن » كانت يهودية مصرية . وكان والده قد تزوجها أثناء عمله فى السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات . ووفقا للشرائع اليهودية فلن هذا الامر يجعل السرجنت يهوديا . وقد سئل أحد أعموان « بيجين » ، الذى كان قد أصبح رئيسا للوزراء ، عما اذا كان هذا سبؤا فى مصر السرجنت ، لو أنه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك . وكان رده « فى الغالب لا » . فان تنظيم الارجون المسمى قد سبق له ، على أى الحالات ، اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة .

ومهما يكن من أمر ، فإن عملية شنق الجنديين البريطانيين حثقت انهنف منها ، فلم يتم بعد ذلك اعدام أى ارهابى يهودى وإن كان قد تم قتل خمسة من اليهود الابرياء عندما هاجمت جامعات من الجنود والشرطة البريطانيين فى تل اسب كرد نعل لعملية الشنق . وأغلق « بيجين » صفحات القضية سـ . أساس افتراض ان اعدام الجنديين البريطانيين قد انقذ أرواح عشرات من رجاله ورجال « عصابة شتيرن » خلال العلم الاخير للانتداب البريطانى .

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة ان « بيجين » كان يصر باستمرار ، منذ ان تولى رئاسة مجلس الوزراء ، على رفض مطالب زملائه من اليمينيين باعدام الارهابيين العرب . فقد حصل على كفايته من عمليات الاعدام ، كما انه كان يعلم جيدا قيمة الاستشهاد .

## الفصل التاسع

### الخروج من عش « الجبابرة »

كان شفق كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للرأيين العام والبرلماني في بريطانيا . وكان رد الفعل المبدئي هو الغضب . فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهود في لندن وليفربول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المدن البريطانية . ولكن سرعان ما تحولت الكراهية الى تساؤل : هل فلسطين تستحق فعلا هذه التكاليف الباهظة التي يدفعها البريطانيون بأرواحهم ومكانتهم ومصالحهم ؟ لقد أخذ الرد على هذا التساؤل يتبلور ابان صيف علم ١٩٤٧ ليصبح نقيا جازما .

واعترف سير « آرثر جريتش - جونز » ، وزير المستعمرات بمجلس العموم في ١٢ اغسطس ، بان « ثمة موجة شديدة من التساؤل تسود الجمهور البريطاني حول الاعباء والتكاليف التي تتحملها بريطانيا ، والماساة الناجمة عن استمرار بريطانيا في تحمل هذه المسؤولية الدولية » . وكان هناك شبه انجماع كامل بين اعضاء مجلس العموم ، الذين تم استدعائهم من اجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شفق الجنديين ، على المطالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية . وقال « ونستون تشرشل » في خطاب وجهه في تصر « بلنهايم » الى اعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك :

« ان ( بريطانيا ) تحتفظ بحوالي مائة الف جندي بريطاني في فلسطين ويندد من الاموال التي نحصل عليها بمسحوبة ثلاثين مليون جنيه استرليني ، او ربما اربعين مليون جنيه سنويا هناك ، . . وليست هناك أية مصلحة بريطانية في استمرار الانتداب في فلسطين . ولقد بذلنا طوال ثلاثين عاما تقريبا جل طاقتنا من اجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على انفسنا تلقائيا . وقد طالبت الحكومة منذ علم باخطار الامم المتحدة باننا نرفض تحمل المزيد من الاهانت والخسائر . ولكن الوزراء اکتفوا بفتح انواهم في بله وتردد بصورة مخزية في اتخاذ القرار ، ومزاولوا لا يفعلون شيئا سوى ترك انواهم مفتوحة حتى الآن » .

وتد بعث « هيودالتون » ، عضو الوزارة العمالية ، برسالة الى « كيبنت آتلي » ، رئيس الوزراء ، يقول له فيها :

« اننى واثق تماما من أن الاوان قد حان تقريبا لى نخرج كل جواننا من فلسطين . فان الاوضاع الموجودة هناك حاليا ، لا تكفينا غالبا من حيث الافراد والاموال محسب ، ولكنها ، كما يعلم كلانا ، لا تشكل اية قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية . وعلى اى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آمنة فوق « عش ديلير » — ونضلا من هذا فإن بقاعنا هنا يمرض شبابنا لاقصى التجارب بلا داعى حقيقى ، مما يولد مشاعر معادية للمساوية بسرعة مذهلة » .

وجاءت قوة ضغط الراى العلم ، عقب شنق الجنديين البريطانيين ، على رأس قائمة الاسباب التى سردها « الميزابيت مونرو » ، « الخيرة البريطانية فى شئون الشرق الاوسط » ، وراء حدوث « التحول الفخم » فى موقف بريطانيا ، فتقول :

« ان الراى العلم البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة أن يتخطى اى عقبات تعترضه فى فلسطين ، وكان ينظر الى « الاضطرابات » و « العنف » هناك ، تماما كما كان ينظر الى « الاضطرابات » فى ايرلندا — اى ككجربة مؤلمة على الرجل الابيض أن يتحملها كجزء من امبقه ، ولكن هذا الاتجاه تغير فى الاول من أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الامدام شنقا فى جنديين بريطانيين شابين بربطة سرجنت ، على يد الارهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كاجراء انتقامى . فلججة جميع التعليقات التى تردت فى الداخل ازاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الاعمال الارهابية السابقة ، والتى أسفر بعضها عن خسائر المدمح فى الأرواح — كمبلية نصف فندق « الملك داود » مثلا . وقد نشرت الصحف الصورة فى صفحاتها الاولى صور الرجلين المشنوقين ، وساد شعور بالاستياء العام ازاء استخدام الجنيتين ككفره . متفجر ، بل ان الراى العلم الحر عبر فى عدة متن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للمساوية » .

وادى هذا الحدث بسرعة الى تصعيد المشاعر المناهضة لأمريكا ، وذلك فى فترة غير ملائمة على الإطلاق . « وقدم وزير الخارجية البريطانى تحديرا فى الثانى من أغسطس الى السفير الأمريكى لويس دوجلاس ، يفيد بأن بريطانيا التى « تشعر بالاحباط وخيبة الأمل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب ، التى لم تحفل بالامتنان عليها ، قد تضطر الى التخل عن حلمه المستولية » وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تصميم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكلفت الحكومة تد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الاولى نحو انهاء الانتداب — على الرغم من اتهام تشرشل لعضء الوزارة بالبلادة — قبل

خمسة اشهر من اعدام الجنديين . فقد المح « يرست بيغن » في مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق الى « أن المسيل الوحيد الباقي الان اماننا هو رفع المشكلة الى الامم المتحدة لاتخاذ قرار فيها » . فقد ادرك وزير الخارجية ان بريطانيا لن تستطيع ارضاء اى من العرب او اليهود — وانها لا تملك امكانية فرض حل من جانبها . وكان بيغن « ما زال محجما عن الاعتراف بافلاس سياسته والتخلي عن الانتداب » ، غير أن بريطانيا تقدمت في شهر ابريل بطلب الى الامم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة في فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها الى « الجمعية العامة » في الخريف . ويعتقد « هارولد بيللى » مستشار وزير الخارجية « بيغن » لشئون الشرق الاوسط ، أن هذه المبادرة صدرت أساسا عن « ائلى » أكثر من أن تكون من بنك أفكار وزير الخارجية . وأصدرت « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » في ٣١ أغسطس ١٩٤٧ ، توصياتها بانهاء الانتداب البريطانى وانشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية وأخرى عربية . وفي ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم بأغلبية الثلثين .

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان « مناهم بيجين » و « الارجون زلمى ليموى » يسمون الى تحقيقه . وكان « بيجين » قد عقد اجتماعا سريا في ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٧ مع « أميل ساندستروم » ، رئيس « لجنة الاسم المتحدة الخاصة بفلسطين » . وقد عقد هذا الاجتماع ، الذى منح « الارجون » نوعا من الاعتراف الدولى ، بترتيب من كارت دافيدسون ، الصحفي الأمريكى بالاسوشيتدپرس ، حيث قدم مسامحه الصميدة نظرا أن يكون هو الوحيد الذى يطلع على تقرير مبعثاتهما التى استغرقت ثلاث ساعات .

وكتب « دافيدسون » يقول في تقرير قد أجل إرساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الامم المتحدة من عملها وتصادر الشرق الاوسط ، أن « ساندستروم » و « بيجين » قد ناقشا « في هدوء وبأسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفا ووديا لدرجة أن « ساندستروم » قام بنفسه فى النهاية بتحذير « بيجين » قائلا : « أن الشرع قريب من هنا . ليس من الأفضل أن نخفض أصواتنا ورد عليه بيجين ضاحكا : « لا تخش شيئا ، فإن رجالنا يقفون هناك . وسيبلغوننا اذا ارتفعت أصواتنا ولغقت الانتباه » .

وقد حمد قائد الارجون اعدائه ، بينما كانا يرتشفان النبيذ وبلاكلاان اللكهة ، بمنزل الشامر « يعقوب كوهين » في تل أبيب ، ونص برنامجيه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبى الاردن على أن يتم تنفيذ هذه ونفا لخطوات التالية :



- ١ — انتهاء الاحتلال البريطاني « لارض اسرائيل » .
  - ٢ — نقل السلطة الى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا .
  - ٣ — اعادة جميع اليهود الراغبين في ذلك الى الوطن في فلسطين بمساعدة من هيئة دولية .
  - ٤ — اجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من اعادة اليهود الى الوطن .
  - ٥ — الحصول على قرض دولي لاستصلاح الارض لصالح كل من النلاحين العبرانيين العائدين والمرب ، والذين يمتنون من العوز الشديد وهم يزرعون تحت نير المبودية والاستغلال .
- وعندما استعد ستندستروم للانصراف ، صالحه « بيجين » قائلا :  
اتمنى لك التوفيق في مباحثاتك ، ولكن لا احد منا يتصور ان قرارك سوف يجعلنا نخلى من النضال .

وقد قبل « ديفيد بن جوريون » قرار التقسيم على مضض ، نيابة من التنظيم اليهودي في فلسطين ( الييشوف ) كما وافق عليه بصفته الشخصية ، هاليم وايزمان ، الذي يعتبر اكثر الدبلوماسيين الصهيونيين اسارارا ومثابرة . غير ان « بيجين » أعلن رفضه للقرار وكائه شيئا محريا ، وقد صدق وعده الذي أعلنه عند وداعه للجنة الامم المتحدة . وظل يحارب التقسيم فعليا حتى أعلن قيام دولة اسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، ثم في الكنيست طوال مدة الست والعشرين سنة التي قضاها في صفوف المعارضة ، وأخيرا من بوتعه داخل الحكومة التي تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧ ، وذلك من طريق بذل كافة الجهود المبكئة لضمان عدم عودة الاراضي المحظية في الضفة الغربية الى الاردن ابدا .

هذا ، ولطالما انقسم الرأي العام الاسرائيلي حول مدى مساهمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » في انشاء دولة اسرائيل فيموجب تفسير « المabay » للتاريخ ، كلن « المنشقون » يعتبرون بمثابة عنصر ازعاج ، لا قيمة له . اما الجهد الفعلي في بناء الابة فقد اضطلعت به حركة العمل ( تحت رئاسة حزب المabay ) ، وحلفائها من الطبقة المتوسطة والفئسلة الدينية . وهم « الصهيونيون العموميون » وحزب « مزراحي » . وشطب الدور الذي لعبه ورثة « جابوتنسكي » . ولكن عندما قام « بيجين » في عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة الميكود المنتخبة ، تبوا « التصحيحون » المكائة التي يستحقونها وانقلبت الاوضاع . واصبح « بيجين » يوصف بأنه الرجل الذي « طرد البريطانيين من البلاد » ، بينما تحول « بن جوريون » وشركاؤه الى مجموعة

من الاشخاص خائري القوة الذين يقبلون الحلول الوسط ، ورجال لا يملكون  
المصيرة ولا الشجاعة التي تمكنهم من مقاتلة الظففة الخلاء .

ولا يقل هذا التفسير الجديد المتطرف تشويهها للحقيقة عن سابقه  
ملوثاتى البريطانية والمناشلت التي دارت في بريطانيا تبين بوضوح أن  
« الارهاب اليهودى » قد لعب دورا يلزا في تحطيم ارادة البقاء في فلسطين .  
وكانت لبريطانيا اعباليات أخرى تشغلها في الداخل والخارج . فالجنيه  
الاسرائيلنى كان يواجه ضفوطا ، كما كلفت بريطانيا تماني من نقص شديد في  
الوقود بعد أن تعرضت لشتله قاس . وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال .

وبدأت نظرة بريطانيا الاستراتيجية تقفر مع بداية نهضية الامبراطورية  
البريطانية . ولم يكن في وسع الحكومة ، في مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد  
في أوروبا ان تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التي تحصل  
عليها منها . واصبحت فلسطين تشكل عبئا ، خلفة وانهدسا ، كما قالت  
« اليزابيث مونرو » ، « لا تعتبر مسألة حياة او موت بالنسبة لميزان مدفوعات  
المملكة المتحدة او مستوى المعيشة بها ، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرى  
او علاقاتها بالكومنولث » . ويطول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على  
سيادة القانون والنظام في فلسطين واصبحت باهظة . فالى متى تستطيع  
بريطانيا الاحتفاظ ببائة الف رجل مرابطين هناك ؟ وعلى اى الحالات فان مائة  
الف لم يكونوا كائين لاداء تلك المهمة . وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من  
 وراء ذلك أصبحت في تناقص مستمر . ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيين  
ايجاد رد مقبول على حرب المصاليات المستمرة التي تشنها « الأرجون »  
و « عصبة شترين » في المدن . فلم يكن ثمة سوابق يمكن الرجوع اليها . ولم  
يكن في وسعهم قهر المتمردين دون أن يسحقوا « البيشوف » ككل .

وفي الوقت ذاته ، كان الشباب يقتلون مميذا عن ديارهم بلا سبب  
مقنع . وكانت بريطانيا تتعرض للاهانة والسخرية . ففى خلال ثلاث سنوات  
— اى منذ نهاية الحرب العالمية في ١٩٤٥ الى أن غادر آخر المنحوبين السابيين  
للبلاذ في عام ١٩٤٨ — لقي ٣٢٨ مواطنا بريطانيا حتفهم بالاساليب عنيفة على  
ايدي الجماعات اليهودية . وقتل ٩٩ بريطانيا خلال ستة اسابيع اعتبارا من  
اول اكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦ ، بعد ما انسحبت « قوات الهجاناه »  
في ١٦ يوليو من ذلك العام ، من حركة المقاومة العبرانية . وفي يناير سنة ١٩٤٧  
ثم اجلاء حوالي الفين من الرجال والنساء والاطفال الى بريطانيا بينما نقل باقى  
المدنيين للاقامة داخل « ساحة أمنة » خلف الاسلاك الشائكة . وخلال ليلة واحدة  
من شهر مارس قتل أكثر من عشرين بريطانيا . من بينهم اثنا عشر ضابطا  
عندما قامت « الأرجون » بنسف نالديهم بالقدس ، فضلا عن اصبلية فلاكين  
بريطانيا بجراح . وأشعل رجال « عصبة شترين » النار في معمل لتكرير

البترو في حيفا ، واستمرت السنة الذهب مشتملة لمدة ثلاثة أسابيع .  
وأوصى رؤساء الأركان في لندن بفرض الأحكام العسكرية في بعض الحالات  
العمية ، ولكنهم أقروا أن « فرض القيود في جميع أنحاء البلاد في وقت واحد ،  
أنها يفوق امكانيات القوات المتحلة حاليا ، كما أن فرض الأحكام العسكرية من  
شأنه أن يزيد من الاعاء المحلية دون مزايا تعويضية » . وكما يقول « نيكولاس  
بيثيل » :

« لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٣٣٨ شخصا ، قد لقي  
حظه بطريقة فردية ، حيث قتل بفردية عن طريق إطلاق الرصاص عليه ، أو  
ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة ، فإن موتهم ترك أثرا عميقا داخل الرأي  
العام البريطاني لا يقل عن الإثر الذي أحدثته الخسائر الأكبر حجما في الأرواح  
البريطانية ، أبان الحرب العالمية الثانية ، والتي تجعلها بصير وتصميم . في حين  
بدأ هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٣٣٨ وكانهم ماتوا بلا أي داع . ولذلك فقد  
تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات .

هذا ، وقد رفع القنصل الأمريكي في القدس تقريرا الى واشنطن في أول  
مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلي :

« لا مفر من استنتاج أن حكومة فلسطين ، التي يحاول المسؤولون فيها  
إدارة شئون البلاد من خلف الأسلاك الشائكة ومن داخل جدران محاطة بحماية  
مكثفة ، وهم يعيشون ( أي أولئك المسؤولين بدون زوجاتهم وأبنائهم ) في عزلة  
تثير الشفقة في وسط مناطق آمنة — لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد  
عن كونها منظمة طريفة بلا أمل كبير في أن تتمكن من مواجهة الأوضاع القاتلة  
حاليا في البلاد » .

وتوصل « مايكل ج . كوهين » ، المؤرخ الإسرائيلي ذو الميول السياسية  
الصهيونية اليسارية ، بعد أن أجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية  
« الأربعة » ، إلى أن التاريخ يوحى ، على ما يبدو « بأن الأساليب العنيفة  
التي انتهجتها جماعة « أرجون زماي ليوي » والمكروهة فعلا من الناحية  
المعنوية ، كان لها تأثير حاسم في تحويل مسألة الجلاء من كونها حلا بديلا في  
فبراير ١٩٤٧ ، إلى قرار حازم ، بحلول شهر أغسطس من ذلك العام ، بنس  
على التخلي عن أمباء الانتداب » .

ولكن ، لا يمكن تقييم دور « الأرجون » و « عصابة شتيرن » في فراغ .  
فإن قوات الهاجاناه كانت تدبر في الوقت ذاته حملة بأسلوب مختلف لم يكن أقل  
أضرارا بسمعة بريطانيا ومكانتها ، وإن أدى إلى اظهار القضية اليهودية في  
صورة أفضل . فقد عملت فيها بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على  
أحضار حوالي سبعين ألف يهودي بطرق غير مشروعة إلى فلسطين . وقد  
تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ٥١٥٠٠ من هؤلاء

المهاجرين واحتجازهم في قبرص . وكانت اشهر مراكب الهجرة غير المشروعة ، وهي « الاسكودس ١٩٤٧ » ( أى الخروج الجماعى ١٩٤٧ ) ، قد أقلمت في يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسي الصغير ، « بورت — دى — بو » ، حفلة على ظهرها ٥٠٠ يهودى . وقد تمعتها طائرات السلاح الجوى الملكى وسفن الاسطول البريطانى في رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط . ولما كانت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها ، لقد قرر « بيكين » انتهاج سياسة جديدة لمعالجة أولئك المتسللين باعادتهم الى المكان الذى لتوا منه . وفي يوم ١٨ يوليو اعلى مشاة البحرية البريطانية ظهر « الاسكودس » اتهام السساحل القريب من غزة . وانتهجت « المهاجناه » سياسة تجمع بين المقاومة والاعلام . فقد تم نقل صوت المعركة الدائرة مع القوات البحرية التى اعطت المركب ، الى الشاطئ من خلال أجهزة ارسال قوية واختارت « المهاجناه » أن تعرض قضيتها على المسرح العالمى الاوسع نطاقا بدلا من أن تحاول انزال بعض الركاب . فصدرت التعليمات الى قبطان السفينة « ايك آر ان » ، باستغلالها « كظاهرة كبرى تحل لثلاث تيين مدى شعفا وممكننا وهجنا ، ومدى تنسوة البريطانيين » . وأدى البريطانيون الدور المرسوم لهم في النص الذى وضعته « المهاجناه » بحماس يفوق كل تصوراتها اذ انهم قاموا بتوجيهها ، بعد سيطرتهم عليها ، الى داخل ميناء حيفا حيث أصبحت هدفا ثابتا يقف أمام آلات التصوير ومراسلى أجهزة الاعلام المالية ، وشاهد حدث وصول السفينة ، رئيس « لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين » اميل ساندستروم ، والثان من زملائه ، بدعوة من « أبا اييان » ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية . وقد ذكر « اييان » في مذكراته ان المهاجرين قرروا الا يستسلموا لحلولات الابعاد في هدوء . ووجه « فونستون تشرشل » الى « بيكين » اتهامها بشن « حرب قذرة » ضد اليهود .

وعلق اييان على ذلك بقوله :

« لو ان احدا أراد أن يعمن حقيقة ما يقصده « تشرشل » لمعربها بسهولة من مشاهدته لجنود البريطانيين وهم يستخدمون اعقاب البنادق والمضاريطم والقنابل المسيلة للدروع ضد الناجين من معسكرات الموت . وكانوا يحملون الرجال والنساء والاطفال بالقوة الى السفن لجسهم ، حيث يتم القاءهم في الاقفاص الموجودة في أسفل السفن لينقلوا الى خارج المياه الإقليمية لفلسطين . وبينما كان « ساندستروم » و « بريليج » و « جرانادوس » يراقبون هذه المراسلات البشعة ، كنت انا اترقب عودتهم الى القدس بصبر نافذ . ورايت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة . وادركت أن ساءلا واحدا فقط كان يشغل بالهم : اذا كان هذا هو الاسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى ان يستمر ، فمن الأفضل وقفه تماما . »

وقد ضاعف البريطانيون من حماقتهم بإعادتهم لهؤلاء المشردين إلى الميناء الفرنسي « بورت - دى - بو » حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عددهم ٥٠٠ شخص ، النزول إلى الشاطئ بالرغم من العرض الفرنسي بمنحهم حق اللجوء . وأتيحت للصحافة العالمية فرصة أخرى لتصوير الظروف الصحية السيئة في السفينة وكتابة التقارير عنها . ووصفت الصحيفة الشيوعية الفرنسية « لومائيتيه » السفن البريطانية الثلاث بأنها تشبه معسكر « أوشفيتز عايم » . وارثب « بينين » عند ذاك أكبر أخطئه على الإطلاق ، حيث أرسل اليهود إلى ألمانيا . وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة اعلامية لبريطانيا خاصة في الولايات المتحدة ، بينما انت إلى تحقيق نصر ساحق للصهيونية . وكتب « اليزابيث مونرو » تقول : « لقد استغل الصهاينة الركاب كقطع في لعبة الشطرنج . وارثبت الحكومة البريطانية ، التي تعرضت لاستفزاز بالغ ، نفس الخطأ ، وأثار تصرفها بإرسال اليهود إلى المكان الذي كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم ، استياء الملايين ، أكثر مما لو أرسلوهم إلى أى مكان آخر في العالم . »

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة ، حكرًا على « الهاجاناه » والوكالة اليهودية . فقد استطاع « التصحيحون » أن ينقلوا من أوروبا إلى فلسطين فيما بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٤٤ ، أربعين ألف يهودي فقط ، وذلك وفقًا لأكثر تقديراتهم تفاؤلاً . ولكن نشاطهم في هذا الصدد توقف بعد ذلك وركزوا جهودهم بدلاً من هذا على الفضال المسلح « للارجون » و « عصابة شتين » .

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون أيضا النشاط الدبلوماسي في لندن ونيويورك بل وفي فلسطين ذاتها ، بالرغم من المرنين المرتفع لدعاية « حركة الانصحيح » في أمريكا . وإذا قلنا إن بريطانيا ما كانت ستخطئ من الانتداب في ذلك الحين بدون نفوذ حزب المتمردين ، فإن الحقيقة تؤكد أيضا أن قرار الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الإغلبية لولا « مفاوضات الأروقة التي كان يجريها الدبلوماسيون المقتوتون في كل من واشنطن ونيويورك . وبالمثل ، فيحدون الريادة الدولية لصهاينة حركة العمل وحلفائهم ، لما كان هناك أعداد لقيام الدولة اليهودية ولما وجدت البنية الأساسية للسيادة . ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية في النقب والجبال لما جاء خط الحدود الاسرائيلية بهذه الصورة ، بل يمكن القول أنه لما كانت هناك صناعة أو زراعة .

لقد كتب « جوزيف ب . شيشتمان ، رفيق « جابوتنسكي » وكاتب مسرته ، يقول :

« لقد كلن حزب التصحيحين ، والمنظمات المنيقة عنه ، هو الوحيد دون جيم التكيالت الصهيونية في فلسطين ، الذي لم يكن يملك أى مستوطنات ( فيها عدا بعض الاستثناءات الضئيلة القليلة ) أو مشروعات اقتصادية أو مؤسسات خاصة به . ولقد مكثهم هذا من الحافظة على مثلهم الصهيونية العليا وتدرتهم على حرية الحركة ، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين . بيد أنهم نفعوا لنا باهظا جدا نظير ذلك ، فقد أصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودى ، وكثيرا ما اثرت حاجتهم الاقتصادية على مرسهم السياسية » .

ومرة أخرى أصبحت « الهاجاناه » تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها . وكانت جياصة « الارجون » و « عصابة شتيرن » مدرتين على شن هجمات فدائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية ، ولكنها لم تكن مدربة على استخدام أساليب الحرب التقليدية . وكانت القوة الاسمية للهاجاناه في منتصف عام ١٩٤٧ تبلغ ٢ ألف رجل وامراة ، لكن كان ٢٢ ألف منهم يتبعون « الحرس الوطنى » المختار للتدريب والتسلح . بيد ان « الهاجاناه » كفت تلك ايضا « قوة ميدانية » قوامها ٨ آلاف من المظمين المتفرغين طوال الوقت ، يتدربون بانتظام . كما كانت قوات « البالاخ » النظامية تضم ٣١٠٠ رجلا وامراة . وقد جاء من بين هذه القوات الاخيرة معظم قادة الجيش الاسرائيلى الناشئ . وعندما اقتربت الحرب ، قامت قوات « الهاجاناه » بتنظيم نفسها في ٥ كتائب ميدانية وتدرت على الأساليب القتالية وانشئت ٥ مكار رياضية اقليمية ، ومع ذلك فان الهاجاناه ظلت ، حتى حلول نهاية عام ١٩٤٧ ، مفتترة بشدة للتسلح . فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة ، و ٢٧٠٠ مدفع نصف آلى ، واقل من ألف مدفع ماكينة ويقدّر ان الارجون كانت تضم آنذاك حوالى ألفى عضو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض انواع التدريب . أما عصابة « شتيرن » فكان قوامها بضعة مئات فقط . وكان مقاتلو « بن جوريون » قد أعدوا انفسهم لشن حرب تحرير ، بينما نظم مقاتلو « بيجين » عملية التمرد ضد البريطانيين . ولا يمكن استبعاد أى من هاتين العمليتين ، كما لا يجب التقليل من شأنهما .

## الفصل العاشر

### كما حدث في دير ياسين

« تقبل تهاني على هذا الذي يمد عملا رائعا وأبلغ تحياتي الى كافة القواعد والجنود . اننا نشهد على ايديكم واننا فخورون جدا بقيادة المجازة وروح القتال التي سادت خلال هذا الهجوم العظيم ، اننا لن ننسى القتلى ونشهد على ايدي الجرحى بكل الحب . ابغ الجنود انكم بهذا الهجوم والغزو ساهمتم في صنع تاريخ اسرائيل . فلتواصلوا طريقكم حتى النصر ، وكما حدث في دير ياسين وفي غيرها فلننا سنهجم ونسحق العدو . يا الهى ، يا الهى لقد اخترقنا لنحقق هذا الفوز » .

عندما ارسل منحليم ببجين هذا الامر الذى يشي بالابتهاج الى قيادته في القدس كان لا يعرف الا قليلا عما حدث قبل ذلك خلال او بعد المنبحة التي وقعت يوم ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ في قرية دير ياسين وهي قرية عربية تقع على الطرف الشمالى الغربى من مدينة القدس . ولكنه أعلن بعد ذلك ببومين عبر اذاعة « صوت صهيون المقاتل » التابعة لجماعة ارجون زغاي ليومى انها معركة مقدسة اشترك فيها لأول مرة جنود من الارجون زغاي ليسوى وليخى والبالاخ . ولقد ظل قائد الارجون زهاء اكثر من ثلاثين عاما مقتنعا تماما ان دير ياسين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف ، محولين القليل من وقوع خسائر بين المدنيين الى ادنى حد متمسكين بالاخلاقيات التى درجوا عليها . وقد ادان ببجين خلال المظاهرات التى اجريت معه مؤخرا وكذلك خلال تصريحاته السابقة بن جوربون وكل شخص آخر خالفه في هذا الرأى ووصفهم بانهم « منافقون ضيقو الانق » بل وصل به الامر الى وصفهم بالكذابين . ان هذا الثبات على المبدأ يمد دليلا قويا على ولاء ببجين لمقاتليه وربما يمد ايضا دليلا على جنون العظمة القوي لديه . ان ما يقوله ببجين بعيد كل البعد مما حدث بالفعل في تلك القرية في صباح أحد أيام الجمعة بعد ان نفضت بريطانيا يديها من الانتداب على فلسطين بشهر واحد .

ان دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانية و الف نسمة يمسكون عيشهم من العمل في المحاجر وقطع الاحجار ما زالت ترقق منحام ببجين والدولة التى ساعد على انشائها وسواء اكلن الامر مجرد صدقة أم مذبحة ، وسواء اكلت يهودية أم عربية: فان دير ياسين سببت ذمرا ادى الى اسراع

سبعمائه ألف من العرب في الهروب من الأرض التي سرعان ما أصبحت إسرائيل . أن الاسم لم يفقد قط رنينه ومازالت قصة دير ياسين تمثل بالبنسبة للصهيونيين موضوعا محرما ، فإن الوثائق والصصور قد أسدل عليها ستار من السرية لفترة أطول مما يمكن أن يلحق الضرر بأمن إسرائيل . ووجد النساسة والكتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين أنه من الحكمة إغلاق ملفت دير ياسين لأن الجميع متورطون في المذبحة . وعلى الرغم من أن بن جوريون أسرع بإرسال برقية عزاء إلى الأمير عبد الله في عمان فإن الهلجاة كانت مشغولة بالفعل في محو الدليل الأكثر بشاعة ، فقد استطاع مصور لجريدة سينمائية تصوير فيلم طوله أربعمائة قدم للرحلة الأخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطأ بالحديث عن ذلك إلى أحد زملائه الذي كان يعمل لحساب مخابرات البانماخ ، والذي ذهب إلى مطسار الله وقام بتعديل الفيلم قبل أن يطير إلى لندن وتلقت الجريدة السينمائية فيلما طوله أربعمائة قدم يصور تشكل الضباب في القدس .

كان عرب دير ياسين يعتقدون أنهم آمنون ، على الرغم من أن الحرب غير المعلن التي نشبت بعد تصويت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكانوا يتقنون في معاهدة عدم الاعتداء التي وقعها مختار قريتهم مع الضلحية اليهودية المجاورة في جيفات شاول . وكما يقول محمد عارف سامور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذي كان يبلغ السادسة والعشرين من عمره عند وقوع المذبحة : « كلن هناك اتفاق على ألا تحدث مشاكل بينهم ، فإذا ثلثت مجموعة من شبابه بمهلجة دير ياسين فلن اليهود يقومون باعتقالهم . ومعهم . وإذا حاجم احده من دير ياسين جيفات شاول فإن العرب يقومون بمنعه . لم تكن هناك مشاكل بين اليهود والعرب هناك في ذلك الوقت » . كانت دير ياسين بالنسبة للهالجاتاة قرية عربية يجب إخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا أو آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو ، وكانت القرية تمثل أهمية استراتيجية لسببين ، أن وقوعها في يد العدو يجعلها تمثل خطرا للضواحي اليهودية في جيفات شاول ، بيت حلكريم يافانوف وبيت فاجان بسبب موقعها في أعلى الجبل . وكانت الهالجاتاة تخطط لإقامة مهبط للطائرات على طول سلسلة التلال بين جيفات شاول ودير ياسين والذي من شأنه الإبقاء على الاتصالات بين القدس والساحل في حالة الطوارئ . وفي حلة أبو غوش وهي قرية « محاذية » أخرى تقع على بعد أربعة أميال على الطريق المؤدى إلى تل أبيب فإن السكان العرب وافقوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحرب وسمح لهم بالسودة إليها بعد ذلك وربما كان يجري ترتيب لشيء مماثل بالنسبة لدير ياسين .



ولكن مصالبات الأرجون وشترين كانت لديها أفكار أخرى . فلا أنهم خرجوا من تنظيمات سرية فقاموا يتوتون لاثبات معدنهم ان يظهرها للهليجاته والعرب أنهم ليسوا مقاتلى شوارع . وكانوا كذلك يشعرون بالغلق من أن بن جوريون ربما يذعن لاقتراح الامم المتحدة بتحويل القدس او يقوم على الاقل بالتعامل مع الملك عبد الله .

ومع ذلك فلان اولئك المنسقين كانوا يدركون مدى النقص فى الرجال واسلحاح لديهم . وكذلك لانقلهم الى التدريب على القتال . ويقول يهودا لايبديوت وهو ضابط كبير فى الأرجون ويعمل حاليا استاذًا للعلوم فى الجامعة العبرية أن جماعته لم يكن لديها أكثر من ثلاثمائة مقاتل فى القدس وأن عدد جماعة شترين كان يبلغ المائة بالكاد . وقال لايبديوت فى شهادته المودعة فى أرشيف جابوتينسكى فى منتصف الخمسينات ان الفكرة الاصلية بمهلمجة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدميدت وهو ضابط عمليات الأرجون فى القدس : « كان السبب اقتصاديا أساسا ، أى الاستيلاء على غنية للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بانشائها بموارد فقيرة للغاية . وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الأساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهو شيء لم يكن معروفا حينذاك فى البلاد وأصبح نقطة تحول فى العمليات العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شترين التى كانت تتطلع الى المصالحة مع الأرجون على الاقتراح الذى تمت اعلانه الى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاطين : أربعة من كل جماعة وفقا لذكره لايبديوت الذى كان أحد أولئك الضباط ، فلان عصابة شترين اقترحت تحويل العملية الى غارة تاديبية يقول : « لايبديوت » فى شهادته :

بالاضافة الى المناقشة العسكرية تقدمت جماعة ليهى باقتراح يفصى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحدث عندما تشارك ليهى ، والأرجون زفائ ليوى فى عملية عسكرية معا .

ولسبب اسلبي آخر — فلان هذا سوف يحدث اضطرابا كبيرا فى البلاد وسيكون نقطة تحول هامة فى سير المارك . وكان الهدف الواضح هو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهودية فى القدس الى حد ما وهى التى تلقت الضربة طو الضربة وخاصة ما حدث مؤخرا من تمثيل بجث القتلى اليهود الذين وقعوا فى يد العرب » .

واضاف بنزبون كوهين قائد الأرجون فى العملية والذى أصيب بجراح منذ بداية تبادل إطلاق النار : « عندما وصل الامر الى مناقشة وضم السجناء ، والنساء ، والشيوخ ، والأطفال تضاربت الآراء . ولكن كان رأى الاغلبية يقف الى جانب القضاء على كافة الرجال فى القرية وأى قوة

أخرى تعرضنا سواء كانت من الشيوخ أو النساء أو الأطفال «  
» ان الرغبة في الانتقام كانت قوية بعد الضربة التي وجهها العدو  
الى جوش پتريون واثاروت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القدس  
مقدتهما اسرائيل ثم استعملتهما في سنة ١٩٦٧ .

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح مصلية شير  
ولكنهم أحالوه الى القيادة . . ويقول لايبديوت ان ييجين رفض الاقتراح وام  
على ان يستخدموا مكبرا للصوت لتحذير سكان القرية واعطاهم مرمم  
للاستسلام دون اراقة الدماء . وقد اكتمت مصادر الهاجاناه هذا . ووافز  
قادة الميسدان من جماعة الارجون على مضض على استخدام مكبر للصوت  
وترددوا في أن تفلت فرصة أحداث مفاجئة من أيديهم ويزعم لايبديوت ان ك  
جندى كانت لديه تعليمات بتجنب أحداث خسائر .

كان الهدف هو خيل العرب على الاستسلام وكلفت الرسالة التي كا  
مغروضا اذاعتها عبر مكبر الصوت هي:

« انكم محاصرون بقوات الارجون وليهي ولن يحدث لكم شيء اذ  
لم تقتلوا » .

وكان هناك احد احتمالين :

اما السيطرة على القرية وترك السكان هناك أو نقلهم الى القسم  
العربي من القدس ، « اننا لم نتخذ قرارا سرييا وجامدا مسبقا بل قسور  
الانتظار ورؤية ما سوف يحدث . وكان القرار الوحيد هو احداث أقل تد  
يمكن من الخسائر » .

وعبرف ديفيد شاليتل قائد الهاجاناه في القدس خطة المنشقي  
لمهاجرة دير ياسين . وحاول في بدئ الامر اثناءهم من عزمهم ، فالقرو  
كانت تقع في ذيل قائمة أولوياته . فهي لم تكن تطل على طريق القدس -  
تل ابيب ولم تقم بايواء العصابات من العرب الرحل الخارجين عن القانون  
وكانت المهاجرة مشتبكة في معركة يائسة للاستيلاء على كاستيل وهي هضبة  
استراتيجية تتحكم في الطريق العام . واقتراح شاليتل ان ينضم رجال الارجو  
وشتيرن بأسلحتهم الى المعركة الدائرة للاستيلاء على كاستيل ولتقوم  
رفضوا كما رفضوا كذلك اقتراحا بالاستيلاء على قرية غريبة أخرى قريبة عا  
الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موزرا اليهودية . ويقول لايبديوت  
« كنا نريد ان نركز على القتال في القدس وان نترك القتال على الطبريز  
للبلماخ والهاجاناه . ولم يكن لدينا قسوة كبيرة كافية في القدس . ولم يك  
في استطاعتنا تقسيمها . وكانت دير ياسين ، كما يبدو ، هدفا يساه  
الاستيلاء عليه .

، وعلى عكس الإنكار الذي اعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فإن شالتيل وافق على مفضي على الفارة على دير ياسين ولكنه وضع شروطا صارمة في خطاب أرسله الى قادة عصابات الأرجون وشعيرن المطين :

« نيا الى علمي انكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين ، واود ان الفت انتباهكم الى حقيقة ان الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة في خططنا الشاملة . انني لا امترض على قيامكم بالعملية شريطة ان تكون لديكم القوة الكافية للاحتفاظ بها . فاذا لم يكن ذلك في مقدوركم فانني احذركم من تدمير القرية مما سيؤدي الى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة . ان هذا الموقف سيجعل المعركة العامة اكثر صعوبة بدلا من جعلها اكثر سهولة . وان محاولة اعادة احتلال المكان سيلحق حسائر جسيمة برجالنا . وهناك راي آخر اود وضعه نصب اعينكم وهو انه اذا دخلت قوات خارجية المكان فان هذا سيغضي على خططنا ببناء مطار » .

وكان شالتيل يأمل في ان يثنى المنشقين بمواردهم الضئيلة من تفنيد ما ينوون القيام به في دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضي قدما . واكثر قائد الهاجاناه اعطاء موافقته بدلا من المخاطرة بوقوع مواجهة مسلحة بين القوات اليهودية المتنافسة . كان قرار ازراثيل جاليلى قائد الهاجاناه بعدم التعاون مع رجال الأرجون وشعيرن خرقا للأوامر الثابتة . ولكن شعر شالتيل انه يتعين عليه استخدام الحيلة . وفي يوم الجمعة ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ زحبت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلا من الأرجون واربعين من شعيرن الى دير ياسين في هجوم من جهتين . وقبل اذاعة اى تحذير وقع بكبر الصوت في حفرة وعلى الرغم من ان ييجين ظل سنوات بعد ذلك يزعم ان سكان القرية تجاهلوا التحذير الا ان شهود العيان اجمعوا على انه لم يذع اى تحذير قط - او على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه . وسأى أية حال نمكا يتول لا بدوت فان هذا ما كان يغير من الامر شيئا . فضل العرب القتل وكانوا اكثر استعدادا مما كان يظن مهاجمهم . وكانت دير ياسين مثلها مثل أية قرية في فلسطين التي يسودها الاضطراب ثمين ، مرسا انشاء النيل . واستطاع احدثهم رؤية المهاجمين الذين نهبوا نيبا بعد لانهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظلام - واطلق الحارس تحذيره وكان كل بيت تقريبا يملك بندقية وان كانت من النوع العميق وامسك الرجال ببندقيتهم وشرعوا في الدفاع عن انفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن اائل الخمسة والثلاثين يهوديا الذين امنيوا بجراح وكان اجمالي القتل اربعة من الأرجون وواحد من شعيرن . ولم يكن هناك دليل على وجود مدافع او غيرها من الاسلحة الثقيلة او جنود عراقيين أو سوريين كما يزعم الأرجون . وروى شهود العيان اليهود ما رواه من اطلاق النار

من الغناسة الذي كان متواصلا وديقيا . ووفقا لما ذكره لايبيدوت الذي تولى القيادة فان مقاتلى الأرجون وشترين كان لديهم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين ( وكلت أكثر الأسلحة فاعلية ) وما بين ثلاثين الى أربعين مدفع خفيف من طراز ستين وان لم يعمل معظمها لأنها مصنوعة بأيدى الهواة في ورش الأرجون ، في تل أبيب وعدد قليل من المستشفيات والغنابل أنيدوية تقول شهادة « لايبيدوت » :

« كانت المشكلة الأساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا أقوى منا ولديهم بنادق وذخيرة أكثر وكانوا يحاربون من منزل الى منزل . وحقيقى أن المقاومة كانت مركزة على تل واحد الى الغرب ولكن كان هذا مركز المدينة ، الذى يشكل تسعين في المئة من مساحة القرية » .

تم ارسال رسول الى مركز قيادة الهاجاناة في القدس في تكتات شينلر وأرسل شاتليل مجموعة جنود من البالمخ مع مدفع مورتر ومدفع رشاش . وقامت وحدة البالمخ بتطويق القل الغربى من الجهة المينى واستطاعت اسكات المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت . ومهما كان اعتقاد بيجين الذى عاد الى تل أبيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالمخ جنبا الى جنب ، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعلى للهاجاناه في المعركة . ومع انهيار الجانب الأكبر من دفاع العرب استأنف مقاتلو الأرجون وشترين القتال مصوبين نيرانهم الى أى شيء يتحرك وللمنازل لنسغا سواء كل السكان داخلها أم لا وأصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقاتلى الأرجون وشترين . ومما لا شك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال أمد العملية ، ازدادت الفوضى ، وبدأ أن المخبرين عادوا الى غرائزهم الوحشية الأولية . ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الأرجون انهم فكروا في الانسحاب بعد ان لحقت بهم خسائر :

« كان لدينا أسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب ، كذلك قضينا على الجرحى لاننا لم تكن نستطيع على أية حال علاجهم وفى أحد الامكن مثل نحو ثمانين من الأسرى العرب بعد أن قام بعضهم بإطلاق النار مما أسفر عن مصرع شخصين من أتوا لعلاجهم ، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا في زى النساء . وهكذا شعروا في إطلاق النار على النساء أيضا اللاتى لم يسرعن الى المنطقة التى تجمع فيها الأسرى » .

أكد يائير تاسبان وهو الآن عضو في حزب ماپام اليسارى في الكنيسيت قصة الرجال العرب الذين تنكروا في زى النساء . وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس في إحدى المدارس الثانوية في القدس ودفعه مقاتلو الهاجاناه للاشتراك في دفن الموتى بعد انسحابهم من ساحة المعركة . ولكن تاسبان يقدم تفسيراً مختلفاً لذلك :

« ما رأيناه كلن نساء واطفالا وشيوخا والذي اصلنا بالصدمة هو وجود حالتين او ثلاث على الأمل من الشيوخ الذين تفكروا في زى النساء واتذكر عندما دخلنا الى حجرة المعيشة فى أحد المنازل ان وجدنا امرأة صغيرة ميتة فى أحد الاركان وكان ظهرها الى الباب وعندما وصلنا الى الجثة وجدنا انه رجس عجوز بلحية . وكان استنتاجى لما رأيته ان ما حدث فى القرية قد أثار رعب اولئك العجائز لدرجة انهم أدركوا ان كونهم عجائز لن يشفع لهم وكانوا يملون فى ان التفكير فى زى النساء سينقذهم » .

استطاع مائير باثيل الذى اصبح فيما بعد سياسيا يساريا وكان وقتذاك ضابط مخابرات فى الهاجاناة فى القدس ولم يكن معروفًا لمصابات الارجون وشستيرن ان يشهد العملية برمتها : الهجوم ، والمقاومة والمذبحة . وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر ، دون ابلغ رؤسائه ، ان يذهب وان يرى كيفية تنفيذ المنتشين لمخططهم . واخذ معه آلة تصوير . وكان هدفه هو ابلّاع مقر القيادة بقدرتهم القتالية . وكان من المعروف ان الانجليز سيتركون البلاد قريبا وان الهاجاناه ستكون هى الجيش الوطنى وستعمل على ضم المنتشين الى صفوفه سواء كوحداث متميزة او موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى أسوأ الاحوال فانهم اذا رفضوا انخلى عن وضعهم المستقل من الهاجاناة ستقوم باخضاعهم بالقوة وفى كلتا الحالتين فانه سيكون من المنيد تقييم ادائهم فى أول عملية تقليدية يقومون بها . واستهل باثيل تقريره لا زراثيل جاليلى بالابيات الانتاحية لاحدى القصائد العبرية المشهورة التى كتبها حاييم ناهمان بباليك بعد مذبحة كيشينيف سنة ١٩٠٣ والتى قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة واربعين يهوديا وجرح خمسمائة آخرين :

« انهض واذهب الى مدينة المقتلى وسبّصل الى الافنية وسترى بصنيك

« وستلمس بيدك على الاسوار والاشجار والأحجار والحوائط دماء

« القتلى المتجدة وامتعتهم المسحوقة .. »

ومازال تقرير باثيل محظورا ولكن ما يتذكره هو مذبحة غير منظمة بعد ان خذت معظم المقاومة العربية :

« كانت مذبحة ثورية لم يسبق الإعداد لها . كانت انفجارا داخليا لا يستطيع أحد السيطرة عليه . كانت مجموعات الرجال تذهب بن بيت الى بيت تقسم بأعمال السلب والقتل وكنت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب ، الشيوخ العرب والاطفال العرب فى منازلهم ، حاولت المتور على العادة ولكننى لم انجح ، حاولت ان أصرخ وان أمنهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالا الى » . كانت عيونهم تلعب كانوا كما لو كانوا مخدرين ، مسبحين مغلّيا ، كانوا فى حالة من النشوة » .

وبالقنسية لحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد أشخاص مجهولين لديه كانوا أبناء عمومته ، جيرانه أصدقاءه وشاهد المدرس الشاب المنحبة من منزله الواقع في الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح في الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب الى عين كرم على بعد عدة أميال الى الغرب ويقول ان معظم الناس تقطوا داخل منازلهم :

« في احدى الحالات وهي حالة اسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين ، وفي منزل آخر امسكوا بثلث الاسرة مؤاد البالغ من العمر ستة عشر عاما وكانت امه تمسك به وقتلوا بقتله بسكين ، وقضت الام بعد ذلك عشرين عاما في احدى المستشفيات العقلية . وفي أحد المشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركت اجسادهم هناك . وانتقل المهاجرون الى قلب القرية وشرعوا في قتل كل من يرونه أو يسمعون به بمجرد ان يفتح بابه كانوا يستخدمون القنابل ( اليدوية ) البنادق الآلية وشبه الآلية . واستطاع ابن عمي الهرب بعد ان اصيبت ملايبه بقوب من طلقت الرصاص . وقام أحد الضباط بوضع بندقيته الآلية في أحد النواذ وشرع في اطلاق النار في الخارج وقتل أى شخص يتحرك . وقتلوا بقتل عمي على حسن زيدان وعمتي لمطمة التي سمعته ينادى « انتقوني » فهرعت اليه ولكنهم قتلوه . وجار آخر الحاج يارح الذي سبغ بعض الاصوات وخرج ليستطلع الامر ولكنهم قتلوه هو أيضا وسمع ابنه محمد الذي يبلغ السابعة عشرة من العمر سبغ أباه يناديه ، فذهب الى نفس المكان وقتلوه . وسمعت امه صوته يطلب انتقاذه فجرت اليه وقتلوه . حدث كل هذا قرب منزلي ورايته » .

وتحدث سامور ويثيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الاعدام في خمسة وعشرين رجلا في احد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شاول . ويعترف سامور انه لم يشاهد اطلاق النار ولكنه سمع عنه من احدى النساء التي شاهدته . ومع ذلك فان يثيل لا يسلوره الشك حين يقول : « قالوا بوضعهم في احد المحاجر وظهورهم الى الحائط ثم اطلقوا عليهم النار ، رايت اطلاق النار ثم تمت بعد ذلك بتصوير الجثث . ويقول بهوشيا ارييلي وهو جندي بالجيش البريطاني كان يقود المتدربين من الهلجناه والذي أرسل لدفع الموتى انه رأى عددا من الرجال « قتل في المحجر » : « يزعم يهودا لابوديت انه لم يسمع قط من تنفيذ عمليات اعدام وانه باعتباره قتلدا عاجلا كان سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير الى عكس ما يزعم » .

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول المظلم التي ارتكبتها قوات الارجون وشثين التي يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابيير في

كتابهما « القدس » مزيداً من القصص حول عمليات الاغتصاب وما زعم حول شق بطن إحدى النساء الخوامل وكان مصدرهما الاساسى ممثل الصليب الاحمر في القدس جك دى رينير والمقالات التى اجرتها محطة سى . اى . دى البريطانية مع الذين نجوا من المذبحة ويعترف دى رينير فى تقريره المنشور انه وصل الى القدس يوم الاحد اى بعد يومين من القتل ولكن قوات الارجون وشنتين كانت لاتزال هناك . ويرى كولينز ولابير ان هناك « اتجاها عربيا لتضخيم الاحداث عند استعادتها والتأمل فيها » وهناك دليل آخر يشير الى انه لم تثبت ادانة المهاجمين . ويقول ياتير تسبان الذى شهد انسحاب الارجون وشنتين انه لم ير أية دماء على ملابسهم ويضيف قائلا : « انا عندما قمنا بدفن ضحايا لم ار اى دليل على استخدام المسككين فى القتل . أما محمد سافور الذى ليس لديه اى سبب للتقليل من الفظائع فوافق انه لم تحدث أية اعتداءات جنسية » اننى لم اسمع او ارى اى اغتصاب او اعتداءات على النساء الخوامل ولم يتحدث معى اى شخص من الناجين عن حدوث مثل هذا الامر . فاذا حدثك شخص عن ذلك فانى لا اصدقه . وكتب طبيبان من القدس ارسلتهما الوكالة اليهودية لمحض الجثث تقريراً قالاه انهما لم يشاهدا اى اثر لوقوع تعذيب او تهليل بالجثث .

مما لا شك فيه ان المنشقين قابوا بعملية استمرارى للعرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل اطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة ، وانهم رفضوا الاحتفاظ بدير ياسين كما امرهم شاليتل أو دفن الضحايا . ويوافق لابينوت فى مجال تذكره لما حدث ان رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشاً « انك لا تستطيع ان تترك جثث الموتى فى ارض المعركة حتى لو كانت جثث الاعداء ، لم تكن منظمين لفعل ذلك لم تكن نعرف ما يجب علينا عمله كانت تلك هى المرة الاولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل هذا العدد الكبير من الضحايا . كنا مكودين ، كذلك كنا خائفين من ان يقوم البريطانيون بضرنا بالقنابل من الجو » .

كان هذا الخوف الآخر صحيحاً وحاسماً فقد تعرفت السلطات البريطانية على المتهمين وكانت توافى الى تصفية الضحايا معهم ولكن لم يكن لديها فى ذلك الوقت الطلقات أو القوات المطلوبة . وبعد مواجهة عصبية سحبت الهجمات لقطاعى الارجون وشنتين بالانسحاب . وقد تمت تعبئة ياتير تسبان ومعه نحو مائة من رجاله المدرين للقيام بعملية دفن الموتى لان الجانب الاكبر من القيادة الصهيونية كانت لا تريد أن يرى البريطانيون والصليب الاحمر الدولى أو الصحافة العالمية الفظاعة الكلية فى

دير ياسين وتبت عملية الدفن بسرعة شديدة لدرجة أن أحدا لم يتوقف ليحصى الجثث . وبصفة عامة فإن الآراء أجمعت على أن عدد القتلى العرب ومصل الى ما بين ٢٤٠ و ٢٥٠ على الرغم من أن بيجين كتب في كتابه « التسرد » : أن القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقم . ولكن ما يدعو للدهشة أن محيد عارف سلور يوافق في هذا القول ويقول ان ثلاثة وتسعين قد قتلوا في القرية وان ثلاثة وعشرين قد أعدموا في الحجر المجاور لها . وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلا . وبعد نحو ثلاثة أيام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمسة في دير ياسين في القدس في المكاتب الاسلامية بالقرب من المسجد الاقصى ووضعوا قائمة بالأشخاص المفقودين وأحصينا الاسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولسم يحدث شيء منذ سنة ١٩٤٨ ليحملنى على التفكير أن هذا الرقم كان خاطئا » .

ومرة أخرى فليس هناك ما يدعو سلور للبالغلة أو التخليل من عدد الضحايا ويدعم رأيه هذا يهوشيا اريئلى الذى يعمل حاليا استاذ التاريخ وأحد دعاة السلام في اسرائيل فيقول أن « رقم مائة وستة عشر رقم معتول ولا أعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ الى ١٤٠ جثة » .

ان الرقم الحقيقى لن يمكن معرفته قط لانه لم يتم وضع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة الى دير ياسين . وعلى أية حال فإن الاسطورة خافت الاحصائيات .



## الفصل الحادى عشر

### تمرد على السفينة التالنيا

انتهت الحياة النشطة للارجون زى ليوى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيه ١٩٤٨ كان ما حدث أشبه بالفيلم المأساوى الشهير « ذهب مع الريح » : القاء آلاف من اعمال النقدية على شاطئ تل ابيب ، الاخ يقتل اخاه ، احتراق سفينة محملة بالاسلحة والمتفجرات شديدة الانفجار بالقرب من الميناء ، الشائعات من الحرب ، الخيانة والخوف ، المواطن المشبوهة والخطب الرنانة الرخيصة وكان اغراق الجيش الاسرائيل بناء على أوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجون « التالنيا » المحمية المحملة بالاسلحة صدمة أخرى تشبه « تهمة الدم » فى مقتل ادرلوزوروف وخيانة شمشون وهو مالم يغفره مناحيم بييجن قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها . ومع ذلك فانه يجب على قائد الارجون أن يتحمل مسؤوليته عن البرقيات المتمازسة وسوء التقدير التى اوصلت الدولة اليهودية الوليدة الى حافة الحرب الاهلية .

ضعفت سيطرة بييجن على الارجون عندما خرجت عن نطاق العمل السرى وبدأت قيادة القدس التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا من مقر القيادة فى تل ابيب تعمل باستقلال متزايد . وكثرت وحدات الارجون قد تم ادماجها فى الجيش الوطنى الذى استند بنيانه وقواده من المهاجرات . وبدأت المكاتب فى الخارج تأخذ مبادرات من جانبها دون تنسيق وبينما بدأ كبار الرماق فى العودة الى الوطن من المنفى أو السجن لم يعد بييجن يملك وحده احتكار الحكمة السليسية . فكان هناك رجال مثل يكوف ميريدور ، الياها لا يكن ، اريخ بن اليكزر وهليل كوك ، اكتسبوا خبرة متراكمة فى امريكا ، واوروبا ، والولايات المتحدة ولم يكونوا واثنين ثقة عمياء بالحكم بييجن . والشئ نفيبه بالنسبة للمقاتلين الشبيل بل اميهاى بلجلين الذى نضجت شخصيته وسط النيران . كانوا جميعا يشعرون بحرية اكبر فى مناقشته بل وربما فى الاختلاف مع قراراته احيانا . كانت الايام والدولة ذاتها فى حالة من عدم الاستقرار . لم يكن هناك اجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون ، او فى التخلي عن روح العمل السرى . وفى الوقت الذى ابهرت فيه « التالنيا » التى سميت على الاسم المستعار لجابوتنسكى عبر البحر المتوسط اختلط الخط الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك ، بين العمل السياسى والقيام

بعمليات العسكرية التي استمد منها بيجين قوته . خرج القائد من مكبته الى الميدان . كان ذلك عملا غبر مالوف ، اذ اعتقد رجال الأرجون الآخرين انهم اكثر دراية منه في هذا المجال . وبسبب تشتت السلطة ،

كان حوار بيجين مع يسرائيل جاليلى الذى كان حينذاك نائب بن جوريون في وزارة الدفاع مترددا وغامضا افسدته التركة المثقلة بعدم الثقة والمنافسة السياسية ويشير السجل التاريخي ان كلا الجانبين كانا مخطئين في شكوكهما فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب كما ان بن جوريون لم يكن ينصب لقلد جهامة الأرجون كميناً يهدف الى القضاء عليه وعلى البقية من قوته . ولكن كلا الرجلين تصرفا بطريقة اوجت . يائنها يتآمران ضد بعضهما البعض . فقد اساء بيجين لهم دوافع وقرارات بن جوريون . ولم يقرر كيف سيقوم رئيس الوزراء بارساء اسس بناء الدولة والحكومة والجيش . وساعد تردد الأرجون على زيادة شكوك بن جوريون كما ساعدت على ذلك الكراهية المتأصلة في نفسه ازاء كل شيء يظهه الأرجون ومنحيم بيجين من عنف ، وفوضى الامر الذى يشكل تحديا وقحا للحق الالهي لحزبه ، حزب المabay .

وما كان يجب ان تحدث مأساة « التالنيا » . فقد كلفت دولة اسرائيل التى ولدت قبل ذلك بشهر واحد اى في ١٣ مايو ١٩٤٨ قتال من اجل بقائها . وكلفت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل اييب من الجنوب . وكان الجيش يمر في طور التشكيل من عصابات المهاجانه والأرجون وشترين ومن العناصر المتفجرة من المتطوعين اليهود القدامين عبر البحار . ولكن يعانى نقصا شديدا في الأسلحة والذخيرة . وكانت « التالنيا » تحمل نحو خمسة الاف بندقية بريطانية من طراز لى انفيلد واكثر من ثلاثة ملايين طلقة بندقية ، ومائتين وخمسين بندقية من طراز برين ومائتين وخمسين بندقية من طراز ستين ، ومائة وخمسين بندقية آلية المانسة من طراز سباندوا ، وخمسين مدفع مورتار ، وخمسة الاف قذيفة ، وطلنا من مادة ال تى . ان . تى وكذلك تسعة اربعين متطوعا ليسوا جميعا من المتعاطفين مع الأرجون . وكلفت السفينة اشبه بمنحة الهبة ، كانت تلك السفينة سفينة أمريكية من مخلفات الحرب بدأت العمل في سنة ١٩٤٤ واشتراها هيليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومي ، النادى الامريكى لؤيدى الأرجون بمبلغ خمسة وسبعين ألف دولار . وقام افراهام ستانسكرى بتسجيلها تحت علم بنما . بعد بحث مضى عن الأسلحة تلقى المكتب الاوربى للأرجون حولة السفينة من الأسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التى كان واضحا انها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديغول قبل وبعد التحرير .

وتبل ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب البريطاني أبلغ جاليلي ببجين أن بن جوريون ينوي إعلان دولة يهودية . ووافق تائد الأرجون ، الذى كان يخطط لإعلان الدولة بنفسه إذا لم يتم بن جوريون بذلك ، وافسق على الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع « الثالنيا » الى السلطات بمبلغ مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني ورفض جاليلي مرضه على أساس أن السفينة معروفة لدرجة أنه من المتعذر أن تقوم بنقل الأسلحة دون اكتشافها . وفى أول يونيو تمهد ببجين بانضمام الأرجون الى صفوف الجيش الوطنى ووقع مع جاليلي اتفاقا من ست نقاط :

١ — انضمام أعضاء الأرجون الى صفوف الجيش .

٢ — يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الأرجون فى ألوية الجيش .

٣ — يتم تسليم الأسلحة ، المعدات وتجهيزات صناعة الأسلحة الى سلطات الجيش .

٤ — تمارس هيئة أركان مؤقتة تتكون من ضباط من الأرجون عملها نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة أعضاء الأرجون ( لم يتحدد موعد محدد ولكن بن جوريون رأى أن هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئه أركان الأرجون ) .

٥ — إلغاء أنشطة الفراء المنفصلة وتحويل العقود الى الجيش .

٦ — تتوقف الأرجون وقواتها من العمل كوحدة عسكرية فى دولة إسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الاسرائيلية .

أضاف جاليلي ، نزولا على رغبة ببجين للحفاظ على ماء وجهه ، جملة تنص على أن الأرجون تحل نفسها بمحض اختيارها . ولم يرد أى ذكر عن وحدات الأرجون فى القدس . ولكن زعم ببجين أن المدينة المتنازع عليها خارجة بصفة مؤقتة من مجال سلطة الحكومة .

ليس هناك ما يدعو للشك فى إخلاص ببجين بتوقيعه هذا الاتفاق ، كانت ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها أقلية دولة يهودية فى الوطن القديم ، وأقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الاغلبية ، هو الزعيم الطبيعى لهذه الدولة وكان مستعدا بصفة أساسية للتخلى عن إدارة العراقل من أجل السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافا جذريا حول نقطة حساسة وهى : حدود الدولة — مع الاتجاه المساند للقيادة الصهيونية لدرجة أنه لم يكن من الممكن النظر الى ولائه ككبر مسلم به . رفض ببجين التقسيم وواصل الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الأرجون لأغشاله مهما كان تبراار الحكومة ، وكان ذلك الأساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم يحاول ببجين تبجيده .

اعلن بيجين في كلمة القاها يوم الاستقلال في ١٥ مايو أن الأرجسون ستتخلى عن العمل السرى « داخل حدود الدولة العبرية المستقلة » وأضاف في تفسير اختيار كلمته بعناية : « لقد لجأنا الى العمل السرى تحت حكم القمع . الان لدينا حكم يهودى في جزء من وطننا . في هذا الجزء ليس هناك حاجة الى العمل السرى اليهودى . في دولة اسرائيل سنكون جنودا وبناءة » .

وفي الوقت الذى كانت الأرجون تتفاوض فيه مع معاونى بن جوريون كتب بيجين الى زملائه في الخارج أن الأرجون ستكون القوة المقاتلة اليهودية الوحيدة « لوضع الامة في موضع القيادة للبلاد بأسرها » ولان القيادة الصهيونية الرسمية والمهجناه لن تكون مستعدة لذلك فان الأرجون ستحتاج الى اسلحة لاجل عشرة آلاف رجل ( وهو عدد اكبر بكثير مما تستطيع استخدامه في ذلك الوقت ) وحث ممثليه على ( تكديس الاسلحة ) . عندها اشتركت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من ان الأرجون ما تزال تشتري الاسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل اجاب بيجين بان هناك تداعيل منى . ولم تقتنع الحكومة . وانتظرت بعثتها لشراء الاسلحة في فرنسا بدون أن تتصل بها الأرجون ، وفي اسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكري في ناتانيا أن دور العمل السرى في الخارج هو جمع الاسلحة حتى يحين الوقت لشحن هجوم لغزو البلاد بأسرها . وأثار قلق ليفى اشكول الذى كان زميلا نجاليايلى خلال المناوشات مع الأرجون ما رآه من الانقسام في القيم بالادوار . ففى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه الى الخيار العسكرى . كتب الصحفي الاسرائيلى شلومو نلكنديون في تقريره حول موضوع السفينة « التالنيا » المؤيد للأرجون الى حد كبير : « لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضروريا للأرجون زماي ليومى أن تتواجد خارج حدود ابلاد وفي القدس الدولية . وأكد هذا شامويل كانز وهو عضو في جماعة الأرجون في أوروبا :

« أننا لن نحل صفوفنا كلية ، أننا لم ننس قط القدس ، التى رفضت الحكومة الاسرائيلية اعلان سيادتها عليها ، حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر . هناك يتعين على الأرجسون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من اجل ضم المدينة بأكملها الى الدولة اليهودية ، وحتى ذلك الحين فانه يتعين الحفاظ على بقايا الأرجون في الخارج » .

ويبدو أن كلمة خارج الحدود كلفت تعنى خارج حدود التقسيم . ازدادت شكوك الحكومة في ٩ يناير بعد أن ابحرت « التالنيا » من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما اقتحمت احدى وحدات

الارجون أحد متاريس الجيش وازدادت اعمال التمرد المباشرة خلال اسبوع  
ازمة السفينة « الثالينا » .

وفي ٢٦ مايو كتب بن جوريون مقالا يدعو فيه الى اخذ تلك التهديدات  
التي تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الابقاء على أية قوة مسلحة خارج  
الجيش ولم يكن هذا مرسوما روتينيا واكد « بن جوريون » :

ان هذا يقرر مصير الدولة الجديدة ووجودها والذين يحيون فوق  
ارضها . ان مخزاه هو العيولة دون تفويض الدولة وتدمير الجيش ، ان  
جيشا واحدا خاضعا للدولة وللنولة فقط يملأ بفسهما يمكن ان يبقى الى الابد  
ليس جيوشا خاصا متحزبة .

ويحق لبن جوريون ان ينفخ لانه طبق نفس المنطق دون ندم على  
البلماخ ، الجيش الخاص لليسار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال .

وتسلمت الارجون يوم الاربعاء ٩ يونيو بناء على امر من جورج بيدال  
وزير الخارجية الفرنسية الاسلحة التي بلغ ثمنها خمسة ملايين دولار .  
ويعد يومين على الرغم من اضراب عمال الشحن ابحرت السفينة التي  
تزن ٨٠ طن بحمولتها كاملة . وتوافق ابحار السفينة مع بدء وقف إطلاق  
النار لمدة شهر بين القوات الاسرائيلية والعربية الذي توصل اليه مراقبو  
الامم المتحدة . وجدت الهدنة التصرفات في الارض ومنعت ادخال اسلحة  
اضائية . وفي مكتب الارجون في باريس احرب شامويل كاتز عن استيقله  
من تلك الشروط باعتبارها تخل بالميزان الى درجة كبيرة في غير صالح اليهود،  
ولم تمنح الهدنة بريطانيا من شحن اسلحة الى العراق أو الاردن أو مصر  
حيث موافقها بعيدة عن منطقة القتال . وكان الحظر الوحيد الفعال ضد  
اسرائيل ، كتب كاتز :

( عقدت الهدنة من حسابنا لزاء سفينة الثالينا التي ستكون الآن  
معرضة للهجوم من جانب المصريين أو البريطانيين ، كاتتهك للهدنة ..  
قررنا انه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للأسلحة فاننا سنقوم بالخطورة  
التي ربما تنشأ من انتهاك رسمي للهدنة ، ولذلك فانه يجب ان تبصر  
السفينة وان يقوم تلقاه بالقيام بما يراه ضروريا لتجنب أو مقاومة الاعمال  
العداوية أي انه يتعين على القائد ان يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبة  
الامم المتحدة ) .

كان ذلك قرارا من جانب واحد اتخذه مكتب باريس الذي احتفظ سرا  
بموعد ابحار السفينة عن مقر الارجون في تل ابيب . وكلفت باريس تعمر  
أن يبين لديه تحفظات حول انتهاك الهدنة على الرغم من أنه كان يعارضها  
من حيث المبدأ ، وكان يقول لزملائه : « ليس مهما موقفنا لزاء الهدنة ولكننا

لا نريد أن نحصل مسئولية النتائج المحتملة التي تنتج عن انتهاكها » . ولكن كان مكتب باريس واتقا أن الحكومة ستخضع للأمر الواقع ولم تكن لديه النية للسماح لكل أيبب بتقرير موعد إبحار السفينة أو إذا كانت ستبحر أم لا . أن القول أنه كانت هناك مخاوف من أن يتم اعتراض برقية أو مكالمة تليفونية كان عفرا وإهيا . وعلى أية حال نلن مخافة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بأمر الإبحار من محطة الـ بي . بي . سي كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك . وقام بيجين بإرسال برقية إلى كلز ، الذي أكد - بعد ثلاثة أيام - أن الشحنة في طريقها . وفضل بيجين أن يدع الحكومة تقرر ما إذا كانت ستخاطر بانتهاك الهدنة بالسماح للسفينة بالدخول إلى ميناء إسرائيلى . وقلم بمخاطبة مونرى فين قبطان السفينة والياهو لانكين قائد كتيبة الأرجون على السفينة عن طريق الراديو وأمرها بالبقاء بعيدا وانتظار مزيد من التعليمات . وعلى الرغم من أن لانكين تلقى الرسالة إلا أنه اختار أن يتجاهلها وواصلت السفينة إبحارها .

وخلال اجتماع عقد في ١٥ يونيو أبلغ بيجين وأريخ بن اليمارز الذى كان قد وصل من فرنسا جاليلى عن السفينة وحبولتها الثبينة . وفى هذه المرة نجاهل بيجين اعتراضات زملائه وأبلغ الحكومة عن حمولة السفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال . ويعمد التشاور مع بن جوريون أبلغ جاليلى تليفونيا عن موافقة الحكومة على السماح للسفينة بالاتقارب من الشاطئ . ولكن أمر الأرجون بسحبها إلى كفاريتكين وهى مستوطنة بين ناتانيا وقاصرة وليس إلى شلطة تل أيبب ملقى الانظار . وقد أشر بيجين فيما بعد إلى رسو السفينة في كفاريتكين وهى أحد معاقل الماباى على أنه دليل على أنه لم يكن يخطط للقيام بمصيان . وافترض جاليلى أن بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحبولتها إلى الحكومة بدون شروط . وعبر مفوضو الأرجون الذين صمحتهم بعض أسئلة جاليلى التى اتسمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح إزاء دوافعه .

وخلال المحادثات التى جرت في ١٧ و ١٨ يونيو ثارت شكوك متبادلة . وعندما وافق جاليلى على أنه يتعين إرسال عشرين فى المائة من الأسلحة إلى مقاتلى الأرجون الذين ما زالوا يعملون بضورة مستقلة فى المدينة ، بينما قال جاليلى أنه يعنى أن تذهب الأسلحة إلى الجيش النظامى ( لم تفصل الحكومة ، كما فعلت الأرجون بين القدس وبقيّة البلاد وأحصت قوات المهاجناه السابقة هناك بأمتبارها جزءا من قوات الدفاع الإسرائيلى ) . ورفض جاليلى كلية طلبا ثانيا بأن توزع الثمانية فى المائة الباقية من الأسلحة على وحدات الأرجون العاملة فى الجيش الوطنى أولا . ورأى أن هذا بعد بداية لوضع أسفين لأنه إذا ما وافقت الحكومة على مطلب الأرجون

بالنسبة للأسلحة فتتها سرعان ما ستحاول ارغامها على التخلي من التزامها بقرار التسليم . أمر جاليلي على أن تتسلم وحدات الأرجون الأسلحة بنفس الشروط التي تتسلم بها الوحدات الأخرى . وفي يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين في كلمة شهيرة أذيعت بالراديو بعد ليلة تنمر « الثالوثا » أن رجائه ما كانوا سيستمعون له إذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الأولوية . وكشف خلال حديثه النقلب عن رفضه المتنام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الأرجون ، وقال في تلك الكلمة :

( لقد حلموا بتلك الأسلحة منذ سنوات ، ما الذي لم يفعلوه ، ما الذي لم يضحوا به من أجل كل بندقية وكل مدفع ؟ والآن عندما وصلت أسلحة التمرر هذه ، هذه الكمية الضخمة من الأسلحة الحديثة ، كيف لا نعطي هذه الأسلحة الى مقاتلينا في الجيش ؟ كيف نمتنع عن التأكد من أن يتسلم رجالنا هذه الأسلحة أولا ؟ لقد أحضرناها فكيف إذن نمتنع عن تسليمهم بها ؟ .

ولكن أصرار بيجين ثابله معارضة قوية من جانب هيليل كوك الذي قامت لجنته الأمريكية بشراء « الثالوثا » . وكان كوك الذي يزور تل أبيب قبل انتهاء أعمال الأرجون في الولايات المتحدة شديد الغضب :

لقد فقدت السيطرة على أعصابي ، ظلت أنتظر أن هذه أول وآخر سفينة لنا ، هناك عدة سفن في طريقها الى الهاجاناه . أن علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع أية تفرقة ضد مقاتلي الأرجون في الجيش فإذا بدأت في التفرقة لصالح الأرجون فثمة مستعظمهم رخصة للتفرقة ضدنا بعد شهرين أو ثلاثة من الآن .

وبعد مشاورات أجراها مع اثنين من كبار زبلائه وهما ياكوف مريدور وحاييم لاندو وافق بيجين وأجرى اتصالا تليفونيا مع جاليلي . ووفقا لما ذكره كوك فإن بيجين وافق على أن تذهب نسبة المبالغين في المائة من الأسلحة الى الجيش ككل . ولكن بجره تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر . أمر بيجين على أن يحضر ممثل عن الأرجون ، أي هو نفسه ، استعراضا للوحدات عند استلام الأسلحة وتسليمها باسم الأرجون . ويقول كوك : ضحكت فيما بيني وبين نفسي « ظننا متى أنه يريد القاء خطاب » . بحث جاليلي الموقف ثم قرر ألا تكون هناك شروط . ويعتقد كوك أن غرور بيجين كان سببا في دوام الخلاف بدون مبرر : ويقول « أن السمة المميزة في بيجين هي الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر » فمن أجل رغبته في القاء خطاب ضاعت السفينة واختفت الجانباة كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة « الثالوثا » ومكان تخزين الأسلحة . وأصررت الأرجون على أن توكل إليها مهمة التفريغ وأن يتم تخزين الأسلحة في مخازن الأرجون تحت حراسة مشتركة من الأرجون زفاي ليومي وقوات الدفاع الإسرائيلية . وأصررت وزارة الدفاع على أن يتحمل الجيش

بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين . وتبنى جيبى باجلين قائد عمليات الارجون موقفاً أشد تشدداً مما كان يتوهمه بيجين . ووفقاً لما ذكره « ميريدور » فان قائد الارجون لم يكن يقصد فرض اية شروط ولكن « باجلين » جره الى موقف متشدد . أبلغ « نبهاس فازي » رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الاسرائيلية وديفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الاسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات الى طريق مسدود . استنتج جاليل أن الارجون تستعد للعمل بمفردها . وفي يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليل بن جوريون بأنه « نشأ موقف جديد خطير ، يتمثل في المطالبة بجيش خاص ، بأسلحة خاصة لوحدة معينة في الجيش .

لقد كانت مأساة « التالنيا » تقترب من نقطة اللاعودة . ووسط التقارير القائلة ان السفينة كانت تقترب من الساحل الاسرائيلي وأن مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفار فيتكين ، دعا بن جوريون الوزارة الى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو . وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للانباء التي ذكرت ان بيجين وبقيّة قيادة الارجون ينتظرون على الشاطئ .

فانفجر بن جوريون قائلاً في غضب : « لن تكون هناك دولتان ، ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريد ، علينا ان نقرر عما اذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين أو بطلبته بالكف عن أنشطته الانفصالية . واذا لم يستسلم فانا سنطلق النار .

وافقت الوزارة بالاجماع على اقتراح من جملة واحدة : « تعهد الحكومة الى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشياً مع قوانين البلاد » وأضاف بن جوريون ( الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعا لاي لبس ازاء ما يقرره » ان القيام بعمل يعنى اطلاق النار » . أبلغ جاليل والجنرال ياجيل يادين رئيس الاركان الذي تم استدعاؤه الى الاجتماع ان السفينة ستصل في الساعة التاسعة مساء ذلك اليوم وان ستقاتل من رجال قوات الدفاع الاسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان ، وانه يمكن احضار كتيبتين اخريين وصدرت اليهم الاوامر بالتصريح لمواجهة اي عمل . وأصدر القائد أوامره بان يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة ولكن اذا لم تنفذ أوامره فانه سيجري استخدام القوة » . حث بن جوريون الذي ادعاه اجتماع الوزارة ، يادين على « العمل بسرعة » . وفسر جاليل تصويت الوزارة بالاجماع على انه قرار اجماعي بتجريد الارجون من كافة الاسلحة . أوضح الجنرال دان ايفين قائد الجيش المحل لرجاله ان الهدف من العملية الوشيكة هو : « ازغام الارجون زفاني ليومي على تسليم السفينة والاسلحة وتجريدهم من الاسلحة التي شرعوا ضحنا » .



كان جاليلي مترددا في الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل إلى اتفاق . وقام بإرسال نازيه إلى كفار فيتكين لدعوة بيجين إلى التباحث . منزع ميريودر بيجين من الذهب ، لأنه كما أوضح فيها بعد أن تلك كلفت خدمة للقضاء على بيجين في الطريق . ووفقا لما ذكره نازيه فإن بلجلين رفض الحديث إليه ، وقال أنه إذا أراد جاليلي رؤية بيجين فإنه يجب أن يأتي إلى كفار فيتكين . وعندما قفل نازيه عائدا بالرد كتب جاليلي انذارا إلى بيجين قام بالتوقيع عليه الجنرال ايفين :

« بناء على أمر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الاسرائيلية أمر بمصادرة كافة الأسلحة والعتاد الحربي الذي وصل إلى الشواطئ الاسرائيلية في نطاق سلطتي ووضعها على الفور تحت تصرف دولة إسرائيل . لقد صدرت إلى الأوامر أن أطلبكم بكل الأسلحة التي وصلت إلى الشاطئ لوضعها تحت حراسي وأبلغكم أنه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا وأطلبكم بالامتثال لهذا الأمر على الفور ، فإذا لم توافقوا على القيام بهذا فأنني سألجأ على الفور إلى استخدام كل الوسائل التي أملكها لتنفيذ الأمر وأبلغك أن المنطقة بأسرها محاطة بوحدة الجيش وأن الطريق مسدودة وتتح عليك بالكايل مسؤولية النتائج المترتبة عن رفض التصياع لهذا الأمر ، وأملك عشر دقائق للرد » .

يزعم جاليلي أن الانذار قدم لبيجين « وسيلة مشرفة للانسحاب » على الرغم من أن صياغة الانذار لا تتم عن ذلك . ويقول أن مهبة العشر دقائق كانت كاتبة ، لأن الأرجون لم يكن أملكها سوى خيارين لا ثالث لهما إما الرفض أو الإيجاب . ولكن بيجين لم « يأخذ هذا الانذار الغبي » مأخذ الجد . وبما فيها بعد أنه اعتقد أن ايفين كل يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفة خلفية الأحداث . وعلى أية حال فإن جاليلي لم ينفذ مهلة العشر دقائق ، ففي الوقت الذي استمر فيه رجال الأرجون في تفريغ الأسلحة أرسلت الحكومة أوغيد بن أمي عبدة ناتانيا للتوسط بين الطرفين . كان بن أمي مقتنعا بأن الأرجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل في التقريب بين وجهات نظر الطرفين .

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع مرعوسيه وأعلن « بلجلين » في جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد أن الجيش يقوم بنصب كمين وبدا في إعادة تحميل بعض الأسلحة التي كلفت قد أفرغت بالفعل من المنيعة وأراد أن يعيدها إلى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها في غزة أو العريش جنوبا . كان بيجين مازال يعتقد أنه يستطيع خمداد الجيش ، وقال « لبلجلين » : « اتركها ، أننا سنقوم بتفريغ الأسلحة هنا قبل وصول مراقبي الأمم المتحدة . أنتى لا اعتقد أن لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا . إن المشكلة تكمن في الأمم المتحدة . خلاصة الأمر أن بيجين قام بأعفاء « بلجلين »

من منصبه وعين « ميريثور » بدلا منه . ولكنه سرعان ما عرف أن نوايسا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة . بعد أن أبلغ جاليلى رفض أنذار إيلين قرر بن جوريون عدم إجراء أى مفاوضات أخرى : « لم يعد ممكنا التوصل الى حل . فاما أن يمثلوا للداوود وينفذوها ، أو سنقوم بإطلاق النار . اننى امارض أية مفاوضات واتفاق معهم . لقد انقضى وقت الاتفاق .. اذا توافرت القوة فانه يجب استخدام القوة بدون تردد » .

أضاف بن جوريون بخط يده كلمة « لورا » وفي كهار غيتكين في الساعة الخامسة بعد الظهر . من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف لتفريغ الاسلحة في الوقت الذى كان يحاول فيه ميريثور ، ومورونين وانرهام ستانسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة اقتناع بيجين بأخذ السفينة الى تل أبيب حيث سيكون السكان أكثر ودا . حيث تكون الحكومة أكثر ترددا في بدء معركة . بدأ إطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته ، ووجه قائد الأرجسون في حديث بالراديو اللوم الى الجيش لهجومه ، من كافة الاتجاهات وبكافة انواع الاسلحة . قال ناكديمون ان جنود قوات الدفاع الاسرائيلى أطلقت النار دون صدور أوامر لها وكتب يقول انه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فان الأرجون ردت على النار بالمثل . ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطئ في كهار غيتكين أن قوات الأرجون كانت البادئة بإطلاق النار — ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يريدون أن يقولوا انهم جادون وانهم مستعدون لعمل أى شيء . وبمها كانت الحقيقة فان الأرجون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحا وقوات الدفاع الاسرائيلى قتلين وستة جرحى خلال القتل الذى دار خلال الليل . وأمر بيجين الذى أنبطح أرضا على الرمال لتجنب الطلقات المنهرة ، مغادرة المكان لأن هذا سيد أنسحابا مخزيا . لكن عندما احاط طرادان بحريان بالزورق الذى اقل فيروستانسكى الى الشاطئ فلما حصل بيجين والغائه في الزورق بعيدا . فأخذ يسب ويحجج باللغة العبرية واليمنية وأخذ الزورق يناور حتى ماد الى السفينة لم ينقذه هورين من التعرض للاصابة سوى مهارة مين الملاحية التى تعلمها بالاسطول الأمريكى في المحيط الهادى .

غادرت « الناليا » كهار غيتكين في الساعة ٩٣٥ ليلا بتعبتها اسطول صغير من السفن الحربية الاسرائيلية المعادية . ووصلت تل أبيب في نحو منتصف الليل . وفي ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو أذاع مكبر الصوت عرضا نهائيا من الحكومة : « انصتوا ، انصتوا ، سيقوم ممثل عن الحكومة والجيش بالسعود الى السفينة لاختلاف الموجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ المشحنة » . مرة أخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الأمور دون اراقة دماء . وعلى ظهر السفينة اقترح انه

يجب على بيجين أن ينزل إلى الشاطئ ويتفاوض ولكن أوقفه الياهو لانكين خوفا من أن يتعرض للاذى . واعترف لانكين فيها بعد أنه ربما كان من الاوصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض . ربما كان من الممكن تجنب ما حدث بعد ذلك ، ولكن ربما كان بيجين قد قتل .

لم تكن الحكومة يساوئها القلق فقط من جراء رفض الارجون الامثال لاوامرها بل ومن تجنب مؤيدي بيجين على شاطئ تل ابيب ونسار الوية الارجون من معسكر صرمد وغيره من المعسكرات وكان رأي بن جوريون ان سيادة الدولة في خطر . وخلال اجتياح للقيادة العليا أخذ رئيس الوزراء يرغى ويزيد ويحدث نفسه وهو في حالة شديدة من الغضب . ووصفه احد اليهود بأنه كان أشبه « بأسد حبس في قفص » . وقد طلب من شاهيريل ياتاي قائد العمليات البحرية ابداء رايه كخبير فيما يمكن عمله ازاء السفينة الثانية :

« طرحت كافة الأفكار : قذفت قنابل دخان لاجبارها على الرحيل ، الاستيلاء على السفينة من القوارب ، تريخ الشحنة ... رفض بن جوريون كافة مقترحاتي بأشارة من يده . لم أصب الهدف ونهمت فيها بعد فقط ما كان يريد سماعه مني - ما هو هدفه الحقيقي ، كان تدمير السفينة التي أصبحت ذريعة للصراع بين الامم . كان يريد تدميرها لازالة الموضوع الذي كان الناس يستعدين للقتال حوله ، وسيكون هناك فيها بعد خلافات واتهامات مضادة متبادلة ولكن لن يعود هناك ذريعة للقتال .

بنفس الروح امر بن جوريون يادين : « عليك أن تقوم بكافة الخطوات : تجمع وحدات الجيش ، النيران ، قاذق اللهب وكافة الوسائل الاخرى التي في حوزتنا لتحقيق الاستسلام غير المشروط للسفينة . وكانت كل تلك القوى سيتم استخدامها إذا ما أصدرت الحكومة تعليماتها بذلك . وخلال اجتماع طارئ عقدته مجلس الوزراء تقلب رئيس الوزراء على أية تحفظات اثرت . ورد بن جوريون على اولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تنازلات بدلا من الحرب . . » ان ما حدث .. يعرض الدولة للخطر .. ان هذه محاولة لتعطيل الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن في رأيي التوصل الى حل وسط بالنسبة لهاتين النقطتين ، وإذا ما أصبح من الضروري لسوء حظنا البالغ القتال لهذا الغرض فلن علينا ان نقاتل . لم يرد المتشككون بشيء وصيحت الوزارة بأغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الارجون بتسليم الثانية الى الحكومة واستخدام القوة اذا استدعى الامر . وعلى الفور امر بن جوريون يادين بالتصرف .

أصبحت القلانيا التي رست في أكثر الأماكن ازدهارا على شاطئه  
 تل أبيب على مرأى من الزوار ، والمراسلين ، ومرافقي الأمم المتحدة في  
 شرفات فنادقهم ، قبلة للرائحين والفارين من الجنود المؤيدين للحكومة  
 والمؤيدين لبيجين في ملابسهم الرسمية وحملتهم اسلحتهم . وتدفق المندوبون  
 الى القساطية كما لو كانوا مشاهدين في مباراة نهائية للكأس . وكان رجال  
 الأرجون المؤيدين لبيجين يرددون الهاتفات المصادية للحكومة . وأخذ  
 الجيش يناضل من أجل منع تعزيزات الأرجون . بدأ انزال أحد القوارب  
 المحملة بالرجال المسلحين من القلانيا وبدأ إطلاق النار خلال دوامة الفوضى  
 التي حدثت تولى ايجال آلون القائد الشاب لقوات البالماخ العملية . وكانت  
 الاوامر الصادرة اليه من بن جوريون صارمة ومحددة : « اقتبس على بيجين !  
 اقتبس على بيجين ! » .

في الوقت للذي بدأ فيه المصادمات تنتشر ومناشدة الأرجون عبر  
 مكبر الصوت سلكن تل أبيب بالانضمام الى جانبهم ارسل آلون في طلب  
 مدفع . وتم اخلاء الشوارع التي كانت على رمى نيران القلانيا . وقام  
 آلون ونائبه اسحق رابين بمعاينة أرض المعركة من مقر البالماخ في فندق  
 ريتز . وبعد الظهر تم التوصل الى وقف لإطلاق النار لاختلاء الجرحى .  
 وفقا لأحد التقارير فان قادة البالماخ رأوا الأرجون يضعون مدفعا آليا  
 ثقيلًا على سطح السفينة مصوب الى فندق ريتز . سعى آلون الى  
 الحصول على إذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون حوالى الساعة  
 الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف . كان بيجين مقتنعا ان آلون لديه النية  
 تمها في قصف القلانيا وكتب يقول في كتابه « التمرد » : « فجأة سمعنا  
 ازيزا فوق رؤوسنا وناديننا على قائد البالماخ مذكرين اياه انه وعد بوقف  
 كامل لإطلاق النار ، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة ،  
 لقد أحاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم .. » .

زعم آلون الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء  
 انه قام بإطلاق « طلقات تحذيرية » كحيلة أخيرة لاتنتاع السفينة  
 بالاستسلام . وفقا لرواية البالماخ فان خمس أو ست طلقات فقط قد  
 أطلقت . وقال آلون انه « اتدهش » لان السفينة أصيبت وأمر رجاله على  
 الفور بوقف نيران الدفعية . سواء اكان ذلك صحيحا أم لا فان الإصابة  
 الباشرة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون واشعلت النار في القلانيا واشعلت  
 نيران الحرب الأهلية غير الرغوب فيها وغير المخطط لها ، وبسهولة الحل  
 السريع للأرجون لتتحول الى قوة عسكرية منفصلة . كان الهدف الوحيد  
 الذي لم يصبه آلون هو مناحم بيجين ولكن اذا كان قائد الأرجون مصيبا  
 فان ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة : « ففي كل مرة أذهب فيها الى

منصة ريان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة الى نيران كثيفة وعندما اغادر المنصة كانت النيران تتوجه الى ناحية اخرى . كانت الطلقة تنقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر في مخزن السفينة . انتشر الدخان وانفجرت الذخيرة . نجح مونروفيين في تشغيل المضخات وغمر الخزن بالمياه ولكن مع استمرار اطلاق النار بدأ الامر وكأنه مسألة وقت فقط تبطل أن تنفجر السفينة المشتعلة . وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان عنما ابيض مؤقنا ودعا بالمناخ الى وقف اطلاق النار . كان بيجين منبطحا على السطح وكانت ركبة احد البحارة فوق ظهره . ورفض مفادرة السفينة قبل ان يغادرها آخر رجل من رجلاه ، وقال في حديث اذاعه في تلك الليلة ان مرسومه هددوا باستخدام القوة لارغابه على مفادرة السفينة ولكنه رفض مفادرتها :

إذا كنت قد استجرت في البقاء فوق السفينة فان هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب . فكيف لي أن اغادر السفينة التي كانت في طريقها الى الانفجار وكان هناك جرحى على سطحها ! ويمكن أن تحدث الكارثة في أية لحظة ! قال لي القائد : « امدك اننا سنخرج جميعا ، سنخرج وبالفعل تم اخراج معظم الجرحى ، وهكذا ففزت الى المناء » .

قال آخرون ان اثنين من بحارة مونروفيين الاتيوا تلبوا بقلقه الى البحر . وكان آخر من غادر السفينة فين ولانكين قبطان السفينة وقائد مقاتليها من الأرجون . كلنت معركة شاطيء تل اببيب الأرجون اربعة عشر قتيلًا وتسعة وستين جريحًا في مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الاسرائيلي وستة جرحى . وكان من بين القتلى افرام ستافسكي صديق طفولة بيجين الذي كان قد قبض عليه ثم أعلنت برأته من قتل حايم اروسورف على نفس ذلك الشاطيء الرطب منذ خمسة عشر عامًا . وتم فيما بعد انقاذ بعض الاسلحة من السفينة المحطبة التي بقي حطابها على مرأى من تل اببيب كشاهد على هبالة السياسيين — سواء بن جوريون او بيجين وفقًا للتحيز لاي منهما . ولم يكن غرق السفينة الثانية أسعد اللحظات في حياة قائد الأرجون ولا كانت الكلمة التي القاها في تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من اذاعة الأرجون السرية بأفضل خطبة . لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر في بكاء مرير وسب بن جوريون بوصفه بذلك الغبي ، ذلك الاحق الذي تأمر لقطه وأرذف ذلك بحركة من يده تشير الى انه يستطيع الغضاء عليه وهند بلويل والثبور لكل من تسون له نفسه اإذا أسرى الأرجون . وبعد ذلك في نفس الليلة نشرت الأرجون بيانًا وصفت فيه بن جوريون بأنه ديكتاتور مجنون « وحكومته بأنها حكومة من الطغاة المجرمين ، والخونة والقتلة ، والغبى البيان الامر السابق لقوات

الارجون بالانضمام الى الجيش . ولكن بيجين حذر رجاله من إطلاق النار على قوات الدفاع الاسرائيلي قائلا : « انه ان يكون هناك قتال بين الاخوة في الوقت الذي يقف فيه العدو على الجبل » .

اما يزرابيلي جاليلي فقد خصه بيجين بأسوأ انواع العنف ، فوصفه بأنه « تاجر حريم يتاجر في الذبابة والملبكات اليهودية » ودرج قائد الارجون لسنوات عديدة بعد ذلك أن يذكر « رجلاً مجهولاً يشغل منصباً كبيراً في الدولة » وهو أحد المقربين من بن جوريون الذي نسب اليه انه قال له « ان بن جوريون قد خدع في مسألة السفينة الثانية » وعلى الرغم من انه لم يذكر المأمر إلا أنه كان يعتقد أن جاليلي هو الذي خدع بن جوريون . ونيس من المستغرب أن يذكر جاليلي بشدة كل شيء من ذلك الامر « ان هذا القول اما ان يكون حقاً او حيلة او كليهما وليس له اساس من الحقيقة » . لم تكن هناك تفاصيل حول الاتصالات مع الارجون على اى مستوى لم تغلم بها وزارة الدفاع بلكلبل وعلى الفور « . إنكر بن جوريون الاتهام كذلك . ويزعم جاليلي أن بن جوريون كان « أكثر عدوانية منه بكثير » . عندما كنت في المقر في كهار ميتهن تلقيت رسالة منه يقول فيها أنه لا يفهم لماذا لا نعمل » . لم يكن هناك خلاف كبير في الهدف أو الإدراك بين رعيى العمل . وتشير الدلائل على أن جاليلي تردد أكثر من مرة في القيام بعمل ، كان يريد أن يمنح بيجين الفرصة لأطاعة أوامر الحكومة ولكن رأينا ان بن جوريون هو الذى أرغم الآخرين على الإسراع في العمل . وكان بن جوريون هو الذى قال خلال اجتماع عقد في ليلة وقوع كارثة السفينة الثانية للجنة الشعبية : « فليبارك الله المدفع الذى قصف تلك السفينة » . كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع إلا قليل من الاسرائيليين ، حتى من بين المعجبين بين جوريون أن يرددوا بغير ارتياح كلمة « آمين » .

## الفصل الثاني عشر

### اختيار جانب المعارضة

لعل مناجيم بيجين هو زعيم الحزب الوحيد في العالم الديمقراطي الذي خسر في ثماني انتخابات متعاقبة وإستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والإمارة . وليس صحيحا انه كان محصنا ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين في الوطنية . كان يتعرض دائما للتحدي ولكن محدوده يملكون الإحترام والمنفذ ، والجاذبية الشعبية والمهارة السياسية التي تمكنهم من احتلال مكانته . وتحولت « حركة الحرية » التي أسسها في أغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع مرده الرفاق القدامى في العمل إلى حزب الأرجون زماي ليومي ، وكان أهم أعضائه ولده أكثر من ثلاثين علما يشكلون ما أسماه بيجين « بالمائلة المائلة » حيث يتمتع بين أفرادها بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم ، وما زال بيجين هو القائد وما زالوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشتركون في تبادل الذكريات حول أساطير النصر ، والفضيحة والإضطهاد . وخلال أول انتخابات للكتيست في يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيرت المطالب الوحيد بتركة فالديمر جابوتينسكي . كان هناك ثلاثة أحزاب أخرى هي : التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعملون من الأرجون باحتقار خلال سنوات الثورة ، وحزب المقاتلين بقيادة عصبة شستين ، والحزب الرسمي بقيادة بائير جروسمان الذي انفصل عن جابوتينسكي في سنة ١٩٣١ . وكانت كل تلك الأحزاب تتنافس معه للحصول على أصوات الناخبين . ولكن كان أخطر منفسى بيجين هم التصحيحيون الذين ما زالوا يميلون في المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم بالاعتراف رئيس الاتحاد الدولي للتصحيحيين بالاعتراف بحירות باعتباره الفرع الاسرائيلي للحركة . اتبع بيجين استويا تركز كثيرا غيتا بعد للتخلص من معارضي زعامته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المخنكين ، انه بهاجم من الداخل ، يمزل معارضيه ويجدد مفسوياتهم في الحزب . وعبر السنوات أبعد أولئك المنتقدين يملأهم شعور المرارة ولكن بدون خوف ولا قوة — تمثل أيرى جابوتينسكي ، ابن النبي ، وإهليل كوك الذي أدخل مجددا في معارك دستورية غامضة ، وشامويل زامير في سعيه لتحقيق مستقبل قانوني ناجح ولكنه يدين بالفساد لبيجين لاى نفوذ يابل في مارنستة على هائلين الحياة السياسية ، وعبرز غايسمان الذي يقبع في انتظار ، مثل ديخول ، دعوته إلى انقاذ الأمة .

كان حزب حيروت منذ نشأته طينا لليديولوجيين اتباع جابوتينسكي ويتمسك الناجين اليهود الشرقيين وكل ما يربطهم معا هو مناجيم بيجين الذي

أنشأ الحزب ورماء حتى نما وازدهر . لم تكن هناك شبكة من المشروع المحلية النشطة بين الانتخابات وكانت « بيتار » اتحادا رياضيا أكثر منه حركة شبيلية . وتكثرت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيسة ، عندما وضع قائمة المرشحين ، وهو مجال خصص لاسباغ الرسمية في نظام التمثيل النسبي باعتباره بطلا قوميا ، غريبا لدى اليهود . واستطاع في البرلمان أن يستعرض موهبته الخطابية ، مؤكدا مواهبه وهي نادرة في حيروت كزعيم شمعي ، واستطاع الوصول إلى أولئك العازمين عن التمسك المذهبي وورث بيجين موهبته الشخصية التي أورثها جليوتنسكي للصمعيين . عزل الزعيم نفسه في الدائرة الداخلية لحكني الأرجون مبعدا عن المخالفات الداخلية في الحزب مستخدما أصقائه في القتل نيابة عنه ولم يرض وقت طويل في أعداد نفسه للخلافة . كان يفضل مبدأ فرق تسد . كان يترك الطويحين ينافسون بعضهم بعضا والمخلصين يشقون طريقهم إلى جانب القائد القديم . وخلال التمرد الأول واجههم بالنتقج بعرض استقالته . وحدث في أحد المرات أن قام بتأجير غرفة في القدس واستأنف دراسته للمحاكمة ، وبعد كارثة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيسة عندما انخفض عدد الكراسي التي حصل عليها حزب حيروت من أربعة عشر مقعدا إلى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الأصوات التي حصل عليها إلى أربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين — ٨١٤.٠٠٠ صوت ، أن ابهر بيجين في أجارة إلى إيطاليا وترك وراءه خطاب استقالته مع نائبه أريغ بن اليعازر ولكن يوهاتان بادير أحد شيوخ الحزب منع أي شخص من فتح الخطاب .

بعد فوز بيجين في انتخابات سنة ١٩٧٧ سئل سكرتيره السياسي بيهليل كلفشاي كيف استطاع الزعيم مقاومة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاما ، أجاب قائلا : « لا اعتقد أننا توقعنا الفوز قط » . في الخمسينات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار : « ان الله اختارنا لنحكم » وكان بيجين دائما يحذر ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقاله عندما يتولى السلطة ، ولكن كلا الشعار والجدل كئنا يعكسان احلاما للخلاص أكثر منها أي حلم بالسلطة . كان حزب حيروت يعتبر حزبا للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على « راية الصهيونية الحقيقية مزقوعة » ، والنضال من أجل اسرائيل ابية وغير مقبسة ودحض لبراجماتية أغلبية الملبأ » .

على الرغم من أن بيجين تخلى عن العمل السري وتفرغ للقاء الخطب بمجرد اعلان بن جوريون للدولة اليهودية فإن التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكفلا . كان معجبا بنموذج البرلمان الانجليزي على الرغم من كراهيته للحسك البريطاني في فلسطين ولكن ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للأفراد عندما جرت في الكنيسة مناقشة « القوانين الاساسية » المختلفة . ولكن كان هناك حينين يراوده دائما للثورة وان لم يكن للديكتاتورية . كانت الحكومة في رأيه مخطئة دائما والكنيسة لم يكن المكان النهائي للحكمة والشرعية



وعلى سبيل المثال ، غنى أول مؤتمر صحفي يعقده بيجين كزعيم لحزب حيروت أكثر صلة الحزب بقتل عملية شتين لكونت فولك برنادوت السويدى ووسيط الأمم المتحدة ، ولكنه لم يستطع مقاومة القاء المسؤولية المبكرة على « البريطانيين الذين حاكوا المؤامرة » . وكذلك على « شركائهم الظاهريين والمستترين في وزارة الخارجية الأمريكية » وكذلك « السياسة الخاطئة » للحكومة المؤقتة في إسرائيل .

« حذرنا الحكومة المؤقتة من أن نقيم دعائها على حكم استبدادى في الجبهة الداخلية ومحاولة الاسترضاء على الجبهة الخارجية الأمر الذى يعد عملا سريا جديدا لقد اعلنا هذا التحذير في ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة التى تتحدث علانيا عن السيادة في الوقت الذى تمارس فيه الاستبداد والاستسلام الخفى لم تلق بالا الى تحذيرنا ، ولذلك فانه لا يمكن استبعادها كلية من تحمل المسؤولية غير المبصرة لاساسة القدس بسبب سياستها .

وعلى الرغم من نظايره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات ضد « استرضاء » التقسيم بالكتل وليس بقوة السلاح وحتى لو أراد فانه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر . جرى اعتقال كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الأرجون بعد مسألة السبينة الثالثة . وفي القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من الأرجون لاذنار الحكومة الصادر في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨ . وقال بن جوريون : « ان بيجين ، وهو أبعد الناس عن العمل الخفى ، يعرف سلطة القوة واستسلم للقوة فقط » ، وتولى زعيم حزب حيروت مهمة النضال من أجل « أرض إسرائيل » بعد ثلاثة أسابيع من اجتماع أول دورة للكنيست وبعد أسبوعين من توقيع اتفاقية الهدنة بين إسرائيل ومصر . وقال بيجين ان التفكير بأن إسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ :

« وجد الان في الجزء الشرقى من إسرائيل ، كما في الاردن احتلال بريطانى غير مباشر ... لن يكون هناك سلام لدولتنا ولن يكون هناك سلام لشعبنا اذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن من القوات النازية ... ان سياستنا الخارجية الرسمية تسير في اتجاه تجريد الحدود المصطنعة ، حدود التزيق » .

عاد بيجين الى الهجوم في ابريل سنة ١٩٤٩ عندما تفاوض المديروماسيون والضباط الاسرائيليون للتوصل الى هدنة مع الملك عبدالله في رودس . وفي محاولة لتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطقة بزيج من العبارات اللاهوتية والسياسية :

« لقد وقعت هذه الحكومة اتفاقية مبدئية مع خادم بريطانيا ، مع حاكم الدولة التي تسمى نفسها المملكة الأردنية الهاشمية — ولعازنا العظيم هذا الاسم الذي تمت الموافقة عليه في وثيقة رسمية وتمتعها حكومة إسرائيل مع المملكة الأردنية التي تمت بموافقة حكومة إسرائيل على الواقع على طول ضفتي نهر الأردن ... أن معنى هذه الاتفاقية أن البريطانيين يستطيعون العودة الى غروب إسرائيل واتلمة قواعد عسكرية لهم هناك ... أريد توجيه بضعة كلمات الى أعضاء الكنيست من الوجهة الدينية . سلخني أريد أن اسأل ضمائرهم — وأنا واحد من المؤمنين في إسرائيل — كيف لم تهتز أيديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالمملكة الهاشمية الأردنية ، وبكلمات أخرى التخلي عن الأردن — كل الأردن الى أيدي الأعداء ؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسمياً بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة ؟ » .

على الرغم من وجود حراسة أردنية على حواط القدس القديمة ، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التي فقدت فيها إسرائيل ٦٥٠٠٠ من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥٠٠٠ نسمة وبالرغم من المشاكل التي تواجه الدولة الوليدة التي ضاعفت سكانها خلال أربع سنوات عن طريق الهجرة ، بالرغم من كل ذلك ، أمر بيجين على إبقاء شعبة « أرض إسرائيل » متوهجة . كان إيمان بيجين قويا في عدم قبول أي حل وسط « لا تقبلوا لنا أنه لا جدوى من إصدار إعلانات » قال ذلك في مقام اقتراحه بأن يقوم الكنيست بإعلان « القدس الموحدة » وليس فقط القسم الغربي من المدينة ، عاصمتها . ان الدول الأجنبية يجب أن تعرف أن القدس لنا ، كلها لنا — الهيكل — الحائط الشرقي — والقدس كلها على جانبي الحائط لنا ، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية .

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكاملها العاصمية « أرض إسرائيل » كلها ، ضفتي نهر الأردن كما حددها جابوتشيفسكي ، كانت الوطن اليهودي سواء كانت إسرائيل في موقف يسمح لها باستردادها أم لا . كان يلح بأن يربط آمون « عمان » مثلها مثل شيمون ( نيلس ) وجلبند مثل السامرا والباشا مثل الشارون هي « وطننا » وبها كان غضب الرئيس جيمس كلرتر خلال محادثات كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ بأنه لم يكن يستطيع اتهم الزعيم الاسرائيلي بالضارب . الا أن ارتباط بيجين كان للهوم المكان ، للاسماء ولأصداقها التاريخية لم يكن لديه شيء من حب موثى ديان للأرض لاذاتها ولا شيء من الة « الصبرا » معها .

في مايو سنة ١٩٥٠ عندما ضمت الأردن الضفة الغربية رسمياً وجه بيجين اللوم لوحي شاريت وزير الخارجية لاعطائه الضوء الأخضر « لعبد الله

وحكومة بينين التي وقعت وراءه لتحويل النهب والغزو الى عمل قانوني  
 ومعترف به سياسيا « ظلت الملكة الهالسمية بالنسبة لبيجين الاراضى التي  
 تحتلها بريمانيا من « ارض اسرائيل » اذا استطاعت الكلمات ان تغزو ...  
 اخذ بيجين يسال بن جوريون من الذى اعطى للحكومة السلطة للاعتراف  
 بانشاء السلام القدس ، والهيك ، وبخبرة البطريك وقبر رازابيل ، والخليل ،  
 وبيت لحم ، وشيكسيم وجليد وياشلن ؟

لقد انتخبتم لتسيير شئون الدولة . ربما يقوم الشعب باختيار  
 من يهل محكم . وقد يجدد انتخابكم . ولكن من اعطاكم الحق ، وفى  
 أى انتخابات اعطيتم السلطة للخطي باسم شعب اسرائيل من ميراث  
 الاجداد ، ميثاق الاجيال ، قيادة التاريخ التى كان فيها دماء الملايين  
 مبر مسيرة مائة وعشرين جيلا ؟ ، لم تعطاية انتخابات هذه  
 السلطة ومن المؤكد انها لم تمنح لكم فى الانتخابات الاخيرة . دعونى  
 انناقش هذا السؤال ماذا اردتم السلطة فلنخرج الى الشعب ونسالهم  
 اذا كانوا مستعدين ان يطلقوا ان عبدالله ولسنا نحن الذين يجب ان  
 يحصل على القدس ، والخليل وبيت لحم ؟

وجه بيجين فى نفس المناقشة انذارا بان اعتراف الحكومة بالضم الاردنى  
 ليس ملزما لحزب حيروت . « عندما تاتى حكومة اخرى - وسوف تاتى - سوف  
 تعلن ان هذا التوقيع غير سارى المفعول . ان كل ارض اسرائيل تخص شعب  
 اسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله او بحق البريطانيين فى حكم بوصة واحدة  
 من وطننا » .

كان النضال من اجل « ارض اسرائيل » على الرغم من مثالياته على ضوء  
 حقائق الخمسينات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية . كان بيجين يفسح  
 علامات اكثر من تسليق الشككات . ولم تظهر مثل هذه الشكوك فى معركته  
 التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون فى هذه الفترة - المعركة عند قسول  
 اسرائيل للتعويضات الألمانية . عاد زعيم حزب حيروت الى سياسات الشارع  
 معرضا الجماهير على الزحف الى الكنيست معرضا مستقبله السياسى للخطر  
 وهو فى كامل وعيه . كان هذا الموضوع الذى جاء بهد الابادة النازية لليهود  
 مباشرة تثير مشاعر عنيفة فى المجتمع الاسرائيل . كان حزب المابام اليسارى  
 الذى ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يعارض أى تعامل مع يون بنفس القسوة  
 التى كان يعارض بها حزب حيروت . وكان للحركتين جذور مشتركة فى النازية  
 البولندية ، وتعرض اليهود البولنديين اكثر من أى يهود آخرين للابادة تحت  
 الجول النهائي . ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد .

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الألماني كونراد اديناور ملجأ آخرًا اتسم بالبقاء ، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتل والمقتولين بل كان محاولة يائسة ليواصل الاقتصاد الاسرائيلي المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية في مواجهة اعدائها العرب . اقصر رئيس الوزراء ان اسرائيل لا يمكنها البقاء في عزلة وتحتاج الى حليف قوى واتجه اولًا الى بريطانيا بل الملح ان اسرائيل مستعدة للانضمام الى الكومنولث ثم اتجه الى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الغنيتين سبقتا له خيبة الامل . بدأت حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام . واستنتج مستشارو بن جوريون ان وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية وتأكدوا انه ليس هناك فرصة . وفي واشنطن كان جون فوستر دالاس وزير الخارجية اكثر اهتماما باستعادة العلاقات الامريكية مع العرب . وأعلن امساح إحدى لجان مجلس الشيوخ : « ان مشكلتنا الاساسية هي تحسين موقف الدول الاسلامية ازاء الديمقراطية الغربية لان هيئتنا تتناقل في المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب » . ولم يلق اقتراح ابن جوريون بجعل اسرائيل « قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته في الشرق الاوسط اذانًا صافية » . ولقيت مثلثة اليهود الامريكيين تعاطفًا اكثر فقد انتزع رئيس الوزراء حملة لبيع الاسهم الاسرائيلية في اجتماع ضخم في ميدان حديقة بليسون في مايو ١٩٥١ . ولكن على الرغم من نجاح الحملة لمن مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول : « ان الاموال التي تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الامل لاقتصاد الدولة المزروع . كانت اسرائيل تحتاج الى مساعدة مالية طويلة وضخمة » .

قامت اسرائيل بأول محاولة متريدة للحصول على تعويضات في مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حولت تجنب التعامل مبشرة مع الالمان وقدمت طلبًا للحصول على بليون ونصف بليون دولار الى قوات الاحتلال وهي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وبريطانيا وفرنسا تعويضًا عن الممتلكات اليهودية التي استولى عليها النازيون . ولكن الدول الكبرى رفضت القيام بأي شيء ازاء هذا الطلب . كتبت التعويضات مسألة تخص الالمان . وجاء هذا الطلب في المرحلة التي اشعل فيها اديناور الزعيم الجديد لالمانيا الاتحادية المعادي للنازية الى استعداداته لدفع تعويضات لاسرائيل . كتب تيريس بريتي المؤلف البريطاني في تاريخه لحياة اديناور انه لم يكن هناك ثمة شك في تسوية حساب الالمان مع اليهود « كان الشيء الممكن هو جعل اتصى حرد لاعادة ممتلكات اليهود في نطاق الوسائل المتاحة لالمانيا . كان يبدو دائمًا ان آيناور يفهم ذلك وانه كل من يعتبر ان هذا العمل واجب عليه » . ومع ذلك فان عددًا كبيرًا من الاسرائيليين ومن بينهم أعضاء في وزارة بن جوريون وزعماء حزبه المألوم شعروا بالذعر من الفكرة . ومع ذلك فان رئيس الوزراء

لم يجد أية متاعب في تهدئة ضميره وكان يعرف ان الطريق الوحيد لجعل الترميميات مقبولة لدى الاسرائيليين هو وضع كل ثقله وراء الحصول على تلك الترميميات . وقال : « في عبارة واحدة فان السبب يكمن في وصية الستة ملايين ، ضحايا النازي ، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة منوية لاسرائيل من ان تنهض ، ان تكون قوية ومزدهرة لحياة أمنها وسلامها . وهكذا ننسج وتقع هذه الكارثة التي حاقّت بالشعب اليهودي من ان تحدث مرة أخرى . ولم يكن بن جوريون أقل براعة في الدفاع عن وجهة نظره في الكنيست حيث قال :

« تعرض أكثر من ستة ملايين يهودي للمقتل عن طريق التعذيب ، والتجويع ، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعي .. وحملت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعي — بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك .. ان جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن ان يكون لها تعويض مادي ، ان أي تعويض ، مهما كان حجمه لن يكون تعويضا من فقد الحياة الانسانية او نهلة لمعاناة وآلام الرجال والنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والرضع ومع ذلك فانه حتى هزيمة نظام هتلر استمر الشعب الالماني في التمتع بشمار المذبحة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا . وتعتبر حكومة اسرائيل نفسها ملزمة بطلابة الشعب الالماني برد هذه المكيف اليهودية المسروقة . دمونا لا نجعل قطرة شعينا المستبدين أيضا من ممتلكاته !

انفجر مناجهم ببجين الذي كان والداه واخوه من بين الستة ملايين قتل في ثورة غضب شديدة . لم يكن هناك شك في اخلاصه في محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود ولكن البعض الاخر في حركة حيروت انتهزوا فرصة موضوع الترميميات كوسيلة لاعادة الحيوية الى الحركة وارجاع ببجين الى الحياة السياسية بعد نكسة انتخابات سنة ١٩٥١ . وجد ببجين متعة بالغة في الدور الذي أوكل اليه . ووصف يهوذا اوامر الذي كان يعمل في ذلك الوقت مرانلا في صحيفة الحزب « حيروت » الزيارة التي قام بها الى ياكوف روين سكرتير عام الحركة :

« قرأ صحيفة ( يديعوت احرونوت ) التي كانت بحوزتي ولاحظ خيرا صبيرا جاء فيه ان الدكتور نلحوم جولدمان سيقيم بزيارة الى المانيا لاستكمال اتفاقية الترميميات ، وفجأة نادى على أريغ ابن اليعازر : « أريغ ، أريغ ، هذا سوف يمينه . مناجيم سيعود لهذه الحملة ، هذه حملة من أجل شرف الأمة ، وهو ، الوحيد الذي يستطيع ان يقودها . بعد ذلك بأسبوعين عاد ببجين من أوروبا وخرجت حركة حيروت من جهودها العميق » .

... بغداد ظهر يوم ١٤ يناير سنة ١٩٥٢. خاطب بيجين جيشدا تلوح بعبدده  
 بين ٢٠-٢٢ كما قال البوليس ) و ١٥٠٠ ر. ( كما قال بيجين ) من بين  
 القذافي من شرفة فندق جل-ابيه في ميدان صهيون . كان هناك رذاذ خفيف  
 يتساقط ولكن خطابه كان ملفهنا .

كُتبت صحيفة ( جيروزاليم بوست ) نصف الوقت :

« كان مبشر بيجين يتحدث بحماس وكان كثيرا ما يصيح ويقرن  
 كلماته بكلمات مؤثرة كثيرة من التوراة . وأشار الى بيان  
 الحكومة المؤبد لاجازات التمريض الالمانية باعتباره ذروه  
 سياسات ذلك المجنون الذي أصبح الآن رئيسا للوزراء ، وجسذب  
 وسط القائي خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال :  
 « انني لم اجد الى هنا لاثارتكم ولكن هذه الورقة التي سلمت  
 الى الآن تقول ان البوليس لديه قنابل يدوية تحتوى على غاز  
 مصنوع في ألمانيا - نفس القنابل الذي استخدم لقتل آبنائنا  
 وامهاتنا . اننا على استعداد لجعل اى شيء : حجرات التعذيب ،  
 معسكرات الاعتقال ، التسميم السرية في سبيل عدم اتخاذ اى  
 قرار بالقتل مع الالمن » .

يبدو ان الاشارة الى الغاز الالمانى كان مثالا كلاسيكيا لمقدم اهتمام  
 بيجين بالحقائق ، فبما يكن اصل غاز النجوع فانه ليس مثل غاز ليكون - بى  
 ولكن هذا التلميح انى تماره . وجه بيجين الذى كان يتعلت على بعضه  
 عدة مؤلفات من الجارلات من بينى اكتسبت حيث كان بن جوريون يدافع عن  
 سياسة الحكومة تعذيرا الى رئيس الحكومة :

« عندما وجهت الينا نيران المدفع ، اصدرت امرا : لا !  
 واليوم سامعنا امرا : نعم ! وستكون هذه معركة حياة  
 او موت . . اليوم سيمعن رئيس الوزراء اليهودى انه سيذهب  
 الى المانيا ليحصل على اموال ، انه سيبيع شرف الشعب اليهودى  
 من اجل مكسب مالى جالبا له العار الابدى . . ليس هناك  
 المانيا واحدا لم يشترك في قتل آبنائنا . كل المانى نازى ، كل المانى  
 قاتل ، انهاور قاتل ، كل مسياعديه قطة ، لكن كل تقديراتهم  
 الاموال ، الاجوال ، الاموال انهم سيكفرون من هذا القىء البغيض  
 يدفع ستة ملايين دولار ! » .

... سار بيجين عبر شارع بن يهودا مرندا صحيفة « الحرية او الموت ،  
 لا سبيل للمراجع » ليتحدى بن جوريون في الكتيبت . المبنى الذى يضم وزارة  
 السياحة . وسارت الجياهير وراء بيجين ونشرت صحيفة « جيروزاليم  
 بوست » ان العنف اندلع في الشوارع لمدة ساعتين ؟

إخترقت الجبابرة متاريس البوليس المحسطة بالاسلاك الشباكية وقامت بقلب السيارات الواقفة في الشوارع والقضاء الحجارة على مبنى الكنيست وعلى التوكسين المنوط به خلية النبي . ووصل عدد الجرحى من رجال البوليس إلى اثنين وتسعين وسعة وثلاثين منفيا حتى الصاعمة الصليحة مسلمة . وفي الساعة السابعة والنصف أعيد النظم إلى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش احتلّت مبنى الكنيست وأصبحت القسودرع إمامة مهجورة تماما .

من داخل الكنيست كتب مراسل آخر يهدف المناقشة التي جرت في جو من العنف لم يسبق له مثيل في الحياة البرلمانية الاسرائيلية .

« كانت تخترق قاعة الكنيست صيحات الجماهير لم تكن بعيدة ، أصوات سيارات البوليس المتقطعة وصوت سيارات الاسعاف والانفجارات المتقطعة لتقابل الفجر والسنة الملهب من سيرة جترو ، ثم تحطم زجاج النوافذ نتيجة لمصف الحجارة واخترق دخان التنازل المسيلة للدروع بين الشوارع حيث تجري الحركة خارج القاعة واصيب أحد الأعضاء بجرح في رأسه » .

واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الاضطراب وتسم اجلاء القسم من القاعة التي كانت تتساقط فيه الاحجار والشظايا الزجاجية ، والذي يضم مقاعد الملهب ، والصهيونيين الممومين ومايويل هاميزراحي ، وجلس الأعضاء في أماكن أخرى . ولكن فيما بعد جرت مقاطعة المناقشة ذاتها داخل الكنيست عندما وصف مناجيم بيجين ( حروت ) رئيس الوزراء بأنه سفاح ورفض أن يتراجع عما قاله ورفض كذلك مفادرة منصة الخطابة عندما طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قائلا : اذا لم اتكلم فلن يتكلم أحد وقام نقيب الرئيس بفرض الاجتماع وسط الضجيج .

كان خطاب بيجين ضد التعويضات الألمانية ربما كان سيصبح من أعظم خطبه البرلمانية لو كان في ظروف مختلفة . فعند قراءته بهدوء بعد ثلاثين عاما من الغائه يتضح أنه خطاب عاطفي ، فصيح ، مقنع ، أنه لواء الى الكبرياء اليهودي ونفسه قاسيا لأولئك الذين كانوا على استعداد للمساومة بشأنه . قطعة من المسرح مفعمة بالجزل والشجاعة وان كان مبالغا فيها قليلا . ولكن في النهاية يجري تذكرها تحت ظلال أعمال الشغب ، والاحجار ، والقنابل المسيلة للدروع والزجاج المحطم التي صلبت المناقشة وجنوح بيجين الى لغة غير برلمانية والتبجح المنافي للديمقراطية كان مدركا للمخاطر وخاضها بأعين مفتوحة . بعد سحبه في النهاية لوصفه بن جوربون بالسفاح وأصراره على أنه : « اذا لم اتكلم فلن يتكلم غري » . وانسحق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب ( ليس نتيجة للتهديدات بأننى مناطر من الكنيست بل اننى أنظر

الى طردى من الكنيسة باستخفاف ، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة نفشى  
أويدها لانه ما زال أباهي مهمة أقوم بها هنا وربما تكون الأخيرة ، وسأقوم بها  
الى النهاية ) .

كانت الحجة الاساسية التى دافع بها عن قضيته أن الشعب الالمستى  
بأكمله مذنب فى المسألة برمتها - الملايين الذين صوتوا لصالح النازيين ،  
الذين خدموا فى جيش هتلر ، الجاسطوا الاس . أس والد اس . ا ، دبلوماسي  
اديناور الذين كانوا دبلوماسي رينتروب . « من وجهة النظر اليهودية لا يوجد  
الماتى واحد ليس نازيا وليس هناك الماتى واحد ليس قاتلا وأنتم تريدون الذهاب  
اليهم لتلقى الأموال منهم » . كان ييجين يساوره القلق حول الطريقة التى  
سيقبل بها العالم قبول تعويضات حيث قال :

« ان الالمى سوف ترى حقيقة واحدة : وهى انكم جلستم  
مع قنلة شعبكم واعترفتم انهم قادرون على توقيع اتفاقية ، انهم  
قادرون على المحافظة على اتفاقية ، انهم أمة بين الامم ، ان  
الالمى لا يكرهوننا فقط ولم يقتلوننا ويحرقوننا فقط ، لم يؤذرننا  
وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكون لنا بصلة خاصة شعورا  
بالاحتقار ، وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخر جيل يتعرض  
للمعادية وأول جيل يتحرر من عبوديته - فى الجيل الذى كسبنا  
فيه مركز الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية الى الحرية ،  
تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة ، من أجل  
بضلع فاسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه  
... انكم تجعلون الارض تميد تحت أقدامنا ، انكم تعرضون  
شرفنا واستقلالنا للخطر ، كم سنعرض للاحتقار » .

بعد أن نشد بيجين بن جوربون اجراء استفتاء بدلا من تهدى بما يعتقد  
أنه ارادة غالبية الاسرائيليين أعلن بيجين عن رأيه النهائى الخامس . وقال ان  
هناك اشياء فى الحياة أسوأ من الموت ذاته :

« هذه هى احدى الاشياء التى سنضحي بحياتنا من أجلها ونكون  
مستعدين للموت فى سبيلها ، سنترك عائلاتنا ، سنترك أطفالنا ولا يكون  
هناك مفاوضات مع المانيا . . أعرب ان لديكم قوة ، لديكم سجون ،  
مسكرات اعتقال ، جيش ، قوة بوليس ، جوايس ، مدافع ، بلندق  
آلية ، كل هذا لا يهم . حول هذا الموضوع ستتأثر القوة مثل تناثر  
الزجاج على الصخر ، سنقتل للنهية لأجل قضية العدالة ولا جدوى  
للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات . انها هراء وتفاهة . اننى أحسذ ولكنى  
لا أهدد ، من الذى أهدده ؟ اننى أعرب انكم ستجروننا الى مسكرات  
الإعتقال ، انكم تسجونون المثلث اليوم وربما ستسجونون الالاف ، لا يهم ،



سيدهيون ، سيجلسون ، سنجلس معهم ، وإذا اقتضى الامر فاننا سنقتل معهم ولن يكون هناك تعويضات مع ألمانيا وليساعدنا الله في منع كارثة ستحيق بشعبنا ، ومستقبلنا وشرنا . . .

مها كانت نوايا بيجين ليلة السابع من يناير سنة ١٩٥٢ فان خطبه تحول الى مجرد كلمات خطابية جوفاء حيث وافق الكتيبت على سياسة بن جوريون ازاء التعويضات الألمانية بأغلبية واحصستين صوتا ضد خمسين صوتا بينهم أحد أعضاء حيروت الذي اصيب بازمة قلبية وتم احضاره الى قاعة الكتيبت على نقالة ) . وبعد اسبوعين صوت الكتيبت بأغلبية ستة وخمسين صوتا ضد سبعة واربعين صوتا لتعليق عضوية بيجين للثلاثة اشهر الباقية على دورة الكتيبت كعقوبة على مسئلكه غير البرلماني خلال المناقشة ، وفي شهر مارس عام بيجين بالقاء خطاب امام مظاهرة من ٧٠٠٠٠ من معارضى اتفاقية التعويضات في تل ابيب ولكنه توسل الى مستعبيه بمعن اللجوء الى العنف ( وفقا لما ذكره منتقدوه فانه تلقى نصيحة بان آلاف من سكن الكيبوتزات مفتولي المضلات حضروا الى المدينة لحراسة المبنى العالي والقضاء على اية أعمال شغب ) صاح بيجين قائلا : « مستن بن جوريون ان اله اسرائيل سيقرر من هنا الحبيب »

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع ألمانيا ، تعهدت بون بانداد اسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار في شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وان تدفع ١٠٧ ملايين أخرى الى لجنة تمثل المنظمات اليهودية العالمية . وكان ضمن المعدات الضخمة التي تلقتها اسرائيل إحدى واربعين سفينة تجارية ، واربع نقلات بترول ، وحوض سفن حاتم ومصنع للمصلب وصهر النحاس . ورفض اديناور ، — على الرغم من شكوك بيجين في أنه خدم فترة من الوقت في سجن أحد المعسكرات النازية — تهديدات العرب لاقتصاد ألمانيا الغربية قائلا لهم : « هناك أشياء أكبر يتمين التفكير فيها أكثر من مجرد اتفاقيات سهل لا بأس بها » . اننا نريد ألمانيا مختلفة من ألمانيا خطر » .

لم يستطع منساحيم بيجين توطين نفسه على قبول المانيا الجديدة » هذه وخلال بلتي الخمسينات والستينات ، سنوات المعارضة الطويلة الحبيطة ، لم يترك بيجين أية فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصلها الى اتفاق مع « قتل الشعب اليهودي » ، واستعجب ببال الزيارات بين المدارس الألمانية والمدارس الاسرائيلية ، وندد بعنف ببيع مصادف شبه آليسة من طراز « عوزي » الى بون ، والتي واحدة من خطبه الرنانة « اني اتهم » ضد اقلية علاقات دبلوماسية ( في سنة ١٩٦٥ ) ودعا الى يوم حصاد ثمرى جنديا قدم أول سفير لألمانيا أوراق اعتياده . ولكن لم يكن هناك شهداء ، او زنانات أو معسكرات اعتقال لاولئك

الذين قاموا بالتعويضات وبتفانيهما كما لم يمت بيجين أو رفاقه في الحندق الأخير .

كان ذلك انتصارا حلوا مشوبا بالمرارة لبين جوريون في مبارزة حامية حتى الموت كانت أحيانا بمبارزة نبيلة وهذا الحجرة أصبحت مثل مبارزة ريفانية يشاهدها الاسرايليون . كانت مبارزة شخصية أساسا . كان بين جوريون يأخذ زمام المبادرة بوجه عام أو يخرض بيجين لذلك . رفض رئيس الوزراء في اجسد المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت مشيرا اليه في الكنيست على انه « المفسو الذي يجلس الى جانب د . بادير ويترك قاعة الكنيست عندما يصعد بيجين الى المنصة . وكان يثار لنفسه بتريده صلاة » شبيههانيون « : « لنشكر الرب لانقاذنا احياء ومسبباتنا وجمالنا نعيش هذا الزمن » وذلك في المناسبة التي التي ياتي بين جوريون جالسها في مقعده . وصلت مبارزة التمهيلات الى ذروتها أو ربما الى دركها الاسفل بمنافسة كريمة ومنافسة عن موعدها حول موضوع السفينة التاليتا في يناير ١٩٥٩ . اتهم بين جوريون بيجين بأنه لم يشارك في حرب الاستقلال ، وسخر بيجين من بين جوريون واتهمه بمقاتلة البريطانيين وسط ملاهي باريس وروحه بين جوريون قائلا : « لا تقاطعني ، ليس لديك علي الاقل شيكا أو جستانو . وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء الى اخراج موضوع السفينة التاليتا من الكنيست الى لجنة تحقيق اجاب بين جوريون : « لا يا سيدي لن اذهب الي اي مكان معك خارج الكنيست . انني هنا خاضع للقانون وأنا احترم القانون ويجب ان اولي اهتمامي بك وبكل عضو آخر في الكنيست . هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية . وليس لدى اية نية للاجتماع بك في نفس الغرفة خارج هذا المكان » .

كان بيجين قد ابلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات انه لن يحضر لجنة العلاقات الخارجية في الكنيست اذا كان بين جوريون حاضرا لانه لا يتحمل الجلوس في نفس الحجرة مع رئيس الوزراء « الذي جرح مشاعره عدة مرات خلال العام الماضي » .

وخلال مناقشة موضوع التاليتا اتهم بين جوريون بيجين بالكذب « هذه الكذبة الوحيدة التي قالها هنا كافية بالنسبة لي لمعرفة الحقيقة التي يقسم على قولها . انني لا اظن انه يعتمد الكذب انه ببساطة لم تقدر على التمييز بين الحقيقة والخيال » . ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان اعمق من الكراهية الشخصية ، كان يكن وراء الخلاف اعتقاده ان حيروت مثلها مثل الارجون شكلت خلال أزمة التاليتا تحديا لديمقراطية اسرائيل التي لم تثبت دعائها بعد . وقال « انها نفس الحركة واكتشف مستر ابا اهير طبعها في مقال كتبه بعنوان « من مذكرات فاشيستني » . ولم يتردد بين جوريون

في مقارنة بيجين بهتلر . وهو انطباع عززه بيجين بخوضه الانتخابات العامة في سنة ١٩٥٥ في سيارة كاديلاك مفتوحة وبحراسة مجموعة من شباب الغرياء . وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة في اذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جوريون في . . . . .  
أذا كان بن جوريون البادئ في تبادلها الكف فان بيجين كفت لسه الكلمة الاخيرة . وفي مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القديم اخلافا شديدا مع حزبه حول بدهاء هزيمة خصمه :

... يستثمر هذه الدولة بالراحة ، ويستثمر الامة انها في حال افضل ، ويستثمرى الكراهية والعداء ؛ ويبرز الاحترام المتبادل ، ويستثمرى الجهد ويستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة وليكنها ستكون أمنية وجلبلة ، ويستثمرى التحريف وتزدهر الحقيقة ، وستقل المسافة بين القلوب وستعمق الاحساس بالوحدة ، ويستثمرى النفاق وتبرز الصراحة ، وستوضع نهاية للنفاق البيزنطى ، وستعمود الشجاعة وحرية التفكير ليحتللا مكانهما ، وستقدم الشعب في كل المجالات الاخلاقية ، والسياسية ، والاعنية والاقتصادية . . . . . عندما يتقاعد زعيم المالبى الذين يعمل رئيسا للوزراء وكلما كان هذا قريبا كان ذلك افضل . . . . .

## الفصل الثالث عشر الخروج من القيد

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون أول من يمنح بيجين أول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص ، ففي يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين الى فراشه في تل أبيب حيث كان يعاني من حمى شديدة وأبلغه ان اسرائيل بسبيلها الى مهاجمة مصر . وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه في وقت سابق من نفس اليوم على الخدعة العسكرية 'الانجلو - فرنسية' والتي عرفها العالم فيما بعد بحرب السويس ، والاسرائيليون بحملة سيناء . وكان بن جوريون يريد التاكيد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل . وقام باستقبال جميع زعماء كافة الاحزاب المعارضة ماعدا الشيوعيين في مسكنه بشلح كيرين كايبيت . ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع ثقته ولكن مغزى الاجتماع لم يغيب عن أي منها . وكان بن جوريون بعد كل انتفضات يعلن أنه مستعد لتشكل ائتلاف مع « كافة الاحزاب ماعدا حيروت والشيوعيين » كان أعضاء حيروت مازالوا متبذذين في تولي المنصب العلبة وكان أعضاء مضطرين للنضال من أجل الحصول على ترقيات في الجيش النظامي ، كما ان أبواب النقابات كانت مغلقة في وجوههم . وكلفت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات . كان حزب بيجين يتعرض لتهكم وفقدان الثقة . وكان الناصحيون مازالوا متبذذين الصهيونية كان استدعاء بن جوريون لبيجين ايماءة بالقبول على الرغم من محدوديتها .

أمسك بيجين ، الذي كان ينادي دائما بشن حرب وتائية منذ بداية العلم وتبنى استراتيجية « الفاعلية الايجابية » ردا على تسلل الفدائيين العرب قبل ذلك ، بيد بن جوريون وقال له : « انني أحبي قرارك الشجاع » وأكد له : « انك تستطيع الاعتماد على تأييد » وخلال مناقشة الحرب في الكنيست أثبت زعيم حيروت انه صادق في وعده . ولكن هذا التقارب لم يدم حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون في يناير التالي عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الامريكي وسحب الجيش من سيناء : واتهم بن جوريون قائلا : « ان اسرائيل حصلت على نصر عسكري ولكنها عانت هزيمة سياسية » : تذكر انه بعد هذا الانسحاب فان مؤيدي الحكومة ، أي الاغلبية ليست على حق دائما » . بل ان بيجين كان أكثر قسوة بعد ذلك بشهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة : « جزء محرر من وطننا »

وقال ان رئيس الوزراء سار بنعال خشنة فوق أجساد ممثل الشعب المنتخبين » ويل للاعين التي تقرأ والاذان التي تسمع هذه الكلمات ، • ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبلة بين حرب السويس وحرب الايام الستة ايام استطلاع حيرت ان يدعم صفوقه ليصبح ثاني اكبر الاحزاب بعد حزب الماباى ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهدد هيمنة حزب العمل • وفاز فى سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعدا من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعدا فى سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباى من المقاعد لم ينخفض قط الى اقل من اربعين مقعدا ، الذى كان مع غيره من احزاب العمل - المابام واحدوت وهافودا يضيفان الى ثقل اليسار الديمقراطي •

يرجع التزم من أسلوب وتطلع زعامة بيجين الى بداية الخمسينات ، كان ليجا عقب كل انتخابات تقريبا الى العمل السرى وهو الاسلوب الذى الله عندما كان رئيسا للوزراء ، كان بيجين يهبط الاتصال ويستمتع بخوض الممارك التى كانت تخرج منه افضل واسوا بآفبه ، الرجل الاستمراضى ، والخطيب ، والمشاكس المجر . وكان سعيدا بشعوره بالاضطهاد . كان اتسل فسكر للسبينة التلقيا واقل سخرية من الارجون كليل بآارته ولكنه لم يهب قط تحليل وقوع كارثة . كان يشعر بالملل من الاشياء العادية لانها تخالف طبيعته الرومانسية . وبنهاية الخمسينات اصلب بعض رفاق بيجين التبع من المعارضة الدائنة . كتب احدهم وهو عضو فى « الاسرة المغالطة » من مخفرى الارجون سرا الى بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من ان دعلية التعزب موجهة فقط الى اولئك الذين التزموا بالفعل بتأييد الحزب وليس الى الناخب المتردد • وكتب العضو فى خطابه يقول : ان حيرت معارض للمابام ، ولكن ليس لاجل اى شىء يمكن ان يمنحه الثقة . وأن كثيرا من الناخبين يرفضون بملق رجل واحد ولا داعى لذكر حراسة الدراجة البخارية . وهناك الكثير من « سلطة بيجين » وليس « حيرت » واستحكمت الانتهازية قبضتها ، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومناشدة مبسطة للجماهير بدلا من حملة معلومات موجهة الى الجماهير المفكرة وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية ونمنا لاهواء الزعيم . وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم انكارا جديدة . كذلك فلن المنتقدين امرىوا عن عدم ارتياعهم ازاء السعى لخطب ود الناخب المثمن خاصة منحبيا يستتبع ذلك التفضيحة بالحرية الفردية . وبعد خيبة الامل التى اصابت حيرت فى انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصلت على مقعدين آخرين فقط اذان شابلويل تلهم وهو من اصغر الاعضاء زعامة بيجين ملنا ووصلها بانها زعامة « مفلسة » .

اثبتت تلك السخرية وجود صيحة عامة ضد بيجين الابهر الذى شكل

الخطر المحدق يواجهه ييجين منذ سنة ١٩٤٨، ثورة عارضة بعثت كعباً لو كانت دعوة لاستخدامه خدعة والسماح له بالاستقالة وتاجلته المواجهة لتجيشه اتفاق بين حيروت واللبيراليين، ورثة حركة الصهيونية القومية بن الطيبة المتوسطة لتشكيل تحالف جلال (وهي كلمة مركبة من جوش حيروت - اللبيرالية وكلمة سيروت - اللبيرالي) ولم يكن ذلك مفاجئاً، كاملاً فظل كل حزباً محتفظاً بهويته، وسياساته المنفصلة وتنظيمه، ولكنها كانت خطوة هامة من أجل إيجاد بديل يمين - وسط عريض للعمل - وأدخلت سيروت الى مجال نشاط السياسات الاسرائيلية، ونقلت المحاولات الاولى في بدايه سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرئيل روكاش مدة تل أبيب على ييجين ان يضم حيروت والصهيونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكة، رفض ييجين العرض، ولكن في سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيروت الصهيونيين العموميين في اكتسبت جاء الدور على ييجين. لانقاذ زمام المبادرة التي رفضت هذه المرة لان حيروت كان شديد التطرف بالنسبة لطوائفهم في الحزب المسفير التقدمي الذي انغمس في النهاية لتشكيل الحزب المستقل اللبيرالي بزعامة مؤلفي كول وجيمون هوسنر. فشلت المفاوضات السرية مرة أخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحاً قبل انتخابات سنة ١٩٦٥. وتم التوصل الى الاتفاق في ٢٦ أبريل سنة ١٩٦٥ والذي فتح الطريق أمام حيروت الى اتحاد نقابات المستودات المنتشرة. أكد ييجين لشركائه الجدد، بقيادة يوسف ساير والميلخ رسالت اللبيراليين المخضرمين انهم لن يظلوا في المعارضة طويلاً بعد ذلك، كان الاتحاد زواجا مفيداً وليس القتله عقول. ونجح لان اللبيراليين كانوا مستعدين للقول عند رأي حيروت فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والعسكرية تخلى ييجين لهم عن السيطرة الاقتصادية. ولكن آمال ييجين لحظمت في انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥ حيث فاز جلال بسنة وعشرون مقعداً أقل بمقدار واحد قبل انفصال حيروت واللبيراليين. بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعداً بزيادة أربعة مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من ميوب بن جوريون الذي فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد. وبعد تسعة عشر عاماً كان شباب حيروت قد تصل الكثير. انضم الى شامول تاهير وهو محام طموح في تل أبيب وضابط مخبرات سابق في الأريجون، في صrede ضد زعامة ييجين، اليخيزر هوسشتاك وإفراهام تاهير من اتحاد العمل الوطني المنقسم اليميني القليل العدد ولكن المنظم تنظيمياً جيداً، والمستودات. وكان يوهان يادير قد خسر ييجين من ترقية تاهير بسرعة كبيرة ولكن أجابه بأنه «لديه ثمة غير مخذوبة» التي شومستاك بالفكر خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيروت بعد أسبوعين من الانتخابات. وتدل ان الخلاف بينهما يعود الى أيام انشاء الدولة في سنة ١٩٤٨ :

« بوصول بيجين إلى استنتاج أن مسيرة حركة التمرد حتى إنشاء الدولة لم تؤد إلى تولي الحكم ، ولكن هذا الطريق سيؤد حيرت إلى الساطة ، وطالب بمتحة الثقة » - « أعطوني الفرصة وسأثبت لكم أن الحركة ستنتج بطريقتي » - هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة . وتم شوق المنتسبين كثيرة لم يكن يفهمها الاعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت أنه على صواب .

واجه بيجين التحدي وجها لوجه . وقال : « منذ دورة الكتيبت الثالثة والرابعة كانت هناك لشاعيت . وهيسات وساقوم أنا هذه المرة بإدارة الموضوع » - - منحت اللجنة المركزية الزعيم اقترابا بالثقة بأفليبية سلطنة : تسعة وعشرين صوتا في مقابل خمسة مع امتناع اهد عشر عضوا من التصويت . ولكن كان يجرى الاعداد للمؤثر القوي القاسممع الحيرت في قرية مكابيا فخرج بل وبيجين حتى نهاية يونيو ١٩٣٩ .

نظمت المعسكرات المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة كنا كان يفعل الثامرون القدامى في العمل السرى . ولم تنصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة ، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة ، تدبت قوائم منافسة الى المندوبين البالغ عددهم ستبائة . وعازمت المعارضة بنسبة أكثر من اثنين الى واحد من مجموع الحاضرين والمقترعين ( ٢٥٣ : ١٣١ ) مما دعا يهود اولورت أحد زعماء حيرت في الجامعة العبرية لان يقول بنون تكبر ان الامبراطور لا يرتدى ملابس . قال : « حتى الان قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة لنظام الحاكم ولكنه لم ينجح في قيادتها الى تولي الحكم وعليه ان يقبل النتائج ويستقيل مع كل قيادة الحركة » - إنعجر الميقيب في القامة عنيا بدأ المندوبون الموالون لبيجين في الترويج بقضائهم والمناداة بسقوط الشاب المفسور . سارخ بيجين ، الذي ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدي التي البقاع من اولمرت وقال انه اذا لم يسمحوا له بالاستمرار في الحديث فانه سيفادر المؤثر . وقال إنه يشعر بالفخر لوجود مثل اولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الآراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات . واصل اولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيرت القدامى وعضو الكتيبت عن الليكود فيها بعد انتقاد المنورة الاخلاقية للحركة ، وامتنازها الى التيقراقلية الداخلية ويجوزيغ بطاقات العضوية بالقبلة ، وعنيا تلجا القيادة الى الهجوم ، فلما تستخدم الهجوم ضد هدف خفيش وهو شمول تامير وحلفائه من ائساد العمل الوطني .

في اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين التليز المعارض له بأن تسحب استقلته من زعامة الحزب وعرض التخلي عن مقعده في الكتيبة . ولكن هذا العرض رفضه على الفور المندوبون الذين اسلمتهم الدهشة بالافسة وكتب صحيفة ( جروساليم پوست ) تصفا ما حدث : « ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره . وكان قد قال أمام اللجنة المركزية في وقت سابق من اليوم نفسه : « عندما تفوز في الانتخابات فائنا نصبح جميعا منتصرين » ولكن عندما نخسر فائنا المولوم » . ونهم الموالون القدامى الطميح وضغط بآذير على المندوبين لاعادة انتداب بيجين على الفور وحث رئيس المؤتمر افرهام شستريمان بيجين على العدول من استقلته : « انه ليس شخصا خاصا انه ينتهي الى الحركة وجزء من تاريخ الامة » . عاد بيجين الى المنصة « لتمثيل بيته السابق » و « واصل » على البقاء كعضو في اللجنة التنفيذية للحزب . واستعملت القيادة سيطرتها وفازت فائتها الرسمية للمراكز الاساسية في اللجنة بزيادة اربع اصوات ( ٢٥٢ - ٢٤٩ ) خلال اقتراع سري في الساعة الثالثة صباحا ولكن لم ينته التردد . واثار تأثير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال الماضي ورجال المستقبل ، سيسيو الشتات وسياسيو الصابرا التواقون للسلطة : « باعتباري رجلا حرا مولودا في هذه البلاد ، وباعتباري مرؤوسك في الارجون زفاي ليومي ، احي الان وامارضكم في انعلن ، واعلن انني لا اعرض الايدلوجية بل الاساليب » ولدهشة بيجين والمندوبين اخرجت المعارضة اربعا من القبة اذ سعد ايهاى باجلين رئيس مجلس الارجون السابق الذي لم يتم باى دور في السياسة منذ سنة ١٩٤٨ الى المنصة وبدأ في صلب احتفاره على القيادة .

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بعد خطاب منعم بالثامر الجياشة القاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات :

« هناك حد لما يمكن ان تتحمله الشخصية العامة . هناك حد للمقصود العامة من رجل ما . انهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العامة ولم اتقاعد ، ليس لاني مكروه او انني محبوب . ولكن ما هو الخطا الذي ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتي ؟ ما الخطا الذي ارتكبته ضد مستر بن جوريون حتى يكن لى كل هذه الكراهية ؟ هل كان ذلك لاني انا واصدقائي حاربنا من اجل الدولة التي اصبح بن جوريون اول رئيس لوزرائها بموافقتي ؟

صلى بيجين بعض حسيلته مع الصحافة ثم بدأ في توجيه اللوم الى المعارضة الداخلية : « شوستاك وتلير وتلير : كتوا يعملون من وراء ظهري شكلوا ائتلافا غيبا بينهم ولم يبلغوني . كان مستر تلير يعترف انني كنت انوى الاستقالة وتركوني مثل رجل اعمى اتخبط في الظلام . هل كان يظنون انني رئيس وزراء مونلكو لاکراهي على الوزارة دون علمي ؟ » .



كتب ملك سيجال وهو مراسل سويسا اسرائيلي غير معروف عنه تعاملته مع زعيم حيروت تمليقا جاء فيه :

« كل الخطاب تجرية مؤلمة بسبب الاعتراف بالتمعرض للادى الشخصي المبقي . واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مائدة الصحافة والذين تحدثت معهم بعد ذلك انهم شعروا بالخرج الى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع الى هذا الاعتراف المصم من الذي يقف على المنصة في حالة هياج شديد ، بينما تجلس حولنا النساء البلكيات . شعرنا اننا نشهود تحطيم شخصية علبة » .

ولكن لم تكن مائدة الصحافة هي شرفة المسرح التي كان بيجين يلعب دوره املها ويوجه لها اهتماله . وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة : « دوت القاعة بتصفيق مدوي بينما كان الرجل الشاحب احمر العينين يتسلل تاركا المنصة » كان بيجين حريصا على ان تقتصر استقلاته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حيروت . لسم يتم انتخاب خليفة آخر في قرية ماكليسا ، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية . حل بادير مؤقتا محل بيجين كرئيس لمجموعة الكنيست ويكوف ميريدور كرئيس للحزب بدلا منه .

نجح بادير المخادع في استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية الحرس القديم في اللجنة المركزية . ووافق باعتباره رئيسا للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة مكثفة في اللجنة المركزية بشرط ان يخدم بها كل اعضاء الكنيست من حيروت أيضا . فلم كل جانب بتعيين سنة واربعين عضوا في اللجنة ولكن كان للوالين أغلبية اثني عشر في مقابل ثلاثة بين اعضاء الكنيست . وقال بادير : « اننى أفضل ان أبقي في التيه السيسى مع مناحم بيجين بدلا من الجلوس في الوزارة مع شامويل تلير . وفي نوفمبر ايتالى عندما واصل حيروت طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء . وواصل تلير ، وشوستاك ، والشاب اليهودى المرت شق طريقهم بعد نضيحة حول خطب مزور معادى لبيجين ارسل الى صحيفة ( هالترس ) ولكنهم عادوا مرة أخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا في مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات .

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التي ثارت خلال صراع الزميلة في حيروت لم يصب جاحال باى اذى . كان الليبراليون لا يحزرون اى تقدم وينظرون في الاتجاه الآخر . ولكن تأمرت الاحداث لتجمعهم معمناحم بيجين في حكومة واحدة اسرع مما كان يتخيل اى منهم . فعفى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت اسرائيل تحتل

بالذكوري التاسعة عشر للاستقلال قام الرئيس المصري جمال عبد الناصر  
بإرسال دبلوماساته إلى سيناء عبر قناة السويس مثيراً أزمة أثقت تبدو عند  
تذكرها في غير موضعها بدرجة غير معقولة ، كان المرب يتحرقون للحرب ،  
وكان الاسرائيليون يشعرون بأنهم معززون للهجوم ، وللمرة الأولى  
خلال التاريخ المحتجز للدولة اليهودية اعتقدوا الفقة في تحدة زملائهم على  
مواجهة مثل هذا التحدي : كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسية  
وذبح إلى كيبوتز سيدح بوكري في صحراء النقب وكان خليفته ليفي اشكول  
مشتغوراً بعمله فعم الخضم ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية  
عسكرية على الرغم من عهاته كسياسي في الحزب وكان مثله مثل بن جوريون  
يشغل منصب وزير الدفاع ، وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديراً  
بالقيام بالهمة

تم التشاور مع بيجين وإبلاغه عن تطورات الأزمة باعتباره زعيماً لكتلة  
المعارضة ، كان بيجين مدركاً تماماً لحالة الفراغ في قمة السلطة والقلق  
المتزايد في البلاد ، كان تفكيره الأول إعادة بن جوريون إلى الحكم على  
الرغم من قدامتها الطويل والمبادل ، كان بيجين يحترم بن جوريون ، وإن  
كان يضمن عليه بهذا الاحترام باعتباره الرجل الذي قاد اليهود إلى  
الاستقلال بعد ألفي سنة من النفي ، وكان يفضل وجود علاقة مختلفة  
معه ، كان بن جوريون كما يراه بيجين نسوق كل شيء سياسياً للسطا ،  
رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة كان الشيء الذي لا يعرفه  
في ربيع سنة ١٩٦٧ هو أن بن جوريون الذي بلغ الثمانين من عمره لم يعد  
الأسد القديم الذي يوثق به ، وكان الجنرال اسحق رابين قائد الأركان  
الذي كان يشكو من أنه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكري والسياسي  
كذلك ، قد توجه إلى بن جوريون ليحصل منه على تأييد محفوف ولكنه  
أصيب بغيبوبة الأمل ويكذب يقول بعد ذلك بسفوات :

« كان مؤلماً رؤيته في جلسته الراحنة ، بعيد كلية عن أية مصادرة  
للمعلومات والأسوأ أنه يتبسم بقوة بفهمهم قديمة وأخطأ في  
تقييمه لقوة قوات الدفاع الاسرائيلي ، كان مقتنعا أن اسرائيل  
في موقف سياسي غير محتمل وبشكل في أن تستطيع تخليص نفسها  
من الشطر ببدء حرب مع مصر » .

استطلع بيجين آراء زعماء الأحزاب المعارضة الأخرى ومن بينهم شيمون  
بيريز السكرتير العام الحزب بن جوريون رافى الذي انفصل عن العمل  
في سنة ١٩٦٥ ، وشعن بالرغبة لانهم يشاركونه تشخيصه ووافقون على  
وصفه للعلاج ، وفي ٢٤ مايو وهو اليوم الذي جعل بعده ثامن الحزب  
أمرأته بإغلاقه مضائق تيران في هريان الحياة لبناء ايلات الاسرائيلي

على البحر الأحمر - اقترح بيجين مرا على اشكول دعوة بن جوريون لرئاسة حكومة وحدة وطنية . وكان رد اشكول الذي لم يكن خللانه مع بن جوريون اقل حدة من خلاف بيجين معه : « إن العربية الواحدة لا يمكن ان يجزئها حصصان » . وعلى الرغم من ان بيجين كان متأثرا بالرد انهائى لاشكول فانه قبل دعوة للانضمام الى زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى لمقد اجتماع خاص في منزل بن جوريون في تل ابيب ولكنه شعر بنفس الفزع الذي شعر اسحق رابين ، كان الرجل العجوز يزال يحارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل ورفض قيام اسرائيل بفترة وثائية بوصفها بانها مغامرة خطيرة . وحث الحكومة على طلب مساعدة الدول الكبرى . تخلى بيجين عن فكرة تعبئة بن جوريون للعمل وأبلغ رئيس الوزراء ان جاحل مستعد للانضمام الى ائتلاف شامل بشرط ان يشغل موسى ديان وهو عضو بالكنيست عن رافى منصب وزير الدفاع بدلا من اشكول وقال انه « الرجل المناسب في المكان المناسب » .

كان الثأر يتجه بالفعل الى ديان الذي كان رئيسا للراكان خلال حرب السويس ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمنع في نسيان الماضي . ومع ذلك فقد أمر بيجين ان جاحل ان يشترك في الحكومة بدون رافى ، ووفقا لما ذكره « يهييل كاديشاي » سكرتيره السياسي - فان بيجين كان اقل اهتماما بسبعة ديان الحزبية من اهتمامه بثمان اكير قدر ممكن من الوحدة . وفي النهاية اذعن اشكول لمطالبة الراى العام وليبيجين .

وفي أول يونيو ١٩٦٧ عاد منحيم بيجين الى الإغواء وانضم الى حكومة اسرائيل ورثة جابوتنسكى : الارهابيون المحترقون من جماعة الارجون زغاي ليوى . احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا اظلم ثلاثة من رفاته ياكوف ، ميريدور ، وايزخ بن اليعازر ويوهانن بادير للذهاب معه الى مكتب رئيس الوزراء حيث ماتهم ثم انصرف . وفي صباح اليوم التالي ، وهو في طريقه الى الكنيسة في القدس وقف بيجين للحظة الى جانب قبر معلمه ، وكانت حكومة اشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات باحضار رفات جابوتنسكى بطريقة ملائمة واعادت دفنها على جبل هيرزل جنبا الى جنب مع زعماء صهيون . وذكر موسى ديان انه بعد ان قام رئيس الوزراء بالتهريب بالوزراء الجدد في أول اجتماع لهم مع الوزارة ، رد بيجين بخطاب قصير مغمم بالمواطف جافل بهكمه . من التوراة أخذ اشكول الذي كان يتمتع بروح الدملبة يؤكد بها بقوله : « آمين ، آمين » .

## الفصل الرابع عشر

### التدوين على الحكم

في هذه الحرب لم يجد منلحيم ببجين نفسه مضطرا لانتظار دعوة وباعتباره وزيرا في الوزارة وان كان لم يتقلد منصبه بعد ان انضم الى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المفصولين في مكتب رئيس الوزراء في تل أبيب في صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . وكان أول من سمع بالغارة الجوية المنسقة التي باغثت القوات الجوية المصرية أثناء تناول الاططار وكلمت لاسرائيل السيطرة الجاسية على سبله المعركة . فمنذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميراج الفرنسية الصنع التي كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيدا عن مجال الرادار في تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا . وعند حلول موعد الغداء حدث نفس الشيء بالنسبة للقوات الجوية الاردنية والسورية ، كانت سعادة ببجين بهذا الانتصار والاثارة التي أحسن بها لكونه واحدا من الدائرة الداخلية التي سمح لها بالاطلاع على السر تتسم بالطفولية . كان ينفجر فرحا بالانباء التي حبيبت عن الصحافة وعن العدو ، وعانق حليم لاشكوف قائد الركان المساق وهو ضابط قديم عمل في الجيش البريطاني وفي حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ واخبره بها حدث . وخلال توجهه الى القدس في وقت لاحق من نفس اليوم أخذ يلوح بعلم امام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعدا وكانت رئيسة الوزراء المستقبلية عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضوا في الوزارة وفي الكنيست بحث ببجين عن بن جوريون خوفا من أن يكونوا كد نسوا بلاغ الرجل العجوز .

بينما كان ببجين مازال خارج حجرة ليلى أشكول فقد تحالفا غير رسمي مع مكينة القديم من البالماخ ايجال آلون الذي أصبح الان وزيرا للعمل ، وأدرج كلاهما الاحتمالات المتلحة نتيجة النصر الاسرائيلي الاولى وكان أشكول قد بحث برسالة الى الملك حسين ملك الاردن عن طريق الامم المتحدة يحثه فيها على ابعاد الاردن عن الحرب . فاذا وافق فان اسرائيل تتمتع بعدد مهم مهاجمة المملكة الهاشمية . كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول في حرب على ثلاث جبهات اضافة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية . لم يعارض ببجين أو آلون قرار ارسال البرقية الى عمان ولكن بمجرد أن اتضح في صباح يوم الاثنين أن حسين تجاهل البرقية بدعا في الضغط

على رئيس الوزراء بإعطاء أولوية لاعادة توحيد العاصمة المقدسة . قال له ألون بنغزة مسخرة « بيجين وأنا نريد القدس . فلنجلبه اشكول باللغة العبرية القديمة : « ليست هذه فكرة سيئة » .

وعندما وصل بيجين الى القدس لحضور جلسة خاصة في مبنى الكنيست الجديد الذى بنى على ارض مختصة في أعلى منطقة في جيئف رام والذى تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحم ، أدرك بيجين ان حليه في طريقه الى التحقيق ربما أسرع مما كان يتوقع . وعندما عرف ان اشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره السياسى التوقف عند مدخل الاعضاء وطلب منه ابلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء . احاط بيجين باشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل انعقاد الكنيست . وافق اشكول واجتمع الوزراء في حجرة الوزارة بالطابق الثانى ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم الى مخبأ سرى ضيق تسوده الفوضى . كانت قنابل الموترز تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة خطيرة وانفجرت احدىها بين الاعشاب في الخارج . صوت الاجتماع بالإجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة اذاعة ال . ب . بى سى وينتظر الطبعات الاولى من المصحف الصلحية . كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالقبائل الاسرائيلية . وسيطر جنود المشاة على جبل سكوس وجبل الزيتون ، المرتفعت الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استبح ببجين في الاذاعة أن الامم المتحدة تستعد لاصدار أمر بوقف اطلاق النار على كافة الجبهات .

طاردت بيجين ذكرى سنة ١٩٤٨ عندما اصيبت عصابات الهاجاناه الارجون وشتمين . بالاحباط نتيجة وقف اطلاق النار الذى حال بينهم وبين القيام بمحاولة أخرى لاستعادة القسم اليهودى القديم من ايدى البلق العربى بقيادة الملك عبد الله . تناولت اول صحيفة تصل الى عتبة بيته وهى صحيفة الميما اليسارية « عال همشار » تفاصيل أخرى من القصة ، كان قرار وقف اطلاق النار وشيكا في الساعة الرابعة صباحا . ايقظ بيجين اشكول واقترح ان يصغروا أوامر الى الجيش بدخول المدينة القديمة قبل فوات الأوان . طلب رئيس الوزراء من بيجين محادثة مؤشى ديان - تليفونيا . قال بيجين لوزير الدفاع : « على الرغم من اننا اتفقتنا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة الا ان قرار مجلس الأمن يخر كل شيء . ولا يمكننا الانتظار بعد ذلك وافق ديان الذى كان حتى حينذاك يتزعم الدعوة الى استراتيجية أكثر حذرا . وتحدث ببجين بناء على اقتراحه الى رئيس الوزراء مرة أخرى وطلب منه القيام بعمل فورى . اتفق معه اشكول في الرأى واستشار زملاءه وأصدر أوامره الى الكولونيل مورد خاى جور ولواء مظلته

باحتلال الجواث الممرة الأولى منذ قيام السلطان التركي سليمان الاعظم  
ببنائها في سنة ١٥٤٠ م. وفي الساعة ١٥ ر.أ. من صباح يوم الاربعاء ٧  
يونيو وبعد قتال عنيف في الازقة الضيقة المؤدية الى بوابة سانت ستيفانس ،  
كانت نجة داود تخفق فوق الهيكل وكلفت حفنة من جنود المظلات الذين  
يغطيهم قبان المعركة والعرق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربي . لم  
يشر تظليذ وقف انطلاق النار لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى مما أتاح لاسرائيل  
استكمال فزوها للمضفة الغربية لنهر الأردن وشبه جزيرة سيناء ، وحصل على  
أرضهم . هنا يكتمل ذلك من المضايق المستقرة اليهودية بسلامة سوريا . فسان  
اسرائيل وأعلنت هجوها لتبطل على ترسانة الجولان السورية في اليومين  
الخامس والستين .

١٠ . ثم تكثفت ثلاثة أسابيع في ٢٧ يونيو حتى قامت اسرائيل بتطبيق  
قوانينها على القدس الشرقية . وكان ذلك يقرب بالنسبة لكافة المحلسمين  
المشرعيين . بما عدا المضحدين منهم من الضم الفعلي . وهكذا تحسنى  
علم يميني المثالي في تينس موحدة تحت السيادة اليهودية ، وتم اتخاذ خطوة  
حاسمة حتى ضمن الاعداد تقسيمها مرة أخرى اذا منيت اسرائيل بهزيمة في  
حرب . . حتى معظم الاسرائيليين من العربيين انقلبهم اصغر . بأن شسينا  
اشبه بالمعزة قد حدث . كان خلطاً من التحرر من شيء كان يمثل خطراً  
شديداً والدخلة من تطعيم الحواجز المادية والنفسية التي تسمت المدينة  
القدسة . انتفع عشرات من الاسرائيليين الى الحائط الغربي للبحر بسفون  
نظام ليل نهار : ومساواة كانت مبادرة يميني التي اقترحتها عند الفجر هي  
السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة أم لا فانه كان راضيا على انه  
تسلم بدوره .

١١ . تشارك حيرت في الاجماع القوي حول القدس . فلم يناد أي تنظيم  
بوحدة القسم الشرقي من المدينة الى الحكم العربي ولكن بالنسبة ليهبموجودا  
والسامرة في الضفة الغربية التي احتلتها اسرائيل مؤثرا كان يميني يتحدث  
باسم الإلته . لم يكن يتخيل الكثيرون انه بعد حقبتي من الزمن فان اسرائيل  
ستسيطر على كل فلسطين . غرب النهر ، تحدث زعماء العمل عن انتظار  
مكالمة تليفونية من جيان . وأعلن مورديا بينتوف وزير الاسسكان ان  
« الاراضي محفوظة في امان حتى يكون الملك حسين مستعدا لاستعادتها » لم  
يكن الحزب الديني القومي قد تطرف بعد واطن زعيمه حليم موشى شابيرو  
امام مؤتمر الحزب في سنة ١٩٦٨ ان القوصل الى تسوية بفسان الاراضي  
امر أساسي . ولكن يميني كان معصبا منذ البداية لبذل المستحيل للحلولة  
دون إعادة تقسيم « أرض اسرائيل » . لم يعترض عندما قوت الحكومة  
ارسالي من يقوم بتسليم نفوس الاردنيين ولكن ابا ايان الذي كان يشغل وقتذاك  
منصب وزير الخارجية أعرب عن شكه في انه اذا استجاب حسين فان يميني  
سيستقبل .

قال: «لأهلنا الذين لا يأتوني أتذكر كيف ضحك بيجين في سره عندما سمع عبارة «الرفض التام» في رد الملك حسين». وفي شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايهان فوارها فيتج على صياغة خطاب شجع الطريق أمام التوصل إلى حل وسط بين جيتوري إسرائيل والقوية القديس ومسالمة المحتل من الدولة. ونص الخطاب على: «إن إسرائيل لا تطالب بالسيطرة على القدس من جانب واحد أو بالسلطة المنفردة في الأماكن المقدسة للمسيحية والإسلام». وسكنون إسرائيل «في أية صهيونية سليمة» مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ. ولكن هذا الإعلان لم يتضمن عرضاً للتوصل إلى حل حول للسيادة الإسرائيلية. كل إيهان يأمل أن يخلق هذا احتلالاً بالتوصل إلى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الأقصى وقبة الصخرة. وفي الأماكن الإسلامية المقدسة في الهيكل إذا بما تم التفاوض من أجل شوية سياسية مع الأردن كان بيجين مستعداً للقيام بذلك المخاطرة.

بعد انتهاء الحرب كرس بيجين كل جراحه العظيمة في تأكيد أن إسرائيل تقبل قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بأكثر الألفاظ بعداً من الالتزام بشيء. وكان هذا القرار الذي صاغته بريطانيا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ كالتنفيذ للاتفاق حول إقامة لإجزاء فافواشت بين إسرائيل والمغرب للتوصل إلى حل شامل. يؤكد «عندئذ السباح بالاستيلاء على الأراضي عن طريق الحزب الذي يفتخر من بين أهلياته أخرى» إلى انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من الأراضي محل النزاع الأخير. «كان اعتراض بيجين الأول هو: من سيعمل استخدام القوة الإسرائيلية الحكمة» «الانسحاب» وكان يتباهى بعد فلسفة أن خيروت نجح في تحقيق هذا بعد عامين ونصف.

تم تقديم اقتراح إلى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة «انسحاب» ورفضت الوزارة خلال إحدى الجلسات قرر ليلى إشكول هذا. تم تقديم اقتراح إلينا لاستخدام كلمة «انسحاب» وكنت ضد استخدامها. اقترحنا كلمة «انتشار» القوات. سأل أحد زملائي رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات أجاب بطريقة مميزة: «إذا قلنا أنسحاب فمعنى ذلك نكون ملتزمين به وإذا قلنا انتشار القوات فإن إيهان سيفسرها بالطريقة التي يراها صواباً وسيفسرها بيجين بالطريقة التي يراها صواباً».

أعلن بيجين بعدئذ كثر من التفاصيل القاتلة أن كلمة «انتشار» ليست ملائمة لمعاهدة سلام. لأن انتشار تعني دائماً تنشيط القوات للقيام بهموم. واستقر رأي الحكومة في النهاية على: «يكون تنظيم القوات بالتوافق الكلي مع الحدود الدائمة التي تتحدد في معاهدات السلام».

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين « الانسحاب » و « التنظيم » طائفا .  
كان حريصا على عدم استخدام لفظ « اعادة » فلم تذكر حكومة اسرائيل كلمة  
« اعادة انتشار » او « اعادة تنظيم » فلم تكن تلزم نفسها بالانسحاب وشرح  
بيجين الفرق قائلا ان « الانسحاب يعنى التحرك الى الخلف وفي كلمة تنظيم  
ليس هناك حركة . ان ذلك مستقره الحدود كما تتحدد في معاهدة سلام » .

قال ايبان وهو واحد من أكثر الوزراء مرونة في مجال سرده لذكرياته :  
لم يكن سهلا بالنسبة لى صياغة مقترحات معتدلة في وزارة تتكون من كلمة  
الاحزاب بما فيهم جاحال الذي يعتقد ممثلوه انه يمكن التوصل الى معاهدات  
سلام دون التضحية بأى اراض على الاطلاق . ومع ذلك فان بيجين لم  
يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الاسرائيلية . يقول ايبان ان « اشكول  
كان يمنحى سراوبهدهو تأييده للصيغ التي لم تكن تلقى ترحيب بيجين  
وزملائه » . ومع فان جاحال توقف في مرحلة حرجة قبل أن يوضع  
الاحتلال في تلأله .

استكمل اشكول جاحال في حكومة الوحدة الوطنية — برئاسة اشكول  
حتى وفاته بنبوة تقليدية في فبراير سنة ١٩٦٦ وبرئاسة جولدا مائير حتى  
أغسطس سنة ١٩٧٠ — انتقل مناهج بيجين الى مرتبة يصعب فيها جديرا  
بالاحترام . كان من الصعب ارضاؤه خلال حضور جلسات الكنيست  
 واجتماعات الوزراء كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعملية بل انه  
هانن بن جوريون ألهم . وقد تصادف أن تقبلا في أحد الأيام في مطعم  
الريجنس في فندق الملك داود ودعا بن جوريون بيجين للانضمام اليه في تناول  
الفداء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك :

« كانت زوجتى بولا لسبب ما معجبة بك لقد عارضت  
طريقتك بقوة أحيانا . قبل وبعد قيام الدولة . كما لو كنت  
ساعارض طريقة جايتونيسكى . عارضت بشدة عددا من أعمالك  
وأرائك بعد إقامة الدولة . ولست نادما على معارضتى لاننى كنت  
مصيبا في رأيى ولكننى لا أحمل لك أية ضغينة شخصية وكلها  
عرفتك أفضل خلال السنوات الاخيرة يزداد تقديرى لك وتشاركنى  
زوجتى بولا فى هذا .

ابتهج بيجين بالاطراء بالرغم من انه ربما كان يفتقر الى الصياغة البارعة  
وسر بنفسى القدر لان اشكول كان رئيسا للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع أو  
ما كانت تؤهله له سمعته . وشهد فيما بعد ان اشكول أثبت انه رجل يستطيع  
اتخاذ قرارات :



« رايته يعمل في أوقات صعبة ، وأكرر انه كان البادئ أو الشريك  
أو العامل الحاسم في اتخاذ قرارات حاسمة تلك التي كانت أقرب  
القرارات الى نفسي - القرارات المتعلقة بالقدس ، ومرتفعات  
الجلولان ، والمتعلقة بتوحيد القدس وأعرف مدى تأثيره في اتخاذ  
تلك القرارات »

كان زعيم حيروت وزيرا بين وزراء آخرين ، فلم يكن يتمتع بعلاقة متميزة  
مع أشكول ، ولكن تم قبوله وفقا لنفس الشروط . ويقول ياكوف شمشون  
شابيرو وزير العدل وأحد المخضرمين في الماباي : « كان أسلوب أشكول معاملة  
الوزراء على قدم المساواة كان يميل الى قبول الجانب الآخر من العملة وليس  
كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذي كان يعتبر نفسه ينوع الحكمة  
كلها » . بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء في اول الامر تهديدا بانتهاء  
شهر العسل . وكانت رئيسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل ائتلاف  
من كافة الاحزاب عشية حرب يونيو . وكانت أكثر اهتماما بإبعاد موشي  
ديان الذي لم تستطع ان تغفر له تركه الحزب مع بن جوريون أكثر من إبعاده  
بيجين ولكنها كانت امرأة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخي وتحيزات  
الماباي . . وكانت مسز مائير من الشخصيات التي اذا كرهت أحد فسان  
كراهيتها تكون شديدة وظل مناحيم بيجين لفترة طويلة هدفا لكراهيتها .  
ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتكيف . وكانت مثل أشكول تقدر أهمية  
حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل . كانت مصممة على نجاحها  
وإذا كان ذلك يعنى التمايش مع بيجين فليكن ذلك . ولدهشة المجتمع السياسي  
تعاون الاثنان بسهولة بل برد في الوقت الذي استمر فيه الائتلاف . وعلى  
الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض اسرائيل إلا انها  
كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين . وكانت فخورة مثله  
بيهوديتها .

عمل بيجين الذي كانت له نقطة ضعفه كمدني تجاه الأبطال العسكريين  
على توليد علاقته في هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلا بينهما مما أدى  
في نهاية الامر الى تجنب الخارج عن حزب العمل لخدم في حكومة يشكلها  
حيروت . كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين . فديان من جيل ولد في  
اسرائيل ويعرف الحرب كبشر وليس كأعداء مجهولين كان يعرف الأرض  
بطولها وعرضها بكل حواسه . كان بيجين يشعر كما لو كان في بيته في  
القدس ، في تل أبيب وفي أحلامه المتعلقة بالثورة ولكن داخل الوزارة  
أصبحت نواة ما أطلق عليه أحد المعلقين الاسرائيليين : « ائتلاف مستقر  
تخطى الحدود الحزبية . اشتركا معا في معارضة الموافقة على مشروع  
ألون الذي وضع تمييزا بين السيادة والامن ، ويصور انسحابا اسرائيليا من

الأكبر، الإنسانية للشكل العزيب عند التوصل الي اتفاق مع الاردن ، توصل  
 بيجين وديان الى مؤلف مشترك تابع من منطلقات مختلفة : كانوا متشابهين في  
 ايمانهم بالروحانيات كان بيجين يؤمن بالحق الالهي لليهود في ارض فلسطين  
 كلها . وكان ديان يركز تجولاته في الصبا ، وقضاء الليالي تحت ضوء  
 النجوم ويرفض أى حل يمكن أن يحرم يهود آخرين من نفس العلاقة  
 الحميمة . كان الضم يثير استفزازا غير ضرورى ، ولكن يجب ان تكون  
 هناك حدود لا يمكن الاضرار بها .

كانت الثلاث سنوات التي قضاها بيجين للتدريب على الحكم من سنة  
 ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٠ سنوات مشيرة ولكنها اصابتها بالايجاب دائما ، فلم  
 توكل اليه مسئوليات عندما كان وزيرا بلا وزارة ، فالوزراء الاداريون  
 غيرون بطيئتهم من هم املي منهم ، حريصون على الا يتركوا فراغا  
 لشريهم . وبدا بيجين دائما كما لو كان يخلق لنفسه عملا ، فكان يشكل  
 لجانا فرعية جديدة ، ويستقبل الصحفيين ، ويرد على منتقدي الحكومة .  
 كذلك فان فرصة البرلمانية كانت محدودة وكان ذلك يكدره وهو احد النجوم  
 الاوائل للكنيست . فنادر ما كان الاعضاء في المقاعد الخلفية يناقشون  
 الوزراء بدون وزارة ، كما ان مخيري الحزب لم يعطوا للاعداء القنصاي  
 فرصة التلقا خلفه انهم ربما يعودون الى صفوف المعارضة في اية لحظة ،  
 وعندما وقع الانشقاق في النهاية شعر ايلين من جانبه ان بيجين « تخلى عن  
 مائتة الوزراء في مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح » .

عندما خلفت مسز مئير اشكول في رئاسة الوزارة لم يكن استمرار  
 عضوية جاحل في الائتلاف اتوماتيكيا بآية حل . كان بيجين وزملاؤه يشعرون  
 بعدم الارتياح ازاء الاتجاه نحو التوصل لتسوية فيما يتعلق بالاراضى بين  
 اقلية الوزارة وحساسيتهم المتزايدة من خطر ان ينجح اللوبي الاسرائيلي  
 الاكبر في اخراجهم من اليمين ، ولكنهم فرضوا الموضوع على السياسة  
 الداخلية وان لم يكن على المباشرة الخارجية ففي الوقت الذي ازدادت فيه  
 الروح القتالية بين العمال الاسرائيليين طالب بيجين بتشريع يقضى بحصول  
 التحكم اجباريا في الصناعات الاساسية والخدمات ، وعندما رفض حـزب  
 العمل بمقتضاه المعدة في الحركة القبطية والزامه بحق الاضراب ، أعلن  
 بيجين عن استعداده للرجوع الى مقاعد المعارضة ولكن الذي اثنعه بالمدول  
 عن موقفه هو تنجر موضوع ارض اسرائيل وهو لمس الموضوع الذي ادى  
 في النهاية الى خروج جاحل من الحكم . وفي شهر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جوتلر  
 ياربح مهمة الامن المتحدة للسلام بعد ان طوى اللسان القرار رقم ٢٤٢ الذي  
 كان قد تبناه مجلس الامن وكان قتل عتيك قد نشب بين القوات الاسرائيلية  
 والمصرية على شاطئ قناة السويس . وكثفت هجمات الفدائيين الفلسطينيين

تتصاعد من الأردن وسوريا . وبدأ الملم يخشى وقوع مواجهة أخرى ، وفي واشنطن قدرت إدارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد أُرِف للقيام ب مبادرة دولية جديدة لإعادة الشرق الأوسط لأصوابه . وفي ٩ ديسمبر أعلن وليام ووجرز وزير الخارجية الأمريكية أن القول الأربع الكبرى في مجلس الأمن ستعاون مع يلرنج للتوصل الى تسوية وفقاً للقرار رقم ٢٤٢ وكان الأمريكيون قد قرروا أيضاً « التشاور مع الاتحاد السوفييتي مباشرة على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بيننا » . أصاب إسرائيل الضرر من كلا النقطتين - البحث عن تسوية في إطار القرار رقم ٢٤٢ واشتراك الاتحاد السوفيتي ، صديق أعدائها الذي قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حرب ١٩٦٧ . ومما زاد من شدة المقاومة للاقتراح الأمريكي ما أوضحه ووجرز حول سياسة الإدارة الأمريكية ازاء الحدود . فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عدم الاستيلاء على الأراضي بالحرب وانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها في سنة ١٩٦٧ .

« اتبعت الحدود التي نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بنساء على اتفاقيات الهدنة في سنة ١٩٤٩ وحددت بنطاق السطوة الوطنية في الشرق الأوسط لمدة عشرين عاماً . وذلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدوداً سياسية نهائية . وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الأطراف ازاء التوصل الى تسوية سلمية نهائية اتفاقيات الهدنة ولم يكن قرار مجلس الأمن يوافق أو ينأى بذلك الحدود السياسية المحددة . ومع ذلك فانه يدعو الى الانسحاب من الأراضي المحتلة ، وعدم للاستيلاء على الأراضي نتيجة الحرب واقامة حدود آمنة ومعترف بها .. »

اننا نعتقد أنه في الوقت الذي يتعين فيه اقلية حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الأطراف ، كما أن أي تغيير في الخطوط الثابتة لا يجب أن يعكس ثقل الفسزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الأمن المتبادل . اننا لا تؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما بنص القرار . اننا تؤيد أن إسرائيل وأمن الدول العربية كذلك . اننا تؤيد إقامة سلام دائم يحقق الأمن لكليهما » .

هكذا كان مشروع ووجرز عند صياغته الاولى ، كان أكثر اعتدالاً مما اعترف به الاسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلي من كافة الأراضي وما يشتم من فرض حل كان ذلك كافياً لبقاء مناحيم بيجين في الحكومة ، بدأ أن علاقت حزب العمل أصبحت تائهة . فجأة ، وقع جاهل

اتفاق ائتلاف جديد وارتفع عدد وزرائه من اثنين الى ستة وزراء من بينهم عيزرا وايزمان الذي انتقل مباشرة من الرجل الثاني في قوات الدفاع الاسرائيلية الى حيروت ثم الى الوزارة كوزير للنقل وفي ٢٢ ديسمبر رفضت الحكومة مشروع روجرل جملة وتفصيلا وقالت ان المقترحات الامريكية :

« تتحيز ضد مرمص اقلية سلام ، وتجاهل الحاجة الاسمية بتقرير حدود آمنة ويتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة ، وتؤثر على حقوق اسرائيل السيادية رامنما في صياغة قرارات تتعلق بالفدائيين ووضع مدينة القدس ولا تتضمن اى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الانشطة الامادية لمنظمات الارهاب والتخريب » .

كان بيجين راضيا ولكن قلقا ، فقد رفضت الوزارة مشروع روجرل بتشجيع من موقف جاحل المتشدد ولكن لم يتوقع احد ان يؤدي الرفض الاسرائيلي الى القضاء على المبادرة الامريكية خاصة ان حربا الاستنزاف في قناة السويس تزداد يوما بعد يوم وكذلك الخسائر الاسرائيلية . غير زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلماته بعناية في اواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقترحت مسئة من أى وقت مضى من قبسول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق انذار . وشكا بيجين من ان جاحل لم يستشر . ولكن رئيسة الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقتة بالتاكيد على ان شيئا لم يتغير . وخلال الاقتراع الذى جرى في الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحل الستة والعشرين الذين علوا الى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا في الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للامريكين . لكن بيجين لم ينتظر طويلا لخوض التحدى . في يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ اقدم روجرل على خطوته الثانية فاقترحت الولايات المتحدة على اسرائيل ، ومصر والاردن بدء المفاوضات تحت اشراف يارنج للتوصل الى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والاردن بالسيادة ، ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى وانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة في سنة ١٩٦٧ . وفي نفس الوقت، تلتزم الاطراف بوقف اطلاق النار التزاما كميلا لمدة ثلاثة اشهر على الاقل ، ولتخفيف حدة المقترحات كان الرئيس ريتشارد نيكسون اكثر تحديدا عن ذى قبل في تأكيد امن اسرائيل وكان قد المص في شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان في البيت الابيض ان اسرائيل تستطيع الاعتماد عليه في الحصول على طائرات مقاتلة — مقاتلة اذا احتاجتها في حرب استنزاف — ووفقا لما ذكره وزير الخارجية الاسرائيلي فلان نيكسون عمق الان التزامه :

« جعلنا نفهم أن تعهده لى حول طائرات الفانتوم يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأكد أنه لن يكون متوقفا من إسرائيل سحب جندى واحد من أى من خطوط وقف إطلاق النار الا فى إطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها إسرائيل مرضية لانها » كان هناك ايضا نهعد باستخدام الفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن لتلقوة اية قرارات تدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل خطه سنة ١٩٦٧ »

استنتج ايبان ومسز مائير ان مخاطرة الاقتراح الأمريكى اقل من المخاطرة برفضه فان التوصل الى وقف كامل لاطلاق النار سيؤدى الى استمرار الحرب مع مصر ، واحتمال المتورط مع الاتحاد السوفيتى وهبوط التأييد الأمريكى لاسرائيل . مع ذلك فان بيجين رأى فى ذلك خيانة للقضية ، وقال املم امضاء جاحال بالكنيست « شملت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية لمشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ أخضرى فى الشرق الأوسط . « من أجل الحفاظ على الوطن التاريخى فان إسرائيل ستعتمد على « أنفسنا » على جنودنا وعلى البناء » . كان جاحال يريد وقف إطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على أية مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام . وحاولت مسز مائير اقناع بيجين أن إسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر . كذلك فانها لن تتوقع الحصول على أى أسلحة من الولايات المتحدة . كتبت أجابة بيجين أن الأمريكين لم يقدموا أسلحة الى إسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فان إسرائيل قد فعلت لأمريكا أكثر مما فعلته أمريكا لاسرائيل . أعربت مسز مائير عن سخطها فى مذكراتها :

« لم استطع انفهامه انه على الرغم من أن الالتزام الأمريكى تجاه بقائه إسرائيل كان كبيرا بالتأكيد فاننا كنا نحتاج الى مستر نيكسون ومستر روجرز أكثر بكثير مما يحتاجوننا ولا يمكن اقلية سيئلت إسرائيل بالكامل على افتراض أن اليهود الأمريكين سيمعلون او يستطيعون اجبار مستر نيكسون على تبني موقف ضد ارائته او تقديره . ولكن جاحال الذى اسكرته كلماته الجوفاء اتنع نفسه أن كل ما علينا أن نفعله هو مواصلة ابلاغ الولايات المتحدة أننا لن نخضع لآى ضغط بها كان وإذا فعلنا ذلك لمدة طويلة وبصوت عال هذا الضغط سيتلافى يوما ما » .

لم يكن جاحال يقف كوحدة متراسة كما اعتقدت رئيسة الوزراء . كان الليبراليون يتعاملون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع ما زال انقراضيا . كان أريخ دولزين

أحد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركزية المتحدث باسمهم ضد العودة إلى المعارضة . يقول : « أننا لا نتأثر بالبيانات أن رأينا الأساسي هو أننا سنترك الائتلاف فقط إذا اتخذت الحكومة « قرارا » بالانسحاب . لنبقى في الحكومة حتى نتأكد أنه لن يكون هناك « انسحاب » . ثبتت أغلبية في حيروت بما فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها . وكتب يقولون : « كنت مقتنعا أن أذعان إسرائيل لمشروع روجرز سيكون كارثة . ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت أنه يجب علينا أن نبقى في الائتلاف ولا نترك للوزارة اتخاذ قرار حول ذلك المشروع دون وزراء حيروت » . ولكن ما كان يريهون أيهم من موقفه . كانت الكلمات بالامتعة أنه في مثل محاولة الانسحاب ، يمكن عيزر دانه بمجرد أن يوافق إسرائيل على « الانسحاب » فإنها ستقف على الحافة المنحرفة المؤدية إلى القطي من « ملكية أجدادنا » . إن التنازل عن الحق اليهودي في الأرض ليس الإخطوة فضيحة من التنازل عن الأرض ذاتها . إنه يخدم بيجين بكل قواه لحظ حيروت على البقاء في الائتلاف ، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين .

حينم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركزية لكل من حيروت والليبراليين في مبنى اليانصيب القومي . قام كل حزب بإرسال ٧٧ مندوبا . خولت مسرعات التأثير على نتيجة الاجتماع بالسماح لأعضاء جاحال في الكنيست بالتصويت ضد روجرز في الكنيست دون الانسحاب طرار إلى ترك الائتلاف . يقول دالزين في مقال روايته لتكريله : « حاول بيجين بشهيدة اقتناعا . لم يكن يحاول اللجوء إلى التهديد معنا ، لم يكن يغضب كإن يحاول دائما الانقاع ، حاول جاهدا ولكنه لم ينجح » .

كان التصويت بالاقتراع السري يوضح أوراق التصويت في صناديق خيصة . وصل القوي إلى أقصاه بينما جرى اقتراع الصندوق في الإخر في الساعة لثلاثية صباحا . يار بيجين بأقل أغلبية . يوز بها في حياته حيث حصل على ثلاثة أصوات بين ٢٣٤ صوتا . صوت نجم هانية بين المنتمين الليبراليين مع حيروت . يعتقد دالزين أنهم كانوا يصوتون ضد رغبتهم أكثر من تصويتهم ضد بيجين . صوتت هاندل من منسقي حيروت بالبقاء في الائتلاف . وقبيل الليبراليين الحكم بدلا من إيمان جاحال في الائتلاف . وأمر دالزين على أنه يجب عليهم البقاء بوعدهم . « لقد دخلنا الحكومة معا ويجب أن نخرج معا » . لقد أعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فعملينا اجترابها » . ولكن أذعان الليبراليين كان سياسيا وأخلاقيا كذلك ، كان طويل الأجل وقصير الأجل كذلك ويرى دالزين أنه « كان هناك احتيال واحد لإيجاد بديل لحزب اليمين ولكن ذلك معا . وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال . من الناحية التاريخية كان من الخطأ القول أننا تركنا الحكومة ولكن كان من الصواب لنا لم نفضل من حيروت » .

استقال مناحيم بييجين وخمسة من زملائه في جاحال من الوزارة في ٤ أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وهو اليوم الذي لُبلغت فيه جولدا مائير الأريكيين والكيبست أن إسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٤ « بكانة بنوده » بهدف تحقيق — من بين أشياء أخرى — « انسحاب القوات الإسرائيلية من أراضي احتلت في حرب سنة ١٩٦٧ » . انهار الحائط الذي أعقد بييجين أنه بناء حول شعب إسرائيل ولكنه رفض أن يكون طرفه في الهدنة ، وأعلن أنهم جميع من زملائه في جيروت. أتبع لم يكن أكثر سلاماً مع ضميرهم نظماً هو الآن : كان قرار الحكومة انبصاراً لحساب حزب العمل ولكن ارتفعهم لغزك جاحال للاختلاف كان يشوبه ندم خلفه مكتبة أبا إيلان بسخاء غير عادي وهو من أكثر الحقيقت اعتدلاً : « ترك رحيل بييجين وزملائه البارعين مائدة مجلس الوزراء أكثر انهماجتها وهجوماً ، ولكنها امتعنا فكرة وينوية يجعل الفكرى » .

كان الانقسام محتماً أن عاجلاً أو آجلاً ، في السياسة الإسرائيلية فإن حكومت الوحدة الوطنية لفشل في صنيغ الحزب من صنع السلام . ما زالت آثار هذه الأحداث مثاراً للجدس والخلاف ، فزومت مسز مائير أن حنرتبا يوم كيروز سنة ١٩٧٣ أثبتت صحة قرارها ، فبدون ذلك القرار لم تكن إسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفجئة للمصريين والسوريين . حسنافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت إلى إسرائيل بالمثل طائرات الفلتوم وغيرها مع الأسلحة الأمريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٣ ويخند أريخ دالوين أنه إذا كان جاحال قد ظل في الحكومة فإن الحرب ما كانت تحدث قط « بعد تركنا الحكومة توكلت لجنة الأمن الوزارية . كان بييجين واحداً من العوامل الرئيسية في غذه للجنة ؛ وكان الأمن مجال اهتمامه الرئيسي . كانت الحكومة ستكون أكثر وعياً بالوقوف الأمني وما كانت متعبد على شخص أسطوري مثل ديان باعتباره ضماناً لكل شيء . ويرى الليبراليون كذلك أنهم إذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جاحال فإن بييجين ما كان يستطيع الفوز في انتخابات سنة ١٩٧٧ . ولكن هذا يفرض أن افتراق المسيل ما كان يمكن تغييره إلى عكسه . ولكن هناك شيء لا يقبل الجدل وهو أن توكلت بييجين لم تتحقق . وإقبت إسرائيل على القرار رقم ٢٤٤ بما في ذلك هذا الانسحاب . لكن ميواً إكان ذلك خيراً أو شراً فإن إسرائيل لم ترفع على الجبل عن موصلة واحدة من أرض إسرائيل حزب الإيدن .

## الفصل الخامس عشر

### وهدة أم الخفاق

أعاد ارتداد جاحل من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة في مواجهة المبدأ الى جدول أعمال حيرت . كل مناهيم بيجين لغزوا بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والتزامه بأرض إسرائيل غير المتقسمة كل سعيدا ليسيب بالاجباط كل أولئك الصحفيين الانكباء ورسلى الكاريكاتير الذين كانوا على أتم استعداد فقط للسخرية قائلين : « انك لا تستطيع اخراج جاحل من الحكومة حتى ولو بيلدورز » .

أن أولئك الناس ذاقوا حلالة المنصب الوزاري ( المكتب والسيارة ) ولن يتخلوا عن المنصب ( أو تلك الأشياء ) . . . ولكن أعضاء حيرت الآخرين الأكثر شبها كانوا أقل رضى وأقل ميلا الى القناعة بحياة متقشفة ورعة . . أصبح عيزرا وايزمان قائدًا لحركتهم ، كل الجنرال السابق رجل أفعال لا أقوال كل يشترك بيجين في وطنيته الهينية . وكان يعتقد أيضا أن التخلي عن دعوى إسرائيل في الضفة الغربية لنهر الأردن كان يعنى القبول بتسوية مخلة ولكنه كان ينتظر الى الدعاية الايديولوجية التي كان يتمتع بها زعيمه سلك وايزمان مجال السلسلة لتنفيذ أشياء هي انتهاء احتكار الملبأى ، وعدم العبادة عند ضريح جابوتنسكى كان من « الصابرا » ابن أخ أول رئيس لإسرائيل حاييم وايزمان كانت جذور صهيونيته في حيفا وليس في بريست — نيتوفسك ، وفي قوات الدفاع الاسرائيلى وليس في الأرجون ، نايى ليوى . وباعتباره مهندس السلاح الجوى الاسرائيلى الحديث عرف احساس الرضا النابع عن القيادة والانجاز ، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيسا للاركان فانه أصبح تواقا الى نقل نشاطه الى الحياة المدنية .

لم يكن هناك شيء أكثر اشباعا لغزوره من المهرجان الذى أقامه بيجين للترحيب به بين صفوف حيرت أو من الانتقال السريع من صفوف الجيش الى مائدة الوزارة ولكن هذه السعادة الغلمرة لا يمكن أن تدوم . كان بيجين يريد وايزمان كتجم ، وكبطل حرب وكصائد للامسوات ، وكأحد رجال الحاشية وليس منافسا له ، وكان حيرت ما زال حزبه وهو وحده الذى يبده تقرير سياساته وأهدافه .

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب في تل أبيب في شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدا بيجين الهجوم من البداية مخدرا المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحدى



لسلطته ربما يرغبه على التقاعد وقال « انتى ساجد أنه سيكون أكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة لدى . كان ذلك مسرحية مألوفة ولكنها نجحت مرة أخرى . مهم المنوبيون الإبهاء واعطوا الموالية أغلبية اللطفين في اللجنة المركزية . بعد تعرض وايزمان لهجوم مدبر من بيجين لم يجد امامه خيارا سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التي كان بيجين قد عينه فيها وقال « لقد تطلعت بعض الدروس الهامة للفلسفة عن المسيرة الديمقراطية » وتساءل في حديث خلس مع بيجين عما كان قد رغب قط في الانتقال من المعارضة الى الحكومة فرد زعيم الحزب قائلا : اننا نخلص للمبادئ وليس لمقاعد الوزارة . كان ذلك فيما يتعلق بيجين نهاية المناقشة ، أمر بيجين على موقفه وفشلت كافة المحاولات التي بذلت للمصلح بينهما . كان بيجين وثقا كما لو كان قد تملك حكمة احد انبياء العهد القديم ولم يكن يساوره أى شك . كتب يقول في صحيفة « معاريف » أننا لم نخطئ قط ، لقد حكمتنا دائما على الأشياء بطريقة صحيحة ، ولهذا غافنا لم نغير قط لأننا لم نحتاج الى التغيير قط .

وبنفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخل حيروت باعتبارها أمرا غير ديمقراطي . ويستطيع وايزمان ان يهاجم بنصف من مقاعد الاقلية فقط . « ان هذه حركة أشخاص سلبيين ، خائفين من التغيير انها لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية » وعنتها شعر بيجين بالانتصار الكامل عهد الى حايم اندو ، تابعه الامين القديم في الارجون بتوجيه الضربة القاضية ، كتب وايزمان في كتابه « على أجنحة الملائكة » : « لا تروى لى الحكايات حول تجديده الحركة عندما يكون هدفنا جميعا هو السلطة ، لو نظرنا الى بنيان الحزب وتسلسله الهرمى وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح انه لم يكن هناك مجال أمل بخلق مثلى » .

ووصل في مجلد آخر من مذكراته الى استنتاج ان حيروت كان مكانا صغيرا لحفظ التوابل المعرضة للخطر .

فى هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الأولى غير السعيدة الى بريطانيا وهي الزيارة التي أظهرت جميع غرائزه المولمة بالقتال . كان الزمن قد مضى وكان مستعدا لنسيان الماضي ولكن البريطانيين أو بالأحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا : ففي مقنبل . بملوانه : « زيارة قاتل » ذكرت صحيفة « صنداي اكسبريس » قراءها بشتى إنش من الجنود البريطانيين . وقالت ان بيجين لم يلق عقابه قط على وحشيته ، كما قالت :

« ان من الامور البالغة الغرابة ، ان يرغب بيجين في زيارة بلد يكن له هذا القدر من الكراهية بل والاكثر غرابة هو تعريضه »

التي قال فيها أنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع استقباله بكرم الضيافة التقليدي أي نوع من الناس يظننا ؟ إن أحدا لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد مع الغضب والظلم إلى الانتقام .

وفي بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه اسرائيل ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القنلة . هل يتخيل بيجين حقيقة أنه حتى بعد مضي ربع قرن ، فإن الشعب البريطاني سيكون تواقا للترحيب بقاتل لم يلق جزاءه ؟ »

ولم تزل صحيفة « العايزر » نقدا لاذعا يقبه دير ياسين بمذبحة هائي لاي في فينتام وركزت صحيفة « الجارديان » هجومها على الوقت الراهن حيث قالت : « ان هدفه هو سحق التأييد من حكومته المستعمدة للتفاوض من أجل الانسحاب وما يقوم به بمسار بيجين يجعل مشكلة الشرق الأوسط أكثر تعقيدا ويؤيد من احتمال نشوب حرب ، أنه ليس عميلا بمساعدة أو موضح فخر لاسرائيل » .

انتخب بيجين كل فرصة للرد على الصحافة ، في الراديو وفي التلفزيون وعندما سأل أحد الصحفيين فاهو شعوره عندما يجسد البوليس البريطاني بحرسه لإدلاء من مطاردته أتياب « هذه واحدة من أمتع فترات حياتي وأظن أن هذا مؤثر للغاية » ان رجال البوليس لديهم مخلصون للغاية وعندما أبلغ أن بعض السفراء الغرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات عن جرائم حرب ارتكبتها في دولة هربية رد ببيتنا : « سأكون أول عضو من الكنيست يقوم بزيارة دولة عربية ، ربما يكون هذا بداية مفاوضات مباشرة للتوصل الى سلام دائم وعادل » على الرغم من التهديدات بتفجير قنبلة ، والمظاهرات المعادية والاسئلة التي وجهت اليه في المجلس رفض بيجين الفاء رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام ولكن دعت معامات التهديد التلفزيونية مديري فندق رويال جاردن وسترال هول ، ووسمنستر الى الفاء الاجتماعات العامة الهامة التي رتبها حيرت البريطاني . وعند عودته الى اسرائيل وصف بيجين الزيارة بمساعدة ، وقال « أنها كانت أروع ثلاثة أيام في حياتي » ولكن ذاكرة المنفى القديم التي لم تفكر له تركت لديه مداخا حزينا . فبرغم كل شيء فإن هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالانحياز خلال الأيام الفاسدة للامبراطورية البريطانية من أمثال جزمو كينيثا ، والاسقف مكاريوس . ولكنهم يستقبلون الآن باحترام في لندن وكذلك الامبراطور هيروهييتو امبراطور اليابان . لم يكن بيجين يحتاج الى اثارة شعوره بالاضطهاد حتى يشتم المعاداة للسامية .

كان الجنرال ايريل شارون مثله مثل عازر وايزمان يمينيا متطرفا وربما شديد القروء أيضا بما لا يمكنه بالتأكيد من تحقيق طموحه العسكري تحت حكومة العمل ، وكان شارون قد ترك الخفمة في الجيش في أوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣ وانغمس في سياسات جاحال واختار بدلا من حيروت الحزب الليبرالي لا لسبب الا انه يبدو أكثر استعدادا للاغراء فخلال شهرين غدير من وجهة اليمين الديمقراطي الاسرائيلي - ودفع مناحم بيجين خطوة حاسمة في اتجاه رئاسة الوزراء . لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال الى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بدلا لهيمنة العمل .

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذي اكتسب تملق قوات مظللاته وخوف رؤسائه . كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع . كان يبتسق طريقته بخذر وتعلق وكان يرفض كلمة لا وخلال اسبوعين منح حيروت بركانه لكتلة « ليكود » ( الوحدة ) الجديدة وهي تضم حزبي جاحال بالإضافة الى الوسط الحر بزعماء شامويل تامير والقائمة الرسمية وهي جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقى بن جوريون الذين لم يعودوا الى العمل . وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذي كان قد طرده من حيروت في سنة ١٩٦٦ . كان بيجين من أكثر مؤيدي شارون حماسة . فالشريك الاكبرسيظل حزب حيروت وسيظل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحد لهيبة الزعيم .

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فانها تحولت الى شيء كره وسارت على نحو بطيء حتى شهر سبتمبر . تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين أو السادس والثلاثين في القائمة المشتركة لانتخابات الكنيست المقرر إجراؤها في ٣٠ أكتوبر رد اليميلاخ ريمالت وهو زعيم ليبرالي صبور ومثقف على تامير بمنف قائلا : « ان أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين في هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة » ولأسباب تكتيكية غير بيجين مفاوضي حيروت فوضع يروهانان بادير الموالي القديم الذي لم يستطع أن يغفر لتلميذ تمرد في قرية مكابايا بدلا من بنجابين هاليفي المؤيد صراحة لليكود . عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن . أما عازر وايزمان الذي شجعه احتمال التوصل الى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يشعر بالفتيان لدرجة انه انسحب مرة أخرى . وكتب يقول في خطاب أودعه الى الزعيم حيروت :

« اننى لم اشترك قط في مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التي وقعت في جماعة من المفترض أن تكون مثالا للامانة والزعامة .

ولست أعنى نفسى من اللوم . لقد ساهمنا جميعا في خلق هذا المشهد السلبى . اشتركنا جميعا في التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل الغفد

والأكاذيب الرهيبة . ان ما حدث خلال الاسابيع القليلة الماضية أكد لثقلنا في تقديم الزعامة وأشعر أنه من الضروري ، من أجل الصحة - العامة - أن أترجل من عربة الحزب التي كنت أجلس فيها وأعود الى الحمول السياسى من أجل البحث عن الذات - والبحث عن طريق سياسى .

ولم يكن ييجين في حالة نفسية تسمح له بالدخول في مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية . ورد قائلا « أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضيقه ونهمه وذلك بدلا من مناجاة وإيمان البقاء . ثم سمح ييجين لمساعديه بتسرب أنباء الخطابات المتبادلة الى الصحافة .

كان إيريل شارون يتمتع بصلاية أكثر كان يهدى ويستحث ويكره محترقى الحزب على الوحدة : « إما كل شيء أو لا شيء » وبينما الانتخابات على الابواب في ١٦ سبتمبر سنة ٧٣ ، تم التوقيع على اتفاق ليكود . قال أحمد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الإعجاب والصدمة « أنه اغتصب أربعة أحزاب » .

تبنا بعض المعلقين الاسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل ييجين . كتب ييجين مقالا ساخرا في صحيفة « معاريف » كان ممكنا أن تتحقق رغبتهم ولكن كان ممكنا كذلك نفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل . وفي نفس الوقت فانه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها : الحصول على أغلبية في الكنيست تسمح برفض أى اقتراح - باعسادة تقسيم أرض اسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفقر ، والاندماج لاجداد بديل لحزب العمل . ومضى يقول في عشية السنة اليهودية الجديدة : « ولكن بالنسبة للان فان احدا من بيننا ليس في طريقه الى بداية نهايته السياسية اننا جميعا في بداية سنة جديدة وربما - من يعرف ؟ - في بداية عهد جديد .

أثبت ييجين أنه أقرب ما يكون الى نبى أكثر مما توقع هو أو توقع قارئه .

وفي ٢٦ سبتمبر ، عشية السنة الجديدة قام موسى ديان وزير الدفاع بجولة في الجبهة الاسرائيلية في مرتفعات الجولان ، كانت هناك تقارير معلقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولانه شاهد بنفسه امر بتعزيزات محدودة للقوات الاسرائيلية في الجولان ، . ثم ابلغ الاركان العامة « لدينا على الحدود الاردنية مستوطنات محنة وليس اعداد وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس لدينا مستوطنات . وعلى الحدود السورية لدينا الاثنين وإذا ما وصل السوريون الى مستوطناتنا فان هذا سيكون نذيرا بوقوع كارثة . بعد ذلك بأحد عشر يوما . في يوم كيبور وهو من أقدس الايام في التقويم اليهودى قامت الجيوش المصرية والسورية في نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس .

وعلى الرغم من الدلائل المنيرة بالسوء فإن إسرائيل لم تكن مستعدة تماما .  
وللمرة الأولى منذ سنة ١٩٤٨ كانت لخوض حربا يشقة فدما عن يقاتها  
القموى .

وحدد السياسيون صقوفهم وعاد إيريل شارون الى الجيش وقاد احدى  
الفرق العسكرية التى اعلمت الهجوم المصرى ثم قاد قوة الهجوم التى اعدت  
المعركة مرة أخرى عبر القناة وكلفت جولدا مائير قد اطلعت بيجين باعتباره زعيما  
للمعارضة على تقارير المخابرات الاسرائيلية بأن الغزو وشيك الوجود ومع  
ذلك فإنه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النار . فى الساعة  
الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر قبل الموعد المتوقع بأربع ساعات كان زعيم  
حيروت يصلى فى محبد مقر حزبه فى تل أبيب عندما أبلغته إبنته يائيل بالإنباء .  
امتنع بيجين طوال الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة  
أو القيادة العليا من الخطأ الذى كاد أن يسبب كارثة للبلاد . لم يكن هذا هو  
الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانتهاك الفرصة لجمع أصوات للحزب ، ولكنه  
كان ينتظر فقط فرصة مناسبة . ولكن مع تحديد موعد إجراء الانتخابات فى  
نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس « اللذين » . أمسك بيجين بهراوته ومطالب  
خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مصل مائير ونسائل المرة تلو  
الأخرى بمعبارة — عبيرة — منغمة : « لماذا لم تقوى بتمبئة الاحتياطى قبل  
بـيوم كيور ؟

لماذا لم تقوى بتحريك التعزيرات الى الجبهات ؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون  
دفاعا عنها . ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها تلك الحكومة  
لتقوها « أصيبت رئيسة الوزراء بالصدمة إزاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة .  
وكتبت تقول ( : ليتة كلن قد تعلم أو تردد . كان المتحدثون من المعارضة  
يتحدثون عن اقتراب كارثة ، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن  
أشياء عظيمة ، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرتم بالغبان » . )

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسر مائير . كتبت مقالات  
القتلى تقلق ديان على القبور . تلاشت فقايع حرب ١٩٦٧ والثقة المبالغ  
فيها بتقوفا العسكرية — وقمت الحكومة والجيش فى كمين من صنع أيديهم  
لقد اترضوا أنه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فاتهم لا يستطيعون  
بدء حرب وأثبت منطق الشرق الاوسط أنه اعتقد من ذلك . . فعل الرغم من  
أن الجيش قلب المواقد على الغزاة المصريين والمصريين فى نهلة الامر الا أن  
ثقة النفس لدى إسرائيل قد اهترت بعنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة  
وخاصة ديان الذى كان يعين أن تجعله خبرته العسكرية فى موقف التاهب  
للاخطار .

لم يخض بيجين قط حملته في ظروف أكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التي أجريت في ٢١ ديسمبر كانت مخيبة للآمال عاقب الناخبون حزب العمل ولكنهم لم يطرده . فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا في مقابل تسعة وثلاثين لليكود . كان ذلك يعني فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل إنجاز حققه ولكن كانت أصوات المعارضة متقسمة فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شوليتز ألوني بثلاثة مقاعد وهي قائمة يسار — وسط دخلت الانتخابات في آخر دقيقة .

لم يكن الاسرائيليون مستعدين تماما لقبول حكومة بيجين ولكن الاتجاه كان قد أرسيت دمهجه . وكان ليكود يجمع بشعبية كبيرة بين الشباب الناضجين في الجيش أما اليهود الشرقيين في المدن النامية ومهاجري الموشاف والاحياء الفقيرة في المدن مكثوا يعميون خلافتهم في جماعة الملباي التي بذلك لهم الومود بتوفير المسكن والامال والخدمات الاجتماعية وكلفت انتخابات سنة ١٩٧٣ أول نذير بوقوع زلازل .

## الفصل السادس عشر

### « زلازل صيف »

خاض بيجين انتخابات الكنيست الثامنة وهو مصمم على الفوز بينما كان حزب العمل الذي حكم بصفة مستمرة على رأس ائتلاف متجسّس في حالة غرضي وقد أبرزت حرب يوم كيپور أنه ليس قادرا ، وأنه تولى الحكم كثيرا جدا . وكما لو كان توليه للحكم قد أصبح أمرا مسلما به .

أدى انتصار سنة ١٩٦٧ إلى تآكل يقظة الحكومة ويدات المحسوبة التي كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول إلى فساد . اهتزت قيادة العمل وإن لم تنفلت تماما ، وكان عدم الرضا عن أداء الحزب ينتشر إلى باهو أبعد من صفوف الناضحين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست . في يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله . وعلى الرغم من تنبؤ القليلين بنوز ليكود عند إجرائنا انتخابات ثانية فإن التحالف الجديد كان يبدو بديلا معقولا ، كان بيجين يقود كتلة ليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ٢٠٪ من مجموع الناضحين وكان من الصعب تجاهله أو التغافل معه على أنه مجرد مثير للقلق على هامش السيفسية الاسرائيلية . أصبح المغاليل السري القديم لين العريكة في أسلوبه وإن لم يكن في أفكاره وأصبح أكثر امتلاء ، خلق شأريه . كان شعره بلع ، وتوقف عن تدخين سجائره التي اعتاد عليها . واشتهر في الكنيست بأنه برلماني صارع ومجتهد ليس فقط على المنصة بل في قاعة اللجان وفي قاعة طعم الامضاء . كان على طبيعته مع كتلة زملائه الامضاء من الاحزاب الاخرى ، مفتتح على الصحافة ، ومرحبا بالزائرين الاجانب وعلى لسائه دائما عبارة ترحيب : « أهلا بكم في بلدنا » . أثبتت الثلاث سنوات التي قضاها في حكومة الوحدة الوطنية أنه يمكن أن يكون شخصا بناء مظلما هو شخص انتقادي . وعلى الرغم من استقباله العدائي في لندن في سنة ١٩٧٢ . فإن زعيم المعارضة أصبح شيئا يلقي الترحيب في احتفالات السفير البريطاني بعيد ميلاد الملكة سسوفيا .

وفي الوقت الذي كانت فيه اسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها من نفسها بعد الكوبير لم يدم بيجين أهدافا يهاجمها . وأن بيجين يكون في أفضل حالاته كخطيب وكرجل استعراضى مندبا يهاجم . وفي أعقاب الكارثة الكيفية التي خسرت فيها اسرائيل سبيلها وإن لم تضر في ميدان المعركة بدت انتقاداته اللازمة بشروعة أكثر مما سبق ، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه .

ومم ذلك فان التاريخ سيثبت انه كان مخطئا في شكوكه في تأكيد الرئيس  
أنور السادات رغبته في السلام وعلم نفعه في دبلوماسية هنري كيسنجر في  
الشرق الأوسط لقد أصبح ممكنا نتيجة « للمعبور العظيم » أن تتوصل مصر وهي  
أكبر دولة عربية الى اتفاق مع اسرائيل وتضع اتفاقية سيناء في سبيل  
١٩٧٤ ، ١٩٧٥ الأساس للحيلولة دون وقوع غزو جديد . ولكن ما كان  
بمقدور أكثر المتبئين جسارة أن يفتبا بأنه خلال خمس سنوات سيقتسم  
بيجين والسادات جائزة نوبل للسلام .

وسط رياح باردة ومطر منههر في الليلة التي قامت فيها اسرائيل باول انسحاب  
لها اعلن بيجين أمام ٢٠٠ شخص تظاهروا احتجاجا على الانسحاب وكانوا  
يحملون المظلات في احد ميادين تل أبيب : « ان هذه مظاهرة ضد سياسة  
المظلة لشمبرلين » التفت ايريل شارون الذي كان قد تحول من الجيش الى  
السياسة ونجم تلك الليلة ، اصدااء محاولة التهنة وانهم الحكومة بأنها  
تضيق أفضل اوراق اسرائيل تقالا : ( « ان جيشنا المنتصر ينسحب تحت  
زعامة حكومة منهزمة وانهزامية من ارض دفعت في سبيلها حياة الالاف ولم  
تحصل في مقابلها على شيء » ) .

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من انه لم يكن قد اندمج  
في حزب واحد . وأعرب اليلينج ريمالت زعيم الليبراليين عن خوفه من أن  
تقوم جولدا مائير بقيادة اسرائيل الى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨ .  
وأضاف شامويل تلمير تحذيرا ضد ميونيخ أخرى في الشرق الأوسط . وفي  
الكتيبات بدأ بيجين اطلاق اسم « الادارة الانتقالية » على الحكومة . وبدأ  
ينحدي مرارا بتقليل من التردد ( متذكرا عملها المنسجم في حكومة الوحدة  
الوطنية ) . واقتناع ديان أن السادات يسمى بالخلاص للسلام . وتساءل  
من قال ذلك لك لدرجة أنك ضللت هذه الأمة ؟ « ان الحكومة لم تكن تقلل من  
قواتنا انها كلفت تقلل من أمن اسرائيل . زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر  
بسبب اصل وزير الخارجية اليهودي قال بيجين ، يجب تذكير كيسنجر انه  
ليس اول يهودي في التاريخ يصل الى مركز كبير . لقد عانى يهودا  
آخرون أيضا من عقدة انه ربما يوجه اليهم الاتهام لمحاياة اخوانهم اليهود ولهذا  
ساروا في الاتجاه العكسي تماما » وقال ان هذه عبودية في وسط الحرية »  
وعندما سأل أحد اعضاء الحكومة عما اذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر ببطل  
هذا الحديث اجاب بيجين : « اننى سائفل بالتأكيد » .

لكن على الرغم من كل ذلك فان بيجين لم يكن محصنا ضد أن تصسيه  
عدوى السلام ففي خلال مؤتمر حيرت في سنة ١٩٧٥ الذي افتتح وسط  
احتفال برعي في كيريات عربية . وهي مستوطنة يهودية في ضواحي الخليل،  
تتم بيجين مشروع سلام الى المعالم الثمري يتكون من ثمان نقاط ويشمل



هذبة لمدة ثلاث سنوات في البر والبحر والجو واجراء مفاوضات للتوصل الى  
المفلى لمعاداة سلام بين اسرائيل وجيرانها تقضى بتجديد الحدود النهرية ،  
ومحاولة لايجاد حل انساني لمشكلة اللاجئين اسرب ومطلب اليهود الخاصة  
بملكياتهم التي تركوها عند مغادرة البلاد العربية الى اسرائيل . ولكن المنبر  
لم يغير جلده . ففى نفس الخطاب دافع بيجين عن « العقيدة التي كرسنا  
لها حياتنا ، الحق اليهودى فى كل ارض اسرائيل .

واضاف بيجين يقول انه اذا لم يتم التوصل الى سلام فانه يتعين على  
اسرائيل الا تقوم بمزيد من الانتسحاب الذى عمل فقط على اقتراب العدو  
من مراكز السكان الاسرائيليين وعرض للخطر أمن اليهود . ان الانتسحاب  
بدون سلام تدمير لكل فرصة لتحقيق السلام » .

اثبتت حكومة جولدا مائير بحق انها ادارة انتقالية وعلى الرغم من ان  
لجنة تحقيق « اجرائت » التي قامت بالتحقيق في نواحي القصور التي ايدت  
الى حرب اكتوبر ، لقت باللوم على الجنود اكثر من السياسيين فان ثقة  
الجهامير في الحرس القديم بدأت تضعف . وبمجرد توقيع اتفاق نمسـل  
القوات الاول مع سوريا في اواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء  
التي كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موسى دين وزير  
الدفاع ، ولكن رغبة الجهامير في رؤية وجوه جديدة تولبت بتصعيد جيل  
آخر من قيادات حزب العمل وليس بلجراء تغيير للحزب او على الاقل  
تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطالب به بيجين . مسمى  
اسحق رابين ، وهو من مواليد اسرائيل والذي عمل سفيرا لاسرائيل في  
واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الاركان الى رئاسة الوزراء بعد ستة  
اشهر فقط من وجوده في الكتيسة ، كان اسمه يقترب بالنجاح ، حرب  
الستة ايلم والفترة المثمرة في العلاقات الاسرائيلية - الامريكية واكثر من ذلك  
فان اسمه لم يقترب بازمة حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على ليكود ان ينتظر  
اجراء انتخابات أخرى قبل ان يأمل في تولي السلطة .

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لدة ستة وعشرين عاما في  
مقاعد المعارضة ان يترك بصمة واضحة . كان اريل شارون اقل ضبيرا ،  
ان الحياة البرلمانية بتقاليدها المهذبة والثروة لساعات بلا معنى لم تجذبه . وقد  
اكتسب خلال عمله في الجيش سمعة بانه شخص مستقل ، ومقاتل يجسد  
الروح العدوانية لقوات الدفاع الاسرائيل وشخصية انفرادية يطلق النصار  
اولا ثم يناقش بعد ذلك . ففى خلال حرب السويس لم يخض شارون للوابر  
وهبط مع قوات مظلاته في مير تلا .

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثين  
اسرائيليا واصيب مائة وعشرين وقد اقهم اربعة ضباط من مؤسسه  
١ تولى اثنان منها فيما بعد رئاسة الاركان وتولى آخر

رئاسة الموساد ) بأنه يقوم بإرسال رجاله الى حتهم لاجل مجسده الشخصي . كتب موسى ديان رئيس الاركن في مذكراته في سنة ١٩٥٦ ان شارون لم يقدم الى الحكمة العسكرية لان الجيش الاسرائيلي لا يعاقب قائد لانه قام بالكثير بل للتقصير في عمله . وكان شارون قد دخل ميدان السياسة في سنة ١٩٧٢ لان مستقبله العسكري وصل الى ذروته . ولم يكن يسعى الى التقاعد بهدوء ولكن كان يسعى الى السير في طريق جديد يضع فيه بصمته الذاتية على الامة . وعندما بدأ ان ذلك لم يتحقق تخطى عن مقعده في الكنيست وقبل قيادة احدى وحدات الاحتياط . وفي يونيو سنة ١٩٧٥ اصبح شارون مستشارا للشئون الامن لرحيله السابق في السلاح امحق رابين وعندما اتضح كذلك ان ذلك عمل تافه وعندما ادرك ان هذا لن يمنحه فرصة اخرى لتولى رئاسة الاركان قفل راجعا الى مزرعته في صحراء النقب . وكان على ليكود ، او هذا ما كان يبدو ، ان يواصل طريقه بدون الرجل الذي حثه على الوحدة .

خيب اول رئيس وزراء لاسرائيل من « الصبرا » آمال الكثيرين الذين علقوا آمالهم عليه . اثبت رابين انه مغلوض عنيد ما كان كيسنجر يفسنط للتوصل الى اتفاق ثان حول سيناء ومنح الاتفاق الذي وقعه في سبتمبر سنة ١٩٧٥ اسرائيل اساسا افضل للنفاع من نفسها اكثر من ذلك الاتفاق الذي حاول وزير الخارجية الامريكي فرضه عليه في مارس .

لم يدخل الجيش المصري ممرات الجدي ومثلا الاستراتيجية كما ان التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بمحطات انذار مبكر اسرائيلية — امريكية ولكن اتهم بيجين بان رابين غير موقفه السابق وجد اذانا صاغية بين البسطاء الذين راوا فقط ان اسرائيل تتخلى عن المضائق وحقول بترول أبو ديس المريحة دون وعد مصري بانتهاء حالة الحرب وان رئيس الوزراء كان يعادى الامريكيين بدون داع خلال العملية . وفي نفس الوقت شعر الحياثم بالحزن بسبب اتجاه رابين المتشدد ازاء الضفة الغربية .

كان يساوره القلق مثل بيجين من اخطار وجود دولة فلسطينية ويرغضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من اجل التوصل الى اتفاق لفصل القوات في اريحا شبيه بالاتفاق في سيناء ومرتفعت الجولان ترك الاردن دون دفاع في مواجهة العرب الراديكاليين الذين اتعنوا مؤتمر الرباط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطيني .

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الانتفاذ في مطار عنتيبي في يوليو سنة ١٩٧٦ كانت عملا بطوليا لم يسبق له مثيل في الانقسام والمهارة وفي اللص السياسى والتخطيط المسمى على حد سواء ولكن

زعماء العمل أحجبوا عن سرقة الاضواء من قوات المخابرات بالخروج بكلمة سياسة من العملية ، ولكن بيجين الذي لم يبق دور في العملية اللهم الا احترامه لفئة رئيس الوزراء التي اولاه اياه باطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع .

ذهب الى مطار بن جوريون حاملا زجاجة ويسكي لتحية الزملاء المعادين وكان معظمهم من الاسرائيليين من مواليد المغرب والذين كانوا في طريقهم الى باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الزملاء ومن مثلائهم الا ان حملوه على الاكتاف ويدعوا ، يهتفون بيجين كما لو كان بطل الساحة .

وعلى الصعيد الداخلى لم يكن لرابين اصدقاء كثيرين كان الاسرائيليين يحترمون عقليته التحليلية ، وحذره كجندى ولكتمه وجدوا انه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجياعير كتيب الى حد يثير التخيرة خلال خطبه ومقابلاته التلفزيونية . كان يفتقر الى قرون من استئصال السياسى والصبر على خلق القيادة النافعة ، لم يكن يستطيع دائما في عزله التي فرضها على نفسه اكتشاف الخطر في وقت مبكر فقد تأمر على نفسه من وزارة الدفاع شيون بيريل الذى هزمه للنزول في زعامة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه .

وعلى الرغم من جذور عقلته في حركة العمل فان رابين ابقى سنوات تكويته في الجيش . يستطيع القسائد حتى في قوات الدفاع الاسرائيلى كملجا آخر ان يعرض رتبته ويتوقع ان يطاع ولكن رابين وجد ان السياسة لا تسير على هذا النحو ولذلك وجد الطريق ممعا .

ازداد الاجساس ان العمل يفقد سيطرته ، جاءت المفجعة قتل الضحية ارتكبها رجال آخرون ويرجع تاريخها الى اوج ايام نحاسى سايير وزير المالية العملى ورجال السياسة البخارق الذى اكتمب سبعة انه يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلى من نوبة صغيرة ، سوداء اللون . وقد حكم على احد الذين كان يشغلهم بحالته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدى الاسرائيلى بالسجن خمسة عشر عاما بعد اعترافه بانه مذنب بأربعة عشر تمة وهى الرشوة ، والتسرق ، وخيانة الثقة وتحويل غير قانونى للتد ، واجراء مبادلات غير قانونية في النقد الاجنبى ، وتزوير المستندات وشملت هذه الامال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الاجانب لتدعيم الصناعة الاسرائيلية ، كذلك فان اشير يانلين مدير نقابة كويك هوليم التى تعانى من مشاكل مالية وكان ( سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير ) مرشح رابين ليكون محافظا لبئك اسرائيل ، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات

بتهمة الرشوة وتقديم اقرارات ضريبية كاذبة ، ورفض القاضي ما زعمه  
أشير بأنه قام بتحويل بعض تلك الأموال الى حسابات حزب العمل .

كما أنتحر امراههم أوفير وزير الإسكان وسط انبا غير مؤكدة أنه تلم  
بالاستيلاء على أموال لنفسه خلال ادارته لشركة التنية التابعة للمستدروت  
كان ذلك بادة - مصلحة للمتهكمين والمعارضين ، كانوا يقولون أن السلطة  
أفسدت حزب العمل . ولم تحدث الإشاعات المضادة حول سوء تصرف حيروت  
في أموال تل - هاي الا تأثيراً ضئيلاً أو انها لم تحدث أى تأثير .

وسط هذا المناخ من الانحلال الاخلاقي مهد الحزب الدينى القسوى والذى  
ظل لمدة ثلاثين عاماً أكثر الشركاء التصاقاً بحزب العمل ، الى تضخيم موضوع  
انهماك اجازة . يوم السبت لاستقطب الائتلاف . كانت اسرائيل بعد ظهر يوم  
١٠ ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، تحتفل باستلام أول ثلاث طائرات بمسارقه من  
طراز اف - ١٥ العملاقة من مصنع ملكونيل دوجلاس وبينها كانت الطائرات  
الثلاث تقوم باستعراضات جوية أمام المجتمعين من كبار الشخصيات صاحب  
رئيس الوزراء فى غرح : « أن هذا يوم عطلة يوحى لنسا بالايهان والمثقة  
التي نحتاجها - الثقة فى قوتنا والايهان فى مستقبل أفضل » .

واضاف الجنرال مورخاى جور رئيس الأركان : « أن دولة اسرائيل  
اليوم دولة مختلفة وقوات الدفاع الاسرائيلية قوات مختلفة . وليسوء حظ  
رايين فان طائرات اف - ١٥ وهى أكثر الطائرات المتقدمة الى تسليتها  
اسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت ، وخطر  
اضيف بانتهك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال العودة الى منازلهم  
بعد طول الظلم . تقدم يوالى أجودات اسرائيل وهو حزب متطرف صغير  
خن خارج الائتلاف اقتراحاً بعدم الثقة . وعند طرح الاقتراح للتصويت  
فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة أعضاء من بين الأعضاء المعترضه من  
الحزب الدينى القسوى على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رايين . تراجعت  
الحكومة ، ولكن تلم رئيس الوزراء بقالة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى  
القسوى مؤكداً : « أن الحكومة التى لا تستطيع الالتزام بهذا المسؤولية الجماعية  
لا تستطيع العمل كحكومة » .

بعد ذلك بأسبوع لم يمد واتفا من حصوله على أغلبية . فاستقال من  
رئاسة الوزارة وديها الى إجراء إنتخابات مبكرة

فى النظام الاسرائيلى كان هذا القول استهل من العمل لانه يتعين أن  
يصدر الكنيست تشريعا بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مسابقات  
ضخمة قبل نشر قائمة مرشحيه ويستحق للموظفين العامين وضباط الجيش بمائة  
يوم للاستقالة وتقديم أنفسهم لقرار الترشيح للانتخابات ويستغرق طباعة

اوراق التصويت اسلجيع غير محددة . في هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات في ١٧ مايو — وهو وقت كاف لوتوقع فضيحة أخرى كفيلة بوضع مسجل آخر في نمش حزب العمل وفي نمش أول رئيس للوزراء من « الصبرا » .

مقبل شهرين من الانتخابات في ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة « هارتس » في واشنطن أن ليا زوجة رابين لديها حساب بالندولار في أحد البنوك الأمريكية بعد أن أنهى زوجها جولته الديبلوماسية في سنة ١٩٧٢ . ويعد هذا انتهاكاً للقوانين — الإسرائيلية في ندولار النقد .

وأمر أهليون براك المحلى العام اقامة الدعوى ضد مسز رابين لان المبلغ لا يقل عن ١٠.٠٠٠ دولار . ولا أحد فوق القاتسون يقبل منتصف الليل بقليل في يوم الخميس ٧ ابريل والجاهير تنتظر فوز ندى ماكلبي تل ابيب في بطولة كرة السلة الأوروبية بفارق نقطة وإحدة أعلن رئيس الوزراء في التليزيون والاذاعة أنه ينسحب من المعركة الانتخابية ويحصل مسؤولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته في البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء في حكومة انتقالية فإنه عهد بواجبته وترشيحه على رأس قائمة العمل الى شيمون بيريز وزير الدفاع أما ليا رابين فقد قامت بدفع غرامة لمعدل ٢٧.٠٠٠ دولار .

خاص الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مثلهم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشارك في الحملة الانتخابية الا باندنى قدر . وكان ذلك اختياراً من ناحية وضرورة من ناحية أخرى . فخلال الاسبوع الاخير من شهر مارس وكان مزال باقياً على الانتخابات شهرين تقريباً أصيب بيجين بأول أزمة تلبية وأكثرها خطورة ودخل إحدى مستشفيات تل ابيب ولكن استراحة ليكود كانت قد تحددت قبل ذلك بكثير . وكانت تلك أول انتخابات تجري في اسرائيل بلوكالة فقد تم تعيين مؤر وايزمان الذي كان قد عاد الى الحزب لإدارة الحملة وأمر على ادارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكيل اعلانات مشهور . حيث وايزمان المراسلين بعد أن أطلق طلقة البداية : « أقرأوا ما بين السطور وابحثوا عن ما ليس هناك » .

وكتب يوسف جوثيل في صحيفة « جيروازاليم بوست » : « بلأم يكن هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحيرت الذي يشك في أنه نفر الكثير من الناخبين في الماضي حتى لا يحصل على نصر انتخابي . لم يكن هناك هجوم غير ضروري ولا أية إشارة الى موضوع الاراضى التى تحتلها اسرائيل والتي تثير الخلاف .

ظل بيجين أكثر مصغر القوة رواجاً بالنسبة لليكود ولكنه أصبح أكثر اعتدالاً — رجل لا يخاف الناخب المتردد . يقول وايزمان : « أنه رجل أمين

لا يهتم بالانتماء التام في تلك الايام انه يعيش بتواضع وليس لمجرد تحقيق اهداف علاقات عامة ، ولا يضيع وقته سدى في الحديث مما يؤيده ومما يعارضه .

اصبح بيجين ديمقراطيا ، مقابلا ( منذ سن السادسة عشر كريس مناحيم بيجين كل جهده ، وموهبته وقدراته لقضية واحدة ، توطيد تقدم الشعب اليهودي على ارضه ) انه الرجل الشريف ( المتواضع ، ذو العمل الخالص ) . ورجل الماثلة ، كان المتناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل ، ولم يكن الليكود في حاجة الى كشفها ، فقد كان المناخبون مدركين تماما للفضائل الاخيرة ولسمعة بيريز في الالتواء والتسلط ، كان بيجين يظهر وهو يداعب اعداءه ، يخطب ، ويزور الجيش ، ويحمل حفيده الطفل عند الاحتفال بختانه . وفي المقابل اخذ العمل يسخر من بيجين : « اكتشف الليكود اكتشافا خطيرا وهو ان بيجين انسل بال فعل » .

واعلان الياهو بن اليعازر رئيس لجنة دمية ليكود المشتركة امام عمال الحزب :

« ايها المسادة اننى اريد ان اقدم لكم ومن طريقكم شكل الحياة تحت حكم الليكود ، تحت حكم مناحيم بيجين ، ستكون بلادا جميلة ، وسيكون من دواعى السرور والفخر العيش فيها ، حيث لا تكون هناك رغبة في الاضراب وحيث يخل الشخص من السرقة سيكون هناك احترام بين اليهودى والاخرى ، بلاد لا يشمر اينالها بالخل من كونهم يهود او مسيحيين . اننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لصالح الدولة وفي الجيش او في اي جهاز وطني آخر شرفا وامتيازاً .

لم يرد اى ذكر للاراضى المظلمة ، او للحقوق اليهودية او للخدمة او الشهداء القدامى وهم يعلقون على المسئلة . ولكن كان « بين » مسؤل سيطر على السياسة من وراء الكوليس لقد تولى من الحملة الانتخابية لمازور وايزمان ورجاله الجدد ، ولكن لم يتخل عن الحزب .

ويشهد ابن اليعازر « ان برنليج الحزب كان دائما من وضعه في سنة ١٩٧٧ ، كما في السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب ، ويهودا والسامرا » .

خرج بيجين من المستشفى ومن مناجرة تليفزيونية مع شيمون بيريز — وهي بدعة اخرى في الانتخابات الاسرائيلية — ظافرا . لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائي كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما حال بيجين خلالها وجال . ولكن ما كان يهم الليكود هو ان المناظرة اخذت اى شكوك حول محبة

بيجين ، كان مقاتلا — غير متوقفا مأزحا . وكان واضحا انه بمثابةك لنفسه ومادته ومثير لدهشة بيريز بقتباسه عبارات من اقوال وزير الدفاع نفسه .

اظهرت استطلاعات الراى النهائية ان حزب العمل مازال متقدما تقديما طفيفا ولكن ليكود كان يكتسب أرضا بسرعة وقال واحدا على الاقل ممن شملهم الاستطلاع ان بيجين ربما ينجح اذا ما حصل على دفعة . ولكن لم يأخذ رايه بجديّة سوى عدد قليل من المعلقين . لكن الادعاءات القديمة تصبوت بسرعة . فعلى الرغم من كل شيء كان العمل يمر فى لحظاته الاخيرة كحزب يشكل حكومة . كان بيجين مازال فى دور النقاهة ولكنه تجول فى مراكز التصويت خلال النهار . ثم عاد الى منزله فى تل أبيب الواسع فى شارع روزينوم ليستريح مع زوجته اليزا وأبنتيه هلسيا وليا وصديقين من اسنقاء العائلة التداى ، مكس ويهوديت نعيمير . وبعد ان تناولوا عشاءا بسيطا ، شاهدوا التلفزيون فى الحجرة الضيقة التى يستضيفها بيجين وزوجته كحجرة معيشة ، ونوم ومكتب . وكأنت هناك حجرة نوم أخرى فى المسبة التى ملأها فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك فى النوم فيها اولاد بيجين الثلاثة خلال فترة المراهقة . وهناك ايضا صالة صغيرة . وحمام ومطبخ كان ابن بيجين بلجاين يدرس فى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراة فى الجيولوجيا وكان اكتر اولاد بيجين ميلا الى السياسة ولكنه اقل حبا للظهور وهو شاب يقدر خصوصيته .

فى الساعة الخامسة عشرة مساء بعد انتهاء التصويت مباشرة أدهش حاييم يالين كبير مخفى التلفزيون الاسرائيلى المشاهدين بالثبوت بنوز ليكود اعتماده على غيبة التلفزيون غير الرسمية للتصويت وفى شارع روزينوم لم تستطع بنلت بيجين السيطرة على انفعالاتها ولكن والدها استقبل الافباء بهدوء بل يشك فى النتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع هلسيا ذكرياتها تقول : « كان والدنا اكثر هدوءا وخاصة والدنا — جلس والدى فى كرسيه الفضل مرتبة روبرت ذى الشهير على تيمى ونطلون .. أخذنا نتحارب اطراف الحديث كما لو ان شيئا خاسا لم يحدث .

تجمع حشد كبير من الناس خارج المنزل ، حرس من البوليس ، دلائل التفسير اتخذوا امكانهم لحماية رئيس الوزراء الجديد ، كان بيجين مازال ينتظر كان الوقت مبكر جدا للاحتفال . عندما وصل سكرتيره السياسى يهيل كاهيشاى فى الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدموقه للذهاب الى مقر الحزب الذى يقع على مسيرة خمس دقائق اجاب: بيجين : « مازال امامنا وقت ، ان هذا مجرد تعمين من الاولاد فى التلفزيون » وجده وراءه فى قلمة جابوتشيسكى « كان مرتديا ملابسها ولكن بدون ربط خنق او سكرة » .

ذهب ليحلق نخعة بهم بماد ومضن يشاهد التلفزيون وفي نحو الساعة الثانية والربع نطق قرر ان الوقت قد حان للذهاب الى مقر الحزب وعندما أصبحت النتائج واضحة .

احتشد المئات من مؤيدي ليكود في المطابق الثاني من قاعة الاستقبال في شارع الملك جورج . حاول عازر وايزمان ابعاد بعض اعضاء الحزب غير المهمين ولكن كانت تلك ليلة طال انتظارها ، ولم يكن احد منهم يريد ان تفوته ذروتها . عندما امتلأت نشرات التلفزيون بانباء الانتصار غابوا في دوامة من الصدمة والابتهاج الفاهر هل يمكن ان يحدث هذا حقيقة ؟ جيبف شاميتسر ، مهاجر امريكي شاب جنده — الليبراليون للعمل في مكتب صحابة ليكود ، انضم بحماس الى الصحف والمرح : « اننا نحتفل جميعا ، لقد عملنا بجهد وكسبنا الانتخابات » . فجأة قام احد اعضاء الارجون انقداى بلمسكه من قميصه كان شديد الغضب وسأله : « من انت انتك كنت هنا من مدة شهور فقط ، ايا لنا فقد انتظرت ثلاثين مليا من اجل هذا » .

سرت الاشاعات المتناقضة ببجين سيانى ، لا لن ياتى وأخيرا في نهو السابعة الثانية والنصف وصل الزعيم ومائلته كان ببجين يبدو نحيفا وضعيفا نتيجة للزربة القلبية الأخيرة . حاول مساعده حمايته من انفذاع الجماهير ولكنه عانى بسعادة مسيحا ارليخ الزعيم الليبرالى وعازر وايزمان مدير حملة ليكود الانتخابية . اوقف احد الحراس النيزا واينيه على الباب . كان بالداخل ما يكفى من الأشخاص بالفعل استعملته الابنة ثقيلة : « هذه امى مسسر ببجين ، اينما مع أبى مع ببجين » لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لانقاذهم اسحق شامير الذى اصبح فيها بعد وزير الخارجية وخلفا لببجين في النهاية . وعلى المسرح انضم ببجين الى الحشد في غناء : « يحيا شعب اسرائيل » مصفا بيديه على انغام الوطنية . كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة منه بقدر الامكان . السياسيون والمعالون في الحملة الانتخابية على امل الظهور في الصور التاريخية والاملام السينمائية ، امكن في النهاية امساح مكان ووقف ببجين بمفرده . تحت صورتين كبيرتين لجابوتنسكى وديرتزل . اخرج غطاء اسود للرأس من جيب بذلته شهدت اياها افضل وكتبا اسود مصفرا اخذ يثو منه الترانيم كان الخطاب الذى القاه بعد ذلك مسالما بصورة غير متوقعة ، لازهو بالانتصار ولا تهديدات . اقتبس ببجين فقرات من خطاب ابراهام لنكولن الذى القاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية . « بتون حقد على احد ، بالفخر للجميع ، بالثبات في الحق لان الله يهدينا لرؤية الحق فلنسمى لاتمام العمل المفوض بنا ، تضيد جراح الابنة . » وشكر النيزا للسنوات التى كرستها من عمرها للوقوف الى جانبته مقتبسا كلمات من النبي زيرماح : « انتنى اذكرك ، عطف شبلبك حب معتقداتك عندما يتبعنى في القية ، في ارض لم يثبت



بها زرع « وبعد استرجاع ذكرى جابوتنسكى دما بيجين كاتبة الاحزاب الصهيونية بما في ذلك حزب العمل — للاشتراك في حكومة وحدة وطنية اختلط أعضاء وانصار ليكود وسط صخب وصجيج رجسسال البوليس ، والصحفيين ، والصوريين ، غادر بيجين لندن على غير توقع كما حضر محاضرا بالمسامعين الحريصين عليه جاء زلزال انصنيف ومضى ، ابعاد الناخب الاسرائيلي ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جابوتنسكى واصبح الخارجون هم الممتعون للفظاسام .

نار ليكود في انتخابات سنة ١٩٧٧ بأغلبية بتواضعة وخسرها العمل بهبوط مدمر ارتفع نصيب بيجين من مجموع الاصوات بنسبة ٣٢٪ فقط وحصل حزيه على ثلاثة واربعين مقعدا بالمقارنة بنسبة وثلاثين مقعدا حصل عليها في سنة ١٩٧٣ وقتل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انتخابات مماثل في سنة ١٩٦٩ ، وسنة ١٩٧٢ أي انه فقد أكثر من نصف مؤيديه في الانتخابات التي جرت مرتين خلال السبعينيات وانخفض تمثيل العمل في الكنيست من واحد وخمسين بالاضافة الى ثلاثة من النواب العرب المنضمين للحزب في دورة ١٩٧٢ الى اثنين وثلاثين بالاضافة الى ثلث عربي واحد في سنة ١٩٧٧. كان اكبر الانتصارات في سنة ١٩٧٧ تلك التي سجلها حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، وهو حزب جديد للوسط بقيادة ايجال يادين عالم الآثار المسلا وجنرال سابق ، حصلت قائمة يادين على خمسة عشر مقعدا . ( أرا ) من مجموع الاصوات ) في أول معركة انتخابية يخوضها الحزب . وعلى الرغم من وجود شائويل تامير المنشق من ليكود اليميني على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير فان القدر الأكبر من التأييد حصل عليه من المنحرفين المنحرفين من وهم العمل والذين سمحوا لانفسهم برفاحية الوتوف ضد الحزب كانوا يعاقبون العمل دون — او هكذا تخيلوا — مكافأة ليكود . حصل يادين على أصوات من الليبراليين في ليكود واحزاب وسط اصفر ولكن نتائج انتخابات سنة ١٩٧٧ أكدت تغيرا جذريا أكثر بكثير مما احببته الطبقة المتوسطة الساخطة تمثل في تحول في الولاء الذي كان يهدد بتغيير وجه الحياة السياسية في اسرائيل على مدى جيل بأكمله . لقد صوت اليهود الشرقيون بقلوبهم بدلا من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف إجمالي عدد السكان ويسمبحون قريبا نصف الناخبين في المدن النابلية ، والقرى والمدن غير الكبيرة حيث يشكل اليهود الشرقيون ( اليهود الذين نشأوا في الدول التي تتحدث العربية ) أغلبية ساحقة حصل ليكود على ضعف الاصوات التي حصل عليها العمل . بينما حصلت الاحزاب الدينية على أصوات أقل وفي المدن التي جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل أوفاكيم ونيريفوت في الجنوب وكريكت شمونة وبيت شمعين في الشمال زاد

بعد الاصوات التي حصل عليها ليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب المين بنسبة ١٧٪ ( حصلت الاحزاب الدينية نسبة الـ ٦٪ الباقية ) كان الاتجاه ميئلا في المدن التي يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، ولكن بالاتجاه الى ليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلما زاد عدد اليهود من اصل امريكي او اوروبي كلما قل الاتجاه الي ليكود . اما القدس التي تسكنها اغلبيية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد اعطت لبيجين دفعة قوية ، وتقلت ثل ايبب التي تسكنها اغلبيية من اليهود الغربيين نصيب بيجين بسن الاصوات بنسبة ٢٪ فقط واعطت يادين ١٣٪ وفي حيفا حيث يشكل اليهود الغربيون الاغلبيية الساحقة قل نصيب ليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد اصوات المدينة .

ترجع محاولة استئالة اليهود الشرقيين واليهود السفرديم ( اولئك الذين طرد اجدادهم من اسبانيا في سنة ١٤٩٢ ) الى فجر حركة التصحيح كاحدى الحركات الصهيونية . قام جابوتنسكى بزيارتهم وتعهدهم بل انه اضاف لغة لادينو ( اليهودية - الاسيقية ) الى لغته المشر . وحث الحركة الصهيونية على اعطائهم نصيبا متكافئا في الاستيطان في الارض واثنى على نطقهم باللغة العبرية وسارح الارجون زغالي ليومي على نهجه وجندت لخدمة اليهود الشرقيين في الوقت الذي ركزت فيه الهاجئاته والمبالاخ على سكن الكيوترات وخاصة من بين خريجي المدارس العليا من اليهود الغربيين .

ويعد اقامة الدولة جند بيجين نفسه مدافعا عن اليهود المظلومين المدين الذين ينظر اليهم اخوانهم باحتقار وعرف حيروت نفسه على انه حزب الفقراء المدين والمقهورين « ويروي بيجين ان احد الهاجئاته سألته ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجاعات اليهودية الشرقية ، فاجابه ان الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة :

« لكن لانه امر على ان اشرح له ذلك ونهبت ما الذي خان يشايته ، اوضحت له انه خلال القتال السري كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة في الاصل عندئذ مهم . هذه هي الطريقة التي يحل بها المرء المشكلة ، ويتغلب عليها ويتوصل الى الحل الكليل بانهاه المشكلة » .

في الحقيقة فان كلا من الارجون وحيروت كانا ابدا مما زعم بيجين في اعطاء السلطة لليهود الشرقيين ، كشيء منفصل عن القيام بدور نشط . كانت القيادة العليا من الارجون قاصرة على الاوربيين وحتى في سنة ١٩٧٧ رشح ليكود عددا اقل من العمل من أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من ان بيجين كان اكثر كرما في تعيين وزراء من اليهود الشرقيين في وزارته .

سعى بيجين منذ الايام الاولى للهجرة الجماعية بعد سنة ١٩٤٨ للحصول على اصوات الناخبين . كان يقوم بجولات في خيام المهجرين دون أن يبدو أنه يفضل عليهم . لم يتوقف قط عن أن يكون يهوديا بولنديا ، ولكنه كان يخاطب اليهود الشرقيين بلغتهم العاطفية العميقة ذاكرا الله دون أثره للمعاطف . لم ينتهمهم نماسيم جايبوتنيسكى ولكنه كان يدعو الى القوة اليهودية ويحترق تأسيس العمل الصهيوني كل هدفه تحقيق شيء واحد وهو أن بيجين واحد منهم ولا يهم ماذا يأكل أو كيف يلبس .

ان حزب العمل لايلومن الا نفسه . كان ايدلوجية فرع من انثورات الوطنية والاشتراكية التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في اوربوا كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودى ، للفلاح ، للعامل وللبناة ، كلن اساسه علمانيا ، وهو انكار متعمد لتعليم الجيتو . كان اليهود الشرقيون يعيشون في ايقاع أبدا كانوا في توافق مع تقاليدهم لم يتعلم شبابه من اجل أحداث التغيير . جاؤوا الى اسرائيل من منطلق التقوى او الضرورة . شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين الى اسرائيل لخوفهم من أن يحولوا الدولة الى دولة « شرقية » وبدون سؤال القادسين الجدد عن المكان الذى يفضلون الذهاب اليه ارسلوهم لتعمير الحدود وملء الامكن الخالية . لقد ذهب الرواد الى هناك كذلك ، وبكن وفقا لارادتهم الحرة . عملت حكومات العمل على اسكان المهجرين وابداد اعمال لهم — ولم يكن هذا انجازا سيئا ولكن بطريقة توحى دائما بالفتاؤل .

استوعبهم في سياسات الملبأى ، في شبكة الوظائف والادارة ولكن كبرعوسين وليس كرؤساء . تشكل الجيل الاول الذى كان عاطلا منذ وصوله الى اسرائيل بطابع واحد كانوا يذمنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون في شمال افريقيا او العراق ، ولكن داخل بيوتهم كانوا يعربون عن استيائهم منها ، وكان اطفالهم يسمعون .

صاح احد الشباب : « جاء والدى من شمال افريقيا » في كيبوتز أبوز أوز الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب الى احدى المدن النامية : « حسنا ، من المقرب ماذا اذن ؟ ألم يحصلوا على احترام الذات ؟ لا ؟ تيهيم ؟ ايتهم ؟ ائننى لست شخصا متدينا ، ائننى اسافر يوم السبت ولكن والدى ، لماذا يسخرون من ايتهم ؟ لماذا نظفهم بالليزول في ميناء حيفا ؟ لماذا ؟ » .

أصبح الجيل الثانى اسرائيليا لم يهودوا يدينون بشيئا للعمل ومرغوا كيف يؤكدون ذاتهم . علمهم بيجين أن ليس فيهم شيء يخجلون منه . ولكن في الوقت الذى أماد لهم كرامتهم اجاز كراهيتهم لليهود القريبين الاشكنازيم وكل ميمثلونه ، السلبى والابجلى كذلك ، الطائفة الخلاصة والتبند الثقافى : المؤسسات الديمقراطية وادعاء التفوق . كلن ينثر الريح .

## الفصل السابع عشر

### تجربة ثقة رهينة

« ان هذه ليست اراضى محظنة لقد استخدمتم هذا التعبير لمدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ آمل ان تبدلوا في استخدام كلمة الاراضى المحررة . ان لكل يهودى الحق فى الاستيطان فى هذه الاراضى المحررة من الارض اليهودية » . خلال ثمان وابعين ساعة من نوزه فى الانتخابات اعلن ببجين تحذيرا الى المجتمع الدولى الذى اذهلته مناجات انتصاب ببجين ، ان ببجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة . عقد ببجين مؤتمرا صحفيا مرتجلا خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين فى « قادموم » بالقرب من « نبلس » ، اكبر المدن العربية فى الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها الى قادموم داخل حدود معسكر للجيش ، بعد اقامة مستوطنة رمزية اطلق عليها ايلون موراخ ، كتحدى لحكومة العمل ، وسط انتقاص سابستا المذكورة فى الثورة . وكانت زيارة ببجين قد تم ترتيبها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة فى معبد قداموم . ولكن الانتخابات حولتها الى حدث اعلامى وبداية استيغال المتبردين من جماعة جوش امونيم فى بنية ندارة الضفة الغربية . ومعد ببجين المستوطنين : « خلال اسابيع او شهور قليلة سيكون هناك الكثير من المستوطنات مثل ايلون ماروخ » . وقال : « لن تكون هناك حاجة الى قادموم » عندما سأل أحد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما اذا كانت حكومته ستقوم بضم الاراضى فقال : « اننا لا نستخدم كلمة ضم ، انك تضم ارضا اجنبية ، وليس بلدك نفسها » وسأله آخر ، اكثر فطنة فى استخدام لغة الصهيونية الجديدة : « هل سيطبق القانون الاسرائيلى فى الضفة الغربية » . وبخه ببجين قائلا : « قل يهودا والسهرا . استخدام الاسم دائما » . كتبت الانفاظ واضحة تماما ، ولكن ببجين أخذ يتلاعب بمضمون السؤال : « ان هذه مسألة تقديرية » عندما تشكل الحكومة فاننا سنذهب الى الكنيست ونطلب اقتراحا بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التى يمكن اتخاذها » . كان بيان ليكود الرسمى حول الضم اقل ليافة . ظهر سبب حذر هذا بعد اسبوع وقد ادهش ذلك حزبه كما ادهش المعارضين والامة بأسرها .

دعا ببجين موسى ديلن ، الذى كان قد اعيد انتخابه للكنيست على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته . وعلى الرغم من عودته الى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب ، قاوم ببجين المطالبات القوية التى قدمها للبيراليون لاسناد المنصب اليهم . يزعم اريخ دلزير انه بينما لم يكن هناك

تمهد شخصى من بيجين فقه كان هناك اتفاق بين حيروت والمزماء الليبراليين بين بيجين وسيما أرليخ على ان يتم تقسيم المناصب الاربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حيروت على رئاسة الوزراء والدفاع ويحصل الليبراليون على المالية والخراجية . توقع الليبراليون ان يحافظ بيجين على الاتفاق ، ولكن انكاره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف ، كذلك لم يلق بالآى رد الفعل الغاضب الذى ابداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمتها العائلات التى نكبت بفقد نوبها فى حرب يوم كيبور والتى تلمت بالقاء الحجارة على شقة بيجين فى شارع روزنبروم . كان مقتنعا ان مسحة ديان فى الخارج مازالت عالية حتى ولو لم يفر له مواطنوه . كان الرجل ذو الرفعة على عينه مازال مستر اسرائيل . قتل بيجين من فراشه فى المستشفى :

» قررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية ، بعض النظر عن كامة الإمبرارات الحزبية ، لاتنا نحتاج خلال السنوات القادمة الى وزير خارجية يتمتع بمكانة واحترام عالى ، ولا يساوى للشك فى ان مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ، ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا امر بالغ الاهمية بالنسبة لملاقات اسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة « .

لم يكن غصن الزيتون الذى مده بيجين للعرب حيلة ديمقراطية . كان يريد استكشاف الاحتمالات وخاصة مع مصر . وعلى العكس كان مرتبها فى نوايا السادات ولكنه كان يريد الآن اختيارهم بنفسه . فلذا اثبت السادات اخلاصه فانه سيكون من السهل التوصل الى سلام مع مصر اكثر من « الفصوب القريبة الاخرى » . لم تكن سيناء جزءا من أرض اسرائيل . كان اختيار ديان اعترافا من ليكود بأنه ليس لديه مرشح لمنصب يتقارن بديان فى قدرته أو خبرته . فمن بين وزراء ليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى رأسها جولدا مائير . أكد تعيين ديان كذلك الاستراتيجية . وهو ما أكدته احتفاد بيجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كفوا على صلة وثيقة بمنفله من حزب العمل : مثل دان باتير المتحدث الرسمى ، ويهودا افيرر مستشار علاقات الديلمسبور وكتب خطب رئيس الوزراء التى يلقيها بالانجليزية والبريجيدير — جنرال افريم بوران السكرتير العسكري واولى مزراحي مدير مكتب رئيس الوزراء . كان يريد أن يظهر للعالم ان انتقال الرئاسة اليه كان انتقالا ديمقراطيا وليس انقلابا قامت به حنة من الارهابيين المتعاضدين .

كان ديان قد ترك منصبه مع مسز مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنه استعاد مقعده فى الكنيست وكان أحد أعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حزب العمل لانتخابات سنة ١٩٧٧ . واجاب على التساؤلات بقوله انه طالما خدم الدولة نصت شخصيت عملاقة مثل بن جوريون وجولدمائير فانه لن يقوم

بدور ثلثوى تحت ابرة زعماء اصغر ( وائل ) مثل اسحق رابين وشيمون بيريز . ويدور انه كان يعد بيجين واحدا من جيل الإبطال حتى ولو كان أكبر بستين فقط من ديان . كانت جذور وزير الدفاع السابق عميقة في حركة العمل . ولد ديان في داجانيا وهي أول كيبوتز . وكبر في ناهل وهي أول موشاف . ولكنه كان دائما ذئبا وحيدا ، رجلا غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية . كانت لديه ثقة لا تهتز في حكمه الشخصي ، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة ان تتحول الى عقيدة ملهنة . اثبت النقاد انه شيء أصعب مما كان يتوقع . فاذا كان هناك ما يمكن عمله فانه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط . كتب ديان يقول : « قدرت انه سيتمعن على إسرائيل قريبا ان تتخذ قرارات خطيرة ستشكل مستقبلها واننى اذا استطعت ان اشترك فى تقرير السياسة فاننى استطيع ممارسة تأثير ضخم على قرارات الحكومة تلك . كانت العقبة بالنسبة لديان هي مصير الضفة الغربية وقطاع غزة . كان ضد ضمها وبالمثل كان يعارض عودتها الى السيادة العربية . كل يحلم بتسوية مؤقتة ترضى على نحو ما كل من إسرائيل والاردن دون اللجوء الى الابتكارات الأوروبية مثل الحدود الوطنية . وافق بيجين بناء على توصية ديان ان لا يتم ضم الاراضى « فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات » وان يستمر السكان العرب فى ارسال مندوبيهم الى البرلمان الاردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية من طريق عمان . تبنى ديان سياسة « الجسور المفاوكة » فى سنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعد عشر سنوات . وقد ارست تعهدات بيجين التى اكدها فى جتلمحه بالمستشفى ديان . وكتب لى أحد المنتقدين فى إحدى الكيبوتزات يقول :

« ان البديل من ترتيبات أمنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد . هل يمكن أن تكون حكومة برئاسة بيجين أفضل لإسرائيل بدونى ؟ واذا ما انضمت اليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق اهدافنا — كما اراها ؟ هل لدى ، فى الحقيقة حلا لمشكلة — نزاعنا مع العرب وهل ساكون قادرا على العمل وفقا لتصوراتى فى مثل هذه الحكومة ؟ اذا كثئت الاجلبة على السؤال الاخير بالإيجاب فهل يتعين على ، رغم ذلك ، ان ارفض عرض بيجين ؟ »

كانت المقامرة قد بدأت . من الصعب تصديق ان ديان تردد طويلا فى اتخاذ قراره . قال لزميل من أعضاء الكنيست من حزب العمل وهو جاد بلكوبى : « كان السؤال الذى كان على أن اواجهه هو ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن أن يغير بشكل أساسى الموقف لصالح إسرائيل : » . كان ديان مختلفا بدرجة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت انه على صواب .

لم يكن عرض بيجين على ديان مناجيًا . فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الايام الاولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حيروت بزيارة الى فيلا ديان في تل أبيب في حي الضباط المتقاعدين في زاحالة . ووفقا لرواية ديان فانها كانتا يخطان عرضا يان يدخل ديان الانتخابات على قائمة ليكود ، لكنه رفض لان بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة اعطائه التأكيدات التي كان يسمى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة . اقترح بيجين أن يترك الباب مفتوحا . وخلال احدى مناقشات الكنيست بعد ذلك بخمس سنوات قسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تنسيرا مختللا قولا ان موسى ديان قام بالمبادرة وتطسوع من تلقاء نفسه باملان استعداده للعمل تحت رئاسة بيجين اذا قام بتشكيل حكومة ثالثة . يضيف يهيل كاديشاي ان محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى انشيلوف في شهر مارس . ووفقا لكاديشاي فان بيجين دخل الى المستشفى لاجراء فحص عام وانه أصيب بأول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له .

على الرغم من تعاونهما في حكومة الوحدة الوطنية فان الفزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحتة . يقول نافتالي لافي الذي كان متحدثا باسم ديان في حكومتي مائير وبيجين ان ديان لم يكن يحل الحب لزعيم حيروت :

« كان يقدر تصميمه ، قوته والطريقة التي كان يصرف كيف يمارس بها هذه القوة ، كان ديان يقدر أكثر من أي شيء آخر افضلاص بيجين ليهودا والسابرا على الرغم من ان دوافعه للوصول اليها باعتبارها جزءا من أرض اسرائيل لم تكن مثل دوافع ديان . ولكنه كان يكره أسلوب بيجين ، لغته الطنانة ، ومبالغاتة مما كان يعتبره تمثيلا رخيصا . كان يعتقد ان بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم الى اتفاق مقبول لا يجرح كرامتهم ، اتفاق يعطيهم الحق ما تستطيع اسرائيل عرضه عليهم « دون القيام بمخاطرة ضخمة بلهتنا نحن » .

كان ديان يقبل حلا سياسيا لا تكون فيه الضفة الغربية جزءا من اسرائيل . كان تطلعه بالامكن هناك لا معنى اننا علينا ان نستولى عليها . كان ديان مستعدا لان يعيش آخرون جنك وفقا لاسلوب حياتهم ولكنه كان شديد الخوف من ان يتحول حكم العرب الى شيء لا يكتن السيطرة عليه . كان يعارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود جناسين في الا يضمو أشخاصا اجانب ومعاين وارغلمهم على أن يكونوا اسرائيليين . ان الفلسطينيين في الضفة الغربية يجب ألا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دعوة جيوش عربية أخرى . وخلاصة الأمر ، ان ديان كان مستعدا لاعطائهم الكثير . وكان يفضل اعطاء الاردن دورا كبيرا في اقلية مجتمع يتمتع بالحكم الذاتي .

أما فيما يتعلق بموقف بيجين إزاء ديان فإن أحد موظفيه وصفه على هذا النحو : « أنه قام بتعيين ديان أولا وقبل كل شيء بسبب سمعته الدولية » . وكان أيضا يكن احتراماً لديان ، ذلك الاحترام الذى يستحقه كل من كان جنرالا بلزا في القوات المسلحة الاسرائيلية . كلن يتصلح في رغبة ديان في الاستقلال بأرائه » .

استغرقت اسرائيل وقتا طويلا في تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقه اجراء انتخابات عامة . كلن على بيجين أن ينتظر ثلاثة أسابيع بعد فوزه في الانتخابات قبل أن يستكمل الرئيس ابراهم كاتزير مشاوراته الشسبية بالطوقس مع جميع الاحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد في الدورة التاسعة للكنيست ، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة . وخلال تلك الفترة تم بيجين بتغيير سيادة حزب العمل في ابقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المدن الجبلية في يهودا والمسامرا حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية ، وانتزع موسى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى التى تخلصا للمرة الثانية دون امراض تذكر سوى التهاب في الغشاء المحيط بالقلب .

في مقر الرئيس الاسرائيلي في القدس التعلقت الصور لبيجين وهو يصافح رئيس الدولة ويقبل مسز نينا كاتزير . كان يتصرف بشهامة كما لو كان أحد نبلاء العصور الوسطى . ومن منزل الرئيس ذهب الى الحافظ القرى حيث وضع غطاء الرأس الاسود . كلن بيجين أول رئيس وزراء يمين هويته باعتباره يهوديا اكثر منه اسرائيليا . كتلت الدولة بالنسبة له هي ارض اليهود وليس فقط تلك الاقلية من الجنس البشرى التى تصادف ان تعيش هناك . وبالنسبة له فان اليهودية لا يمكن ان تفصل عن الديانة اليهودية . كانت الزيارة عملا من اعمال التكريس قام بها رجل يعتبر نفسه حاكما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء اسرائيل . وعندما ذهب الى هناك مرة اخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الرأس الذى أصبح شارة مستوطنى جوش امونيم .

كان يجب مرور اسبوعين آخرين قبل أن يستعد بيجين لتقديم حكومته الى الكنيست وحلف اليمين . كان السؤال الاساسى موضع الخلاف في مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما اذا كان فريق الحكم سيضم حزب ايجال يادين الجديد . الحركة الديمقراطية من أجل التغيير — الذى خرج من أول انتخابات يخوضها وهو ثالث اكبر الاحزاب بمعد ليكود والعمل . كلن الديمقراطيون تواتبن للحكم ، كتقوا حركة اصلاحية تمهدوا لمحصاء الامة معد انتشار الفساد والمصالح الذاتية خلال حكم حزب العمل في السنوات الاخيرة . كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هي السياسة الداخلية وليس الخارجية على الرغم من انهم اعلنوا عن تأييدهم للتوصل الى تسوية حول



الأراضي في الضفة الغربية . كان زعماء الحركة يشملون الخارجيين من اليمين وكذلك من اليسار . كانوا يحتلجون إلى تولى الحكم ، وإلى فرصة لتحقيق نتائج ليونوا بوعودهم للناخبين . لم تكن المعارضة كفية وما كانت يمكن أن ترضى طموحات رجال مثل يادين وشبول نلير . كانت المشكلة أن بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطية الخمسة عشر . كان التوصل إلى اتفاق مع الحزب الديني القومي ، واجودات إسرائيل ، شديد التطرف سيمعطي ليكود — مدعما بإيريل شارون — الذي حصل على مقعدين بقلية خلسة ولكنه سرعان ما انضم إلى حيروت — أتلان وستون مقعدا من مجموع المقاعد في الكنيست البالغة مائة وعشرين . فإذا استقال ديسان من عضوية العمل لانه سيحتفظ بمقعده في الكنيست ، فممنئذ سترتفع عدد المقاعد إلى ثلاثة وستين مما يعطي بيجين أغلبية ستة على الأقل ( عضو مستقل آخر هو شبول ثلاثون الذي كان مطلوباً بتهمة جنحة مالية في فرنسا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان ليكود حريصا على إبعاده ) .

استطاع بيجين مناوره يادين تمعده تجربة ثلاثين عاما من الضداع الحزبي . كان يريد الديمقراطيين في الائتلاف ، أنهم سيعملون على توسيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع أحد اتهامه بأنه يقود تحالف من الإيديولوجيين اليمينيين والمتعصبين النظريين . كانوا سيهينونه أمنا في عدد المقاعد ولكنه كان يريدهم وفق شروطه . اعترض يادين على تعيين ديسان وعلى اتفاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية . سمارع زعيم ليكود بلجراء المفاوضات وأرقم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والامن . طالب يادين بسحب العرض المقدم لديان لتولي الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتوحا أمام التوصل إلى تسوية حة الأراضي ولكنه لم يكن ندا لبيجين . فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها موسلة التفاوض للتوصل إلى أوسع ائتلاف ممكن ، وقررت بالتحديد أن أي قرار باسناد الوزارات ستنظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض . وفي نفس الوقت أخذت اللجنة المركزية مذكرة بقتراح بيجين بأنه يجب تولى ديسان لوزارة الخارجية . وقال سيمها أرلينغ لهذا المتشككون : « انفسا سننكم عن هذا عند تعيين المناصب » . لم يتغير شيء في التطبيق . كان بيجين يريد ديسان وفي النهاية ما كان باستطاعة أحد مخالفته ولكن هذا أعطى الديمقراطيين ذريعة للمودة إلى ملادة الوزارة . ومثلل ديسان بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية ، وكذا استعداد حكومته للاشتراك في محادثات السلام في جنيف عندما تعقدها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أساس قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ٣٢٨ . كان بيجين تد قلم قبل ذلك بسبع سنوات بسحب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢ . كان التعمد بالتخلي عن تلك الموافقة غير ملائم

بالنسبة لحماة الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئك الذين كانوا يحتجون للتفجيع . قدم بيجين وزارته الى الكنيست في الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتة للديمقراطيين . وبعد أربعة شهور أثرت خيلة بيجين التي توصل اليها بالصبر والتهديد والاضراء كما أرادها بالضبط . انضم يلاين الى الائتلاف ككتائب لرئيس الوزراء ولم يكن يهلك سوى حق التأخير ( وليس الفيتو ) حول بنساء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية والقيام بدور اسمى كمنسق للسياسة الاجتماعية . ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد الى ستة وثلاثين بين عشية وضحاها بينما واصل حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، ببراءة ، طريق الحلول الوسط والتفسيخ حتى أصبحت الحركة لا تصمدو أن تكون ذكرى وتحذير عندما حان الوقت للدعوة الى انتخابات أخرى في سنة ١٩٨١ .

دفع بيجين من طيب خطر ثلثا باهظا في مقابل أصوات الأحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات اسرائيل التي كانت تسيطر عليه من خارج الكنيست هيئة من الحكماء الموقرين . كان الحزب الديني القومي ، حاملا لواء الصهيونية الدينية يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم في التوازن بين ما هو علماني وما هو مقدس في الدولة اليهودية . وقد حال دون السماح باختلال الزواج والطلاق المدني وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيسار الأرثوذكسي المتشدد في اليهودية ، وقاوم الاتجاه الى الاعتماد من مراعاة المستعمر اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت في الخدمات العامة . كان حزب أجودات اسرائيل يسعى الى المضي أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصالح الديمقراطية ( حكومة دينية ) . كان الحزب يجاهد من أجل ذلك لانه - بالإضافة الى الحصول على الاموال العامة من أجل نظم تعليمه الخاص - كان دافعه التوجيد للدخول الى السلطة السياسية . كانت السياسة الخارجية وسياسة الامن خارج ادراكه . كانت لدى بيجين موانع أقل مما كانت لدى رؤساء الوزراء من حزب العمل للتوصل الى تفاهم ، كان يعلن بسعادة - انه « أحد المؤمنين في اسرائيل » . بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية ، واسرائيل مدينة لاجيال من اليهود الاتقياء باحترام قيمتها وممارساتها . كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع في ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والاربعين ما عدا عشر فقرات تتناول التطبيقات والمزايا الدينية . وخلال أول حكومة لبيجين وجلت الفتيات من « العائلات المحافظة » من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الاجهاض في حدود القانون وفرضت قيود على الاطباء في القيام بتشريح الجثث مما أدى الى حدوث حجز في الملكى وغيرها من « قطع الغيار » اللازمة لعمليات زرع الأعضاء . ومنع النشاط التبشيري المسيحي .

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفران شعر بيجين بالرغم من انه استطاع اقلية ائتلاف حاكم لم تكن اسمه ثابتة في الداخل فقط ولكنه كان

جديرا بالثقة بدرجة كافية تردع أى دولة معادية من التفكير فى إعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر . كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم : يادين ، وعيلان ، ووايزمان ( الذى كوفىء بالسناد وزارة الدفاع اليه لنجاحه فى ادارة الحملة الانتخابية ) وشارون ( الزراعة والمستوطنات ) ومائير ابيت ( رئيس المخابرات السابق تم انتخابه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل ) .

انار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والمعداء فى الغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت زكريات الارجون زغاي ليوى كما لو كان لم يحدث شيء منذ سنة ١٩٤٨ . كتب لويس هيرين فى صحيفة « التليز » اللندنية يقول : « ان مؤسس اسرائيل يجنى ثمار الارهاب . الارهاب يؤتى ثماره ويجب تشجيع عرفات » . وكتب عضو قديم فى الوحدة السادسة المحمولة جوا الذى فقد احد رجليه فى هجوم قامت به الارجون فى ناتانيا الى السفارة الاسرائيلية يقول : « اذا جاء بيجين الى هنا فالتى ساقطه » وفى الولايات المتحدة اعربت صحيفة « نيويورك تايز » عن قلقها ازاء السياسات فى الشرق الاوسط .

أما « التايم » فقد أثارت شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصحت قرائها بان « بيجين يتطلب مع ملجن » .

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القوية ، والرفض العنيد لرؤية الارجون من خلال عيون قائدها . وطلب اعتذارا من شبكة تلفزيون سي . بي . اس الامريكية لوصفه بالارهابى السابق . وأجيب الى طلبه وقال لاحد المذيعين الاسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة :

« اذا قدمنى احد على اتنى ارهابى وقدم ياسر عرفات على انه لدائى مقاتل فانتى لا أحصل له سوى الاحتتار . لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كن يتعرض للإبادة فى أوروبا . واعتقد أن ردود الفعل الغبية هذه ستلاشى عندما تشكل الحكومة . وأنا مدعو للاجتماع بالرئيس كارتر فلذا لم تتوقف حتى حينذاك فالتى سأعرف كيف أتصرف » .

كان الاسرائيليون من كلمة القناعات السيلسية يقدرون بوضوح أكثر من الاجانب أنهم قد انتخبوا اول رئيس وزراء ايديولوجى ، الرجل ظل يريد نفس الافغنية لمدة أربعين عاما ويعنى كل حرف فيها : « أنه سيكون مستعدا لتأييد كل كلمة حتى آخر دولار أو أخضر قنفية » أنه جدير بالثقة لدرجة مخيبة ، وفى الحقيقة فان بيجين جاء الى السلطة وهو أوضح من أى من أسلافه ولكنه كان يعترف صراحة أنه يتطلع الى مؤرخيه المفضلين وكتاب السر الذاتية لاهداده بالجهل الماثورة للاستشهاد بها فى خطبه . ظل حاله هو

عالم المؤتمر الصهيوني . كفت رؤيته غير واضحة ، وعرقية . كان يقي من أجل المعالجة اليهودية ويدعو الى التمسك بالكرامة اليهودية وينفر بالقوة اليهودية . ماذا كان مستعدا لاجراء محادثات مع العرب للتوصل الى سلام فانه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . وقال عند تقديم وزارته الى الكنيست في ٢٠ يونيو ان تطلب من اية دولة الاعتراف بحقوقها في الوجود :

« ان الله آتانا هو الذي منحنا حق الوجود منذ وميض فجر الحضارة الانسانية منذ ما يقرب من اربعة آلاف سنة . ومن اجل الحق الذي جرى في الدم اليهودي من جيل الى جيل ، فلما ثننا له في تاريخ الامم . حقيقة ان هذه الحقيقة لا تحي او تضعف حقنا بل على العكس . ولهذا فانهى اؤكد مرة اخرى اننا لا نتوقع ان يقوم احد بالثيابة عنا بالاعتراف بحقنا في الوجود في ارض اجداننا . انه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا ، اعتراف بالسيادة والحاجة المشتركة الى حياة يسودها السلام والتفاهم ، ان هذا هو الاعتراف المتبادل الذي نتطلع اليه وسنبذل من اجله كل جهد ممكن » .

ونما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة . كان يؤكد ان اسرائيل حليف ومصدر قوة . فأمريكا تحتاج اسرائيل بنفس القدر الذي تحتاج به اسرائيل الى امريكا . خلال أزمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سفرت جولدا مائير ولبا ايلان من « سذاجة » بيجين . ولكن بالنسبة للموضوعات التي تمه كان رئيس الوزراء الجديد مستعدا للتودد الى امريكا ومقاومة ضغطها في نفس الوقت . كان مصمما على تثبيت حدود ارض اسرائيل نهائيا . ومما كانت حقائق القوة فانه نادرا ما كان يلجأ الى الخداع ، ولم يوضع استعداده « لكل السمن الصناعي » اذا لزم الامر موضع الاختيار قال أحد خبرائه في الشؤون الامريكية « انه مقتنع كلية ان الشعب الاسرائيلي سيواصل المسيرة معه ، كان يؤمن بقوة الائتلاف ، بالكلية ، بقدراته على الائتلاف . انني ليس لدي شك اطلاقا في انه اذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حول موضوع ذي أهمية بالغة بالنسبة له فانه لن ينحني » . خلال زيارة بيجين الاولى الى واشنطن في يوليو سنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمي كارتر على اظهار مرونة حول الضفة الغربية فما كان من بيجين الا ان قلم ببسط « خريطة للامن القومي » احضرها معه تحسبا لهذه اللحظة واخذ يشرح المخطط الناجمة من السماح للديمقراطية العربية بالعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وقال للرئيس كارتر الذي شعر بالارتباك ، « اننا ناسب ثلاثي » وكان معنى انه من بين كل ثلاثة يهود تقتل يهودي في الهولوكوست النازي . ومضى يقول « لم يكن ثلاثة يهود الرجس اليهود الدخاخ عن نسلهم كان عليهم ان يسلموهم الى القاتل . ثم بدأ يقول :

« لقد اخذت على نفسي عهدا .. » ثم انفجر في موجة انفعال . وعندما حذره كارتر في نفس الجلسة في حجرة اجتماع الحكومة الامريكية في البيت الابيض من المضي في برنامج الاستيطان الضخم الذي وعد بالقيام به في الاراضي المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة بمعدة مسبقا بعدد المدن الموجودة في الولايت المتحدة وتحمل اسماء عبرية مثل ساليم والقدس وتساقل قللا : « ماذا ستقول اذا قال حكام تلك الولايات انه لا يمكن أن يعيش يهودي في تلك المدن ؟ . كان مسئولو السفارة الاسرائيلية المصالحين لبيجين للمرة الاولى يعرفون أن هذه لا يمكن ان تكون كلمة اسرائيل الاخيرة ، واصيبوا بالانزعاج ازاء حدة كارتر حول موضوع المستوطنات وعندما عادوا من البيت الابيض الى بلير هاوس ، قصر الضيافة النخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوي القيام به ، رد بيجين قائلا انه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط . وتنبأ بان الامريكيين سيتحصنون لمدة ستة اشهر ثم يعودون الى الحالة الطبيعية .

كان اول حاكم عربي يتقرب اليه بيجين في بحثه عن السلام واكثرهم قابلية وتلقا هو الملك حسين ملك الاردن . كان وزراء اسراييليون يقومون بالاجتماع به سرا منذ ما قبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لا يزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومات ليفي اشكول ، وجولدا مائير واسحق رابين . اما اكثر المبادرات توجها لوجه فقد قام بها ايجال آلون وزير الخارجية الراحل الذي اجتمع بالملك اربع عشرة مرة ، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثمان مرات . واجتمعت به مسر مئير لأول مرة في باريس قبل حرب الايام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد ، وفي اسرائيل بعد ذلك عندما أصبحت رئيسة للوزراء . ويضيف نفتالي لافي أن ديان قد تحدثت الى الملك « عدة مرات » بها في ذلك عدد من المرات عقب استقالته كوزير للدفاع في سنة ١٩٧٤ . وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعات في اسرائيل . ويقول احد شهود العيان أنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق اية نتائج ماتها كانت اجتماعات جبيلة ، ومنفتحة حرة ، مفتوحة وودية بين جنرالين وآخرين على شكلته .

ومور تولى السلطة ، ألح بيجين من طريق الوسطاء الى أنه يرغب في الانضمام الى اجتماعات حسين .

### القسم الثالث

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع الامر الذى اغضبه كثيرا . وعلى الرغم من ذلك فقد نوى ديان في حضور اجتماع خلص مساء يوم ٢٢ أغسطس بعد ان تخلص وزير الخارجية الاسرائيلى من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الاملى والتوارى في سيارة كانت في انتظاره في الخلف .

وعلى الرغم من ان المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين ، الا انها لم تكن مثمرة بالرة . وقال الملك انه نفى يده من الضفة الغربية والمشكلة الفلسطينية . وأعلنت الدول العربية ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . واذا كانوا لا يريدونه ، فبوسعهم ادارة دفة شئون الفلسطينيين بدونه .

وكتب ديان يقول ان محاولة ايجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هي محاولة تتسم بعدم الاكثراث فيها يبدو . . وفى الاجتماع الثانى ، أوضح الملك حسين موقفه بشأن احوال تقسيم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ، أى تسوية إقليمية .

وقد رفضها على الفور ، اذ ان أى ترتيب للسلام يقوم على أساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه انه يعنى ان يوافق حسين على ضم جزء منها الى دولة اسرائيل ، وقال يجب ان أفهم انه بصفته ملكا عربيا لا يمكنه ان يقترح حتى على شعب قرية واحدة ان يقطعوا أوصالهم مع اشتغالهم العرب ويصبحوا اسرائيليين . وسيتم النظر الى موافقته على خطة من هذا القبيل على انها خيانة . وسيتعرض للاتهام بأنه باع أرضا عربية الى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته . . وقال ان الحل الوحيد لتحقيق السلام هو ان تعود اسرائيل الى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧ . . وفيما يتعلق بمسألة السيادة ، يجب ان نعيد الى الاردن كافة الاراضى التى استولينا عليها في عام ١٩٦٧ .

وصرح ديان لمساعديه عندما عاد الى القدس بأنه لم يندهش لموقف حسين ولم يندهش كذلك رئيس الوزراء . وطبقا لما ذكره أحد أصدقاء بيجين المبرين ، فان بيجين لم يعتقد أبدا ان أية تسوية إقليمية ستفرى حسينا على التفاوض .

لقد كان يريد أن يستريح ضميره ، ويحصل عليها بعيدا عن نظامه ،  
وجس نبض حسين . ولم يؤمن ديان بذلك على أية حال . وقد عرفنا موقف  
حسين من المحادثات السابقة ، واستوضحه بيجين من جدول أعمال ديان  
ولو كان حسين قال نعم ، لما تغير شيء . الا أنه لم تحدث حتى المتابعة  
نفسها . إننا نعرف الرد مسبقا .

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع ، فإنه على الرغم من ذلك ، أوحى ديان  
قبل أن يلتقيا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين . ورد حسين بأنه لا يرى جدوى  
من ذلك ، فأراء بيجين معروفة تماما . وفي حدود ما هو معروف كلن اجتماع  
ديان هو آخر اجتماع يحضره الماهل الأردني مع وزير اسرائيلي . وكان  
بيجين على استعداد للبحث في أي مكان آخر .

## الفصل الثامن عشر السلام وفق شروطنا

كان ذلك بعد الفلانة من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار ، مدير عام مكتب رئيس الوزراء وعميلا سرييا سابقا يحل درجة الدكتوراة في التاريخ ويطلق لحيحة سوداء تشبه لحيحة تيودور هيرتزل ، كان يقرأ وهو مضطجع في سريريه في شقة بالقرب من مسكن الرئيس في القدس . وكان ذلك اليوم يوما طويلا ومرهقا . وقد خرق المقاتلون الفلسطينيين وقت اطلاق النصار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا في قتل مدني اسرائيلي ومرح خمسة آخرين بصواريخ كاتيوشا وردت القنات الجوية بقصف استمر خمسا وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين وكان العنصر البارز في اخبار التلفزيون المسائية تتناول المزايم والمزايم المضادة حول الاصابات بين المدنيين وكذلك تأكيدات رئيس الاركان بأن اسرائيل سوف تحترم وقف اطلاق النار اذا ما فعل الجانب الآخر الشيء نفسه وتلقى بيجين تقارير من الحادث وانلى ايضا بمشورته ولم يكن هناك شيء جديد في نشرة اخبار التلفزيون وكان في استطاعة بن اليسار ان يسترخى ولكن لم يكن هذا الاسترخاء ليطول امده .

ولقد دق جرس الهاتف الى جوار السرير . وكان المتحدث هو عنان صفواى ، محرر شئون الشرق الاوسط في صحيفة جيمروزايم بوست . وكان صفواى قد تابع الاستماع الى اذاعة حية ( على الهواء ) من اذاعة القاهرة لخطب انور السادات الذى وجهه في افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى المسى « مجلس الشعب » ويعد ان اعلن استعداده للتوجه الى مؤتمر في جنيف والذى يحاول الامريكيون احيائه بن جديد ، ويعد ان هاجم اسرائيل لجدلها حول كل كلمة وكل فصلة وكل شرطة ،لقى السادات قبيلة لقد قال انه مستعد لان يذهب الى نهاية العلم من اجل محادثات السلام . وقال السادات « ان اسرائيل سوف يصعقها ان تسمع انى اخباركم باستعدادى للذهاب الى اسرائيل نفسها الى الكتيبت ، لا تباهت معهم من اجل ان اهل دون جرح جندى مصرى واحد . اعضاء مجلس الشعب ، ليس لدينا وقت نصيحه » . ولقد قول هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنداء الخاصى « الله اكبر » من الاعضاء . لكن بعض الذين استموا له لم ينتبهوا كثيرا لما قال او اعتبروا ما قاله نوما من الصيغ البلاغية في الخطابة تملأ كما اعتبروا تهديد السادات منذ اربع سنوات مضت بالتضحية بملين جندى مصرى في سبيل استعادة الارض المريبة من الغاصب الصهيونى . لكن حرب يوم



السفران قد علمت انان صفاوى ان الرئيس فى العادة يعنى ما يقول . وقد ذهب الى بيجين ليعلمه بالقضية ولعلم رد فعل بيجين لها .

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الاسرائيلى لم يرد ان يستبعد ما سمع استبعادا تملها .

لقد سألته « هل انت متأكد من ان هذا هو ما اعلنه السادات ؟ اننى لا اصدق » فبالرغم من كل ما نعرفه مقدما الا اننى دهشت من سماع السادات على اعتماد للحضور الى القدس . ورد تقلا انه متأكد كل التأكيد . وسأله عما اذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الانباء . ورد بأنه لم يتلق بمسد اى رسالة . وقلت « أرجوك ان تتأكد فاذ ما كان هذا صحيحا وصحح ما اعلنه السادات لمطليك ان تكتب اليه بأنه سيقلى كل الترحاب فى القدس .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناخم بيجين بأن السادات سوف يقلى كل الترحيب هنا وأنه سوف يستقبل استقبالا لافتا . لكن الاسرائيليين كانوا او لا زالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدي . ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعنوان رئيسية . . فى الصفحة الاولى . ولم يعكر بن اليسار امسية بيجين بهذه الاخبار ولكنه ائظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . ولم يذع راديو اسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يقلى الترحيب الا فى الساعة الثامنة صباحا ولكن الاحتمالات لم تقل تبدو غير واقعية . ولما كان السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤثر جنيف وطلبه بتمهيد اسرائيل مقدما بالانسحاب من كل الاراضى المحتلة ، فان الحيرة قد اصبأت اسرائيل آخذة فى الاعتبار ايضا ان جميع المقابلات السابقة بين الاسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مئير للملك عبدالله ١٩٤٨ الى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاما . وكانت اسرائيل مخرقة تماما للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات. ولكن ماذا عليك ان تفعل اذا ما سمعت رئيس اكبر دولة عربية يعلن جهارا أنه مستعد للحضور الى القدس ومخاطبة الكنيست ، فهل سوف يؤذيه بين شعبه ان يتلقى دعوة علنية ، ان بيجين شأنه شأن سابقيه قال مرارا أنه مستعد للذهاب الى اى مكان من اجل محادثات السلام وفى اى وقت . وعلى أية حال فان مصر لا زالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميا . فكيف يمكن استقبال عدو فى جلسة دولة لا يعترف بها وما زاد الامر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى اشارة السادات . فلما اى شيء كان يهدف ؟

وبالرغم من العلاقات الحارة التى اقامها بالفصل مع جيسى كارتر ، الا ان السادات لم يستشر الامريكيين مقدما حول اعلانه هذا فى مجلس

الشعب . وطبقا لما قاله سيروس غاتس وزير الخارجية الامريكية انه أخطر الرئيس قبل اعلانه بيوم واحد من تفكيره في الذهاب الى اسرائيل . ونظرا لانه قد صوم فكرة عقد مؤتمر قمة في القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك اسرائيل وجيرانها الميخترين ، فان رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهري . ولكن ما ان ادلى بتصريحه هذا حتى أصبحت الولايات المتحدة سلعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الامريكى فى تل اببيب .

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق اعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقة ، وبصورة حيوية عن طريق الصحافة . وفي اذاعة باللغة الانجليزية موجهة الى السفير المصرى — سك بيجين هذا القسم للامتين ، « لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليوم » وأجرى كرونكليت وبريرا وولتر المعروفين بلقائهما في التلفزيون الامريكى مع النجوم والقادة ، لقاء مع كل من السادات وبيجين . واضاف هذا اللقاء المزيد الى الكرنيفال السائد في المنطقة وان كان بعض الدبلوماسيين المغرضين قد اشاروا الى ان هذا ليس بالطريقة الوحيدة او الرئيسية للاتصالات بين القدس والقاهرة . وكان لقاء كرونكليت هو اول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعى من نيويورك وقال السادات انه لاسد من استلامه لدموة مكتوبة . ووافق بيجين على ارسسل هذه الدموة . واستجاب السادات لذلك بقوله انه سوف يكون مستعدا للذهاب الى اسرائيل فى اقرب وقت ممكن . وفي الخامس عشر من نوفمبر بحث بيجين برسالة الى القاهرة عن طريق حابل رسلا امريكى قال فيها :

« بالاصالة من حكومة اسرائيل فان لى الشرف ان اقدم لكم دموى الودية للمحضور الى القدس وزيارة بلدنا . ان استعداداتكم للقيام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها فى خطابكم لمجلس الشعب المصرى ، قد قوبل هنا بالاهتمام العميق والايجابى شأنها شأن بيلتكم بانكم ترغبون فى مخاطبة اعضاء برلماننا ، الكنيست ، ومقابلتى . فاذا ما قبلتم دموى ، وهذا ما آمله ، فسوف تجرى الترتيبات لكى تخاطبوا الكنيست من فوق منبره وسوف يتكوه ، اذا ما رغبت فى ذلك ، من مقابلة مختلف المجموعات البرلمانية ، المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها . ودمنى اؤكد لكم ، سيدى الرئيس ان البرلمان والحكومة والشعب فى اسرائيل سوف يستقبلونكم بكل احترام ومحبة » .

وجاء رد السادات بنفس الايجابية فقد اخبر ولدا امريكيا من مجلس النواب مكونا من اربعة عشر عضوا انه يعتبر الزيارة المقترحة « مهمة مقدسة » وانه سوف يذهب فى اقرب فرصة ممكنة . ثم استطرد قائلا :

« وعلينا أن نفعل المستحيل لكسر الحلقة المفرغة التي أخذ العرب والاسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عامًا . وهذا من أجل الأجيال القادمة . ومن هنا جاءت تقديمية هذه المهمة . واننى إذا لم أحاول كسر هذه الحلقة المفرغة فإن الله سوف يحاسبنى وكذا سوف تحاسبنى الأجيال القادمة » .

وبالنسبة لى غان ٧٠ ٪ من الصراع العربى — الاسرائيلى سببها مشاكل نفسية و ٣٠ ٪ ترجع الى أسباب مادية . وعلينا أن نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه الى الأسباب المادية . ومن أجل ذلك نسوف اذهب الى الكنيست . وإذا ما لزم الامر فسوف افتتح بلب المناقشة مع اعضاء الكنيست الملة والعشرين لتزويدهم بالحقائق المجردة هنا فى المنطقة — أى وجهة النظر الأخرى — حتى يستطيعوا ان يقرروا لانفسهم » .

ولقيت الزيارة الوشيكة الوقوع صدى فى نفس بيجين وتقديره لذاته وفى احساسه المعيب للتاريخ . فهذه الحادثات من شأنها أن تبرهن لاولئك الذين تساورهم الشكوك على أن حكومته تسير فى الطريق السليم « وأشار فى الخطاب الذى ألقى به أمام اللجنة المركزية لحزب حيروت الى أنه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال ٠٠ هناك تبادلية فى هذه الأمور ، وبمشيئة الله سأزور القاهرة فى يوم من الأيام ، وسأشاهد أيضا الأهرام . وعلى أية حال ، فائتسا مساعدا فى بنائها » . واحتجاج رئيس الوزراء اثنى ثمانية عشر شهرا من الديبلوماسية فقد افتتح بلن أبناء اسرائيل لم يبنوا الأهرامات .

ان مبادرة السادات لم تولد من فراغ ، فقد ساعد فى مولدها حكمان من طرفين متضادين على المسرح الدولى وهما رئيس شيوعى وملك عربى ، وفى شهر أغسطس ، بعد عودته من واشنطن ، فلم بيجين بزيارة رسمية الى رومانيا ، وهى الدولة الوحيدة من دول الستل الحديدى التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ . وقد قضى ثمان ساعات فى اجتماع يخلق مع نيقولاى شلوشيسكو ، زعيمها المتشدد وان كلن مستقلا فى رأيه . وذهب السادات وراء بيجين الى بوخارست ، وكان يتوق لسماع انطباعات شلوشيسكو عن رئيس الوزراء الاسرائيلى الجديد . وهل هو متعصب كما يبدو ؟ وأكد له شلوشيسكو بأن بيجين يريد حلا . والى السادات على السؤال القائل « هل بيجين أمين وهل هو زعيم قوى بدرجة تكفه بن العطاء ؟ ولكن رد الرئيس الرومانى على السؤالين هو أجل » .

وكان ذلك كائيا بالنسبة للسادات ، الذى كلن مصمما على كسر سلسلة حروب الشرق الاوسط . ولكن لديه أسبابه القوية التى تدعوه لتقوية

الرباط الديبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة ، الراعى التقليدى  
لإسرائيل .

وقام الرئيس الشيعوى بدوره ، وجاء الآن دور الملك العربى . لقد كان  
الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الأكثر قبولا لفكرة اجراء حوار  
مع إسرائيل . وزاره اسحق رابين ، بصفته رئيسا للوزراء متنكرا باستخدام  
شعر مستعار ونظارة شباب . وفى شهر سبتمبر ، بعد جلسة تمهيدية مع  
ممثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات ، وجه الملك دعوة الى موسى ديان  
لزياره القصر الملكى فى مراكش . وبناء على طلب من وزير الخارجية ، أرسل  
الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى إسرائيلى على مستوى عال .  
وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان الى القدس ، جاء الرد بأن المصريين على  
استعداد لذلك . واقترحوا عقد اجتماع إما بين السادات وبيجين أو بين حسن  
التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموسى ديان . وعلى الرغم  
من التحفظات التى أبدتها ديان ، فإن بيجين كان مستعدا للتوجه قورا الى  
اجتماع القمة ، الا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضوع .  
واستقر رأى على اجراء المحادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم  
١٦ سبتمبر .

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية ، فقد  
كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبدو . وتوقف وزير  
الخارجية فى أوروبا وهو فى طريقه للولايات المتحدة ، واختفى فى بروكسل  
وانطلق بطريق البر الى باريس ثم بطائرة خاصة الى المغرب ، بعد أن وضع شعرا  
مستعارا وشاربيا ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق . أما مسز راشيل  
ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا الى نيويورك على متن الطائرة  
( سابينا ) واعتدروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم انقاذه من الطائرة  
سابينا المختطفة فى مطار الد فى عام ١٩٧٢ عندما كان ديان وزيرا للدفاع وكان  
يتطلع لكفالاته على ضيافته .

وعلى الرغم من احترام كافة المجالات ، فإن النجاح لم يحالف مؤتمر  
الرباط . وقال التهامى أن السادات وافق على فتح حوار مع إسرائيل ، الا أنه  
لن يجتمع مع رئيس وزراء إسرائيل ويصافح يده الا بعد أن يقبل بيجين مبدأ  
الانسحاب الكامل من الاراضى المحتلة . وكان الانسحاب الاسرائيلى هو المشكلة  
الاساسية ، وكان يشمل كما حلت قضايا السيادة والشرف الوطنى رقباء  
السادات فى السلطة . وكان ديان فائرا ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد  
على رئيس الوزراء . وعلى نحو كان متوقعا ، عندما فعل ذلك ، رفض بيجين  
تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل . والتزم التهامى بقوله ، وهو مسلم  
متشدد لا يشعر بالموءد تجاه إسرائيل . وأبلغ ديان بأنه لن ينعقد أى اجتماع

لللمعة حتى يجلو آخر جندي اسرائيل من الأرض العربية • وتقرر إجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامى بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة • إلا أن السادات لم يكن لديه صبر على الدبلوماسية السرية البطيئة • وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل ويعلم أكثر ثبات تجاه البروتوكول • وكان عرضه الخاص بالذهاب الى القدس ضربة نموذجية كبيرة ومذهلة اجتازت حاجز الشك التاريخي وأعلنت التحدى بجرأتها وبساطتها • إلا أنه أيا كانت توقعاته ، لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين فى المائة التى تمثلها الأسباب النفسية فى الصراع العربى الاسرائيلى بل انها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين فى المائة التى تمثلها الاسباب المادية •

وبالنسبة لمعظم الاسرائيليين كانت زيارة السادات خيالا تحول الى حقيقة وعندما وصل الى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبب اليهودى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كان مضيقه ما زالوا يمزحون حول استحالته وإرتجالها نقل قائد فرقة موسيقات الجيش التشييد المصرى من إذاعة القاهرة • وقام صانع الاعلام فى القدس بصناعة المئات من الاعلام المصرية ذات اللون الاحمر والابيض والاسود • وقام احد اصحاب المطابع بتقديم ملصوق نذكرى باللغة العبرية والعربية والانجليزية مكتوب عليه كلمة «السلام» وتنافس اشهر وارقي فنادق القدس الثلاثة على ارضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهم بحلهم الملكية ( وكانت من طراز الملك داود ) وأعلن وكيل احدى المنشآت عن مبنى فاخر مكون من اربع عشرة حجرة • فى مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لان يكون مقرا للسفارة المصرية وعرضت « متاجر السلام » المعروفة تخفيضا قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها •

وأعلن مذيح التلفزيون وهو يلهث فى مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصرى ينزل درجات سلم الطائرة بيونج ٧٠٧ ان عهدا جديدا قد بدأ • • وردد أحد مذيعى الراديو « اننى اراء ولكننى لا اصدق » وكانت جولته ماثير واقفة بين علية القوم الذين جاؤوا لاستقبال السادات • وقال لها السادات « سيدتى » لقد انتظرت طويلا متربحا لحظة لفاك • وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاما والتي صلت ودعت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتى اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقوطهم فى ساحة القتال « وأنا انتظرت طويلا متربحة لفاك • وها قد حان الوقت وها أنا فى انتظارك » وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبليين وانغم فى مناقشة حية مع أرييل شارون الجنرال الذى تحول الى رجل سياسة وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بصوره قناة السويس • وكان رئيس الأركان جنرال مورداخى جور قد حذر الأمة فى مقابلة صحفية أثارت جدلا كثيرا من أن يكون السادات

قد خطط لشن هجوم مفاجيء تحت ستار زيارته لاسرائيل : وقال قد تكون العملية كلها مجرد خدعة . وعندما قدموه للسادات ابتسم السادات وقال : انى لم اكن اخادغ ، ووقف الرئيس كاتزير رئيس دولة اسرائيل والسادات رئيس مصر وكثفاهما متلاصقان والى جانبيهما وقف مناحم بيجين بينما أخذت فرقة الموسيقى تمزق النشيدين الوطنيين للبلدين وفيما بعد أخذت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف . وتقدمت المسيرة الى القدس ثمانى عشر حاملة بيضساء أطلقت فى الجو ووقف ما يقرب من ٢٠٠٠٠ اسرائيلى وقد غمرتهم البهجة يستقبلون الموكب عند أبواب العاصمة بالخبز والملح وأناشيد السلام . وأخذت الاجراس تنق بينما اقترب موكب سيارات الليموزين من فندق الملك داود وأخذت حشود أخرى من الجماهير تنشد باسم السادات . وبعد ما أثاره وصول السادات من المشاعر . وبعد جولته صباح يوم الأحد فى المدينة القديمة وأداءه صلاة الظهر فى المسجد الأقصى كانت الكلمات التى ألقيت فى الكنيسة هى قمة هذا الحدث . وبالرغم من التوقعات التى صادت المجلس الذى ازدحم بأعضاء البرلمان السابقين والحاليين وبالدبلوماسيين وبالمحررين ومراسلى الصحف فقد أوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع اليهما فى أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخطب وما لم يعتزم أى من الزعيمين أى شيء غير عادى بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثانى على تغيير موقفه . فقد كان السادات مصرا على أن يحقق السلام بشروط مصرية . ولم يكن بيجين بأقل منه فى شروطه الاسرائيلية وإذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما فى العلاقات الدولية نجد ان السادات قد ربح بسهولة مذهشة . فقد بدأ متحديا ومرحاً . وهكذا أخذت اسرائيل موقف المدافع . وكان بيجين متعباً ولم يقل شيئاً غير متوقع . وهذا شأنه دائماً حيث لا يكون فى احسن حالاته عندما يلقي خطاباً رسمياً . فهو لم يقدم أى فكرة جديدة ، وليس هذا فحسب بل انه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الافكار القديمة .

وفى خطابه الذى ألقاه باللغة العربية والذى استغرق خبسا وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب أكثر دقة من ذى قبل من استعداداته لقبول اسرائيل كحقيقة واقعة فى حياة الشرق الاوسط . وقال : « اننا نرحب بكم لتعيشوا بيننا فى سلام وامن . ولكى يتم تحقيق السلام مع العدل اقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وأية ضمانات أخرى دولية قد ترغب اسرائيل فيها . وفى مقابل ذلك تలా السادات قائمة كاملة بالمطالب العربية باستفتاء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية المثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وأصر السادات وهو يجفف العرق من على جبهته والجزء الاصلح من رأسه على الانسحاب الاسرائيلى الكليل من الاراضى العربية التى تم احتلالها بالقوة بما فى ذلك القدس . بالارض ليست قبلة للتفاوض انه لن

يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساواة حول الأرض •  
وينبغي أن تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين • وينبغي ألا يحرم  
منها أولئك الذين اعتبروها موطناً لهم لمدة قرون • وفوق ذلك أكد الرئيس  
المصري أنه يوقع اتفاقية سلام مصرية - اسرائيلية منفصلة وكذلك فإنه لن  
يتفاوض على ترتيب جزئي آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول  
الى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير الفلسطينية إلا أنه وصف  
المشكلة الفلسطينية بأنها لب وجوهر النزاع • وأكد قائلاً أنه سوف يكون خطأ  
خطيراً تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقهم في إقامة دولة وفي حقهم في  
العودة •

وقام بيجين كل اغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر • وقال أحد  
السفراء الغربيين وكان حاضراً هذه الجلسة أن الأمريكيين قد خضروا ورئيس  
الوزراء الاسرائيلي من الانزلاق الى هذا الموقف • وأعلن بيجين من رغبته في  
قيام سلام حقيقي يتضمن تسوية كاملة بين الشعب اليهودي والشعوب  
العربية دون الانزلاق في ذكريات الماضي • وعلى أية حال فانه قد عرض على  
السادات دراسات التاريخ اليهودي الحديث مشيراً الى مفزى مذبحه حرب الاستقلال  
عام ١٩٤٨ والتي قال عنها انها فرضت على اسرائيل الضعيفة بواسطة  
جيرانها العرب الأقوياء وأردف يقول : « ان الجيل الذي تعرض للابادة قد أقسم  
على ألا يعرض الشعب اليهودي مرة أخرى للخطر • وقل رئيس الوزراء ان  
السادات يعلم أن مواقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكن  
لا يعني هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض • واقترح أن يتفاوضا على كل  
موضوع خلاف والا يضع أي من الطرفين شروطاً مسبقة وقال « اننا سوف  
نتفاوض كائداد • فليس بيننا مهزوم ومنتصر » •

وبناء على مبادرة من بيجين تصالح الزميلان في نهلية خطاب رئيس  
الوزراء الذي القاه بالعبرية والعربي استغرق أربعين دقيقة •  
ولكن كان هناك شعور بخيبة الأمل بين الصحفيين وبين أعضاء المجلس • وربما  
جا كان ينبغي توقع حدوث معجزات • وبدلاً من حدوث معجزات فقد تم تحديد  
الخطوط الفاصلة للسلام • وفي مؤتمر صحفي مشترك في اليوم التالي انتهى  
السادات زيارته • بأن وضع المسؤولية والمهكل على اكتاف بيجين قائلاً :

« ادعو الله ان يرشد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات  
الكنيست ، ذلك لاننا في حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة • وانما قد  
حصلت نصيبي بالفعل بقراري الحضور الى هنا ولتي في انتظار القرارات التي  
سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيست » •

وأصبح هذا يتردد كثيرا على السنة المصريين . فلقدم الرئيس النزال  
الأكبر بذهابه الى القدس والاعتراف بإسرائيل مغايرا بحيته في مصر وفي العلم  
العربي كله . وليس هذا هو غاية ما كان يطمح ويتوق اليه الاسرائيليون  
دائما ؟ والآن قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل . وعلى أية حال فانه  
من الصعب الاعتقاد بأن السادات كان يتوقع أحرار نصر بسهولة هذا  
فضلا عن وجود عنصر التهويل فيها اقدم عليه . ولم يكن يؤخذ في الخارج  
على محل البراءة . وهو لم يكن باقل من بيجين في سجله التآمرى . وبالرغم  
من انه يكره ويمقت التصرف المكتوب والمخطط الا انه ماكن لينطلق في تصرفه  
بناء على وحى الساعة فكل مبادراته ابتداء من عبور أكتوبر ثم توجهه الى  
القدس انها هى قلابة على الحسابات . وكان محقا في توقعه من حدوث استجابة  
اسرائيلية كريمة وهى المقابل الذى يمكن أن يلوح بها فى وجوه منتقريه من  
العرب ولكن بعد ثلاثين عاما من الحرب فانه سيكون من السذاجة توقع انهيار  
المجدران امام أول نفخه في النفير .

وكان بيجين ، شأنه شأن معظم الاسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتعدد  
الالوان . فهذا نشاطه المؤيد للنازية اثناء الحرب العالمية الثانية ، وهذا  
دوره في الثورة الناصرية ضد الملك فاروق ، ثم شنه حرب يوم الغفران . لكن  
بيجين استبعد عداءه الغريزي ضد الزعيم المصرى الا عندما كان يشعر بأن  
السادات يلعب لعبة قذرة . فغنى اجتهاداته الخاصة مع رجلاه كان يسمح  
لكراهيته بالظهور فكان يقول « أن السادات كاذب » وكان بيجين يميل الى  
احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فانه كان يحتقر السادات بصفته عربيا .  
ولكن فوق هذا كله فان بيجين يدرك ان السادات يريد السلام وانه ركب المخاطر  
من أجل ذلك . ولقد حرص يحيل قد يش موقف رئيس الوزراء بأنه موقف « الاحترام  
والشك » وفي احدى المناسبات عندما حثه احد اصدقائه بأن يفتح عينيه على  
السادات المراوغ والمخادع اجاب قائلا : « لقد وهبنا الله التقدير عقولا نحن  
أيضا » . وكان بيجين يصنق دعايته هو نفسه حول تعرض اسرائيل للخطر .  
وكان مصرا على الا يتخذ أية خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر . وحتى  
لو كان بيجين لايشرك جنرال جور في شكوكه العميقة الا انه لم يكن على  
استعداد لياخذ صداقة السادات بثقة تامة . لكن كان الزعيم المصرى عدوا  
لفترة طويلة . وكان بيجين في حاجة الى دليل على حسن نية السادات .  
وهو ايضا لم يكن يحب ان يعتمد كثيرا عن خلفه في حزب حيروت الذين آزره  
فى حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء . لقد كانوا فى حاجة الى  
التأكيد وكثفوا فى حاجة الى الوقت لكى يلحقوا ببيجين . وفوق ذلك كله فان  
بيجين كان مصرا على الا يقع فى شرك سلام شابل قد يؤدى الى اعادة تقسيم  
لرض اسرائيل انه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شىء حارب من



أجله في الانتخابات وفي الحكومة • إن السلام مع مصر له جاذبية خاصة لعدة أسباب . فمصر أكبر دولة عربية وأكثرها قوة . وبدون مصر فلن يستطيع العرب شن حرب . إن سيناء على عكس الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن التخلي عنها طالما أمكن الابتعاد عليها خالية من القوات المصرية والطائرات العسكرية . هذا وكان بيجين يأمل في التوصل الى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية وبالزعم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديلن تفاوضت إسرائيل على افتراض أن مصر سوف تكون قلعة بتحقيق سلام منفصل . إن كل ما يريده السادات وكان يسعى اليه هو استعادة أرضه السليبية ومساعدة أمريكية في حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة . فإذا ما كُنِ السادات في حلجة الى دليل يقدمه على أنه لم يتخل عن الفلسطينيين فإن بيجين سوف يحاول أن يقدم له هذا الدليل .

وبهذه الروح توجه بيجين الى الاسماعيلية في أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧ في أول زيارة له لمصر وبقى لقاء قمة مع السادات . وإذا كان الإسرائيليون قد توقعوا استقبالا حارا وتلقائيا في مدينة القناة كالذي استقبل به السادات في القدس فإنهم سرعان ما اصابوا بخيبة أمل . لقد تابعت المشاعر في طائرة العمال ٤٤٧ التي انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت إحدى المضيفات بذراعها برقبة بيجين وقد انفجرت في البكاء . لقد كن زوجها قد سقط صريحا على الجبهة المصرية في حرب سنة ١٩٧٣ لكن المناخ في مطار أبو صوير العسكري كان باردا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات بنائيه حسني مبارك لاستقبال الجانب الإسرائيلي . ولم تكن هناك أعلام ولا موسيقى ولا أنشيد . وعند الوصول الى الاسماعيلية سمع عزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبيجين « أنظر ليس هناك علم واحد إسرائيلي وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدومنا » وعلى نقيض ذلك كانت الاسماعيلية تعج بالصور واللافتات والملصقات والأعلام وأقواس النصر ولكنها تجمد مصر ورئيسها . وليس هناك أي مظهر لنجمة داود أو أية صورة لبيجين ، وليس هناك أي ترحيب بالإنجليزية أو العبرية . هذا النمط الواحد أخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات . ولكن الاسماعيلية قد صدمت الإسرائيليون أكثر من أي استقبال آخر . ذلك لانها كانت أول بلد عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء . وكان المصريون العاديون وسائقو التاكسي والجرسونات وأصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون الإسرائيليين بكلمة سلام - وشالوم العبرية . ولكن مصر ظلت مجتمعنا منفلا

وقال أحد محرري الصحف العربية إن السلطنة كانت تسعى الى إقامة صلح دنيوى يرضى العقل ولا يرضى النفس وكان السادات لا زال يرمى بصمره الى العرب وإلى العالم الثالث ولقد أدهشه الا تتف الى جانيه أكثر الدول العربية اعتدالا مثل الأردن والعربية السعودية بعد زيارته للقدس . وقال

بـطرس غالى وزير الدولة المصري للشئون الخارجية ان هذا قد انعكس على موقف السادات الشخصى تجاه بيجين .

ان اولى الاتصالات بين السادات وبيجين لم تكن بالامر السهل . ان الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عزرا وايزمان فقط . انه كان الوسيط بين بيجين والسادات . وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة . وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يثق فى بيجين — لكذلك فى امكانك ان تثق بدون اية عواطف — وكان هناك دائماً تحفظ فى علاقاتهما .

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى اقل حاول بيجين فى الاسماعيلية ان يأخذ المبادرة من اجل اسرائيل . لقد حصل السادات على تقدير العالم كله وخاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت ادارة كلترز بأخلاصه وصراحته الواضحة وجاذبيته وتمقله . وبعت اسرائيل وضيعة التكسير ومتهمسكة بالنظريات . ورد بيجين على ذلك بمشروع سلام اسرائيلى كان يابل فى ان يكون جذاباً بنفس المستوى . وفى سيناء اقترحت اسرائيل انسحاب اسرائيليا مرحيا ومتوازنا بعملية نزع للسلاح على ان تبقى المستوطنات اليهودية فى نفوذ رفح وان يظل الجيش الاسرائيلى مسؤولاً عن الدفاع عنها . اما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فان العرب الفلسطينيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الاسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون « حكماً ادارياً ذاتياً » فى ظل مجلس منتخب . وتحتفظ اسرائيل بالسيطرة على الامن والنظام العام وان يكون المواطنون الاسرائيليون احراراً فى اقتناء الارض والاستيطان فى هذه الاراضى . ونصت المادة ٢٤ على تمسك اسرائيل بحق السيادة هناك . ولكن لما كانت هناك مزامم اخرى بهذا الحق فان اسرائيل تقترح ترك هذه المسألة مفتوحة واقترحت المادة السادسة والعشرين الاخيرة مراجعة الاتفاقية كلها بعد خمس سنوات . ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الأمريكيين والمصريين اتضح ان بيجين يعتبر هذا الحكم الادارى الذاتى ترتيباً نهائياً وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال وهذا هو كل ما يمكن ان يطمح فيه الفلسطينيون .

ورفض السادات الشكك من هذا المشروع الاسرائيلى وامر على عدم بقاء اى اسرائيلى ، مدنى او عسكرى ، فى سيناء . أما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بالانسحاب الاسرائيلى ككل وبان يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم وعدم توقيع سلام منفصل . وفى مناقشتها الخاصة قال السادات لبيجين : « لا أستطيع أن أوافق على تسليم بوصمة واحدة من الاراضى العربية . انها مقدسة ورد بيجين بقوله : « سيدى الرئيس اننى لا أستطيع أن اتنازل عن بوصمة واحدة من ارض اسرائيل ، انها مقدسة » .

وعاد ديان الى اسرائيل وهو راض لان الزعميين لم يقطعا المحادثات ، وهو قانع ايضا بان مصر جادة . لقد اقلقني كثيرا اللذين الذين تصر مصر على الحصول عليه منا وهو الانسحاب الكامل من سيناء ، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجولان وتقيام دولة فلسطينية . ولقد ادرت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات . انهما لم تكن مجرد كلمات تلقى . وسأورنى المشك في أن اسرائيل عليها أن تواجه بدليلين كلاهما صعب فلما ان تقدم فتايلات قوية ثقيلة او انها لا تصل الى معاهدة سلام مع مصر .

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الذاتي في سرية كاملة . غنى أول الامر املى صيغة المشروع باللغة العبرية ثم اعد كتابته باللغة الانجليزية ويخط يده هو . ولما كتبت كتابه رئيس الوزراء معروفة بمقدم الوضوح للجميع الا للغة الغليظة لذلك فقط طلب من يهودا افنير المتخصص في قراءة خط بيجين أن يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة . وحمل بيجين هذه النسخة معه في رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن حيث حاول أن يعرض آراؤه على كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاغان . ولقد وجد كلا الرئيسين هذه الوثيقة أسلما مشجعا للتفاوض . . ولكنهما أصيبا بالاحباط والقلق عند سماع بيجين يترجم آراهما التي اسرا بها الى بيجين الى موافقة وتأييد وكانت هذه أولى المناسبات العديدة التي شعر فيها كارتر أن بيجين يرتكب خدمة معه . فقط عندما وصل بيجين الى واشنطن سمح للفريق المرافق لسه بنسخ الخطة على الآلة الكاتبة . . بواسطة سكرتيرة في السفارة الاسرائيلية كان بيجين حريصا للغاية على تجنب أية مخاطرة بتسريب أى شيء ولو ضئيلا عن المشروع .

وقد كره عزرا وايلمان ، وزير الدفاع في حكومة بيجين هذا الاسلوب الذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة . ولم يكن مقتنه لهذا الاسلوب مرجعه الى أنه كان يترك في الظل لمصعب بل أن نقده لهذا الاسلوب قد يلقى ضوفا على اسلوب بيجين كرئيس للوزراء فقال .

« لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة انها هو يعمل من خلال مكتب تلعب له . . وزعماء على مثل هذه الشكيلة لا يحتاجون الى مستشارين . أنهم يستفتون عن المستشارين المساعدين . ومثله غير قادر على أن يأخذ في اعتباره وجهات نظر او مقترحات لا تتطابق مع فلسفته الأساسية . والفلس الذين يعملون بالقرب من بيجين لا يقترحون مقترحات مختلفة او يقدمون سلسلة عريضة من البدائل . وهذا يعود الى تجربتهم السابقة ، تلك التجربة التي علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست املها أية فرصة لان تأخذ مكائها من التنفيذ . ويعود هذا ايضا الى أن بيجين قد اختار

بمساعديه من نمط معين من الأشخاص والهويات السياسية المعينة . انهم يفكرون كما يفكر هو . لقد تعلموا تخمين ما يريده بيجين وهم يتنافسون في تقديم واقتراح الآراء التي يجيها بيجين ويفضلها ، وبذلك يحولون على مواهبته » .

وعلى الفور أدرك وأدرك أن الذي أصبح من حكام الحكومة أن بيجين يرى في الحكم الذاتي وسيلة لتجديد الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من أن يكون أول خطوة نحو تسليم دولة فلسطينية . ويقول وزير الدفاع أن هذا هو السبب الذي من أجله لا يتشاور بيجين مع أي شخص قد يحاول أن يبعده عن طريقه هذا .

وبالرغم من أن الحكم الذاتي فشل أمام أول اختبار له في الاسماعيلية فقد ظل الاطار لجميع المفاوضات التي تلت ذلك بين اسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية ولم يكن السادات راضيا عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم بأي بديل قد يهيء فرصة للتوصل الى حل متفق عليه وكذلك لم يفعل الأمريكيون . لقد نجح بيجين في تصديد شروط الحوار .

وتدهور العلاقات بين اسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة في الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٧٧ من سبب الى اسوا . ونظرا للهوة بين دولتي الشرق الاوسط أصبحت امريكا شريكا في المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له . وصمم بيجين بأنه الطرف المسيء وأنه « عقبة في سبيل السلام » لكنه لم يتراجع عن موقفه الاساسي . وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت في شهر يوليو : « اعتقد أنني عقبة حقيقية — ولكنني عقبة في طريق الاستسلام — الى جانب رمالي في الحكومة وفي الكنيسة وفي الحركة » . ووعده منتقديه في حزب حيروت وكذلك مؤيديه في الحزب بأن مشروع اسرائيل للسلام سوف يفتح الأفق أمام السلام والامن واستقرار أرض اسرائيل .

وعندما فاز بيجين في انتخابات سنة ١٩٧٧ أدركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الأرض ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية كانت تميل الى التقليل من مدى التزامه بأرض اسرائيل التي تمتد من البحر الابيض الى الاردن ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية السبق لشئون الشرق الاوسط أن وزارة الخارجية تلتفت المشورة من اناس يعرفون أن بيجين يمكن أن يكون أيضا سياسيا براجماتيا ( عمليا ) . وقد أوضح سوندرز ذلك بقوله :

« لقد تم اتفاننا بأننا نستطيع أن نعمل معه ، وإنما لن نتوقع بالضرورة الاصطدام بحائط صخري من الايديولوجية . اننا كنا نعرف أنه حائل في وجهة نظره وكنا نعرف وجهة نظره هذه . وقد قيل لنا انه في مناسبات

سابقة في الحياة السياسية الاسرائيلية قد أدرك الحاجة الى تغيير وجهة نظره في مواجهة الرياح السياسية العاتية واعتقد اننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصاعب في زحزحة بيجين » .

وتد استطاع وبم كقنت مستشار كارتر للامن القومي لشئون الشرق الاوسط أن يرى بثاقب ويعد النظر قوة بيجين في معرفته لما يريد ومعرفة مدى استعداده لان يدفع قليل ما يريد . فقد قال :

« يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة في السياسيين انه يتميز بوضوح ادراك - لما يريد ان يفعله وكذلك ادراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها . انه يعلم ان عليه ان ينلور . وفي بعض الاحيان كان عليه ان يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه . انه كان يعرف دائما الى أين هو سائر ، ولكنه كان قادرا تهلها على التكيف التكتيكي من حين لآخر لقد كنت دائما اذهل من كفاءته السياسية اذا ما اخذنا في الاعتبار اكذوبة الارض وأيضا القوى التي كان عليه أن يتعامل معها .

ومن الامثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالضفة الغربية اثناء محادثته مع كارتر في ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بلتحكم الذاتي . لقد كتب الرئيس كارتر في مذكراته : « بدا بيجين اكثر ليونة مما كنت اتوقع ولكنني اكتشفت ان كلامه المطية لها العديد من المعاني الامر الذي لم يدركه مستشاري ولا أنا في ذلك الوقت » . واشتكى المصريون من أن بيجين قد أدخل الايديولوجية في المفاوضات . ولقد انزعج بطرس غالي من براعته في التحول من المنهج القانوني الى المنهج الجدلي وغير من ذلك بقوله :

« يتلوه بيجين كما لو كان محاميا . انه مزيج من المحامي والبرلماني البارح . انه يستطيع أن يمزج ما بين الجدل القانوني والجدل الدبلوماسي وأيضا الجدل الايديولوجي . ويستطيع أن ينتقل من مجال الى آخر طلبا لاستراتيجيته الخاصة ماذا ما وجد نفسه ضعيفا في المناقشة القانونية مانه يفتقر الى المنهج الدبلوماسي او الايديولوجي ولقد اعتاد على هذا التنوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد . وهو يستخدم نفس التكتيك في المناقشة الخاصة كما نمل على منبر الكنيست » .

ومن الصعب القول بما اذا كان هذا الاسلوب اسلوبا محسوبا ومسيطر عليه ، وما اذا كان متطابقا مع عواطف حقيقية او مشاعر دينية . وليس ذلك هو الحال مع عزرا وايزمان او مع رجل دين مثل يوسف بورج ( وزير الداخلية وزعيم الحزب الديني القومي والذي ترأس الفريق الاسرائيلي للحكم الذاتي ) . فلا تراودنا نفس المشاعر . فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية

والصهيونية . وكل منهما رجل دين . لكن بيجين بفضل المنهج الدرامى والمرحى .

لم يدرك المصريون بسرعة ان ايدىولوجية بيجين ليست نسيجاً خارجياً طعم بها بل هى جذع الشجرة ذاتها . فالرجل هو الايدىولوجية ، والايدىولوجية هى الرجل وعندما سألته مراسل « البى بى سى » المخضرم مايكل الكتز كيف يريد ان يذكره التاريخ أجاب بيجين : « على أثنى الرجل الذى رسم حدود ارض اسرائيل والى الابد » . لم يكن هذا طموحاً اكتشفه فى شيخوخته . نفذ صباه فى بولندا عاش بيجين فى دير حركة جابوتينسكى الثنائى والفكرى . ولم يكن له حماس خارجى مثل شغف ديوان يعلم الحفريات . ولم يكن له تاريخ منفصل من تاريخ وايزمان فى القوات الجوية او تاريخ يعقوب مريدور فى المهام الخارجية . لقد كان بيجين سياسياً طوال الاربع والعشرين ساعة من اليوم . ويستطيع ان يكون مرها ولكنه نادراً ما يكون مسترخياً . ان اجتماعاته وفروجه الى العيش مع الآخرين انها هو نتاج مهنته التى تملى عليه ان يكون مترقباً ويقتطع ذلك ان الانفصال كان شغله الشاغل ودرجات متفاوتة من الطلاقة يعرف بيجين تسع لغات هى العبرية والبنشية والبولندية والروسية والانجليزية والامانية والفرنسية والاسبانية واللاتينية وفى شبابه كرس نفسه لدراسة الآداب الكلاسيكية الاوروبية ، وفى مرة أرسل برقية الى زوجة الرئيس السادات يصحح لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير ( لشكسبير ) ولكنه قرأ قليلاً ولم يقرأ شيئاً البتة فى الأدب الحديث بعد ايسن . وفى سنوات المعارضة كان يجب ان يقرأ فى التاريخ والقرآن . ولكنه هجر الكتب تماماً عندما أصبح رئيساً للوزراء . وان كان قد قرأ مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو فى المستشفى .

وهو يتصفح معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دسنة من الصحف الامريكية والاوروبية . وقبل ان يصبح رئيساً للوزراء كان يذهب مرتين فى الاسبوع الى السينما خلسة لمشاهدة الافلام الغريبة . وكان يتسلل الى مقعده فى السينما بعد اطفاء الانوار وكان يتسلل خارجاً قبل ان تضاء الانوار اذباناً بقتناء العرض . وهو مولع بالاذاعة والتلفزيون وكان مسلسل دالاس من العروض المفضلة لديه ، بعد نشرة اخبار الساعة التاسعة . ولكنه نادراً ما يحضر حفلاً موسيقياً أو يتوجه الى المسرح أو صالات العروض الفنية . ويوماً عندما اشترك فى أداء احدى الاغنيات قالت له ابنته حانيا انه افضل فىلقاء الخطب من الغناء . وهو يعيش حياة مقتصد غير مترته ذلك لان أى شئ غاخر أو دخل فى الطعام أو فى الزخرف فهو غريب عنه . لقد كان بيجين رجلاً من جبل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها أو شفاؤه منها .

ومنذ الايام الاولى لمبادرة السادات تبنى المثلثون الاسرائيليون الثلاثة الرئيسيون — بيجين وديان وايزمان — ادواراً منفصلة ولكنها مكملة بعضها

للبعض الآخر . فقد وضع رئيس الوزراء الاهداف واسلوب الدبلوماسية الاسرائيلية وهو الذى اتخذ القرارات . أما ديان فقد كان دائم البحث والفتيق من تسوية الخلافات واعادة تحديد بنود الاتفاق محاولا انتزاع التفازات من زميله ومقدما بعض الابتكار . ولم يكن اسهام وايزمان بأقل اهمية فى الفترة التى سبقت مؤتمر كهلب دينيد ، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية . وفى ادنى تغلط المفاوضات ظل وايزمان هو الاسرائيلى الذى كان فى امكان المصريين التحدث معه . وهو الاسرائيلى الذى افتتح المسالقات بأنه لا زال فى الامكان التوصل الى السلام . وكان وايزمان أول اسرائيلى باستثناء بيجين ، قابله الرئيس المصرى على انفراد اثناء زيارته للقدس . وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين : « اتنى أحب عزرا » وقد مضت عدة شهور بعد ذلك قبل أن ينطق اسمه ( ميور ) بصورة صحيحة .

وكان ديان ووايزمان مصريين تجلجا على الا يدعيا فرصة السلام هذه تقلت من ايديهم . وبالرغم من أن وزير الدفاع كان عضوا فى حزب حريوت الا أن اخلاصهما لرئيس الوزراء ولبلائته ومثله لم يكن بالاخلاص الذى لا حدود له . وكان هذا ميزة وايضا نقیضة فى نفس الوقت . لقد مكن هذا من تحقيق نوع من المرونة ولكنه فى نفس الوقت كان تحذيرا لرئيس الوزراء لأن يحكم قبضته عليهما .

لقد كان ديان يحظى بلصفا الامريكىين له أما وايزمان فقد كان على صفة طيبة بالمصريين . وكان سيروس نفوس يشمر بالطلاق ازاء غليان وهمساس وايزمان الشديد وقد قال :

« ان ميور رجل شديد الجاذبية » وشديد الحماس وكفاء الا أنه ينزع الى أن يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها انه لا يواجه الحقيقة بصورة كافية . وهذا ما لا يستطيع أن تنهم به ديان . فديان يستطيع أن يرى كل المآزق والشراك . واحيانا ما يجرب وايزمان الحماس ولذلك فاننى كنت أشعر براحة أكثر عندما انتزع شيء من ديان ذلك لآئك تشمر بأنه يرى الحقيقة المجردة الفلسفية . ولم أكن لأشعر بهذا الشعور مع ميور . اتنى شديد الميل الى ميور وأنا متأكد أنه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التى لدى ديان » .

وفى مجلس الأمن القومى قال ولیم كوانت هن ايزمان أنه لقد الصبر فى مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والثقافية وفى مواجهة ما كان يقوم به بيجين من صياغة واعادة صياغته للاتفاقية . لقد كان وايزمان يتوق الى التوصل الى اتفاق . وكما قال كوانت أنه كان مستعدا لأن يقول فى أى لحظة من لحظات المحادثات : « دعونا نوقع ونخرج من هنا » .

لكن أحد كبار الدبلوماسيين الأمريكيين ، الذين لا زالوا يتعاملون مع مشاكل الشرق الأوسط ، ولذلك ينبغي أن يظل اسمه مجهولا ، قد قال إن السلام ما كان ليتحقق بدون اشتراك هؤلاء الاسرائيليين الثلاثة .

« لقد كان أسهام وايزمان هو منع الاجباط الذى كان يشعر به المصريون وخاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الثليان بحيث لا تدمر عملية السلام . لقد نجح المرة تلو الأخرى في الحفاظ على استمرار العلاقات الشخصية بين القادة الاسرائيليين والمصريين واعطاهم الأمل في الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا كل أمل » .

وتنادوا ما كان المصريون يشعرون بالراحة في تعاملهم مع ديان . وقال المتحدث الرسمي باسم ديان وهو تفتالى لافي : « لقد كان هناك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها في مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة » .

لقد تقل له السادات : « لاتقلق فكل شيء سوف يسير طيبا » . وفي السيارة التي اقلت ديان ود . بطرس غالى الى القدس سأل ديان بطرس غالى قائلا :

هل أنتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل ؟ وأجاب بطرس غالى : « لا » وقال ديان أنه أساء فهم رد فعل العرب . ونقل بطرس غالى هذا الحوار الى السادات والى الأمريكيين . وفسر السادات ذلك على أنه يعنى أن ديان لا يثق فيه . وقال أحد مساعدى السادات أن السادات لم يكن يشعر بارتياح في وجود ديان . فقد كان يشعر بأنه الاسرائيلى الذى لا تستطيع كسبه . لقد كان كل من السادات وديان سياسيا داهية . ولم يكن أحدهما يثق في الآخر كثيرا . ولذلك فإن ديان لم يشترك في ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التي تلبت بين وايزمان والسادات .

ويقول بطرس غالى أن ذلك لا يعود الى تكتيكات المزيين لحرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ او الى شهرة ديان في المراوغة والخداع . أن ما يهمل بينهما هو ما عرف عن ديان من أنه خليط من الخجل والفطرية . ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين . وينكر غالى قائلا :

« انه — ويقصد وايزمان — قد يقول أن ديان يشعر بالاكثاب . مما رايمك في دعوته على العشاء أو لمراكيم في الاتصال به هاتفيا ؟ انه قد يقول انه كانه : « انتهى في وضع صعب . لقد رأتى السادات أربع مرات . وديان رجل خجول ولكنه لم يقبل السادات » . « أن بيجين يكن احتراميا شديدا لديان كرجل من رجل الصلابة ( اليهودى المولود في فلسطين ) وكجنرال . انه ينصت لديان ويستمع اليه ولكن ليس بالقدر الكافى . لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة



وكثيرا ما كان يقول : « لا استطيع ان اعطيك بشيء فلو كنت اعمل مع بن جوريون لكل في استطاعتي ان اعطيك ردا في خلال ساعين » . لكنه لم يكن قط يعدد مقارنة مع بيجين . ولكن هذه المقارنة كانت تفهم ضمنا . فالاسرائيليون يمكنهم ان يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصلوا ابدا بعدم الاخلاص . ولم اشعر ان ديان كان يتفادى تطليحه . لقد كان ديني كبير المفاوضين وكان يتفاوض بقدر من الخيال . وكان محددا ودقيقا كمفاوض . ولم يعد قط بشيء لا يستطيع تحقيقه . لقد كان يريد ان يحدد مليمنيه والمتصده نحن .

لم يكن ديان بالرجل غير المخلص او غير الوطنى ولكنه كان يدرك ان بيجين على استعداد لتقبل الفشل . ولعله يكون الوحيد الذى يدرك ذلك في الفريق الاسرائيلي . وعندما كان السادات يضع ثمننا مرتفعا للسلام كان بيجين يقول « لا » ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهدا ان يحد من امكثات وحدود التفاهم والقبول ومن اساليبه المحببة ان يفتح الآخرين — مثل واييلان او الامريكيين — يعرض وجهته نظره وافكاره على انها وجهات نظرهم وافكارهم . ومن اساليبه كذلك وخلسة في الظروف الصعبة ، ان يقدم صيغة وسطا بسمته الشخصية موضعا للمصريين وللأمريكيين انه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين في ان ينكر او يعترض على وزير خارجيته .

كان اول ناتج ملموس لقمة الاسماعيلية هو التوصل الى اتفاق بتشكيل لجنة عمل احدها سياسية والاخرى عسكرية وذلك لمباشرة تفاصيل المفاوضات وبدا عمل اللجنة السياسية بصورة مأسوية في القدس في السبع عشر من يناير . لقد زار الرئيس كارتر السادات في اسوان في اوائل ذلك الشهر حيث اعلن عن نظرية امريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية . لقد قال : « ينبغي ان يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها . وينبغي ان تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وان تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك في تقرير مستقبلهم بأنفسهم » وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لا تثير استنكار الاسرائيليين ورفضهم . وكان أول رد فعل في القدس هو : « اننا نستطيع ان نقبل ذلك » . ولكن بيجين أوضح ان اسرائيل لن تقبل اعلان كارتر هذا على انه غطاء لاعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير .

« اننا لانحوم حول الموضوع . ان تعبیر تقرير المصير كما هو مفهوم في القانون الدولي يعنى قيام دولة فلسطينية ، واننا لن نوافق على قيام هذا الخطر المبيت بالنسبة لاسرائيل » .

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصرى الى مطار بن جوريون لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد ابراهيم كلال بها اسما هو الترحيب العام المذهب المعتاد في مثل هذه المناسبات . وتدلنا من ان يرد بنفس الاسلوب اخرج كابل ورقة من جيبه وقرا منها مطالب مصر المتشددة :

« انه ان يكون هناك سلام للارض ، وان يكون هناك سلام مع انكار الحقوق القومية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق تقرير المصير » .

وبدلا من استمرار هذا الخلاف الذي نشب في المطار انتظر ديان حتى صباح اليوم التالي . وفي اجابة لسؤال عدائي في مؤتمر صحفي قال من الأفضل ان تنسحب مبادرة السلام من بين أصابع ايديهم بدلا من ان ينتزع امن اسرائيل وسلامتها من بين ايديهم . ان اسرائيل لن تتفاوض والمسدس مصوب الى رأسها . وكان هذا امرا صعبا للغاية على المصريين لتقبله . ولكن بيجين اضاف الى هذه الاساءة في حفل عشاء في ذلك المساء ، رغم ان رئيس الوزراء ووزير الخارجية كمل قد اتفقا سرا على وقف حرب الكلمات هذه ، فقدلقى بيجين خطبا سياسيا محمدا فيه الشروط التي لن تقبلها اسرائيل وهي : اعادة تقسيم القدس ، وإقامة دولة فلسطينية والعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وكتب ديان في مذكراته :

« وفي تدفقه البلاغى اساء بيجين عن غير قصد الى محمد ابراهيم كابل بوصفه اياه بأنه شاب صغير وهو غير مترك ان مثل هذا الوصف يبدو في اذن المستمع العربي وصفا تحقيريا . وعندما جاء دور كابل ليلقى كلمته وكان مضطربا ويشعر بالاساءة التي وجهت اليه فانه بدلا من ان يقرأ الخطاب الممد مسبقا قال بمسجلة ان مكان مناقشة للموضوعات التي اثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هذا المكان . ثم جلس ولم يرفع كوبه في نخب رئيس اسرائيل » .

وعلى وابلان فيها بعد « ان بيجين كان مقتنعا تماما بأنه يحبل الحقيقة في جيبه الخلفي » . ولم يستطع بيجين مقاومة اغراء اعطاء كامل درسا في التاريخ اليهودي ومحاضرة في فن سياسة الدولة .

وفي مساء اليوم التالي ملأ السادات الجميع بما فيهم وفده في اسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كمل الى القاهرة . وعاد المصريون على عجل وفي حالة من الارتباك . ولم يعرف الاسرائيليون ولا الامريكيون عن ذلك ما أصاب المصريين . وجاء في تفسير رسمي من اذاعة القاهرة ان السادات تصرف هكذا عندما أصبح واضحاً من التلميحات التي اطلق بها بيجين وفيلان ان هدف اسرائيل هو تامين التوصل الى حلول جزئية لا يمكنها ان تحقق سلبا شللا عادلا ودائما . وفي طريقه الى مطار بن جوريون اخبر كمل فيان ان الرئيس السادات قد اساءه كلمات بهجين . وقال : « وليس مرجع ذلك ما قاله بيجين في خطابه ولكن لانه لقي مثل هذا الخطابه متفهما بذلك الاتفاق الذي تم التوصل اليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط ، وهو الاتفاق الذي أرسل به كمل تقريراً الى السادات ووافق عليه السادات » .

وزادت العلاقات سوءا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية في صحراء سيناء . وكان إيزيل شارون وزيرا للزراعة ومسئولا مسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات . وكان جنرالا متقاعدا يعرف شبه جزيرة سيناء أكثر مما يعرفها أحد غيره في الحكومة الإسرائيلية ولقد حارب في سيناء ثلاثة حروب وتقلد بمنصب قائد الجبهة الجنوبية . وكان يبيح يستشير في الشؤون الاستراتيجية وشئون المستوطنات . وبينما كان رئيس الوزراء في واشنطن في ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون تليفونيا وأكد على أن تقوم إسرائيل بملء الثغرات في خط المستوطنات الإسرائيلية في سيناء . على ضوء مطالب مصر المتطرفة كان يريد أن يعزز موقف إسرائيل التفاوضي . ولقد أوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ أن موقع المستوطنات على هام وحشم في رسم الحدود . ونفس الشيء يمكن تطبيقه إذا ما كانت إسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط في شمال سيناء . وكان يبيح مقتنعا بهذا الرأي . مكلف شارون بالسعي قديما في هذا المخطط . وكانت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هي أن شبه مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للامن وببوت منتقلة على عجلات وذلك في المواقع الحساسة ودون أن يضع فيها أكثر من قوة رمزية .

وشجب وإيمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء في وقت متأخر وأصلا بأنه صورة مبسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية في إسرائيل . وعلى أية حال فقد حظي هذا المشروع بالوافقة الإجماعية وبدء العمل فيه . ولم يصدر أي بيان في هذا الشأن ولكن إذاعة إسرائيل حصلت على هذه القصة وأذاعتها . وكان المصريون والأمريكيون غاضبين من هذا المشروع الذي اعتبروه محاولة لإجهاض المفاوضات . وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما أثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية . ولم يخف يبيح دوره في تكليف شارون بالمضي قدما في تنفيذ هذا المشروع . وسرعان ما خبا الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقا مرا . ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي سار فيها يبيح خلف شارون في حقل من الأنعام . لقد كان سريع الإذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيرا من المفاجأة السياسية . ولم تكن وجهة وإيمان القائلة بأن هذه المستوطنات الوهمية تكلف إسرائيل فرصة الإبقاء على المستوطنات في سيناء وربما أيضا المطارات العسكرية ، بالوجهة المقنعة . لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لببيح . فقد كان السادات يحصر على استعادة كل سيناء حتى آخر يومه منها . ويستطيع الإسرائيليون أن يأتوا إلى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين أو كجنود في حماية .

وبالرغم من هذا الفصل الإضافي فقد ظلت البؤرة الأساسية للمناقشة هي الأرض — الفلسطينية المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد وصلت المحادثات مع الولايات المتحدة إلى درك أسفل جديد في مارس من عام ١٩٧٨

عندما زار بيجين واشنطن مرة أخرى وحلول الأمريكيون استخدام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كمحطة لتحريك مقاومة إسرائيل لأي حل وسط بالتسوية للارض . وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار .

نقد قال : « ينفي الالتزام بالمعاهدات والاتفاقات » وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من اراضي محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب . ولكن مستشاري بيجين لم تروهم مثل هذه الاعتبارات . انهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضي ، وان حرب عام ١٩٦٧ كانت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لإسرائيل ( ولذلك فإن التغيير في الحدود أمر مسموح به ) ، وان سيادة الأردن على الضفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية . وفي حل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست . « وقال دين » بالرغم من ان كارتر قد تكلم بنخمة ملة الا انه كان هناك غضب في مينيه الزرقاوتين الباردتين . وكانت نظرتة حادة مثل الحنجير . ان وصفه لموقفنا وصف صحيح في أساسياته ولكن لم يكن في استطاعته ان يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية . واختتم كارتر حديثه بقوله « ان بيجين قد أصبح عقبة كئودا في طريق تقدم المفاوضات » وإذا لم يحدث تحرك في الجانب الإسرائيلي فلن يكون هناك سلام . وهذه اللداءات هي :

— لا نرغب في الانسحاب السيلسي أو العسكري من أي جزء من الضفة الغربية .

— لا نرغب في وقف اقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة بالفعل .

— لا نرغب في سحب المستوطنين الاسرائيليين من سيناء أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة أو حماية المصريين .

— لا نرغب في الاعتراف بأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة .

— لا نرغب في منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتا في تقرير مستقبلهم للدرجة انهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عاليه ( الارتباط مع إسرائيل أو الأردن أو استمرار في اقامة حكومة انتقالية خاصة بهم ) .

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين الى واشنطن للاشتراك في احتفال امريكا بذكرى استقلال إسرائيل كتب كارتر يقول : « اعتقد انه لن يتخذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لإسرائيل — انها فرصة قد لا تتكرر أبدا » وحاول بيجين ان يؤكد الموقف الايجلي لإسرائيل لكنه ترك لدليان استكشاف

طريق لتقدم المفاوضات . ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق مؤفة ، أكثر مرونة سوى اذابة القليل من الثلج . لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادئ ، للسياسة الاسرائيلية هي :

١ — ان قرار رقم ٢٤٢ اساس للتفاوض بين اسرائيل وجيرانها العرب : مصر والأردن وسوريا ولبنان .

٢ — ان مشروع اسرائيل للسلام والذي يتضمن حكما ذاتيا ليهودا والسلمة ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادئ القرار رقم ٢٤٢

٣ — اذا باقدم العرب مقترحات مقابلة فان اسرائيل سوف تناقشها بما تستحقه .

٤ — ان قرار ٢٤٢ يطالب بإجراء مفاوضات .

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة في العلاقات العامة . وبدأ السادات في وضع تواريخ نهائية ( وفي رواية أنه حدد شهر يوليو وفي رواية أخرى أنه حدد شهر أكتوبر ) وبدأ في التحدث عن خيار الحرب . وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن أنه اصدر أوامره للجيش ليستعد للمعركة . وفي مناسبة أخرى مزق وزير الدفاع موصوفا عن السلام . وفي اجابة عن اسئلة أمريكا قال بيجين في الثامن عشر من يونيو ان اسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي في الضفة الغربية ان تتدارس وتتفق على صيغة مستقبل العلاقات بين الاطراف « وهذا يبعد كثيرا عن مطلب أمريكا بأن تكون اسرائيل مستعدة لمنقشة السيادة بعد فترة انتقالية ، رفض المصريون هذه الصيغة على انها مثل آخر على تصلب بيجين وعنده .

ولم يجعل ديان الوضع أفضل بقوله ان معظم الوزراء الاسرائيليين قد رفضوا الزام اسرائيل بأن تقرر بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهذه الأراضي ذلك لانهم يعتبرون الادارة الذاتية هي الاطار الدائم لهذه الأراضي .

وكان من المتوقع أن ترفض اسرائيل اقتراحا مصريا باعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة وحلول السادات في اوائل يوليو ان يذهب من ورا بيجين لمعد محادثات في انهبسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حدا لذلك بأن أعلن بحدثة قائلا : « ينبغي أن يوجه الحديث الى انا » وحزرت الحكومة السادات قائلة ان جميع الاتصالات في المستقبل ينبغي ان تجرى مع بيجين أو من يحدده كممثل له .

« ان سلطة التفاوض مع مصر أو مع أى دولة في حالة حرب مع اسرائيل انما هي قد اعطيت للحكومة وان يمثلونها . وسوف يكون مستوى التمثيل في عملية المفاوضات متساوية . وسوف يرأس رؤساء الدول أو من يخولونهم من الوزراء فريق المفاوضات » .

وأول خرق لحائط العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من أمريكا وإسرائيل ومصر في قلعة لينز في كنت . وكانت هذه إحدى المناسبات التي جرب فيها دين حظه . فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانوس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية « وقل إنها مقبلة » على مسئوليتي الخاصة » واقترح فيها أن تعلن إسرائيل استعدادها لانتقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي . . وفي نفس الوقت كرر أن إسرائيل لن تتسحب أبداً إلى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ حتى مع ترتيبات الأمن ولكنها سوف تناقش أية اقتراحات عربية محددة من أجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للأرض وغضب بيجين من فكرته هذه ومن ثمرد وعصيانه . واستجاب وزير الخارجية بأن عرض على بيجين الخيار بين أن يؤيده أو يطرده أن يتحمله بشروطه هو أن ينال منه :

« لقد أخبرت رئيس الوزراء أن ما قلته وكتبته إنما يعكس موقف الحكومة ، على حسب مفهومى ، ولذلك فأننى لن أتمضى أو استأه إذا ما هو أو الحكومة إبطلت أو سحبت . اننى سوف أقبل بحكمهم وأخطر فانوس طبقاً لذلك - وأضفت قائلاً : اننى على أية حال لست بمستطيع أن أدير المفاوضات دون أن يسمح لى بأن أقدم بالانكسر والمقترحت ، بينما أؤكد أنها تمثل وجهة نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة . وكان هذا موضوعاً كثير التردد حيث كنت أنا وبيجين مصريين على موقفنا حياله . ولم أكن مستعداً لأن أتصرف بصورة أخرى . وكان بيجين يعلم هذا تماماً . وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه إذا ما أصر على أن أحذو حذوه هو أن يبحث له عن وزير خارجية غيرى » .

لكن الوقت كان مبكراً جداً فى حكومة بيجين لأن يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة بالرغم من أن ديان قد ذهب بعيداً وأبعد بكثير من موقف الحكومة وكفوا جميعاً يعلمون ذلك . وكان بيجين لا يزال فى حاجة إلى ديان . ولدهشة وزير الخارجية اقترح بيجين أن تؤيد الحكومة ، ذكرته لسيروس فانوس وأن تعرض هذه المذكرة على الكنيست للموافقة عليها . ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضواً مقابل ٣٢ عضواً وذلك فى ٢٤ يوليوس . وقال دين بكثير من الرضى والقبالة « ان المذكرة التى قد قدمت إلى فانوس فى قلعة لينز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل موقف إسرائيل » . وبالرغم من الجمود المستمر فإن « صحيفة ديان » قد مهدت الطريق إلى مفاخرة الرئيس كلتر بالياسة والمعروفة باسم « قمة كامب ديفيد » . ومرة أخرى سمح بيجين لجنرال سلق بأن يثير غضبه ويضايقه ، ولكن هذه المضايقة ، هذه المرة كانت فى موضوع قضية أكثر رقة وألطفاً .

## الفصل الخامس عشر معسكر اعتقال فاخر

كتب بريجنو بروجينسكى مستشار الامن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى : « يبدو لى انه اذا خرجنا على رؤوس الاشهاد وجائبنا النصر ، فمستعرض سياستنا فى الشرق الاوسط لحالة من الفوضى الشديدة ، كما انه سيتم رفض المصادات وآخرين معه أو انهم سيتحولون الى اتجاه راحيكلى وبعبارة اخرى . اذا خرجنا على الملا فليد أن نفوز » . وعقد الرئيس ، وهو يدرك تماما المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف ، مؤتمرا مع الزعميين المصرى والاسرائيلى فى كلب ديفيد ، وهى استراحته الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا . وخلص الى انه من الافضل العمل من خلال بيجين وليس ضده .

وبدا المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الاعياء الجسدى والذهنى الشديد كل ذلك المعسكر الذى تحيط به اشجار كثيرة ، قد اتهم من أجل فرانكلين د . روزفيلت خلال الحرب العالمية الثانية . وقام الرئيس ايزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه الى كامب ديفيد وفقا لاسم حفيده الاكبر . ووجد ( ميزرا وايلمان ) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الامكان المخلفة رغم ما يحيط به من طيور المنجلب اما موشى ديان ، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغريبة ويسقط أوراق الخريف البنى اللون المثل الى الذهبى . وكان الشئ المخرى فى ذلك المكان هو انه من الممكن الابقاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن انفسهم . وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم ينعمون فى ذلك المكان بعالم خاص من المكبث والمجرات وملاعب البولينج والتنس وحمام سبلحة وقاعة للطياردو وسينما وبعد ان عاد ديان من مهمة استعلامية وقدم تقريرا عن سياج الابن المخيف ، اطلق ( بيجين ) عليه اسم « معسكر الاعتقال الفاخر » . ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تنذر ( بيجين ) بقوله ان عليه ان يرسل الى هارب جماعة الارجون القديمة « يكوف مريدور » لتهريبهم . وسلم الاسرائيليون بان الكبان موضع تجسس ، لكن بريجنسكى أمر على عدم وجود شئ من هذا القبيل واستبعدت توصيته .

كانت كامب ديفيد ملعبا أمريكيا ، ولم يلعب التنس أو البولينج سوى عدد قليل من الاسرائيليين أو المصريين ، اذا لعبوا على الاطلاق . وكان كل

من السادات وديان يقوم بنزهات منفصلة على الاقدام كل يوم . وركب وايزمان دراجة للمرة الاولى منذ طفولته . أما الاسرائيليون الاصغر سنا فلعبوا البلياردو كثيرا وشاهدوا السينما . ولعب بيجين الشطرنج مع بريجنسكى ، واعطى بيجين . سواء كان يحض الصف أو من قصد ، مستشار الامن القومي انطبعا بأنه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاما . ووجد البروفيسور البولندي الاصل ان « بيجين » يلعب بطريقة منظمة وعدوانية الى حد ما ، وان كانت مدروسة استراتيجيا . وتحدث الرجلان باللغة الانجليزية وليس بلغة طفولتهم وشهدت المناقشة بينهما انتباه « ديان » الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخر . . وكتب يقول : ان اللعب برهن على انه مواجهة ميدانية وليس شكلا من التسلية السلمية ، حيث كان يستهين كل منهما على هزيمة الآخر . وطمس الغموض النتيجة مظهرا في ذلك مثل الكثير مما حدث في كامب ديفيد ، انه لا رادى ان تكون اللعبتان الاولين متساويتين . وزعم بريجنسكى انه فاز باللعبة القليلة وما تلاها من ادوار . الا انه طبقا لما ذكره بهيل قاديشى فانها لعبا دورا رابعا فاز به بيجين وبذلك أصبحت النتيجة متساوية . واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشاري الرئيس كارتر برئيس الوزراء تليفونيا ليهنته . وقال لو كلن بريجنسكى هو الذى فاز لما كان يوسعم الحديث اليه .

كان الامريكيون يعلمون ان اجتماع القمة كان مقامرة ، الا انهم اساموا تقدير الاجتهالات . وحدد البيت الابيض للمباحثات ثلاثة ايام مع احتمال بدءا ليوم رابع لو احرز المؤتمر تقدما بشأن مبادئ السلام . واعترف كارتر بعد ذلك قائلا انه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوما في اجتماعات مضمينة وغير مشجعة ، ودون ان يلوح في الافق احتمال النجاح الا في الساعات الاخيرة . ولم يكن هناك توازن في المفاوضات في اكثر من ناحية . وكان كل من بيجين والسادات قد وصل الى كامب ديفيد ولديه نصيب على خوض مساومة صعبة ، الا ان الزعيم الاسرائيلى كان يتمتع بميزة وحده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن ان يتوقع الفشل برباطة جأش . وهناك الكثير من الاسرائيليين الذين سيضعرون بخيبة أمل مريرة ، ومن بينهم كبار الامضاء في وفده ، الا ان بيجين سيشرح لهم انه فعل كل شيء لتحقيق السلام اللهم الا التفتيح بأرض اسرائيل وحينئذ سوف يوحد الليكود مساهمة واستخرج حكمته سالمة من هذا الموقف ، وستظل اسرائيل محتفظة بسيماها . ومن ناحية اخرى لم يكن ( كارتر ) وسيطا تزييا . وكتب يقول « يبدو ان السادات يثق في كثيرا ، بينما لا يثق بيجين في بالتذر الكف . وبالمثل انه لا رادى حقيقى ان الرئيس الامريكى كان يثق في السادات كثيرا وكان يشك في بيجين . وصرح في حديث صحفى قدمه لرحلة التلم قولا : اتنى لا احاول حتى ان اتكر اتنى موال للسادات . . » انه صريح تهلها ، وشجاع وكريم ويعيد النظر »



وكن مستعدا لتجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه ، وعلى مصر » . ولكن كلترتو مستعدا لان يتسلح مع السادات أكثر مما يتسلح مع الزعيم الاسرائيلى . ويرجع ذلك من ناحية الى ان السادات اطلعه مسبقا على بعض أوراقه . - بينما يرجع من الناحية الاخرى الى أنه استسلم لسحر السادات . كما ان مطالب السادات لم تكن اقل تطرفا من مطالب بيجين ، لكنه ترك المساواة لمستشاريه وسهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقي والشجاع . وعلى العكس من ذلك ، كان بيجين أكثر المناوئين الاسرائيليين تعنتا ، اذ كان يحقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويواصل الليل بالنهار . وعندما دعت ( روزالين كارتر ) ، زوجة الرئيس الامريكى الزعماء الثلاثة مجتمعين بان يطلبوا العالم بالتضامن اليهم فى الصلاة من أجل النجاة ، أمر بيجين على مشاهدة النصر . كان ( بيجين ) مصعب المراس كما كان مزعجا وواسع الاطلاع لها السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وقمها وقيمها ذات المذاق الخاص . ولكن من الضروري ان تكون هناك تجلوزات ، ولكن السادات يريد من كارتر ان يقدم بالترويج لانكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام أى شئ من هذا القبيل . وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهسية ، لكنه رفض التصدى للامريكيين بنفس الصورة . وإثناء المفاوضات توسل ( بيجين ) لكلترتو الا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى أمريكا ، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى . مقدم ما اعترف به كارتر بأنه مشروع جديد للغاية « لتحقيق سلام شامل على ككلة الميارات العربية الطفانة غير المقبولة » وهو يطلب ضمن اشياء اخرى ، بانسحاب اسرائيلى من كافة الاراضى المحتلة وازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ونقل سلطتها الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع توفير فترة انتقالية محتها أربعة أعوام يقوم الاردن خلالها بالاشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يقولون ممارسة السلطة المباشرة على الادارة » . وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ محتها خمسة أعوام بسنة شهور ، يدرس الفلسطينيون حقهم الاساسى فى تقرير المصير ويتم مساعدتهم على انشاء كيان وطنى لهم » . اما اسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس الى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩ علارة على عودة السيادة والادارة العربية الى القطاع العربى . وأخيرا طالب السادات بأن تدفع اسرائيل تعويضا كاملا وعجلا عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية ، بالاضافة الى استغلالها للموارد الطبيعية فى الاراضى المحتلة . وهذا المطلب الاخير من شأنه أن يشمل تعويضا عن ملايين اليراميل التى قامت اسرائيل بضخها من حول بترول سيناء منذ عام ١٩٦٧ . واختار بيجين الا يتمرد فى اول اجتماع مشترك له ، وتصرف كل من بيجين والسادات بحسن ما فى وسعها ، لدرجة أن كلترتو اعتقد بأن بيجين قد خفف من موقفه ازاء التشدد فى وثيقة السادات ، التى

وصفها لعدة أيام بعد ذلك بأنها دليسل على الموقف غير المنطقي من جانب المصريين .

وفي اليوم الثالث ، وبعد التشاور مع زملائه ، رفض بيجين الوثيقة تماما ، وأبلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزيم وقال أن هذه الوثيقة لا تبطل أسسها صحيحا للمفاوضات . وكان السادات يريد سلاما مع إسرائيل لا يكون هشا فحسب وإنما يكون قديرا أيضا . وفيها برهن على أنه آخر جولة وجهها لوجه في قمة كلب ديفيد ، قام بيجين بتشريح مقترحات السادات فقرة فقرة . ورد السادات على ذلك قائلا أنكم تريدون الأرض ، ومصر تقدم لإسرائيل الأمن ، وليس الأرض . وقال كارتر « لقد زال التحفظ وأحبرت الوجوه وانتهت المحادثات واللغة الدبلوماسية . ولقد أغفونا في أغلب الظن أنني كنت موجودا » . وقبل أن ينفذوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثفة ، اشتكى السادات من أن المشاعر الروية التي تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت « لأنه لم يعد هناك حد أدنى من التمسك منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة » وعند استئناف الاجتماع في وقت لاحق من النهار ، تبادل الزعميان الحادثات بسرعة انتهت إلى طريق مسدود بشأن المستوطنات . وقال السادات أن الشعب المصري لن يقبل أبدا أي انتهاك لأراضي أو لسيادته ، وأجاب بيجين بأنه ليس هناك سبيل يستطيع به اقتناع حكومته أو شعبه بإزالة المستوطنات أن نقل المستوطنين من شأنه أن يعنى ستوط حكومته . وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤتمر القمة ، واعترض كارتر طريقته إلى السلب وطلب من كليهما وقف المحادثات . ووافق بيجين على الفور ، ووقف السادات وهو يستشيط غضبا قبل أن يومية برأسه ، ثم خرج بدون أن ينطق بكلمة أخرى . ورأى الإبركيون الآن بصورة أكثر وضوحا من ذي قبل . أنه يتعين عليهم الامتناع بزمان المبادرة . وظل السادات في حجرته الخاصة وهو عابس الوجهه ، وأبلغ مستشاروه بريجينسكي بأن الرئيس يفكر في العودة إلى الوطن . ورفض بيجين الترحيز بشأن القضيتين الرئيسيتين المتعلقةتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة ، إلا أنه تخلى عن ما اعتبره كارتر بمثابة تلطيح بالرونة عندما قال للرئيس الأمريكي : « أنني لن أوصي شخصا أبدا بإزالة المستوطنات القائمة في سيناء » . وليس هذا مثل القبول بأنه لن يذمن أبدا لإزالتها . إلا أن بيجين كان مصمما على موقفه بشأن الأراضي الفلسطينية المحتلة . وهاجم كارتر في نقطة ما رئيس الوزراء بقوله : « أن ما تريد أن تفعله هو أن تجعل الضفة الغربية جزءا من إسرائيل » وأجاب بيجين على ذلك قائلا : « أن الحكم الذاتي شيء والسيادة العربية شيء آخر . ولن تقسمل مبدأ القرار ٢٤٢ الذي ينص على عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالحرب » . وقال تقلا عن الزامير « أوه يقدس لو أنسك » . وقال بيجين

لكراتر شلت يميني قبل ان اوقع على مثل هذه الوثيقة » . وعلى الرغم من انتعاب المزاييد ، اعدالامريكيون مشروع اتفاقهم في اليوم الخامس . وفي اليوم التاسع ادركوا انه لن يصدق عليها اى من الجانبين بدون ادخال تعديل كبير عليها . وقدم بيجين بياناً موجزاً غير اساسى اوحى فيه بأنهم قد يعودون جميعا الى بلادهم ، وحينذاك اتخذ كراتر خطوة غير تقليدية أدت في النهاية وان كانت ببطء وتذبذب الى التوصل الى اتفاق ، فقد انشأ فريق عمل يضمه هو وسيروس فانوس وآهرون باراك المدعى العلم الاسرائيلي واساة الباز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية . ولم يتم السماع عن قيام رئيس دولة بالتفاوض حول التفصيل بهذه الطريقة مع خبيرين منيين ، كان عليهما حينذاك الثقل الجيئة وذهابا لاتناع رؤسائهم بالفترات المتفق عليها . الا ان ذلك كنى مجديا .

والى جانب ديان ، ظهر ( باراك ) كأحد أبطال الفريق الاسرائيلي وفي عام ١٩٧٨ كان أستاذاً للقانون في ريعان شبابه في الواحدة والاربعين من عمره وكان مرشحا بالفعل لقمدة المحكمة العليا لكنه ظل مدعيا عاما طيلة فترة محادثات السلام . وعلى الرغم من أن حكومة حزب العمل هي التي كانت قد عينت ( باراك ) ، فلن يبيجين كون شعورا غير عادي بالاحترام تجاه مواهبه كعالم ضليع في القانون . وكان ( باراك ) مظه في ذلك مثل ديان ووايزمان بتمتعشا للسلام . وقد استغل كل مهارته وكفائته لكسر مقاومة بيجين ، وتأثر سيروس فانوس ، بصفته زميلا له في المحاماة بنوعية ذهن ( باراك ) وقال عنه انه رجل على درجة عاليتن الحساسية والرأى المصائب . ولا يمكن تقييمه بشيء في كثير من النقاط الصعبة في المفاوضات . وهو لديه موهبة عجيبة في استخدام الكليات ، ويستطيع دائما ان يضع نفسه في مكان الشخص الآخر ، ثم يحاول ان يجد سبيلا لارضاء حاجة ذلك الشخص الاخر بدون أن يضر بالمصالح الحيوية لبلاده . وساتفق انا وديان على طريق الالتفاف حول المشكلة ، وسيجد ( باراك ) بدوره الكليات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبة أو تخطيها .

ووجده ( ويليام كوانت ) خبير الرئيس لشئون الشرق الاوسط اسراييليا تعلم بنجاح كبير كيفية التأثير على الموجات الطويلة لبيجين . . لقد عمل بمثابة في الضمون والمصياغة ولعبه في الاغلب لعبة تلومدية في تغيير العبارات ، بدون أن يكون قلبه في الحقيقة حاضرا فيها . ولم يكن يعتقد في الواقع أن هذه الاشياء من الامور التي تستحق الخلاف حولها الا انه أدرك ايضا أنه أمر هلم للغاية اثناء بيجين . وهو على استعداد لأن يقوم بالكثير من المصياغة واعادة المصياغة والتفكير في الصيغ التي قد يقبلها بيجين .

وبوحي ديبلوماسى أمريكى آخر يعرف بيجين وباراك بأن كلتر استغل اهتمام باراك بالاتفاق وبالمرونة . وقد أوضح ذلك بقوله :

« أفتتح الرئيس الأمريكى ( باراك ) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم والمضامين الغلبسة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين بلغة قانونية ويقنعه بأن هناك تفسيراً قانونياً . ومشروما من شأنه أن يحى موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض . وهناك عدة مواضع فى النص تتجلى فيها قدرة ( باراك ) على أن يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير احدها بحيث أصبح معناه ( اكس ) فى حين أنك ربما تعتقد من شكله الظاهرى أنه يعنى ( واى ) ، الامر الذى اعطى لبيجين تبريراً ليسمح له بتقديم هذه التنازلات ، عندما قرر تقديمها بدلاً من فقدان الاتقاق . وليس بوسع أى شخص آخر أن يفعل ذلك . وفى الوقت نفسه ، كان ديان يناقش الاسباب الدبلوماسية أو السياسية لقبول مثل هذه الامور ، الا أن بيجين لابد أن يكون لديه تبرير قانونى لارضاء نفسه ونظراته الخاصة للمبادئ القانونية » .

وساهم ايضا المدعى العام فى تحقيق التقارب مع المصريين ، بالرغم من انهم لم يكونوا متأكدين مثل الأمريكيين من مدى نفوذه . وقال ( بطرس غالى ) ان ( باراك ) نجح فى خلق جو من الثقة القانونية « ، مثلما خلق وايزمان جوا من الثقة الانسانية » . لقد وثقنا فى باراك عندما قال « اننى اريد هذه الكلمة فى المادة الرابعة من اجل كذا وكذا » .

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين ابداً عن السيطرة على الاستراتيجية للمفاوضات . وقد حدد القضايا التى يمكن أن يتوقفوا عندها . وقرر الوقت والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التى يمكن أن تعطى . وقال احد الشهود الأمريكيين ان ( بيجين ) أظهر شعوراً رائعا بالوقت . وقد كان متمكناً من معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الاخيرة للتوصل الى حل وسط . وتدحق مقابل تقديم تنازل صغير أكثر مما يستطيع أن يحقق بمفاوض آخر من أى نوع مقابل تقديم ما هو أكثر من ذلك . ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله وفى بعض الاحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها ، ويفقد منظور الغايات من أجل الاشجار . ولقد وجده كارتر صارماً وغير خيالى . وذكرت ( روزالين ) زوجته لبرجيتسكى ان الرئيس قد اطلق على بيجين اسم ( المعنوه ) ، وهو لفظ كان كلتر امينا جداً لدرجة أنه لم ينكره عند مواجهته به على ثلاثة التلفزيون الاسرائيلى خلال زيارته الخاصة للقدس فى شهر مارس عام ١٩٨٣ . . الا أنه فى نهاية محنة كالمب ديليد التى استغرقت ١٣ يوماً لم يشك احد فى ان شمة منهجا فى جنون بيجين . ويصف فانيس بيجين بأنه . . واحد من ابرع لاعبي البوكر فى العالم الذين شهدهم .

وهو يستطيع ان يعرض قلبا جريحا بطريقة مؤثرة للغاية : وتد  
اظهر كل مشاعر الالم وعدم التصديق عندما قال : « كيف يمكنك ان تتوقع  
منا قبول موقف من هذا النوع ؟ » ، وحينذاك يجلس هناك دون ان  
يسجل على وجهه شيئا . انه يحاول ويصمد في وجه خصمه حتى النهاية ،  
وهو عنيف يستطيع البقاء بعد اى شخص آخر على الجانب الآخر للمنضدة  
اذا استلزم الامر وهذه جميعا صفات الغلوض الماهر ، او لاعب اليوكر  
الماهر للغاية .

وكان بيجين واضحا جدا في اهدافه ودقيقا للغاية في تفكيره وقد تدم  
بعض الطلاب التي كان على استعداد للتضحية بها . واستطيع ان اذكرك  
عددا من مرات عندما قال فيها ان ذلك شيء لن نتفق ابدا على حل وسط  
بشأنه ، وفي وقت لاحق من نفس اليوم ، بعد ان دق على المسائدة ، سر  
تفكيره . وقد اكتشفت ذلك في وقت مبكر الى حد ما ، ولذلك لم اقبل ابدا  
تصريحاته التي يقول فيها : « اننى لن استسلم ابدا بشأن هذه النقطة » ،  
وخصت الى ان ذلك جزء من اسلوبه وهو لا يعنيه .

رفض بيجين التناهم بشأن ثلاث قضايا وهى : مستوطنات سيناء  
وصياغة القرار ٢٤٢ ( الاستيلاء على الارض بطريق الحرب ) وأخيرا القدس .  
وعلى الرغم من التقدم الذى احرزته مجموعة العمل التي انشأها كارتر  
والفريق المبال الذى يضم وزراء الخارجية تحست اشراف بريجينسكى ،  
اوشك اجتماع القمة على الانهيار مرة أخرى في اليوم العشر واليوم  
الحادى عشر . وظهر الاسرائيليون كجبهة موحدة من أجل الإبقاء  
على المستوطنات ، في حين رفض المصريون السماح ببقائها ، وبدأ كارتر  
في اعداد خطط لانتهاء المؤتمر وتقليل الضرر الى الحد الأدنى وقد حدد  
يوم الاحد ١٧ سبتمبر على انه الموعد النهائي . والاعتراف بالفشل أفضل  
من السماح لاجتماع القمة بأن يموت ببطء . وهزم السادات ومساعدوه  
حقائبهم وطلبوا من الأمريكين توفير طائرة هليكوبتر لهم . وتبادل الرئيس  
المصرى حديثا حادا مع ديان ، الا أنه استجاب لآخر نداء شخص من  
جانب كارتر . وشعر بعض الأمريكين المشككين بأن السادات يمارس  
التهويل . وهو لا يحتاج الى الكثير لاتناعه . وقال ( ويليام كوانت ) ان  
هناك جزءا في السادات يتعصب لشخصية المثل . « وهو يعلم ان كارتر  
سريع التأثير بذلك النوع من ندائه العاطفى » .

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح . فقد تنازل وايزمان ، الذى تطل  
دوره حتى ذلك الحين في الإبقاء على توهج الجمرات ، من المطارات العسكرية

في سيناء مقابل نعمه من جانب ( هارولد براون ) وزير الدفاع الامريكى  
ببناء بدائل لها في صحراء النقب . واتفق ( باراك ) واسلمة البارز على ازالة  
عبارة « عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » من النص الرئيسى ،  
ونشر القرار ككلا على انه ملحق به ملحوظة في المقيدة بأن كلا الطرفين  
يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع اجزائه . « وتجرح ( بيجين ) عبارة « الحقوق  
المشروعة للشعب الفلسطينى » التى كان قد اصر من قبل على أنها ستبطل  
خطرا ممينا لاسرائيل . وبعد محاضرة ادلى بها على رفاته حول الاصل  
اللاتينى لكلمة « مشروع » تسامل قائلا « هل يمكن أن يكون الحق »  
غير مشروع ؟

الا ان النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة .  
وظهرت هذه المعجزة في الشكل المروع والمستبعد لاريل شارون ، وهو بطل  
الحرب المحبب الى بيجين والمستول عن الاستيطان . والترح الجنرال افراهم  
تلمير قائد التفطيط العسكرية في عهد وايزمان الاتصال تليفونيا بشارون  
واعطائه تقريرا من أزمة كليب ديفيد واقناعه بحث بيجين على الجلاء عن  
المستوطنات . وكان ( وايزمان ) يساوره الشك فيما اذا كان ( شارون الروح  
المحركة خلف برنامج الاستيطان ، سيتعلمون أم لا ، الا أنهم لن يخسروا شيئا .  
ونفوس لتلمير بأن يجرب حظه ) .

« وبعد ذلك ببضع ساعات قليلة ، كلن بيجين البالغ التأثير يبلغ الوفد  
الاسرائيلى بلن آرييل شارون قد اتصل به تليفونيا . والشيء الذى ادهشه  
ان شارون كان يحذر اجلاء المستوطنات اذا كانت هى العقبة الاخيرة في طريق  
تحقيق اتفاقية السلام ، وقال شارون لرئيس الوزراء . . اننى لا ارى اى  
اعتراض من الناحية العسكرية على اجلائها .

وتأثر بيجين ، الا انه كان ما زال راغضا بشأن التخلي عن المستوطنات ،  
وان حجته في الإبقاء عليها قد بنيت على أسس اممية وكان نسوء ( رشح )  
يمنل منطقة عازلة لها قيمتها بين سسيناء التى ستم اعادتها الى مصر وبين  
اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ شخص ، وهى  
ارض تجنبد خصبة للارهابيين . ولكن الامن لم يكن اهتمامه الوحيد ، اذ ان رئيس  
الوزراء ، مله في ذلك مثل الكثير من الاسرائيليين من مختلف المذاهب السبسية  
يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم . ويعارض ذلك مع  
المزاج الوطنى . وهو تلف من أن يفسح سبلة للضفة الغربية ويرتفعات  
الجولان . الا أنه في المقام الاول كلن بيجين يخشى من أن يؤدى التخلي  
عن المستوطنات الى حدوث انقسام في صفوفه ، الامر الذى حدث بالفعل  
على وجهه المبرعة .

وعندما اجتمع الرئيس كارتر في اليوم الثاني عشر ، كلن ( بيجين ) مؤال  
وجباول جاجدا الفوز . واقترح التفاوض مع السادات بشأن كل مسألة  
اخرى معلقة لتتقيق معاهدة للسلام في غنسون ثلاثة شهور . وحينذاك  
سيطرح مسألة الاستيطان على الكنيست . وأبلغه كارتر ان ذلك لمل مئوس  
منه ، ولن يقبله السادات أبدا . وكتب الرئيس يقول . . من الواضح  
ان ذلك كان مؤلما جدا بالنسبة لرئيس الوزراء مناحم بيجين . . . وكان  
يصيح بكلمات مثل . . انذار « مطالب مبالغ فيها » و « انتحار سياسي »  
ومع ذلك في النهاية وافق بيجين على ان يطرح على الكنيست في غضون  
اسبوعين القضية التالية : « اذا تم التوصل الى اتفاق بشأن جميع قضايا  
مسيئنا الاخرى ، هل سيتم سحب المستوطنين ؟ » ورفض طلب كارتر بان  
يتخذ موقفا محايدا خلال هذه المناقشة ، لكنه تمهد لتجراة تصويت جر .

كان بيجين يأمل في الفصل بين التصويتين بحيث يكون احدهما حول اتفاق  
السلام بينما يكون الآخر حول المستوطنات وتوقع اغلبيه برلمانية ساحقة  
للتصويت لصالح اتفاق السلام واغلبيه اصغر ضد ازالة المستوطنات . الا ان  
مناوراته باءت بالفشل على يد حزب العمل المعارض الذي كان يحتاج  
الى تأييده والذي اصر على اجراء تصويت واحد يشمل كلا من الاتفاق  
والجلاء عن المستوطنات . ومن غير المفصور ان يتوقع برلماني له خبرة  
بيجين بالواقعة على جل التصويت الواحد على المرحومين دون عواتب  
وخفة ، او انه كان سريفي المصريين او الابرهيكين . الا ان تدخل حزب  
العمل قدم له عذرا . ولم يقايس مناحم بيجين بالمستوطنات اليهودية في حين  
معلت المعارضة ذلك . ان ذلك لم يقنع أبدا لا يريد ان يقنع ، الا انه انقذ  
ضمير بيجين وربما كان ذلك هو المقصود بتحقيقه .

والتمز بيجين بكلمته . وتم اجلاء مستوطنات ربح ، بها في ذلك مدينة  
( ياميت ) النووخية . بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة ، في الموعد المقرر في شهر  
ابريل عام ١٩٨٢ . وانتهى بصورة اتل وتيرة المطلب الامريكي الذي يطالب  
بتجميد النشاط الاستيطاني الاسرائيلي في الضفة الغربية . وقضى كرتر  
وفانسي اكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثاني عشر وهما بنقلاشان  
قضيتهم مع بيجين وديان وباراك . ومن العسر المتوقع بان يأخذ العسرب  
مفاوضات الحكم الذاتي ماخذا جديدا اذا استمر الاستيطان اليهودي بلا ضوابط  
ورفض الاسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التمهيد مع السادات كجزء من اطار  
الحكم الذاتي من اجل السلام . وأصروا على ان الاستيطان في الضفة  
الغربية ليس من شأن مصر . وفي النهاية وافق بيجين على ان يكتب خطابا الى  
كارتر يتم نشره بين ١٢ ثاني المؤتمر . وبعد ذلك بخمسة اعوام ، مازالت الاطراف  
المتبقية تجرى مناقشات مع مناحم به رئيس الوزراء . هل هو تجديد طويل

الامد ، ام انه تجريد محدد لمدة ثلاثة شهور ؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتي او بمفاوضات التوصل الى معاهدة سلام اسرائيلية ؟ . واقتنع كل من كارتر وفانس بان يجب ان يخدمها . وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم ، الا يرون قصصا عكسية تبليها .

وطبقا للرئيس ، تم الاتفاق على انه لن يتم انشاء اية مستوطنات اسرائيلية جديدة بعد التوقيع على « اطار السلام » وعلى ان قضية المستوطنات الاضافية ستطرحها الاطراف المعنية خلال المفاوضات ، ويؤكد فانس الذي سجل ملاحظات خلال الاجتماع ، التفسير الذي قدمه كارتر .

نطبقا لمختراتي ، فان هذا الاطار كان مرتبطا بمفاوضات الحكم الذاتي ولم نفترض ان المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتي ستنتهي في آن واحد وفي وقت قصير نسبيا . ولكن هناك امل في ان نستطيع احراز تقدم بشأن الحكم الذاتي اكبر مما حدث بالفعل ، الا اننا ادرنا جميعا انها ستكون مهمة شاقة جدا . وجذور المشكلة اعمق من ذلك بكثير . وقد شهدنا استمرار المفاوضات في خط متواز وان كان منفصلا . وهي لم تتوقف على بعضها البعض .

وتلقى هارولد سوندرز ، خبير وزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط تقريرا موجزا على الفور بعد الاجتماع اذى انعقد مساء يوم السبت ، اذ قدم له فانس مذكرة تلو الاخرى حول هذا الموضوع . وقد وضع المناقشة التي دارت في هذا الاجتماع في السياق التالي :

توجه كارتر وفانس الى الاجتماع وهما يعلمان مايريدان ويعرنان ايضا مصر نتيجتهما المفضلة التي توصل اليها بشأن تجريد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما . واختيارهما المفضل هو تجريد الاستيطان طوال الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام ( للفلسطينيين ) والتراجع هو الى تجريد بنساء المستوطنات اثناء « هذه المفاوضات » الا انها اشارا الى محادثات الحكم الذاتي ، على اساس النظرية التي تفيد بانها اثناء محادثات الحكم الذاتي يكون على المتفاوضين معالجة تجريد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية .

وعلى اية حال فانها كانتا يتحدثان في تلك اللحظة حول فقرة في هذه الوثيقة التي اصبحت اطارا للسلام ، وبكلمة اخرى الوثيقة التي تعالج اساسا المفاوضات المتصلة بالضفة الغربية وقطاع غزة . والمباراة التي كانوا يركزون عليها هي عبارة في فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتي ثم بالوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة .

وقال مناحيم بيجين رئيس الوزراء انه لا يستطيع الموافقة على وثيقة بشأن تجريد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات . ان ذلك امر تقرر



الحكومة الاسرائيلية ، وهو ليس بالامر الذي يكون للحكومة المصرية فيه اى رأى . وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاغل المماثلة بشأن قضائيا اخرى . وهو يجب ان يكون هناك خطاب جانبى . وفسر ( غانز ) ذلك لى بعد الاجتماع وطمأنى بأن أضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء منلهم ببجين الى الرئيس كارتر اشرح فيه موقف رئيس الوزراء ، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جانبى .

وسجل باراك ملاحظات كثيرة على الجانب الاسرائيلى . وكان قاطعا فى قوله ان النسخة الامريكية غير صحيحة .

« الشيء الذى تم الاتفاق عليه هو ان يكون تجديد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وان يرتبط بالمفاوضات الخاصة بإبرام معاهدة سلام مع مصر . وهناك قيودان فى هذا الشأن ( ١ ) انه فى اطلر معاهدة سلام مع مصر . (ب) وان مدته ثلاثة شهور . وهو لا يرتبط بالمرّة بفلوضات الحكم الذاتى .

واستشهد الاسرائيليون ايضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقريراً للمراسلين الامريكيين فى واشنطن يوم ١٩ سبتمبر ، اى اتفاقا على تجديد انشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة ، وهى الفترة التى من المفترض ان يتم خلالها إبرام اتفاق السلام . ومع ذلك ، ينفخ الامريكيون بان السادات لم يكن حاضرا عند التوصل الى اتفاق ولم يكن طرفا فيه . وعلى الرغم من ذلك فان مايفهم من اولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الاسرائيلية .

وبعد ان تحدث كارتر فى واشنطن من تجديد لمدة خمسة أعوام ، طالب المراسلون فى مطر بن جوريون من ديان ان يقدم لهم تنسيرا ، . وكان عائدا على التو الى اسرائيل مع وايزمن تاركين ببجين فى الولايات المتحدة . ويبدو ان الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها .

ان تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو ان فترة استمرار المفاوضات حول موضوع يهودا والسامرة يجب لا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين الى ثلاثة شهور . . فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الاسرائيلية ثلاثة شهور ، اما فترة استمرار المفاوضات الخاصة بالقضية الفلسطينية فلم يتم تحديدها بالمرّة . لكن لنفترض انها ستستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور . فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد ان اوضحنا الامور مع اسرائيل ( من كلام ديفيد ) ، ظهر انه لا توجد فى الحقيقة اية قضية ملحة لاتشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين او ثلاثة شهور ، وربما بعد هذه الفترة ايضا . وذلك أمر كان قاطعا حتى اذا لم يكن هناك اتفاق وحتى اذا لم يتم طرح المسألة . . اما فيما يتعلق بفترة الخمسة أعوام ، فلى حدود ما اعرفه ، ليست هناك عبارة فى هذا الشأن فى الاتفاق . .

وزاد الارتباك والحيرة سوءا ، ولكن لعل الكلمة الأخيرة للفصل في هذه المسألة مع صول فينوويزتر ، الذي عمل بعد ذلك رئيسا للفريق الإسرائيلي في مفاوضات الحكم الذاتي . قال : « لقد قرأت جميع الملاحظات التي دونها كارتر عندما تم تعييني كيموث خلص في الشرق الاوسط . ولقد تأثرت بالاجهاد الذي كلفوا يعملون في ظله ، وباحتمالات سوء الفهم ، ولاسيما بشأن مسألة معتدة مثل المستوطنات .

ومن العسير أن نتصور أن بيجين كلن سيذعن عن دراية لتجديد غير محدد النهاية في الضفة الغربية ، ولاسيما بعد أن استسلم في سيناء . أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع غرائزه ومع اهتماماته كرهيم لحزب انقلته بالفصل بمبادرة السادات . بل أنه من المتصور تماما أن يلاعب هو وديان بالمسألة .

وبحلول فجر اليوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر ، كان كارتر قد اقتنع بأن الصيغة مضمونة . وقدمت كليب ديفيد اطارين ، أحدهما بشأن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل والأخر بشأن السلام في الشرق الأوسط . وسيحتاج ملء الاطارين الى الكثير من التسوية الصعبة الا ان اجتماع القمة قد حقق مهمته . وانتصرت الولايات المتحدة ، مثلما نصح بريجنسكي بانها يجب ان تتصرف . غير ان اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة في اللحظة الأخيرة . وكان من المثلق عليه عدم الاشارة الى قضية القدس اليلالفة الحساسية في النص نفسه . وفي احدى المراحل ، عندما اقترح الأمريكيون ان تعرف راية عربية أو مسلمة على المسجد الاقصى ، الذي يوجد في موقع المعبد اليهودي ، حذرهم بيجين من أن نفس الفكرة اثار في ارتجافات قلبية . وفي يوم ١٧ سبتمبر كان الأمريكيون لا يتحدثون الا عن تبادل الرسائل التي احتفظ فيها الزعماء الثلاثة — كارتر وبيجين والسادات — بمواقفهم المعادية بشأن المدينة المتنازع عليها . وتبنت النسخة الأمريكية لغة البيانات التي أدلى بها المندوبون المتلاحقون في الأمم المتحدة ، ورفضت الاعتراف بضم إسرائيل لشرق القدس بعد حرب الأيام الستة ، وبمجرد أن سبغ بها بيجين أعلن أنه لن يوقع على أية وثيقة أبدا اذا كتبت الولايات المتحدة أى خطاب من هذا القبيل للسادات . ونجاة عادت الائتلافية برمتها الى بوتقة الانتصار الا أن كارتر لم يكن مستعدا لان يدمها تنه في هذه المرحلة . وحل المشكلة بخليط من مهليات السياسة ( وقد حذف كل اشارة معينة تشير الى القسم الاسرائيلي وتال ببساطة أن المندوبين الأمريكيين في الأمم المتحدة قد أوشحوا السياسة الأمريكية وطلب بيجين منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة باحتلاله . وأصدر كارتر تعليماته السنن سكزتره ليفرف اسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة . وعندما جعلهم الى حجرة بيجين تأثر الزعيم الاسرائيلي وحكى له بدوره عن كل خفيد منهم على حدة . وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالنمل . وبهذا

يستطيع الجد الفخور باحفاده ان يفعله خلاف ذلك ، ولا سيما عندما يحقق  
ممراده ؟

وانتهت كلمب ديفيد بمسجة من الارتياح والتصلح . وقام انسادات  
بزيارة ودية لبيجين ، وكان ذلك اول اجتماع لهما في غضون عشرة ايام .  
وحينذاك قام زعيمها الشرق الاوسط . واعلن الرئيس ان هذه هي اول مرة  
يشعر فيها بالمرور وهو يغادر كلمب ديفيد الى واشنطن . واخيرا جاءت  
الات للتصوير والمراسلون ليهارسوا مهابهم . وتم التوقيع على الاتفاقيتين  
اللتين تبطلان الاطارين ورد رؤساء الدول الثلاثة على الاسئلة باحسن ما في  
وسعهم وهكذا وقعت اسرائيل ومصر على اول اتفاق للسلام بينهما .

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط على الدوام ، الا انه قدم نصيبه  
من التنازلات . ووافقت اسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء كلها بما في  
ذلك حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام . وكان  
رئيس الوزراء يشعر في مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفي تصريحاته العلنية  
ايضا بان اسرائيل تتخلى عن ارضة حقيقية وتلتقي شيئا غير حقيقى من مصر .  
ولهذا السبب امر بيجين على ضمانات جوهرية قوية للحدود الجنوبية لاسرائيل .  
ولقد بيجين نتيجة لتضحيته على مضض بمستوطنات سيناء تايد بعض اصدقائه  
القدامى المقربين اليه . وانسحب من ذلك الموقف ( سمويل كاتز ) خير القاذور  
الدولى الذى ينتهى فى الاساس الى جماعة ( ارجون زفاى ليوى ) وكذلك فعلت  
ايضا ( جيولا كوهين ) آخر اعضاء ( جماعة فستين ) التى تضاهى عاطفتها تجاه  
ارض اسرائيل عاطفة بيجين نفسه . وهناك آخرون مثل ( يوحنا بن بار )  
المحارب القديم ابلعدوا عن زعيمهم بطريقة أكثر ذكاء .

وفى غضون ايام من التوقيع على اتفاق كلمب ديفيد كان بيجين يتهاوى  
للجمهور ، اليهودى الأمريكى بأنه لم يوافق على تقديم شيء للفلسطينيين اكثر  
مما تقدمه فى الاسماعيلية فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ . واثار ذلك الزعيم غضب  
ادارة كارتر ، التى اتمرت بقله كان يحاول اثناء الاردنيين وغيرهم من العرب  
« المعتقلين » عن مساندة السبائيات والقاء الفلسطينيين فى قطاع غزة والضفة  
الغربية عن التعليم بالدور المخصص لهم . وكان بوجين قد قدم فى كلمب ديفيد فى  
الواقع اكثر مما قدم فى الاسماعيلية . ووافق على ان المفاوضات يجب ان تتم  
على اساس القرار رقم ٢٤٢ فى كافة اجزائه « لحل » المشكلة الفلسطينية  
بجميع جوانبها . « وكان من المقرر ان تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة ايام » لتجديد  
الموضع التمهلى للصفة الغربية وغزة وولايتهما بجيرانهما « وان تنتهى هذه  
المفاوضات بنهية الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اموام . وتعمد بالتوصل  
الى حل من شأنه ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وبمطالبه

العادلة » . وتم توجيه دعوة للاردن للانضمام الى هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وهذه فلسطينيين « كما هو متفق عليه من الطرفين وكان من المقرر ان تنسحب القوات الاسرائيلية من الأراضي وتنتشر وحدات محدودة في «مواقع أمنية معينة » : ولم يتم تحديد المسؤولية عن الامن والنظام العام ، بينما اتاحت للفلسطينيين امكانية تشكيل « قوة شرطة محلية قوية » ، يمكن ان تضم بين صفوفها مواطنين اردنيين .

وكان الكثير من هذه النقاط في صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة ، ولم تكن شيكات يتم حملها الى المصرف لصرفها . وكان ييجين قد دونها بغموض وحذر شديد لم يلحظه الامريكيون او المصريون . فعلى سبيل المثال ، فان « السلطة التي ستتولى الحكم الذاتي » والتي سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لانفسهم قد اشير اليها ست مرات في اطار الاتفاق وفي واحدة فقط من هذه المناسبات المست وهي المناسبة للرابعة اضيفت كلمت « المجلس الاداري » بين اقواس بناء على طلب اسرائيل . الا ان ذلك كان كافيا لان يشير اليها بيجين بعد ذلك على انها « المجلس الاداري » وهو شيء اكثر تواضعا مما كان يريده الامريكيون والمصريون ويعتقد ( ولیم كوانت ) ان الوفد الاسرائيلي تعمد ترك المسألة الفلسطينية حتى آخر يوم في كلب ديفيد ليتجنب تقديم التزات محددة . وقال كوانت ان براك الذي يتمتع بضمير حي قال انه كان يتعين عليهم اعطاء الضفة الغربية من الوقت ملها امطوه لسيناء لكن كل شخص كان يريد العودة الى وطنه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، اتاحت كلب ديفيد للفلسطينيين افضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧ . وكان هناك كل شيء يمكن التفاوض حوله بمساعدة المصريين والامريكيين وكان من حسن حظ بيجين انهم لم يدعوه الى تنفيذ وعيده — وانهم سمحوا له ببناء دفاعاته . وكان اكبر خطأ وقع فيه الامريكيون انهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الاسرائيلية المصرية ، بحيث تتوقف كل منها على الاخرى . والتي ( بريجنسكي ) اللوم في ذلك الاخفاق على اذعان كارتر للصيغ الفلهضة التي استخدمها بيجين . وكتب يقول ان ذلك سيعود لمطاردتنا ، في المراحل القادمة من المفاوضات . وكان الاسرائيليين لهم اولوياتهم الخاصة . وقال ( الياهو بن - اليسار ) الذي كان مكلفا بصفته مديرا عاما لمكتب رئيس الوزراء بصياغة استراتيجية اسرائيلية محكمة لمفاوضات الحكم الذاتي ان بيجين ينظر الى سيناء على انها تعويض عن الوجود الاسرائيلي فييهودا والسامراء وباتهاء حكم بيجين في شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ، كان يستطيع النظر الى كلب ديفيد بارتياح . لقد كان السلام مع مصر وان كان فاترا قلبا لم يس ، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لمقبضة اسرائيل على ارض اسرائيل .

كان قد تم اقتناع المصريين بقبول صفقة كامب ديفيد بالدفع بأن كل شيء سيكون مختلفا في غضون خمسة اموام . وقال : بطرس غالى ان « روح كليب ديفيد هي نوع من الهدنة » ، وان شخصا آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات ، نذرتنا تحت تأثير ديان وايزمان ان بيجين قبل ذلك للحصول على السلام . وتم تهدئة شكوك الامريكيين بطريقة مماثلة . وطبقا لما ذكره ( هانس ) ابلغ بيجين الامريكيين بانه لن يشرف ابدا على نقل بوصة واحدة من يهودا والاسلمرا الى سيادة اخرى ، وان هذه الاراضى ملك لاسرائيل . الا انه اضاف قائلا : « ربما يأتى آخرون بعدى يكون شعورهم مختلفا . وفي نهاية فترة الخمسة اموام لن اكون موجودا . والشئ الذى لم ينكره رئيس الوزراء هو انه سيبدل كل ما فى وسعه ليؤكد من انه لم يترك شيئا كثيرا ليتم نقله الى الغير .

## الفصل العشرون

### منع جلازة قبل الاوان

بدلا من الشهور الثلاثة التي كان قد تكهن بها بابتهاج في شهر سبتمبر ، استغرق الاستنزاف الدبلوماسي ستة شهور لتحويل كلب ديفيد الى معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . وحاول كلا الجانبين خدش بعض الفنزلات التي ندموا على تقديمها في استراحة ( ميريلاند ) . وبدأت اسرائيل برنامج طوارئ « لتدعيم » المستوطنات القائمة في الضفة الغربية ، بالرغم من ان الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنات منفصلة في كل شيء الا الاسم وقلبت لجنة حكومية فرعية ، يرأسها مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، ( الياهو بن اليسار ) بازالة بريق تعريف اسرائيل للحكم الذاتي حتى يقل ما يمكن ان يتفاوض حوله الفلسطينيون . وعلى سبيل المثال ، كان من المقرر ان تبقى اراضي الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الاسرائيلية . وذلك من شأنه الابقاء على خيار الاستيطان اليهودي قلمًا ، في الوقت الذي يحتفظون فيه باستخدام اسرائيل لحق الفيتو بشأن توسيع القرى والمدن العربية . ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل في كلب ديفيد ، حيث تم النظر اليها على انها متشابكة للغاية بحيث لا يمكن ان تشكل اطرا عليها . وسارع الاسرائيليون بملء الفراغ ولاسيما بعد ان جعلتهم محاولة امريكيين كسب ود الملك حسين واقناعه بالانضمام الى عملية السلام يلتزمون بجانب الحذر واصيبت ادارة كارتر بخيبة امل لان السادات اغفل التوقف في عمل يقوم بالهمة بنفسه . وقامت الادارة بالتعويض عن ذلك بتسليم اجابات مكتوبة على الاسئلة الاردنية بشأن دلائل كلب ديفيد ، بالإضافة الى نسخة تم تقديمها لبيجين كدلالة على النية الطيبة . وشعر بعض الدبلوماسيين الامريكيين بالاسف فيها بعد لان دبلوماسيتهم كانت مكتومة الى هذا الحد ، الا انه لم يكن بمقدور سيروس فانس ووكيل وزارته ( هارولد سوندرز ) اللذان حضرا الرسائل الى الشرق الاوسط ايجاد بديل آخر مشرف . ولم يكن هناك شيء في الاجابات لم تعرفه اسرائيل بالفعل ، الا انهم اوضحوا التفسيرات الامريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس — التي جاهد بيجين للابقاء عليها خارج وثائق كلب ديفيد . ورد رئيس الوزراء الاسرائيلي على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه الى شرق القدس العربية . وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة ، فان الملك حسين والزملة المنتخبة للضفة الغربية اعطيا ظهريها لمكاتب ديفيد . وكثفوا ينفذون الى القوة والجرأة التي تمكنهم من القيام بمقاترات السادات . وحاول الرئيس المصري التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقدم الذي يتم احرازه بالنسبة

للפלستينيين ، الا ان بيجين الذى كان قد تجنب الوقوع في ذلك الشرك  
فى كاهن ديفيد لن يقع فيه الآن .

وصدقت الحكومة الاسرائيلية على انتقايات كاهن ديفيد التى حصلت  
على موافقة احد عشر صوتا ومعارضة صوتين وامتنع عن التصويت  
حاييم لاندوا نائب بيجين الاكثر اخلاصا . اما الكنيست فقد صدق على  
الصفقة ، التى تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء ، بعد مناقشة استغرقت  
١٧ ساعة وانتهت فى الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وكانت نسبة  
التصويت ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا وامتناع ١٧ . ومن بين الاصوات الـ ٨٤  
التي تأملت « نعم » لم يقدم أعضاء الائتلاف منها سوى ٧٤ صوتا . اعطى  
الاعضاء الليبراليون فى كتلة ليكود أصواتهم لصالح الإجراء ، الا ان حزب  
حيروت قد انقسم على نفسه ولم يعط الا ما دون النصف وما كان بيجين  
ليفوز بالتصويت بدون مساعدة حزب العمل المعارض . وسحب عضوان  
من حزب حيروت كل من المقرر ان يشغلا منصبين رئيسيين فى حكومة  
بيجين الثانية — وهما اسحق شامير ووشى آرينز تأييدهما وامتنع عن  
التصويت شامير — وذلك الوقت رئيسا للكنيست ( فى اسرائيل يظل رئيس الكنيست  
سياسيا للحزب وله حق التصويت ) وكان آرينز يشغل منصب رئيس لجنة  
الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست . وهناك اشخاص آخرون فى كتلة  
ليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم ( ايجال هورفيتز )  
وغليفته ( يورام اريثور ) بالإضافة الى ( ايتان ليفى ) رئيس العمليات فى  
جماعة ( ارجسون زماى ليوى ) . وفى واشنطن ، اشار الرئيس كارتر  
فى يومياته الى ان التصويت كان دالة لائمة للنظر على الشجاعة ، الشجاعة  
السياسية من جانب مناحيم بيجين رئيس الوزراء ، الذى كان عليه ان ينهك  
الزعامات السابقة طوال حياته ويخرج من اصداغائه وحلفائه الذين تقدموا له  
المعون والصاية خلال ايامه الثورية . ولم يكن الرئيس الامريكى سعيدا الى  
حد كبير بالنتائج . لقد اظهرت عمليات الانشقاق مدى الضغط الذى شكله  
اتفاق كاهن ديفيد على ولاء حيروت للتقاليد القديم . كما رفض بيجين واسماء  
حزبه طلبا بتقديم الانتقايات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست الا ان  
ثقل الانشقاق فى صفوفه دعم اقتراح الرئيس الا يتقدم شيبرا واحدا عما وقع  
عليه فى يوم ١٧ سبتمبر . وكبح جراح عملية السلام وأمر على توسيع نطاق  
المسئولية الى اكبر حد ممكن فى الحكومة بالنسبة للقرارات التى يتم اتخاذها  
فى المستقبل .

وبمع ذلك ، فمن الناحية الرسمية ، مهدت الاصوات فى الحكومة والكنيست  
الطريق أمام استئناف المفاوضات . وكلفت الحكمة التقليدية السائدة هى أنه

تم حل ٩٨ ٪ فقط من المشكلة ، مع ترك ٢ ٪ ليتم تسويتها قبل التوقيع على معاهدة السلام . وتوجه موفى ديان ومزرا وايزمان الى واشنطن لحضور مؤتمر ( بلير هاوس ) ، الا انها سرعان ما وجدت انه ليس امامهما ولا أمام المصريين المقلبين لها حرية اللبناورة . وتدخلت الحكومة في القدس في كل مرحلة . وبعد اتفاق كلب ديليد انخفضت درجة ثقة زملائهم في وزير الخارجية ووزير الدفاع أكثر من أي وقت مضى . وكانت تتم اعادة كل نقطة الى قاعدتها الاصلية . وبرهنت القضايا المستعصية على انها تتمثل في وضع تاريخ محدد لانشاء نظام للحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وربط معاهدة السلام بالحكم الذاتي ، واستمرار حصول اسرائيل على بترول سسيناء ، بالإضافة الى اصرار بيجين على أن تكون لمعاهدة السلام أولوية على التزامات مصر بالنضال الى جانب أشقائها العرب في أي حرب تنشب في المستقبل مع الدولة اليهودية .

وفي منتصف شهر نوفمبر ، بعد مرور علم واحد على زيارة السادات الى القدس قبلت اسرائيل المشروع الامريكي الاول ، أما مصر فكانت ما زالت تتسكك بالرفض . وابت نسبة ال ٢ ٪ الأخيرة المتبقية من المشكلة الى نفس المناوضات الى شتاء ١٩٧٨ — ١٩٧٩ الكتيب . وتم ايفاد سيروس فانيس للشرق الاوسط للقيام بدبلوماسية مكوكية . وذهب ديان الى بروكسل لاجراء محادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذي كان قد عاد في ذلك الحين مرة أخرى الى كلب ديليد . ورفض بيجين دعوة للذهاب الى واشنطن لاجراء محادثات مع مصطفى خليل وأصر على ألا يتعامل الا مع السادات . وعلى الرغم من المنصب الذي كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطرف المناظر له . وأخيرا امكن اقناع بيجين بزيارة كلتر على امل ان يلحق به السادات ، بينما استمر ديان في محادثاته مع رئيس الوزراء المصري بالتدقيق في كل فقرة فرعية . وأالر ( بيجين ) مخوف في وزارة المالية عندما تعهت في احدى لحظاته الأخيرة على شاشة التلفزيون الامريكي بأن اسرائيل ستقوم بالمسداد حتى آخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التي من المقرر ان تتلقاها اسرائيل من الولايات المتحدة لاعادة نقل توزيع قواتها من سيناء الى القبة . وكانت وزارة المالية تعتمد في حساباتها على أن يتخذ ذلك اجمالى ما تحصل عليه على الاقل شكل منحة وليس شكل قرض . وكانت الايماءات تعنى لبيجين الكثير على الدوام أكثر مما تعنيه الارقام .

وقبل أن يستطيع أي فرد أن يكون واقعا من النجاح بفترة طويلة ، أعلنت لجنة نوبل انها تمنح جائزة السلام الخاصة بعلم ١٩٧٨ لكل من منلحم بيجين وأنور السادات . وكان الثرويجيون على الاقل مألوا يراهنون على كلبه



ديفيد . وتلقى الزعيم الاسرائيلي الاتباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر ، الا انه لم يرد علانية حتى نهاية يوم انسبت عندهما كان يستضيف ( ارتور روبينشتين ) عازف البيانو على التلشاي في مقره في القدس في ملتقى شارعى بلغور وسولونيسكين ، وتبادل السادات وبيجين النهائى تليفونيا . وكانت الجائزة هى الوسلم النهائى للاعتراف الدولى لرئيس الجماعة السرية ، الا انها جاءت في وقت خرج بالتمسية للسادات ، الذى يدرك بمعصم ارتياح عزله في العالم العربى وحسلسية موقفه في مصر .

وطار بيجين واليزا الى اوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعها حاشية من الأتارب والاصدقاء وشخصيات اسرائيلية ويهودية أمريكية . وبقى السادات في منزله ، وارسل سيد مرعى مساعده الخاص ليقتلم الجائزة نيابة عنه . وكسب الدييولوماسى المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين عندما وقف عند مطار اوسلو في درجة حرارة اقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار . اما عائلة بيجين فقد تم نقلها من المطار الى القصر الملكى في طائرة هليكوبتر حمراء وببضاء اللون تحرسها طائرتا شرطة هليوكوبتر مسلحتان . ولم ينتهز النرويجيون هذه الفرصة ، فقد بقى الفائزان بجائزة نوبل للسلام بصورة طليعية في أحد الفنادق وتلقيا جازتهم في قاعة جامعة اوسلو . وفي ذلك العلم بقى بيجين وزوجته في القصر الملكى وجرى الاحتفال في اليوم التالى في حصن ( اكرشوس ) الذى يعود الى القرن الرابع عشر والقصر الحصن من أكثر الاماكن تحصينا في البلاد . اما سيد مرعى فقد بقى في جراند اوثيل .

واستضاف الملك ( اولاف الخامس ) عائلة بيجين على العشاء في جناحه الخاص من القصر وكان أعضاء العائلة المالكة قد قرأوا كتاب « الليالى المبيضاء » وكثفوا تواغين لسباع تجارب بيجين في مصسكر المصل السوفيتى ( وعلى أية حال كلن الكتب أكثر أمنا من كتب التمرود ) . الا ان حيوية المنسبة قد انتفضت نتيجة لوناة جولدا مائير في اسرائيل ونتيجة للشعور بأن الجائزة هى شئ تافه سابق لاوانه . وقال معلق اسرائيلي يحب التماثيل والايقونات ان الشئ الذى يريده شعب اسرائيل ليس جوائز السلام وانما هو السلام نفسه وتسايل قللا « أين الطفل ثبرة الاتفاق » وفي القلعة النرويجية الكثيية التى ينتشر في شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية ، لم يثر حديث الموافقة على الانتفالية الذى ادلى به بيجين دهشة أحد ، وهو رابع حديث يقرأه من نص مكتوب في غضون ثلاثين علما من المخطابة الارتجالية المتدفقة . ارتفعت نبرة الكلمات وهو يتذكر السنة ملايين شخص الذين راحوا ضحية الإبادة ، وحظى ( جيفوتينسكى ) و ( جارييلدى ) ما يستحقته من تكريم . واصر بيجين على أن شعب اسرائيل غار أيضا بالجائزة وليس فقط رئيس وزرائه .

ورفع يده ممسكة بحقه في الجائزة ومتدارها ٨٥٠٠٠ دولار معلنا تبرعه به لمؤسسة اسرائيلية تقدم منحا للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الاطفال المتخلفين .

وفي الخارج في الشارع المليء بالصقيع ، تقدم عدة آلاف من الشباب النرويجي في عملية احتجاج يحملون فيها المشاع خلف اثني عشر شخصا من العرب يحملون رايات فلسطينية . وكان كثير من هؤلاء الشباب النرويجي يرتدون الكوفية على رؤوسهم وكانوا يهتفون قائلين : «بيجين ارهابي ساندوا منظمة التحرير الفلسطينية » ١ .

ونجا السادات بصورة او بأخرى من غضبهم . ورفضت وزارة الخارجية النرويجية باعلانها حيلها الخاص بمنطقة الشمال ، السماح للمتظاهرين بعقد اجتماع للتعبير عن الاحتجاج في قاعة جائزة نوبل التقليدية بالجامعة ، الا انها اوردت نيا المسيرة في بيانها الرسمي حول احداث اليوم .

وكانت زيارة الرئيس جيمي كارتر لكل من القاهرة والقدس في شهر مارس عام ١٩٧٩ محاولة أخيرة ياشهه كل الرئيس بقلبر بمكانته في التوصل الي اتفاق . وقد ازعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصي بين بيجين والسادات . وكان بيجين في اكثر حالاته بخلا عندما ذهب الى واشنطن في بداية الشهر وفي اول اجتماع لهم في المكتب البيضاوي في البيت الابيض وجد كارتر رئيس الوزراء الاسرائيلي «قويا للغاية وسليبا وواثقا من نفسه فيها يبدو » وحنره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائي المذى سيهدد اسرائيل اذا سمح بيجين لبلاده بان تصبح معزولة عن العالم بسبب تعنتها أو قيامها بأعمال عدوانية أو البقاء ببيانات « وذهبت الولايات المتحدة الى أقصى ما تستطيع عمله بتقديم لغة وسط ، الامر الذي تحسر عليه الرئيس ويومعه بأنه «رد غير ايجابي من الناحية العملية من جانب اسرائيل» وقال بيجين في اليوم التالي انه لم يخلد الى النوم ليلة أمس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه النقد القاسي الذي صدر من الرئيس. وكانت النتيجة التوصل الى حل وسط بارع بشأن أولوية التزامات مصر ( تجاه اسرائيل والعرب ) وهو الامر الذي يعنى شيئا للقدس بينما يعنى عكسه للقاهرة . وكان اذعان بيجين ببهاية اعتراف تنكبي بأنه على الرغم من أن القضية نفسها حرجة ، الا انها لن تتقرر بقصاصة من الورق . وإذا حدث أن اضطرت مصر للاختيار بين السلام والفضان العربي القوي ، فلن تتأثر بفترة في المعاهدة . وإذا انضمت الى جبهة الحرب ، فستنتهي المعاهدة نفسها .

وسافر كارتر الى القاهرة وهو يدرك تماما أن الرحلة التي لا تحقق شيئا ستجسد الفشل ، الا انه ليس يومعه أن يرى طريقا أفضل الى الامام .

وكان السادات مستعدا لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع اسرائيل مقابل الارض وأشار الى اتفاق لبيع البترول عن طريق الامريكيين . وكانت المعارضة أكثر وضوحا عندما ذهب الرئيس الى القدس . وأبلغ بيجين كارتر بأنه لن يوقع حتى بالحروف الاولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومة والكنيسة وسأله الرئيس عما اذا كان يريد السلام حقيقة . وكتب يقول في مذكراته « . لقد كان انطباعي أنه فعل كل شيء بوسعه لمراقبة التوصل الى اتفاق باستساعة واضحة » وكان بيجين فيها يبدو يعبرقل المعاهدة وبدء محادثات الحكم الذاتي » . وكان كل هبه الاحتياط بكافة الاراضي المحتلة باستثناء سيناء ، وبدأ غير مكتوث بمأساة العرب الذين يعيشون محرومين من الحقوق الاساسية في ظل الحكم الاسرائيلي .

وكان بيجين متوترا بصورة لا مثيل لها ، ومؤمنا بالقدر ومصمما على الا يعلى احد عليه شيئا عندما جاء كارتر لالقاء حديث في اجتماع خاص للحكومة في صباح اليوم التالي . ووقف منتصبا ليلفت الانتباه وسعه اثنان من مساعديه ينتظرون الترحيب بالضيف عند باب مبنى مكتبه . وسبعه أحدهم وهو يغنى بلا نغم من بين أسنانه المطبقة ثقلا ( آنى ما أمين ) وهى الترنيمه اليهودية للايان وتعنى ( اننى اؤمن ) وهى نفس الترنيمه التى كان يغنيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف الفسار . وذهب كارتر في نفس اليوم الى ( ياد فاشيم ) وهو النصب التذكارى للإبادة في جانب جبل ( هيرتزل ) . وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الاسرائيليين بأنه يتعين عليهم ان يوافقوا . وحينذاك قاطعه بيجين قائلا : « سنوافق على ما اتفقا ان نوافق عليه » . وطبقا لما ذكره شاهد اسرائيلي أجاب كارتر بقوله : « اننى أنهم » وانتهى الاجتماع بوصول اسرائيل والولايات المتحدة الى طريق مسدود بشأن مسائلتين : وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر المخلص بفتح مكتب اتصال في غزة ، التى كانت تحكمها في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

وتجلى نفاذ صبر الرئيس في حديث ادلى به بعد ظهر ذلك اليوم أمام الكنيسة وقال فيه ان « شعب البلدين على استعداد الآن للسلام » . « ولم يبرهن الزعماء بعد على انفا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهل هذه الفرصة » . وتم تقديم هذه النقطة ببراعة ، لكن لم يكن هناك احد في المجلس يساوره اى شك بشأن اى الزعيمين الذى كان يدور في خلد . وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من اقمى اليسار وأقصى اليمين . وتم طرد ( جيولا كوهين ) ناقدته الوطنية الشديدة المصحب من الكنيسة بعد رفضها المسماح لرئيس الوزراء بالفى قديا . وصلحت وهى على الباب تقول « سواصل نضالى » وشعر الامريكيون بالصعبة نتيجة للمضجة بالرغم من انهم تظاهروا بانهم تاثروا بحبوية الديمقراطية الاسرائيلية . وقال سيروس

فانيس « لقد شهدنا البرلمان البريطاني » ، لكن ذلك أسسوا من البرلمان البريطاني ، وكان ذلك يوما مغصا بالشجيج .

ولاحظ الصحفيون الذين يتسبون بالتبصر أن موسى ديان غادر باب المجلس وصعد الى أعلا ليهيس الى وزير الخارجية في قاعة الزوار الموثقين . لقد جاء ليعتذر من هذه الضجة التي يمكن تسيرها بأنها أعمال مظنة مواجهة للرئيس . الا أن مهمته التي قلم بها الى الدور العلوى كانت أيضا بداية لمبادرة خلصة أدت في غضون ٢٤ ساعة الى اتفاق ومعاهدة سلام ، واقتراح وزير الخارجية اجراء حديث هادئ في وقت متأخر من النهار ووافق سيروس فانيس . وعلى أية حال كان من المقرر أن يجتئما في لقاء آخر بين الحكومة والأمريكيين ( وهذه المرة بدون الرئيس ) . وطلب ديان من بعض رفقاءه الالتقاء بعد مغادرة الأمريكيين . واتفق الوزراء معه على أن إسرائيل لا يسعها أن تترك الرئيس يعود الى الوطن خالو المفاوض من رحلته . وطبقا لما ذكره ( نافتالى لافي ) المتحدث باسم ديان ، فلن ديان لم يكن يريد أن يثير عسداء كارتر . وفي المقام الاول ، لم يكن يريد أن يشعر بأن إسرائيل هي السبب في اخفاقه . « وقد كان يرى أيضا في أفكار كارتر بعض الضوء ، وشئ يمكن تطويره وهو التزام أمريكي بضمان امدادات البترول ووضع غرة . وشعر ديان بأنه يستطيع اللوز باتفاق ، وطلب من شوبيل تلميز وزير المعدل أن يصيغ عبارة من شأنها أن تلزم الولايات المتحدة بشأن امدادات البترول .

وعندما ذهب ديان ليرى فانيس في غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتماع الحكومي ، عرف كلاهما أن الخلافات الحقيقية ليست هبة للمغاية ، الا أنه من الصعب لم شمل الاجزاء معا مرة أخرى . وطبقا لما ذكره أحد موظفي بيجين ، كان ديان أحد الرجال القليلين الذين يستطيعون اقناع رئيس الوزراء بقوة الحجة بتغيير تنكيره ، الا أن وزير الخارجية فضل التسلسل في هذه المرة . وقال فانيس « اننى أعلم أنه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف لكننى شعرت بأنه من المرجح كان يلج على التحرك على نطاق أوسع . واننى مقتنع بأن عليه أن يقتنع بيجين بأفكاره بعد ذلك . وفيما يتعلق بقضية غرة اقترح ديان اقناع المصريين بعدم الاشارة في هذه المرحلة الى مكتب الاتصال . وهم يستطيعون على الدوام اقتراح اجراء انتخابات مبكرة في غرة اثناء مفاوضات الحكم الذاتي . وأكد أيضا على أنه بمجرد أن تبدأ إسرائيل في الانسحاب من سيناء وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى السفر الى غرة بتأشيرة اسرائيلية . وقبل فانيس ذلك بشرط أن تلتقى إسرائيل مع السادات في منتصف الطريق بشأن مبيعات البترول . وكان المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة إسرائيل على سيناء ببيع بترولها بسعر منخفض وأدرك ديان مشكلتهم . وبعد ذلك درس هو وفانيس دلالات

الضمان الأمريكى . واصر ديان على فقرة فى معاهدة السلام تنص على ان اسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر ، وخلاف ذلك تظل مصر تحتمل المقاطعة العربية . وستنتفع اسرائيل بحق شراء البترول المصرى بأسعار السوق ، بالإضافة الى ضمان أمريكى مدته عشرين عاما للمتعويض عن العجز اذا توقفت الإمدادات . وبناء على اقتراح وزير الخارجية وجسه كارتر دعوة اليه والى بيجين لتناول الاططار فى فندق الملك داود فى اليوم التالى . وتقررت الصفقة اثناء تناول عصر البترول وبدلا من المقابلة بأزعاج بيجين ، ترك ديان لفنانس ان يحتل مكان الصدارة فى تقديم أفكارها . وأعاد وزير الخارجية الى الاذهان ما يلى :

« لقد أخذنا على عاتقنا فى صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة ، واعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريدنا موسى ديان . وفى تقديرى لانه من المرجح أنه قدم ما توصلنا اليه الى بيجين باعتباره مبادرة أمريكية الى حد كبير . وقد تركت له الامر ليقدمه الى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها » .

وافت استراتيجىة ديان بشأن المبيعات بشاها . ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تمت بيجين الى كارتر قائلا : « لقد نجحتم واجتمع الرئيسان الأمريكى والمصرى فى مطار القاهرة ، ووافق السادات بالفعل على تبادل السفراء فى وقت مبكر ( وهى ايامة لتعلاقت الطبعية ) ووافق على مد خط للأنابيب من حقول البترول الى اسرائيل والكف عن الدعاية المناهضة لبيجين ( المناهضة للسامية فى أغلب الاحيان ) فى الصحف المصرية . ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة ، الا انه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله « ذلك مرض بالنسبة لى » . واتصل كارتر ببيجين تليفونيا وتم الاتفاق على أن يجتمع الزعماء الثلاثة معا من جديد حاملين معهم أنباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الأبيض يوم ٢٦ مارس . وفازت اسرائيل بأول معاهدة سلام لها ، وكان من الجائز الا يصل بيجين ابدا الى هذه النقطة بدون ترتيبات ديان وبوابلمان ويلارك ، الا انه كسب الثقة بالقيام بالمخاطرات السياسية وتحديد التضحيات التى سيقدمها والتى لن يقدمها . وعلى الرغم من الصور الفوتوغرافية المبهمة الا انه لم يكن سوى عدد يسير من الاصدقاء على الطريق . وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو « اننى لم أتمتع فى الغالب ابدا بمعالجة سرلة فى محادثاتى معه » .

وكان السادات أكثر سخاء بمجرد أن صدق بيجين بأعادة العريش ، العاصمة المغيرة لسيناء ، الى مصر فى يوم ٢٥ أبريل . وطبقا لما ذكره

بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم فان السادات حينذاك فقط بدا يتق فيه . وقدم بيجين ما القوم به . وتمت مكلفاته بصورة مناسبة في جلسة انتخابات عام ١٩٨١ عندها قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمة في شرم الشيخ كان من شأنه ان يكون عملا استعراضيا صريحا . وقال غالى : كان السادات يؤيد اعادة انتخاب بيجين . وفي تقديره فان فوز بيجين سيكون افضل بالنسبة لمصر ، كانت اولويته هي الانسحاب من سيناء . وقد اعتقد انه بدأ العملية مع مستر بيجين ومستر بيجين قدم في المرة الأولى وسيقدم في المرة الثانية . وكان لطيفا مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء .

وترك آخر جندي ومحنى اسرائيلى الارض المصرية يوم ٢٥ ابريل عام ١٩٨٢ اى بعد مرور ثلاثة اموام على اعادة العريش . وفي ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك . اما مناحيم بيجين فكان لا يزال رئيسا لوزراء اسرائيل ، وما زال يحكم الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة . واندثرت في الرمل مفاوضات الحكم الذاتى . وكانت المصالحة الاسرائيلية المصرية اشبه ببرعم اوقف الصنيع نموه وظلت الحدود مفتوحة ، الا ان المرور كان في اتجاه واحد ونادرا ما كان المسلحون المصريون يزورون اسرائيل اما التجارة فكانت مجيدة ، وتلاشت العلاقات الثقافية . الا ان معاهدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ . وبعد مذبحه مخيمى صبرا وشاتيلا ، استدعى حسنى مبارك الى الوطن سفيره في اسرائيل لاجراء مشاورات غير محدودة . ومع ذلك ، لم يتم اغلاق السفارة والحدود ولم تصل مصر بالسلاح وظلت « اولوية الالتزامات » سارية المفعول . وفي شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس في شوارع القدس يابلون في شيء أكثر .

## الفصل الواحد والعشرون

### فترتي نسيب

كان مناحم بيجين مخلوقاً متقلب المزاج . وكانت الحكومة تتراوح مثل البترول بين اليأس والرجاء ، وبين الشلل والنشاط المحموم طبقاً لحالة رئيس الوزراء العتلية والجسدية ، ولقد شهدت السفتان المتنتان بين معاهدة السلام مع مصر والانتخابات العامة في ٣٠ يونيو عام ١٩٨١ هذا التذبذب في أشد صوره . وظل بيجين الشخصية المسيطرة ولم تكن الحكومة لتستطيع أن تفعل شيئاً بدونها . وكذلك فإن الحكومة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً ومهمسرو سلى رأسها . ولقد استقال الوزراء استقلالية في الفكر وهما موشى ديان وعرزا وايزمان في أكتوبر عام ١٩٧٩ وفي مايو عام ١٩٨٠ على التوالي . فلم يعد بيجين في حاجة لدخان خبرته أو لشهرته . فهو لم ينس خروج ديان على النظام أثناء مفاوضات السلام . وسرمان ما أدرك ديان أنه لم يسمح له بعد ذلك بأن يمارس دبلوماسيته الخاصة . ولقد هاج وايزمان وغضب وثار وماج وتزايد شقاقه لأن بيجين كان يعرض السلام للخطر بنظرته الصارمة لموضوع الحكم الذاتي الفلسطيني وكتب وزير الدفاع في خطاب الاستقالة يقول : « بالنسبة لشعب إسرائيل كانت أيام مليئة بالثراء والامل في فترة توليكم رئاسة الحكومة . ولقد امن الشعب بالحكم وامن بالسلام . ولم يكن الشعب هو الذي توقف عن الايمان بالسلام . »

وفي نفس الوقت فإن فشل سحبا اريئيل في سياسته الاقتصادية القاسية على السوق الحرة ، قد أصبح فشلاً يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . وهل بيجال هورفيتز محل وزير المالية وهكذا انفجرت الاسطورة القسالة : ان رجال الاعمال الاحرار كانوا يعرفون كيف يرمون ويعتنون بالاقتصاد . وكانت لدى هورفيتز الذي تحول بسرعة وثبات ناحية اليمين بعد أن اختلف مع الحركة العمالية في بداية عهد بن جوريون ، الشجاعة لأن يفرض القيود الضرورية على الانفاق العام . وقد عرف باسم « ليس عندي » أو « لا املك شيئاً » . لكن جهوده لم تثر الا سلسلة من الازمات داخل الحكومة . وكانت تنقص هورفيتز القدرة على اجبار زملائه في الحكومة على الموافقة ما أسلوبه ، أما رئيس الوزراء فكان غير مبال . لقد كان شغل بيجين الشاغل هو النضال من أجل أرض إسرائيل ومعركة من أجل الحفاظ على الوفاق بين الائتلاف وحزبه .

وفي النصف الثاني من عام ١٩٨٠ غرق بيجين في واحدة من دوامات اليأس . وكان في هذه المرحلة قد عاش من ثلاث ازمات عقلية ومن حالة

شلل خفيفة . وقد برزت آثار هذه الاثيمات . واخذ الوزراء يشكون من مجزءه عن القيادة . ووجدته الزائرون فاطر الشعور غير مبال ومنعزلا وعاطفيا . وفي اغلب الاحيان كان لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لماذا اتوا . وجاء وفد من « رابطة الصحافة الاجنبية » يسجل دور بيجين بصفته قائما باعمال وزير الدفاع يمد استقالة وايزمان ، ولكنه خرج من مكتبه في حالة احباط واشفاق . وقد اتقنوا تماما بان بيجين كان يخبو نجمه بسرعة كبيرة . وقد اكد الشهود العسكريون ما اشيع في الصحافة الاسرائيلية بأنه كان ينلم اثناء مناقشته معهم . والقول بأنه كان يعاني من الاثار الجفيفية للادوية التي تعاطاها لمعالجة تلبه قول بعيد عن الدقة . لقد كان بيجين يتعاطى بانتظام علاجا مضادا لتجلط الدم . وعندما سال أحد مساعديه دكتور ميرغن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن اثر هذا الموج اجابه الطبيب بان هذه الادوية لا تؤثر في قدرة بيجين العقلية . لقد كان متعبا بسبب مرضه واكثر ما يمكن ان تفعله هذه الادوية هو ان تصيبه بالنعاس . وقد نصحه الاطباء بان يقصر عمله اليومي على اربع ساعات فقط . وقتل احد رجال مكتب بيجين ان رئيس الوزراء قد استمر في تسيير الامور الهامة للدولة وهو على فراشه في المستشفى بعد اصعبته بازمة قلبية .

« انه ايدا ما بلغ من العجز الى حد الاستسلام . وفي احدى المرات وكان في المستشفى بعد اصعبته بسكتة خفيفة ، اخبرنا الاطباء اننه ليس من المحتمل استعادة قوة بصره في عينه اليسرى . ولكنه ظل يملئ المخكرات والخطابات . وبعد شهرين ، وبجأة وهو في مكتبه برئاسة الوزراء استعد بصره قوته السابقة وقال : « اننى استطيع ان ارى — بوضوح تام » . ولم يكن هناك ما يدل على أنه كان واقما تحت تأثير الادوية والتعاقير . انه رجل يخضع لاحواله المزاجية والتي تسير جنبا الى جنب مع كيانه العاطفى . اننى لم اره قط وهو اثناء عمله اليومي خاضعا لنظام اتوية مكثف وصارم . واننى لم اره قط ينظر الى ساعة ليتناول جرعة دواء كل ساعتين » .

وفي اثناء احد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق في حالة من حالات الوسوسة اثر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة لاهد زملائه جاء منها : « اذا كان هذا ما تفعله هذه الحبوب فلتنى اريد مثلها لى » . وفي مناسبة اخرى ، وعندما كان بيجين في اسبوا حالاته دخل الى قاعة الكنيست واتجه فوراً الى مقعد زعيم المعارضة والذي ظل يشغله حتى عام ١٩٧٧ . وجاء أحد رجال الكنيست وأوضح له في لطف الخطأ الذى وقع فيه وقاده الى مقعده الحقيقى كرئيس لمجلس الوزراء .

كانت حكومة مناحم بيجين هى الاولى في التاريخ البرلمانى الاسرائيلى التى تواجه فيه اجراء انتخابات مبكرة وباختيارها . وقد اتخذ هذا



القرار في يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد ان اعترف هورفنز بالهزيمة في محاولته خفض ميزانية التعليم ونقل مجموعة رائى التى يرأسها وتتكون من ثلاثة رجال الى جانب المعارضة . وكلفت اقلية الحكومة قد انخفضت الى ثلاث أصوات في تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط . وعندئذ فضل بيجين ان يرجع الى الشعب بدلا من ان يتشبث بالبقاء تحت رحمة الجماعات المنشقة والانتهازيين . وبالرغم من احتجاجات المعارضة لانه حدد موعد الانتخابات يوم ٢٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خلص لمجلس الوزراء وهو يبدو اكثر اشراقا ومرحا من اى وقت منذ عدة اشهر . ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قائمة وغير محتلة ووضعت قياسات الراى العلم حزب العمل في مركز متقدم كثيرا حتى ان مستر شيمون بيريز ظهر وكأنه سوف يكون بعد نهضة الانتخابات اول زعيم اسرائيلى يحقق اقلية ساحقة . لقد خسر بيجين وزيرين للمالية في غضون ثلاثة عشر شهرا . كان بيجين في سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة اسحق رابين المترنحة لانها تركت التضخم يصل الى ٢٥ ٪ / ووعده بان يخفض هذه النسبة الى النصف .

وفي عام ١٩٨٠ ارتفعت اسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٣٢٩ ٪ / واخذت اللجوء بين الاغنياء والفقراء في الاتساع واشارت الدراسات الى ان ما لا يزيد عن ٣٠ ٪ من اليهود الشرعيين الذين انزلوا بأصواتهم في صالح بيجين سنة ١٩٧٧ يزعمون تأييده هذه المرة . اما المنشقون عليه فلهم لم يكونوا راضين عن أداء حكومته في الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من انهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الامنية وسياسته الخارجية وسياسته اراء المستوطنات . والشئ الذى جذب قليلا من الانتباه في يناير هو ان ٣٧ ٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد اى المرشحين ينتخب . ووضح قياس للراى العلم نشرته صحيفة ها ارتز اليومية انه بالرغم من ان ٥٥ ٪ يريدون تغييرا ثوريا للحكومة ، الا ان ٣٩٧ ٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون ان حزب العمل في امكانه ان يكون احسن حالا في المجال الاقتصادي . لقد كلن الاسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكلموا وراء بيريز . لقد كان امام ليكود ما يحاربون من اجله وامامهم متسع من الوقت يبلغ ستة اشهر .

ان احياء ليكود لم يضع اساسه بيجين انما الذى وضعه خليفة هورفنز وهو يورام اريڤور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨ . وكان اريڤور اول وزير مالية اسرائيلى يحل درجة عليية في الاقتصاد . ولكن هذا لم يمنعه من ان يقدم برنامجا انتخابيا دفع بالتضخم الى اعلى اكثر من ذى قبل ويصل بميزان المدفوعات الى الخط الاحمر . ولا شك ان اسلافه قد

علموه أنه لا يمكن علاج التضخم من طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية . ولكنه كان سياسيا يدرك أن هذا هو السبيل نحو كسب الأصوات . وأدت - التخفيضات في الضرائب الى خفض سعر التليفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ في المائة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٧ في المائة . وخفض الاسعار بنفس النسبة المثوية على الادوات والمعدات المنزلية والاثاث . وأعلن وزير المالية أن ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض الى النصف في أول يوليو . وهو اليوم السابق للانتخابات . وفي خلال شهر أعلنت الغرف التجارية أن الاسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و ٦٠٠٠ جهاز تليفزيون . وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج . واستأجر تجار الجملة طائرات الجابو لمواجهة هذه الطلبات . ولقد ارتفعت مبيعات لسيارات وحدها بنسبة ٤٠ في المائة . وكتب ماثي جولان في صحيفة ها أرتر يقول أن سياسة اريدور قد نجحت :

« لقد بدأ الناس يسألون أنفسهم هل سيدفعون غالبا بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية كما يقول لهم خبراء الاقتصاد وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رؤوسهم في شك . فالاسرائيلي العادى لا يفهم كثيرا في شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الاجل . واليوم تنخفض الاسعار وهذا هو ما يهيم . وحزب العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف . فكيف له أن يقف ضد خفض الاسعار ولم يكن يعرف كيف يقف في وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المستولة وغير الملمجة والتي وضعت من أجل الانتخابات » .

وسمع أحد المشتريين في القمص وهو يقول : « ان كل فرد يعلم أننا سوف نرفع الثمن في نهاية الامر ولكن رغم ذلك فافنا نشترى . وربما لن تكون هناك فرصة كهذه الا في الانتخابات القادمة . وبدأت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الراى العام . وفي منتصف شهر مارس بدأ حزب ليكود يستعيد الاصوات التي كان قد فقدتها بيننا كلن حزب العمل يناضل من أجل الاحتفاظ بوائفه . ولكن لا زالت الهوة بين حزب العمل وحزب ليكود واسعة ، الا أن خطأ جديدا قد بدأ يظهر . وبدأ الناخبون الشرقيون في حسم موقفهم . ولقد أعطاهم اريدور الفرصة للمعودة الى حظيرة ليكود . ولما تردد الاستراتيجيون في حزب العمل في الظهور فانهم بذلك قد اتلحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة في بعدها .

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين الى الوجود مرة أخرى كاتوى ما يكون منذ عودة لازاروس . ففى مقابلة اذاعية بمناسبة ذكرى

الثالث والثلاثين لولد اسرائيل تفاعل بينين بأنه يشعر أنه افضل من أى وقت مضى خلال السنوات الأربع الماضية ومنذ أن تولى رئاسة الحكومة وقال معللاً ذلك « لانتى في قلب المعركة الآن » . كان حزب ليكود قد أحرز النصر في انتخابات سنة ١٩٧٧ معتمداً على اسم بينين ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لأنه في الشهرين الآخرين من انتخابات عام ١٩٨١ حارب الحزب معتمداً على اسم بينين وبشروط بينين . ولجأ بينين الى منبر الخطابة للمرشحين في الانتخابات حيث أخذ يطمئن أعداءه القدامى الواحد تلو الآخر بدءاً بالحركة العمالية التي عائلته هو ورفاقه بالاحتقار لقراية تسعة وعشرين علماً والامان الذين قتلوا سنة ملايين يهودى والشيوعيين الذين بعثوا به الى معسكرات الامتثال ( الجولاج ) والبريطانيين الذين علقوا مقاتلى جوامعته في المشايق . وكان رد فعل دائرته الانتخابية في الاحياء الفقيرة في المدن وفي المدن النامية البعيدة مشوباً بالعاطفة ومتمنياً في معظم الاحيان . لقد كان بينين ملكاً لاسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة . وكتب أحد محرري الصحف في اسرائيل يقول : « يمكنك أن تقول لى أنك لن تشتوى سيارة مستعملة من بيريز أباً أنا فأنى لن استأجر بينين ليلعب طلى لأنه سوف يخفقه » .

وكان أول عمل من أعمال التهديد وقع في احتفال للجالية اليهودية المغربية في حديقة في القدس في نهاية عيد الفصح لقد جاء بيريز لى يقدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القادمة من شمال افريقيا لكن الشبان أخذوا يهازون من ذكر اسمه وألقوا عليه البرتقال والطماطم بمجرد أن صعد الى منبر الخطبة . وأجبر على ترك المكان قبل أن ينطق بكلمة واحدة . وانتشر العنف في طول البلاد بينما تجاهل بينين جميع الدماء التي وجهت اليه ليكبح جماح اتباعه . واشعلت خطبه النار وزادت من تاجهها وفي اجتباع شعبى لحزب العمل في بتاح تكفا في منتصف شهر يونيو أخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من اتباع ليكود يصيحون في وجه بيريز قائلين « بينين ، بينين ، ملك اسرائيل » . وأخذوا يخرجون البراميل المملوءة بالنفثات والمشتعلة وينفعمون بها الى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف ، وأخذوا يحطون النوافذ في المقر المحلى لحزب العمل ، وأصيب ثمانية عشر شخصاً والى القبض على ٢٦ شخصاً . وفي مواجهة مماثلة وقعت في القدس تم تهديد أحد مندوبى الصحف الاسرائيلية اذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التي رفضت السماح لبيريز بالحديث . وأصبح العنف والكرهية هما المحاور الرئيسى في الحملة الانتخابية . واستغل حزب العمل صورة لاهد مؤيدى حزب ليكود وهو يلوح ببطاوة في اجتباع حفرة بينين . وأعدوا طبع صور الهجوم الذى وقع عام ١٩٥٢ على الكنيست . لقد قسم بينين ، اليهودى البولندى ، البلاد الى شرق وغرب ولم تكن قد انقسمت كذلك من قبل . وقويت الكراهية والاحتقاد على الجانبين . وبالنسبة لليهود القريبين كان

اليهود الشرقيون يشكلون تهديداً بدائياً للديمقراطية الإسرائيلية . وبالنسبة لليهود الشرقيين فإن اليهود الغربيين متفطرسين ادعياء يخشون غتسدان امتيازاتهم ، وهم أوروبيون غرباء في الشرق الأوسط . لقد كان صراعاً بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الأصول العرقية والمعنوية المختلفة . ولقد اتهم شلومو هيلل ، وهو زعيم عمالي ولد في العراق ، رئيس الوزراء بأنه يذبح البلاد نحو الفاشية لقد كان هناك جو من التحيز الاجتماعي الاشتراكي . وقد علمنا التجارب بأن هذين العنصرين إذا ما امتزجا أدبا إلى الفاشية . ولقد كان بيجين ينادي القطاع الأدنى من الجماهير

ويندس هذه النهضة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة إسرائيل إلى حافة الحرب مع سوريا ويحث بقواته الجوية لقصف المفاعل النووي العراقي . وانتهى بهذين الحدثين كيرهان على أنه هو الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع العرب . وفي أبريل شنت ميلشيا الكتائب اللبنانية والتي دربتها إسرائيل ، هجوماً في شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينة زحلة الاستراتيجية . وكان رد فعل السوريين القصف المركز وأعلن بيجين أن إسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين في وجه هذه الأعمال الاجرامية من الدولة المجاورة لبنان . وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان . وفي ٢٨ أبريل أسقط طائرتين هليكوبتر سوريتين وقد وصفت هاتان الطائرتان بأنهما من طائرات الهليكوبتر المهاجمة وأن كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بأنهما كانتا تنقلان قوات وأسلحة . ويرر التدخل الإسرائيلي بأنه نتاج التجارب التاريخية وأثر من آثار اليهودية .

ولقد سأل السفير الأمريكي سمونيل لويس ما إذا كان قد قرأ كتاب آرثر مورس بعنوان « بينا مات ستة ملايين » والذي سجل عدم اكتراث العالم الحر لعملية افناء يهود أوروبا وأخبر رئيس الوزراء لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكتيبت بأنه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال :

« في كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم أكن أخجل من انسياب النوع من عيني عندما كتبت أخجل كيف أهمل شأن شعبنا اليهودي وترك وحده . لقد غتظهم الألمان لكن العالم تركنا تلقى مصرنا . وقلت للويس « أريد أن أقول لك أننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا ، وأتينا لن نسمح تحت أي ظرف من الظروف ، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين في لبنان إلى ما كان عليه اليهود في أوروبا في الأربعينات . أن السوريين مع الإرهابيين يعملون المذنبين تماماً كما كان يفعل النازيون . أنهم لا يهتمون أطلاقاً بالرجال أو النساء أو الأطفال » .

وعلق اثنان من سيسى حزب العمل ، والاثنان كانوا رؤساء اركان سابقين في الجيش، وهما اسحاق رابين وحليم بارليف قائلين في تعجب ان مافعله السوريون لايشبه في شيء الفارسية . ولم يكن هذا القياس او التهويل ناجحا . واصر بيجين على انه بالرغم من ان السوريين لم يقيموا غرف الغاز للمسيحيين اللبنانيين الا ان دبلاتهم ومدفعيتهم تقوم بنفس العمل . وكان مناسبا لاهداف بيجين ان ينسى ويتجاهل ان اسرائيل هي التي سلحت الكتائبين وانهم هم الذين تسببوا في هذا القصف . وكان يتكلم وكان الحرب الاهلية اللبنانية لم تقع ابدا . ورد السوريون على اسقاط طائراتهم الهليكوبتر بان دفعوا بصواريخ سام - ٦ المتحركة الى وادي البقاع . وكانت هذه هي اول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ في الاراضي اللبنانية وطلب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائلا انها تهدد حرية عمليات القوات الجوية الاسرائيلية فوق لبنان . ومما اثار قلق العسكريين المحترفين انزلاق لسان بيجين فقد اعلن وسط حياض الجماهير في اجتماع ليكود انه مالم يعمل السوريون على ازالة هذه الصواريخ فلن اسرائيل سوف تبتعد بقواتها الجوية لتدميرها . واصلب المسئولين عن الامن الذهول . وكتب هيرش جودمان المراسل العسكري لصحيفة جروسام بوست يقول :

« لماذا اخطر بيجين السوريين بان رد فعل اسرائيل سيكون من طريق الجو ؟ لقد كان السوريون قد اكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة الى جانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية - ذلك لانهم لم يكونوا يعرفون ما اذا كان الهجوم المحتمل سيأتي عن طريق البحر او الجو او عن طريق الاثنين معا » وفي اليوم التالي شاعف بيجين الاساءة من طريق الكشف في الكتبست عن ان الاوامر قد صدرت الى القوات الجوية بان تقتلع بطاريات صواريخ سام ٦ في ٣٠ ابريل لكن هذه المهمة قد الفيت بسبب السحب الكثيفة . لقد كان بيجين رئيس للوزارة وفي نفس الوقت قائما باعمال وزير الدفاع فلان معلوماته كانت دقيقة وايضا مدمرة . وقال رئيس سابق لخبايرات القوات الجوية وهو العميد ياشياهو باركت في مقابلة تليفزيونية انه خلال خدمته في الجيش لمدة خمس وعشرين عاما لاينكر ان اسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة . وان اي فرد في الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت اليه تهمة الاخلال الخطير بالامن . ونقل عن ضابط آخر قوله : ولقد قسم للمدو وعلى طبق من ذهب ما كان سوف ينفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كانه لن يكون متاكدا من صحة ما حصل عليه من معلومات . والخطا الذي ارتكبه بيجين انه بتحليله للطقس في اليوم الذي كان مفروضا فيه ان تدمر القوات الجوية الاسرائيلية الصواريخ السورية ، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التي في ظلها تستطيع القوات الجوية الاسرائيلية ان تعمل ومتى لاتستطيع ذلك . وبذلك تم

الكشف عن حدود عمل الطائرات الاسرائيلية وكذلك عن عشرات من حالات اخرى من التفاصيل التي يمكن استنتاجها من هذه المعلومة . ومثل هذه المدة كانت تراقب مرتابة دقيقة في الصحافة الاسرائيلية . ولم يكن رد الفعل لزلّة بيجين وحماته مجرد نشوب الجدل السياسي حولها ، بل ان اداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين ان الضرر قد وقع بصورة سريعة جدا .

وبعد الساعات الثلاثة مباشرة من عصر يوم احد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الاسرائيلية المتقدمة في طيران منخفض وسريع من قاعدة عصيون بالقرب من ايلات ، وقصفت المفاعل النووي العراقي خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستين ميل وعادت الى قواعدها سالمة دون اية خسائر وكانت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتي اشتهر بها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧ وعملية عنتيبي وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا واطاليا الى الوراء عدة سنوات . وقد خططت هذه الغارة على مجل لتكون انجازا انتخابيا شيرا . وكانت حكومة بيجين قد اتخذت هذا القرار من حيث المبدأ في اكتوبر الماضي راختر بعض من افضل الطيارين الاسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ . وقد تم اختيار الطائرات وادخلت التمديلات على التكتيك الذي سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة نقل من مخاطر اكتشافها واعتراضها اثناء عبور طائرات اف - ١٦ المقاتلة وطائرات اف - ١٥ الصواريخ العربية وكانت طائرات اف ١٦ المقاتلة متعددة الادوار تحدد الهدف وتصيبه بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل بينما كانت طائرات اف - ١٥ المقاتلة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات . واملن بيجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها . وكان يوم احتفال الحصاد اليهودي المسمى « شافوت » تعد ان اثم الاردنيون الطائرات الاسرائيلية بمساعدة ايران في حريها ضد العراق حليف الاردن . وبالرغم من انه لم يكن هناك اى ذكر للمفاعل الا ان بيجين اتخذ من هذا ذريعة كقصة للاعلان عن قصة تدمير المفاعل العراقي وقد تكون هناك ميزات دولية في اخفاء اسرائيل تورطها في هذه العملية لكن بيجين كلن دائما يميل الى العلانية . وكان توقيت العملية متأثرا بقرب الانتخابات .

وقد تم اخطار الامريكيين والاصحقاء الذين تساطوا عن هذه العملية ان بيجين قد نفذها في يونيو لانه لم يكن متأكدا من النور في الانتخابات وكان لايتق في حلفه من حزب العمل ان يقوموا بتنفيذها ان هم غافوا في الانتخابات وكان هذا احد هذه الاعتبارات . كذلك فان ما اثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقي . فلم يكن يراود الاسرائيليون اى شك في ان الرئيس صدام حسين يزمع صنع قنبلة ذرية . ولكن الشهود المقربين من بيجين قالوا كلن يريد عملية كهذه لاغراض انتخابية . وكانت الاغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون ان

هذا المفاعل لن يكون تهديدا حقيقيا قبل مرور ثلاث سنوات ولكن الاثنية من هؤلاء الخبراء ومستشارى الحكومة كانت توافق على ان هذا المفاعل سوف يكون كذلك في يوليو عام ١٩٨١ . اما الراى السائد بين رجال المخابرات في واشنطن فكان يرى ان ذلك سوف يحدث بعد علم واحد . وكلن بيجين مقتنعا بان تصنف المفاعل بعد ان يشكل تهديدا حقيقيا سوف يترتب عليه الآلاف من الضحايا نتيجة للاشعاع في بغداد . . ولم يكن مستعدا لتحمل مسؤولية كهذه . وعلى اية حال فان كلمة واحدة من خبير اسرائيل يقول فيها ان تهديده المفاعل قد يبدأ بعد شهر واحد كلفية لان يتخذ رئيس الوزراء قرارا بقصفه .

وقال له المخططون العسكريون ان مخاطر الفضل ضئيلة جدا . وعلى أسوأ الظروف فند تضطر هذه الطائرات الى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنتان منها وهي في طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة في بغداد وكانت القوات الجوية واثقة من ان في استطاعتها حل مشكلة المدى ( وهي مشكلة الوصول الى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحاجة الى اعادة تزويدها بالوقود ) . واذا ما كن هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح مخاطر فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة . وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية ، جنرال بيهوشوا ساجوى ، من ان تؤدي هذه العملية الى تمهيق الفجوة والازمة بين اسرائيل والولايات المتحدة . وكذلك لم يأخذ برأيه القاتل بأن العراق في حاجة الى خمس سنوات قبل ان يستطيع انتاج قنبلة نووية ، وعندئذ سيكون امام اسرائيل متسع من الوقت لمحاولة الوسائل غير العسكرية . وكان جنرال ساجوى يلتقي تأييدا لرايه هذا من الأغلبية في القيادة العسكرية ولكن ثلاثة من مؤيدي التنفيذ الميكر للعملية كانت لهم الغلبة وهم مناهم بيجين ، ووزير الزراعة ارييل شارون . ورئيس الاركان المعروف بقوة شكيته جنرال رافائيل ايتان . ولكي يحيد اثر التحفظات السياسية داخل الحكومة فان بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت الى لجنة غربية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية اسحق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين .

وما ان اخبروه بما قاله الأردنيون اصدر بيجين تعليماته الى المتحدث الرسمي الناطق باسمه أورى يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الاسرائيلية . وكان يورات جديدا في هذه الوظيفة حتى ان المحرر المسئول في الاذاعة الاسرائيلية لم يتعرف على صوته . ولذلك تردد في اذاعة القصة حتى قام رئيس قسم الاخبار باذاعة اسرائيل ايمانويل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكد من القصة من رئيس الوزراء وانها ليست خدعة . واذيعت القصة كشرة اخبارية خاصة في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر .

وفي مؤتمر صحفي في اليوم التالي استبعد بيجين المشجب العالمي للفارعة مصرأ على ان اسرائيل قد تصرفت من منطلق الدفاع القومي عن النفس واتهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركيع اسرائيل ولتدمير وجودنا ومستقبل وطننا . وزعم انه باستطاعة العراق ان يدمر تل ابيب الكبرى ومركز الصناعة الاسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قنابل فقط مما القيت على هيروشيا في سنة ١٩٤٥ . وقال ان ما يقرب من مئة الف ضحية سوف تقع فاین هو هذا البلد الذي يمكن ان يحتل مثل هذا الخطر ؟ انه لن تكون هناك اية مذبحه أخرى في تاريخ الشعب اليهودي . . انها لن تقع قط . . اننا سوف ندافع عن شعبنا ضد أي عدو . ان كلوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية . لم يكن بيجين دائما هكذا مع الارقام التي يدلي بها . ولقد تقابل مع مراسل وكالة رويتر في حفل في السفارة البريطانية واخبره بأن القنابل الاسرائيلية قد دمرت معبلا سريا على بعد اربعين مترا تحت سطح الأرض . وعندما ظهرت المشهقة على الوجوه كرر بيجين هذا الزعم ، وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل اجاب : « ولماذا اعطيكم كل شيء مرة واحدة ؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء أورى بورات ان العراقيين كانوا يفعلون الاشياء التي لا يريدون اكتشافها في حجرة تحت الأرض . وفي اليوم التالي اتصل بيجين هاتفيا بمراسل رويتر باتريك مس واعتذر له من تضليله وقال له انه قد علم الآن ان العمل كان يقع على بعد اربعة أمتار تحت سطح الأرض . وثمة مواقف أخرى حرجية . فقد ناشد بتزك هوف رئيس المخابرات العامة ( الموساد ) الساسة الاسرائيليين علنا بالآ يغشوا اسرار اتصالات اسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها . ولم يكن في حجة الى تحديد اسماء هؤلاء الساسة . كما أخطأ وزير الخارجية في الاستشهاد باتوال صدام حسين في بيان وزع على الصحافة والبعثات الاسرائيلية بالخارج . ولكن لم يكن هناك أدنى شك في أن الفارعة على المفاعل الذري قد رفعت من مسورة بيجين كزعيم يستطيع في ان يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور . وكان الاسرائيليون يشاركونه الرأي في ان تهديد المفاعل الذري قد ثبت ازالته وبقي حزب العمل في شجار وجدل حول التواريخ التي يمكن ان يصبح فيها هذا المفاعل تهديدا واقما ، وهذا الجدل لم يكن يعني شيئا بالنسبة للناخبين .

وفي قياس للرأي العام في أواخر مايو وقبل الفارعة على المفاعل بأسبوعين استطاع حزب ليكود ان يتجاوز حزب العمل . واخذ التأييد للحكومة يتزايد في السياسة الداخلية والخارجية والأمن . وكان التأييد والتعاطف مع ايرل شارون في تزايد بالنسبة لحملته لاقابة المستوطنات في الضفة الغربية والتي كان التليفزيون التجارى يلعبها وفي الجولان التي تقوم بها القوافل في الأراضي ( المحتلة ) والتي يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان : « انفسا على الخريطة » وزادت عملية بغداد من تقدم حزب ليكود لكن حزب العمل تراجع في الأيام



الآخرة القليلة من الحملة الانتخابية . وركزت المعارضة على العنف في الانتخابات وهذا دفع الكثيرين من الناخبين الذين يقعون في منتصف الطريق الى اعادة تقييم ما يؤمنون به من استبيات . نادا ماكن هدفهم الرئيسي هو اخراج حزب ليكود فانهم لن يستطيعوا تحمل التصويت لصالح أحد الاحزاب الصغيرة من اليسار أو الوسط . واستطاع بيريز ان يرتفع بهوومه نتيجة لادائه الطيب في مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه اسحق رابين الى فريق رئاسة الحزب . وكانت المحصلة هي حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين لم يحدث مظه في تاريخ اسرائيل . وفي لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل الى كيبوتر التليفزيون ظهر بيريز وكأنه هو الفائز . وحصل حزب ليكود على ٤٨ مقعدا مقابل ٤٧ لحزب العمل . وكان فارق الاصوات هو ١٠٠٠٠٠ صوت في انتخابات أدلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم . وكان الفارق العرقي والعنصري أكثر وضوحا عن سنة ١٩٧٧ . وقال محلل الانتخابات هانوش سميث :

« لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة في جميع المدن التي بها أغلبية من اصل أوروبى . وعلى عكس ذلك فان أصوات حزب ليكود ظلت كما هي دون تغيير . وكان نمط التغييرات في المكاسب الكبيرة التي حققها حزب ليكود في المدن التي تسكنها أغلبية آسيوية — أفريقية . وهذا يدل على ان زيادة مقاعد حزب ليكود من ٤٥ الى ٤٨ ترجع الى كسب جديد في أصوات الناخبين من الآسيويين والأفريقيين وخاصة في المدن النامية » .

وكان قيام تألف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لكن بيجين كان مستعدا مرة أخرى لأن يدفع الثمن في صورة حزب أجودات اسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال أفريقيا الجديد المسى « تامى » وأصبح أكثر سهولة على طلبة مدارس الليشينا ( مدارس التلمود ) والمعلمين في هذه المدارس تجنب الالتحاق بالجيش أو في الاحتياطى . واجبرت شركة الطيران « المال » على ان توقف طيرانه في أيام السبت . وبالنسبة لبيجين فلان تأييد الاحزاب الدينية له يستحق كل « شاتل » ( العملة اليهودية ) ولأول مرة قد فاز في الانتخابات عن طريق غريزة الجماهير وعن طريق مهارته القديمة في الحملات الانتخابية وبقي وكلاء الاعلانات في املاكهم . لقد حقق المستحيل ولم يفقه النصر .

## الفصل الثاني والعشرون

### خيار الحرب

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد الموافق السادس من يونيو عام ١٩٨٢ شنت إسرائيل هجوما شاملا برا وبحرا وجوا على معاقل الفلسطينيين في جنوب لبنان من البحر الابيض المتوسط حتى سفوح جبل الشيخ ...

وفي خلال ساعات انتقلت أخبار القتال من الميناءين القديمين صيدا وصور وما أن حل صباح اليوم التالي حتى رغرقت نجمة داوود على قلعة بيفورت ، وهي قلعة للصليبيين اقاموها فوق مدخل نهر الليطاني ، والتي منها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلمهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يسيّدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل .

وفي خلال أسبوع واحد كانت اندجبايات الاسرائيلية عند ابواب بيروت . وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقالية الى حرب وصفها بيجين بأنها « حرب الخيار » ولأول مرة لم يحاول زعماء اسرائيل الاختفاء وراء شعار « ليس لدينا الخيار » .

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحظت لهم ولم تكن هذه حرب فتح واستيلاء على الاراضى كمطعم نهائى بل كانت حربا جلبت على رئيس الوزراء أشد العقاب .

لقد كانت المدرعات الاسرائيلية قد عبرت الحدود في غضب قبل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنان وثلاثون مدنيا في عملية اختطاف قافلة للسائحىن على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا .

وكانت « عملية الليطاني لعام ١٩٧٨ » عملية تمت على عجل وفي غير نظام في معظم الأحوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملئو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق اسرائيل الراحل سعد حداد . وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون - الفلسطينيون على مرمى البصر من القرى الاسرائيلية ولذلك فأنهم قد جعلوا الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعة المسلمين اللبنانيين .

هذا الاقتحام الأول قد تمخض من قدر من السلام . وكان على المتسللين أن يتحدوا قوات الامم المتحدة المسلحة في المنطقة الفاصلة ، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وايضا دوريات الحدود الاسرائيلية ( التي كان بعضها يعمل

داخل لبنان ) أو أن يغامروا بشن الهجوم من البحر . ولتسبب أوضاع حرب استنزاف ثابتة ومصفرة وكانت قد تمخضت عن أزمة الصواريخ السورية في صيف سنة ١٩٨١ أن الفلسطينيين كانوا قريبين جدا من إسرائيل ويهددون راحتها .

وكل في استطاعة قطع المدفعية السوفيتية المصنوع من عيار ١٣٠ م . م وكذلك مخازن صواريخ كاتيوشا المتحركة والتي كُنْ في استطاعتها أن تطلق أربعين صاروخا في المرة الواحدة ، ضرب مدن وقرى الحدود كلها أرادوا ذلك .

وإثناء حملة الانتخبات عام ١٩٨١ وعد بيجين بأنه لن تسقط بعد ذلك أية صواريخ كاتيوشا على مدينة كريات شمونة وهي مدينة مطورة في الخط ، أصبحت رمزا للصفوف ورمزا للحياة المعقدة المزقة .

وبعد شهر من إعادة انتخابه أدى هجوم جديد أعنف من أي هجوم سابق إلى إجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطله مفروضة وأجبر نصف الآخر على أن يبقى في المخاض .

وهكذا تحول الإسرائيليون إلى لاجئين في أرضهم ، ووضع الجيش الخطط لإبعاد مدافع الفلسطينيين ، لكن هذه الخطط قد وضعت على الرف عند استطاع الوسيط الأمريكي غليب حبيب التوصل إلى وقف لإطلاق النار . وهكذا برزت بغور الغزو الذي تم عام ١٩٨٢ .

وأكد تميم ارييل شارون وزيرا للدفاع بعد انتصار ليكود في الانتخابات أن هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب . وكان بيجين قد تلاوم كثيرا هذا الخيل لما عرف من شارون من جموح وتصلب في الرأي .

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الأركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بأن لديها الرد العسكري على مشكلة منظمة التحرير الفلسطينية . وكانت يقولان أن — إسرائيل في استطاعتها تدمير قوة عرفات وقاعدته في لبنان وهي البلد الوحيد الذي لا زال في استطاعته العمل منه — بصورة مستقلة -- ضد الدولة اليهودية ومن ثم يرقعون قبضتهم من على السرب الذين يعيشون تحت الحكم الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفي نفس الوقت يمكن إقامة حكومة صديقة في بيروت برئاسة الزعيم الكتائب بشير جميل والذي كانت إسرائيل قد رعتة منذ منتصف السبعينات ،

ولقي هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الإيديولوجية والناحية المأجبية . وبذلك تستطيع إسرائيل أن تؤكد قوتها ضد آخر أعدائها الذين يريدون تدميرها . وعندئذ سوف يأخذ اليهود مصرهم في أيديهم .

ان رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتفضل من جابوتسكى . فهو ليس بالقديس وليس ايضا من معارضى الحرب وراعى رايه السلام .

وكان بيجين هو الذى مرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١ ، وذلك بعد اسبوع واحد من ضم اسرائيل للجولان . وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء ان يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات . وانصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح اهداف « عملية شجر الارز » والتى نصت على اختراق اسرائيلى حتى طريق بيروت - دمشق وحصار بيروت ، والاتصال بالكتائبين المسيحيين اليعنبيين فى الشمال والنزول فى ميناء جوثى على بعد خمسة عشر كيلو مترا خلف العاصمة . وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيرا من الوزراء عارضوا المشروع الامر الذى اضطره الى سحبه دون التصويت عليه .

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسئولين الامريكيين وطبقا لما قاله احد الذين استمع اليه : « لقد اعطى وجهه » نفطس شخصية ودقيقة لما يريد ان يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية ان هذه وجهة نظره بالفعل » .

ويزعم الدبلوماسيون الامريكيون انهم على الفور حذروا وزير الدفاع من مثل هذه الامور . وكلما امكن لواشنطن رصد أية علامة عن حشود عسكرية اسرائيلية فى الشمال كفت تبعت برسائل تحذيرية قوية الى بيجين عن طريق سفيرها فى تل ابيب صموئيل لويش . وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح اسرائيل فى مناسبات أربع فى النصف الاول من عام ١٩٨٢ عندما تعرضت حكومة بيجين لاجراء شن الحرب .

كان رئيس الوزراء من بين الاغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردا على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا ، والتى تقع فى وادى الاردن ، وذلك فى نهاية شهر يناير ، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وايتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء . ولكنه انضم الى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل احد الجنود الاسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة .

وعلى أية حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان اقلية من اثنين ولم يحدث شئ . وأدرك الامريكيون ان البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما . ولم تنشر قط شروط فيليب حبيب لوقف اطلاق النار ولكن الاسرائيليين قالوا ان الهدنة تنسحب على العمليات الارهابية فى الداخل وفى الخارج ولا تقتصر فقط

على تلك التي تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون في هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وإيماناً بالنسبة لبيجين وشارون \*

ومرة أخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه « مشروع الكبير وذلك في أوائل إبريل بعد أن قتل دبلوماسي في باريس ولم يخف أبعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء وإن كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين • وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمان وأربعين ساعة للوصول إلى بيروت وطريق بيروت - دمشق وأن يبقى الجيش في لبنان لمدة اسبوع واحد ولكن عندما عرض الأمر على زعماء المعارضة قدر اسحق رابين أن إسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل إلى ستة أشهر • وعندما سأل رئيس الوزراء المسبق الرئيس الحالي مناحم بيجين عما إذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال أجاب بيجين بالنفي ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوي •

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجرية في العشرين من إبريل وذلك بعد أن قتل ضابط في الجيش نتيجة لانفجار لغم وهو يقوم بدورية في جنوب لبنان • ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد اسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجوية الاسرائيلية - وكانت هذه اول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة • واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزي ولم يصب الاهداف بصورة متعددة وكانت الحكومة منقسمة بالتساوي بين مؤيد ومعارض • ووافق بيجين على تأجيل العملية •

ولكن تقرر أنه اذا ما قتل احد اليهود أو جرح على يد الارهابيين في أي مكان من العالم فعندئذ سوف تعمل إسرائيل •

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة لوابيا الحكومة ولكن عملية حجب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما اذا كانت الخطة تتضمن صيدا التي تبعد ستين كيلو مترا شمالي الحدود وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول :

« لقد كان واضحا انه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد أجاب هكذا : ( اعتقد ذلك ) ثم قال بعدئذ : ( لا أتذكر على وجه التحديد ) • وبعد ذلك قال : ( سوف أذهب وأراجع الخطة ) • وترك الحجرة في وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا في الخطة • وعاد ليأقول ( أنها تدخل في الخطة ) وسألته عن بيروت لكن أبريل اعطانا الانطباع بأن صيدا هي الحد وعندما سأله عما اذا ما كانت

بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الاجابة ( لا ) وهكذا خدعت ، ولكن لم اكن أنا وحدي الذى خدع . لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها .

وفى العشرين من مايو ذهب شارون الى واشنطن حيث تقابل مع وزير الخارجية الكسندر هيج ، ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين وان كان لم يجدد الى أى مدى سوف يذهب الهجوم الاسرائيلى .

ويقول الدبلوماسيون الامريكيون انه لم يذكر بيروت . لقد كان كل اهتمامه هو الا تشكو حكومة ريجان بمد العملية من أن اسرائيل قد فاجأتها كما فعلت بالنسبة للغارة على المفاعل العراقي وهيج مثل شارون جنرال متشدد قد تحول الى سياسى ولذلك فانه كان متعاطفاً لقد كان يسعده كثيراً ان يرى منظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يثقها لانها اداة فى يد الكرملين ، وقد تمزقت أربا ، وفسر الاسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قدما فى تنفيذ مخططهم . وقرأ أحد كبار المسئولين والذي كان ضد مشروع شارون ، بشيء من القلق برقية أرسلها الى القدس سفير اسرائيل فى أمريكا موشيه أريئيل حول اجتماع شارون - هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو « يا الهى ! انهم اعطونا الضوء الأخضر » .

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير إمبراً شائعا وانكر هيج اعطاء موافقة على غزو لبنان لكن كبير مساعديه وهو وودي جولد بيرج قد اعترف بأن وزير الخارجية قد قال بالفعل انه ليس من حق أى مسئول أمريكى أن يخبر حليفاً لأمريكا كيفية الدفاع عن نفسه .

وقال أيضا : « ان أى شخص أصيب بدهشة من جراء تحرك اسرائيل فى لبنان إنما هو لم يكن يتابع الانباء عن كتب . وقال كذلك انه اذا ما قررت اسرائيل أن تذهب فعليها أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسباً لاي استفزاز آثار وتسبب فى رد الفعل هذا » .

ويعترف مسئولون أمريكيون آخرون بأنه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك الجانب العسكري فى شخصية هيج وادرك المزايا التي يمكن تحقيقها . لقد كان يريد لهذه الحرب أن تنتهى فى وقت قصير ولكن أن تنتهى بنجاح .

وقال أحد الدبلوماسيين فى شهادته : « أن هيج لا يكن أدنى حب لمنظمة التحرير الفلسطينية . وكان متعاطفاً مع الفكرة القائلة بأنه يجب اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان . وكان يعارض أى وقف لاطلاق النار يقع مبكراً اذا ما بدأت الحرب إنما لم يرسم أى خطوط أو حدود ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام متعاطفاً مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت » .

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس . وفي إحدى هذه البرقيات التي تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسؤولين الاسرائيليين والمخططين العسكريين ما اقتبس: موشيه أريئيل على لسان هيج حيث قال : « أنكم تقومون بعمل عظيم في لبنان وأنه لعمل يهم كل فرد » .

وأيا كانت نوايا وزير الخارجية فإن اجابته « بلا » تبدو في أذن الاسرائيليين كما لو كانت اجابة « بنعم » ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الاسرائيليين في القول بأنه حتى اذا لم تكن هناك مؤامرة اسرائيلية امريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما .

« فالامريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا اسرائيل اختاروا أن ينظروا الى الناحية الاخرى ، مبدئين تلميحات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع اسرائيل تفسيرها على الوجهة التي تريدها » .

وقد لخص أحد المضممين في وزارة الخارجية الامريكية هذا بقوله : « اذا لم يكن هيج قد أعطى الضوء الاخضر لانه قد أعطى ضوءا كهربائيا مشوبا بالاخضرار » .

وفي أوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع في لبنان هو حالة حرب تنتظر البرر لبدئها . وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين ، وهي جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى الينسا ( أبو نفال ) هذا البرر . فقد قام أحد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثلاثة والعشرين ويعيش في قرية بالقرب من مدينة نابلس بالشفقة الغريبة باطلاق النار على السفير الاسرائيلي في لندن فلولوموارجوف ، ثلاث مرات فاصاب رأسه والجزء العلوى من جسمه بمسدس أوتوماتيكي بولندي الصنع عيار ٦٣ بيتشا كان خارجا من عشائه في فندق دور شمسستر .

وكان الفريق الذي أطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد في الاردن . وقد عرف فيها بعد بانه ضابط كبير في المخابرات العراقية . وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هي التي أمدته بالأسلحة . وعندما وصلت الأنباء الاولى لحصوله القتل الى القدس وكان يبجون نعتا . وعندما تاكدت الاخبار انقلبه مساعدوه ولخبروه بما حدث وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي تكلم رئيس الوزراء هاتيا مع جراح لندن هورورمان جرانت . وقد ذكرت الأنباء أنه قد انتهى لتوه من اجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأله يبجين عن حال السفير أجاب الطبيب : « لا أستطيع أن أعبك بأى شيء » ، ولا أستطيع أن أقول لك ما اذا كان سيمعيش أم لا واذا ما عاش فكيف سيكون » .

ولقد واجه شلوموا أرجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتي عشرة ساعة الى أربع وعشرين ساعة وفي بطنه بدأ السفر يفيق ولكنه ظل مشلولاً طريح الفراش . وكانت حياته بالغة السوء .

واستدعى بيجين الحكومة الى اجتماع عاجل وطاريء في الساعة الثامنة والنصف صباحاً . وكان قد قرر بالفعل أن اسرائيل لا تستطيع أن تدفع هذا الاستنزاف يمر . . . وقال أن السفر قد تم اختياره كهدف يهودي ولأنه اسرائيلي ولأنه رمز لدولة اسرائيل .

ان الرصاصات التي أصابت رأسه قد صويت الى رأس دولة اسرائيل . وكان شارون في الخارج في مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه . وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة أن تقوم القوات الجوية بقصف تسعة اهداف فلسطينية في بيروت وسبعة اهداف في جنوب لبنان .

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة انهم يذكرون الضجة التي أحدثتها عمليات قصف سابقة في العام السابق . ووجد رئيس الاركان بأن تكون الاهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع اصابت بين المدنيين . وبناء على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة اهداف وهي : ثلاثة قواعد للتدريب في الجنوب وموقعان في بيروت هما استاد رياضي حيث يضم مخزناً كبيراً للأسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية . وأدرك الوزراء انهم ربما يكونوا قد صوتوا كمقدمة تمهيداً لشن حرب . وحتى الحائث فهم قد شعروا بأنهم لا يستطيعون مخالفة بيجين المرة . وشرح ذلك أحدهم قائلاً : « لقد قلنا مرات عديدة من قبل ( لا ) أما الآن ففي وجه هذه الدراما العالمية وفي وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا نستطيع أن نرفض » . اننا فهمنا أيضاً انه لا يمكن اغضاء الطرف من محاولة القتل دون الرد عليها . اننا لم نكن متحمسين ، ولكننا كنا ندرك أن كرة اللجج لم يعد من الممكن وقفها .

وفي الفترة الاخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الاسرائيلية اهدافها وكما كان متوقعا جاء رد الفلسطينيين مماثلاً .

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخطئوا في اصنابة الهدف . وانهالت أكثر من ثمانية قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل . وسقط أحد هذه الصواريخ على كريات شيمونة بالقرب من سيارة يعقوب ميرينور وزير التنسيق الاقتصادي واصابتها عدة شظايا واتصل ميرينور برئيس الوزراء لينقل اليه المطالب المحلية بأن يفي بوعد الذي قال فيه « أنه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن » ولجلب بيجين « انك تستطيع



أن تقسول لهم أن كل شيء سوف يكون على ما يرام ولكنه حشه على  
الا يضيف شيئاً ولكن ميريحور أدرك أن ميزان العمليات يتجه نحو القيسم  
بعملية برية .

واسرع شارون عائداً من أوروبا الى اسرائيل وتبت دعوة الحكومة  
الى الانسحاب في الساعة التاسعة من مساء يوم السبت وأطلع ايتان الوزراء  
على صورة مصغرة من عملية شجر الصنوبر وهي عبارة عن هجوم ثلاثي  
الشعب لا يمسد مدفعية الفلسطينيين ورد شارون على تساؤلات زملائه  
من المتشككين قائلا أن العملية قد صممت لتحقيق السلام في الجليل وليس لغزو  
بيروت .

وفهم الوزراء أنه يتكلم عن حدود لا تتعدى على وجه التقريب  
أربعين كيلو مترا وهذا ما أكدده بيجين الذي أكد لهم أنه ما دعت الحاجة  
الى الذهاب الى أبعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك . وتم الاتفاق على  
ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصل الى  
٣٠٠٠ جندي يرابطون في شمال وشرق لبنان .

لكن كان اغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءا من خطة شارون  
ايتان وذلك لانهم كانوا يشكلوا مظلة واقمية لمندمية الفلسطينيين .  
وقال شارون أن القوات الاسرائيلية سوف تصل الى خط الاربعين كيلو متر  
في خلال أربع وعشرين ساعة وأن العملية سوف تنتهي في خلال ثمان وأربعين  
ساعة . وأعطى الوزراء موافقتهم الجماعية على الضربات الجوية وذلك  
في خلال اجتماع يوم الجمعة . ولكن ثلاثة فقط أحجموا عن الموافقة على  
المغزو .

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا أريش ، ووزير الطاقة  
اسحق برمان والآنان من أحرار الليكود ، أما الثالث فهو يوسف بورج من  
الحزب الديني القومي .

وأنهى بيجين المناقشة بخطاب ملطفي . لقد قال أنه لم يقدم اقتراحه  
بقلب مسرور وقال أنهم يرسلون بجنودهم الى المعركة وأن كل شيء سوف يبدل  
لمنع وقوع أصابات لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث  
تلكى وأيسلم .

والبدل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث في معسكرات الاعتقال في  
أوشوتز وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليظهر الى الشمال الى مركز قيادة يتقدم  
سمعه مساعده وهو يتهم بكلمات وكأنه يصل : « ادعوا الى تقع خسائر » أن  
أصداء هذه العملية سوف تروى لعدة شهور فيما بعد . .

وبناء على اقتراح من ببجين أطلق على هذه العملية اسم « عملية السلام في الجليل » وقال البيان الذي صدر بعد بدء العملية أن الجيش قد صدرت اليه التعليمات بوضع السكان المدنيين في الجليل بعيداً عن مرمى نيران الارهاب في لبنان . ولم يكن هناك أى اشارة محددة لحدود الاربعين كيلو متراً . ولقد ذكرها شارون فيها بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التمشير بها لانتفاع الجيش الاسرائيلي بعيداً الى الشمال ولم يكن يسلمور الوزراء ادنى شك في انهم واكتفوا فقط على حدود اربعين كيلو متراً .

وقد قال ببجين مثل هذا في خطاب للرئيس ريجان في نفس اليوم وهو يوم الاحد السادس من يونيو لقد قال .

« لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الارهابيين الى مسافة اربعين كيلو متراً الى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين في منطقة الجليل من التهديدات الدائمة لحياتهم .

ومنذ الطلقة الاولى لم يكن شارون ولا ايتان يزعمان الوقوف بالعملية عند حدود الاربعين كيلو متراً وقال ضباط من الاحتياط أن قلدا كبيرا قد أخبرهم في أول يوم بأن الهدف هو قطع طريق بيروت - دمشق واقامة نظام جديد في لبنان ورئيس وزير الدفاع انكار هذه المزاعم عندما سأل أحد نواب حزب شينو وهو مورتخاي ويرشوبسكى .

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب في التمييز بين الاسرائيليين في الخامس والعشرين من يونيو بأنها : القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية واخراج الجيش السوري ومعد اتفاقية مع لبنان . ولم يقل شيئاً عن حدود الجليل .

وفي الاول من أغسطس وفي خطاب أمام خريجي مدرسة عليا كانوا سيلتحقون بالجيش قال :

« لقد ذهبنا الى الحرب ضد الارهاب ، ولإزالة العائق الذي يهدد ويمنع التوصل الى وفاق بيننا وبين عرب أرض اسرائيل ، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا أن نعيش في سلام ، اليهود والعرب في القاهرة ويمر سبع ، في يهودا والسامرة ، حتى يعرفوا السلام بيننا في اقرب وقت وعلى جثثي الاردن » .

وكان رئيس الأركان أتل ديلومسية . ففي أوائل شهر يوليو أخبر الضباط - والرجال في وحدة على خط الجبهة أن القتال قد خلق الفرصة الوحيدة في هذا الجبل لتغيير الأوضاع لصالحنا في الصراع من أجل أرض اسرائيل . وقال :

أن تدمير واقتلاع القواعد الارهابية في لبنان سوف يضعف المعارضة الفلسطينية للوجود اليهودي في أرض اسرائيل .

وفي مقابلة مع دوف چولد شتين في صحيفة معاريف اعترف شارون بأن مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما تواضعا . ولكن قال انه كان يعنى ان هناك امكانية لان يتم في النهاية تنفيذ المصيغة الأكثر طوبوحا من الخطتين :- .

وفي مقابلة أخرى مع نفس الصحفي اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد الى اريعين كيلو مترا شمال الحدود وقال :

« لقد أصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الاسرائيلي بأن يبعد — الارهابيين عن الحدود الشمالية لاسرائيل وأن يدمر الارهابيين ويحرق مقرات قيادتهم وتسهيلاتهم في لبنان . وهناك ثلاثة اشياء لم يرد ذكرها في تعليمات مجلس الوزراء : موضوع الاربعين كيلو مترا ، وموضوع بيروت ، وموضوع طريق بيروت — دمشق وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت — دمشق . وافقت الحكومة هذه الخطة ولكنها اصرت في تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة الى اخرى في الحرب خاضعا للقيادة السياسية . وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب وكل تحرك من مرحلة الى اخرى من طريق أخذ موافقة القيادة السياسية .

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة . منذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون في انه قد تم التفرير بهم وتضليلهم . ولم يكونوا مقتنعين بتأكيدات رئيس الوزراء — المتكررة بأنه في هذه الحرب لن يحدث شيء مادون أخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث في الحروب السابقة . وانضم مورديخاي زيبوري ، وزير المواصلات من حزب حيزوت الى هؤلاء المتشككين . لقد كان عسكريا محترفا وصل الى رتبة قائد لواء واشترك في حكومة بيجين الاولى ككتائب لوزير الدفاع وعندما كرر ايتان مراحله بعد ذلك بعام واحد بأن الحكومة هي التي فوضت الجيش منذ البداية لان يتعدى حدود الاربعين كيلو مترا اتمه زيبوري بالكذب .

وفي اجتماع لمجلس الوزراء في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٩٨٣ نقل زيبوري من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكذب مزاعم رئيس الاركان . وقال انه في بلل يوم السبت اطلع ايتان الا وزراء على حدود الاربعين كيلو مترا على خريطة وانه طلب الموافقة على عملية محدودة قائلًا انها لن تستغرق سوى يومين لاتمامها . وقال زيبوري ان كلا من شارون وبيجين قد قالوا نفس هذا الكلام .

كان شارون عنققد وزيرا بدون وزارة وكان حاضرا لاجتماع سبتمبر عام ١٩٨٣ ، ولم يجادل في ما قاله زيبوري . وأكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميردور

يا تاليه زيوري وقال: « لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الاركاب خطة للقتل وطرد الارهابيين بعيدا الى خط اريمين كيلو مترا ( وهو مدى الدفاعية ) من جدونا الشمالية .

وهذه هي الخطة وهذا هو المدى الذي وافق عليه مجلس الوزراء اجتماع ليلة السبت .

وفي مقابلة في تليفزيون اسرائيل وقيل وقله بسبب هبوط في القلب في يونيو عام ١٩٨٣ قال سبحا اريش : « لقد كانت هناك تفسيرات لقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلي في الجبهة وفي بعض الاحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل ولكن كانت هناك ايضا اختكاف غير مقبولة وغير محتملة . وانهم شارون بأنه كان دائما يريد الخروج على قرار اريمين كيلو مترا .

، واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه وكانت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقديم صفر وتكتيكي ثم يعود بعد ذلك وبعد ان يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه ان هناك حلقة لمزيد من التقدم لبضمة كيلو مترات لتأمين ما قد تم احرازه بالفعل ولتحسين الاوضاع والمواقع . وفي احدى المرات سألته اسحق برمان وهو من اشد ناقدى وزير الدفاع : « باهى المنطقة التي سوف يطلب منا بعد غد الموافقة عليها من اجل حملة الوحدة التي وضعتها في الوجود الذي سوف تستولى عليه غدا والذي تمت الموافقة عليه ؟ واجاب شبنارون وهو يكثر غلضا « ياسيد برمان ان لك حملة عجيبة للمدمية والفكاهة « وكان برمان يشكو من ان العمليات الصغيرة لا تتم ابدا بسدون موافقة مسبقة ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة شيئا مما يضيف الضباب على العمليات الكبيرة وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد طلبنا نجاة ان هناك قوات اسرائيلية في شرق بيروت وكان ذلك معلومة بديهية .

وفي الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك ابدا قرار حكومي بالتسوية لدخول شرق بيروت .

ان اخراق شرق بيروت والتدخل فيه والذي كان امرا واضحا لكل من زار العاصمة اللبنانية ، يعتبر من الحالات الصارخة . ففي الثالث عشر من يونيو ، وفي نهاية الاسبوع الاول من الحرب الاسرائيلية في شرق بيروت ، وفي المطار الدولي وحول بعدها وهي الحى التي يضم القصر الجمهوري ، ومسكن وزير الدفاع ، وتلقى الوزراء اجلتيين : ان القوات الاسرائيلية ليست

في بيروت . وان بعدد المطلع . يتعان خارج حدود المدينة وان هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فانها فعلت ذلك ردا على خرق الفلسطينيين لوقف اطلاق النيران وكان على جيش الدفاع الاسرائيلي ان يسكت مصادر الخطر التي تهدد القوات الاسرائيلية وقالت صحيفة معاريف :

« سوف يتلقى الوزراء مكالمات تليفونية وهم في منزلهم من الجهود والمضايقات بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكك وخرق وقف اطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الاسرائيلي النيران وكذلك القول بان الجانب الآخر هو الذي بدأ بفتح النيران كما يقول راديو اسرائيل . وكذلك هنا شكوى من الاوضاع في الميدان وهي اوضاع تختلف تبعا لذكره الاذاعة ومن خلال سكرتيره - العسكري الكولونيل ازيل كان ييجن يسمع التقارير عن خرق الاسرائيليين لوقف اطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الاسرائيلي » .

وعندما كان رئيس الوزراء وغيره من الوزراء يسألون عن تفسير ذلك كثريا يخبرونهم بان جيش الدفاع الاسرائيلي لم يكن يرد دائما في المكان الذي تعرض فيه لاطلاق النيران ففي بعض الاحيان ولعدة اسباب فله كان يرد في قطاع آخر مختلف . والجندى الذي تصدر اليه الاوامر باطلاق النار قد لا يكون مدركا ان العدو هو الذي بدأ بفتح النيران في مكان آخر وبينما لم يقبل معظم الوزراء هذا الانسحاب الا انهم كانوا يقنون عاجزين امام الزعم بان العدو هو الذي بدأ بخرق وقف اطلاق النار .

ان حجم المكالمات التليفونية التي كان يتلقاها السياسيون والمخفيون الاسرائيليون والتي غالبا ما تكون من غرباء لم يسبق لها مثيل في اثناء الحرب . انها تعكس تلقى الامة في خوض حرب من اختيارها ولقد مهقت هذه الحرب شعور الحكومة بانها تساق رغم انها ! وكتب هيرشى جودمان الذي حارب في قوات الصاعقة في حربين كبيرتين يقول : « لأول مرة في تاريخ اسرائيل الفنى بالصراع كان هناك تصدع كليل بين هؤلاء الذين يضربون الاوامر وأولئك الذين يطلب منهم ان يضعوا ارواحهم وارواح رجالهم على خط المواجهة » .

وكانت بيروت مجرد مثال واحد . وجاء قطع طريق بيروت - دمشق مثالا آخر ولقد توجه ببجين الى واشنطن للتشاور مع ادارة ريجان وكان ايرليش يقوم بأعمال رئيس مجلس الوزراء . وفي الثاني والعشرين من يونيو بدأ جيش الدفاع الاسرائيلي في مهاجمة الموانع السورية والفلسطينية بالقرب من بحدون شرق بيروت . وسمع ايرليش عن هذا الهجوم لأول مرة في الراديو المثبت في سيارته وهو في طريقه من تل أبيب الى القدس . وما أن وصل الى الكتيبت حيث كان الوزراء ووعاء المارضة بطليون المملوكات عن هذا الهجوم حتى بدأ في الاتصال بشارون . وطلب منه ايرليش ان يخبره بما يجري . وعلى طريق

بيروت — ودمشق وأجابه أيتان أن التقارير التي أذاعها الراديو ليست دقيقة ،  
ان الجيش قد رد على نيران العدو فحسب .

وأضاف يقول أنه ليست هناك تحركات للقوات الاسرائيلية . وبعد ذلك  
بيومين تم تطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العملية وهي  
موافقة بائر رجوى . وصدق إيرلوش ما سمعه ونقل تكيدات أيتان الى  
زملائه . ولم يمض وقت طويل ليؤكد انه قد غرر به . وقال في مقابلة  
تليفزيونية في يونيو عام ١٩٨٣ : « لقد قدمت لى معلومات ثبت بعد ذلك  
انها ليست دقيقة » .

وهكذا تم الالتفاف حول الوزراء بالنسبة لقرار الاشتباك مع السوريين  
والفلسطينيين في شرق لبنان . وقد تجاهل شارون حتى رئيس أركان جيشه  
الذى أطلقه كثرة الاصابت التي فاقت ما يمكن لاسرائيل ان تتوقعه .  
وآثر جيش الدفاع الاسرائيلي الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من  
مجلس الوزراء أن يسمح له باقتلاع صواريخ سام - ٦ التي لاتزال  
متمركزة في البقاع . والحق قتلًا أنه لا يمكن ترك انقنات الاسرائيلية دون  
غطاء جوى . والحق شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تستطيع  
القوات الجوية أن تضرب قبل حلول الظلام ولم يكن ابلم مجلس الوزراء سوى  
الموافقة . وفي وجه اذار نهائى أمريكي بوقت اطلاق النار اصدر شارون  
اوامره بزيد من التقدم برا .

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وأيتان من انها عوملا ككبش  
غداء من قبل مجلس الوزراء الذى ينبغي عليه ان يتحمل نصيبه من المسؤولية  
عن كل ماحدث في لبنان ، كلن هناك دليل مناسب عن ابعاد الوزراء عن  
بمباشرة الاشراف على سير الحرب ولكن لماذا عن رئيس مجلس الوزراء ؟ .

لقد قال بيجين نفسه بمرارة : « اننى اعلم عن كل التحركات ولكن  
احيانا قبل أن يتم تنفيذها واحيانا اخرى بعد ان يكون قد تم تنفيذها .  
وكلن يرهب بالأهداف — المظلم لمفروع شارون — أيتان .

وفي بعض الاحيان كان أكثر نصليا من الحكومة . ففى نهاية شهر يوليو  
على سبيل المثال — أيد رئيس الوزراء بشدة عملية لاقتطاع وفصل  
معسكرات الفلسطينيين — وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة  
تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الآلاف من السكان بين مدنيين ومقاتلين .

واقترح رئيس الازكان قصفا مكثفا عن طريق المدفعية وعن طريق  
الطيران لاضعاف العدو والقتال من الاصابت بين الاسرائيليين والتي قدرها  
ما بين عشرين وثلاثين وكان الكولونيل ايلي جينا قائد فيلق مدرع قد طلب  
اعلائه من منصبه لكي يتجنب مهاجمة بيروت الغربية وقد قال لبيجين

انه يقدر الضحايا بـ ٢٥ قتيلًا اسرائيليا . وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتل في منطلق مزدحمة بالسكان وكذلك بالانزعاج من ردود الفعل الدولية لهذا القتل وتحت الموافقة باغلبية واحد فقط أى تسعة أصوات مقابل ثمانية لكن ييجين رفض اعطاء موافقة بسبب حساسية الاغلبية الضئيلة .

وكانت هناك أوقات دافع فيها ييجين عن شارون أمام منتقديه وهذا يعنى ان رئيس الوزراء لم يكن رافضا كلية لخطوات وزير الدفاع . وقد قال مره لشارون : « من الأفضل أن يمتطى الانسان جواد سباق تستطيع ان تسيطر عليه من ان تمتطى جوادا لا يستطيع الركوض » ولكن هنالك بعض الحالات التى لم يكن يعرف ييجين ما يجرى فيها وفى خطابه فى الكنيست فى الثامن من يونيو وبمده يومين من بداية الحرب قال ييجين :

« اننا نريد شيئا واحدا فقط : وهو الا يلحق احد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم ولا ان يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل الى الاختناق فى المخابئ ليل نهار . والا يعيشوا تحت تهديد الموت المفجئ من الصواريخ كتيوشا . هذا هو ما نريده . اننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى » .

وانما اذا ما وصلنا الى خط الكيلو الاربعين الى الشمال من حدودنا خان المهمة نكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال .

وفى الواقع فلان مجلس الوزراء كان قد اعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق القوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع وهذا يعنى عبور خط الاربعين كيلو مترا . واعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحسين مواقعها ، وهو الامر الذى يعنى المخاطرة بوقوع هدام .

وقد خضع شارون لاستجواب عسير عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيست فى نفس اليوم فيما بعد .

وحتى لو لم يكن ييجين مدركا لما يحدث فى الميدان ، الا ان المعارضة العملية والتى تضم ثلاثة من رؤساء الاركبن السابقين وهم راين وبارليف وجور كانت تدرك ذلك تماما وأكد ييجين لكل من بيريز وراين الدين كانا قد ارسلنا انيه فلتوسط فى الخلاف انه لم يتم اتخاذ أى قرار بالاستيلاء مع السوريين فى معركة وفى نهاية الاسبوع فى يومى السادس والسابع من اغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكلفت الولايات المتحدة تحاول يقفصة التفاوض على اجلاء الفلسطينيين عن العاصمة اصدر شارون أوامره بالتمسك على نطاق واسع للاحتياطى ويدون اضطراب رئيس الوزراء ويبدوون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء وبدا من ذلك كان وزير الدفاع قد خطط

لثين هجوم وثقى اجهاضى على غرب بيروت المسلحة وسبع بيجين من هذه التمنية من مكالة تليفونية في منتصف الليل من يوسف بروج ولكن ابراهيم ابن يوسف بروج ضابطا من ضباط الاحتياطى وهو من زعماء حملة معاداة المحرّب. وقال بيجين منهشيل لوزير الداخلية يوسف بروج :

« اننى لم اوافق على استدعاء الاحتياطى » .

وعندما تسأل شارون عن هذا الموضوع في اليوم التالي قال انه طالما قد تم الاتفاق على شن عملية في بيروت ليلا أصبح من الواضح لدى ان اعلان دعوة الاحتياطى .

ولم يكن من السهل تهدئة رئيس الوزراء الذى قال متصلا : « ماذا . يعنى بقوله انه أصبح من الواضح لدى ؟ انك لا تستطيع ان تقدم على خطوة كهذه دون موافقة . هكذا يحلم كثير من الأشخاص عن هذه التمنية بينما لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئا ! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره .

وانتقد بيجين وزير دفاعه علانية في اجتماع لمجلس الوزراء في العشرين مشر من أغسطس وهو اليوم اللاحق لانفج واقسى قصف إسرائيل لبيروت .

فلقد هاجمت الامواج ظم الامواج من الطائرات المناطق السكنية لمدة احدى عشرة ساعة متصلة ويحتمل انقطاع . وزعم ضابط كبير في القوات الجوية ان معظم التنجرات كانت قنابل صوتية ولكن لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التلفزيون في العالم كله .

كان الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيا ببيجين مرتين وطلب ان توقف إسرائيل هذه المنبة . ورد بيجين قائلا ان الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة لكن شارون تعرض لمران ثقيلة في مجلس الوزراء من دافيد ليفي نائب رئيس حزب حروت — ومن بروج الذى خفى أن يؤدي هذا التصرف الى عرقلة للتوصل الى اتفاقية للجلاء في اللحظة الاخيرة وان يوجه اللوم في ذلك الى إسرائيل . واتفق بيجين معهم على أن — القصف لم يمدد يخدم أى هدف نافع مفيد وأن إسرائيل ستبقى تقف شديداً بين الولايات المتحدة . وتساؤل بيجين قائلا : « وكيف سيكون موقف إسرائيل أمام العالم إذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهنته لوقف إطلاق النار

وعندما حاول شارون الرد أكد رئيس الوزراء — غافضا — سلطته ووافق مجلس الوزراء على توصياته بالأخذ بمبادرات بعد اليوم لحنماية الجنود الاسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء ولا يحدث أى تصنف من البر أو البحر أو الجو بدون علم رئيس الوزراء وموافقته .



وبلغهم من أن بعض الوزراء رأى في ذلك تمويهاً بسحب الثقة من شارون إلا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه . وفي الاجتماع التالي لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين تسليح الماضي . وكان عليهم أن يتحدوا معا ويمسكوا بخيها الى جنب في مهمتهم . وقال رئيس الوزراء : « محفوظة تلك الدولة التي يعمل فيها شارون ووزير للدفاع » .

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل الى ١٥ و ٦ تقارير في اليوم الواحد . ولكن لما كانت هذه الحملة التي قدر لها ثمان وأربعين ساعة قد امتدت طويلاً شهر يونيو ثم يوليو وأغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء .

لقد قام بزيارة واحدة للقوات الإسرائيلية في لبنان وذلك في اليوم التالي عندما ذهب ليهنيء وحدة المشاة التي استطاعت الاستيلاء على قلعة بيتوريث وحاول أن يأخذ يوم عطلة نهاية الأسبوع في بلدة تهرليا على الشنتاطين الشمالي الا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجليل ووزير الدفاع الأمريكي كاسبار وابنبرجر له .

وما هي المعلومات التي كان شارون وايتان يطلعه عليها وما هي المعلومات التي كان يهجيها عنها ؟ وإلى أي قدر كانت يهودان الانتماء برئيس الوزراء أثناء فترات الأزمات .

ان مصرع بشير الجليل وما تبع ذلك من مذبة متبراً وشاتيلاً يقدم الرد على هذا السؤال كانت مذبة مخيفت الفلسطينيين في صبراً وشاتيلاً نقطة تحول في كل العملية الإسرائيلية في لبنان .

وكان بشير الجليل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل في ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكتب الحزب في شرق بيروت .

وتشارور بيجين تشاوروا ثلماً وكاملاً مع شارون وايتان اللذين أخبراه بالشائعات والشائعات المصاعة حول ضمير الجليل بينما كان رجال الانتفاذ يحفرون وسط الانتفاض وفي حوالي الساعة الحادية عشرة منبعتاً عنها تارك مصرع الرئيس نجمل أشار بيجين على شارون بأنه ينبغي على جيش الدفاع الإسرائيلي أن يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت للحيولة دون وقوع موشى وأرائة للكناء وللقتل بين السكان والفن يتبادلون بعضهم العداء . هذا هو على الأقل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كامان التي شكلت للتحقيق في مذبة صبرا وشاتيل ووضع الجيش في مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذي اتخذته بيجين وشارون في هذه الحالة الطارئة . وفي

مرة تلقى لبنان اعلان المتحدث العسكري في اليوم التالي انه سيكون مؤقتا لا اختلافا لو ان اسرائيل لم تساعد على المحافظة على السلام .  
ان مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل هذا المأسوي يشير الى رغبة لدى عناصر معينة للعودة عن طريق العنف الى حالة الفوضى السابقة . وفي ظل هذه الفوضى يتفشى الارهاب المملد لاسرائيل ويزدهر وان اسرائيل لن تسمح بان يحدث هذا مرة اخرى . ان التحركات الحالية للقوتب الاسرائيلية تؤكد ان الهدوء سوف يسود وانه سوف يتم اقتضاء على الفوضى .

واكد كل من بيجين ووزارة الخارجية ان اسرائيل قد تصرفت اناء الليل للحفاظ على السلام . واستغل شارون وجيش الدفاع الاسرائيلي فرصة اغتيال الجليل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلفائهم من اللبنانيين اليساريين الذين بقوا في غرب بيروت بعد جلاء منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية أغسطس وبخلت حملات الجنود المدرعة تقاطع العبور الاستراتيجي في الاراضي التي يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط سفرة لكنها مقاومة نضطة وفي يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت مبلشيات الكتائبين معسكى اللاجئين لطاردة الفدائيين الثغارين كما كان واضحا . وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الاسرائيلي الذي ساعدهم عن طريق الاضواء الكاشفة وهن طريق القفطية بنيران المدفعية . وكان هذا كما لو وضعت ثعلبا في حضرة للدواجن وكما يمكن ان يتبا اى فرد له معرفة ... ولو بسيطة - بتاريخ لبنان الحديث المطلخ بالدماء . فان الكتائبين قد نسوا كل شيء عن الارهابيين واخذوا يقتلون كل فلسطيني يعرفون عليه سواء كان رجلا ام امرأة ام طفلا . واعترف بيجين في استجوابه من قبل لجنة كاهان انه لم يعلم اى شيء من قرار نشر الكتائبين حتى اخطر به اجتماع طارئ لمجلس الوزراء في ليلة السادس عشر . انه لم يتم استشارته او اخطاره .

ومرة اخرى استند شارون الى تفويض باثر رجعى زاعما ان نشر الكتائبين قد تم بناء على قرار اتخذ في الخامس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة اشهر . وان الجيش اللبناني والكتائبين وليس جيش الدفاع الاسرائيلي هو الذى سوف يستولى على غرب بيروت وكان دافيد ليفي هو المعارض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصويت ضد ما حدث بالفعل .

وفي يوم الخميس دخل الكتائبون المعسكرات ولكن لم يعلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر . واتبرت الشكوك حول التسادة الاسرائيليين المحليين يوم الجمعة . لقد اصدروا اوامرهم للكتائبين بوقف عملياتهم ولكنهم لم يجبروهم على ترك المعسكرات قبيل

صباح يوم السبت ولكن طبقا لشهادته هو ، لم يهتم أحد باخطار رئيس الوزراء . وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة . ولكن كان في الامكان ارسال مبعوث الى داخل المعبد بكل سهولة . وبدلا من ذلك علم بيجين بالمنبجة عن طريق الاذاعة البريطانية في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت — أنه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه احد بشيء عن المخاطر مسبقا وعندما سأل آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالحكمة العليا عما اذا كان ينبغي على اجهزة الامن ان تحذره اجاب بيجين : « ان ما ينبغي عليهم اخطاري به متروك اساسا لبادرتهم الشخصية » .

كان سلوك بيجين وهو واقف في المكان المخصص للشهود يتصف بعدم النظام وكان بيجين يبدو بخلاف اللجنة وكأنه لم يؤد واجبه المفزلى . ولقد دهش عنها واجهه كبير القضاة اسحق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالحانثات التي جرت مع مبعوث ريجان الخاص مـررـيسـي داريسـر وكان أعضاء مكتبه يعرفون ان اللجنة قد تلقت هذه الوثائق . ولم يكن في استطاعته ان يتذكر الأشياء هو وغيره قد قالوها بما في ذلك بيان ادلى به جنرال ايتان جاء فيه ان الكتائبين يستنون اسلحتهم من أجل الانتقام بعد مصرع بشير الجليل .

وبالرغم من أنه كان يدل بشهادته بعد أقل من شهرين بعد المنبجة الا أنه لم يكن دائما يفهم ما وجه اليه من أسئلة . وكان الانطباع هو ان رئيس الوزراء قد فقد نبضه على الامور . وعلق أمنون دانكيز في صحيفة هآرتس قائلا : « لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وانه في بعض الاحيان يكون متباعدة ومعتبدا على وزير الدفاع رئيس الاركان دون ان يحثهم على اطلامه على مايجرى .

وكان الانهيار في التنظيم كما كان في الاتصال . لقد استقال العميد افرام بوران كسكرتير عسكري لبيجين في علم ١٩٨١ وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو ازريل نيفو . واستغنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدا عسكريا له وذلك عندما أصبح وزيرا للدفاع شارحا ذلك بأنه ليس في حاجة الى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشكلة فإنه يريد ان يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش .

ولقد كان ازريل نيفو جنديا له مستقبل في الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وأن يصبح عينيه واذنيه كما كان يفعل سابقه لقد كان بوران جنديا بخضرا من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف القادة كزلام وانداد له .

ولم يكن في حليجة لان يستخدم القنوات التقليدية للحصول على المعلومات . وكان في استطاعته ان يتوجه مباشرة الى الرجل المسئول في موقعه . وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه كانوا مقتنعين بأنه وان كان لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كان في استطاعته ان يخطر بها رئيس الوزراء بدلا من السماع عنها من الاذاعة البريطانية .

ان الصراخ الذي اثارته صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه . وفي مذبحة فندق الملك داود ، ومذبحة دير ياسين ، ومذبحة المعسكرات في بيروت لم يثر فقدان الارواح غير اليهودية اى شعور بالمرارة . وقال بيجين : « ان الجويميم » « غير اليهود » يقتلون غير اليهود ثم يلتقون باللائمة على اليهود » . قال ذلك في اجتماع طارىء لمجلس الوزراء يوم الاحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر . واتهم بيلن أصدره المجلس وقعه رئيس الوزراء العالم بتوجيه تهمة سنك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية ولقوات الدفاع الاسرائيلية .

وقال البيلن ان القوات الاسرائيلية لم تكن متمركزة في المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية .

وقال ايضا ان القوات الاسرائيلية قد وضعت حدا للقتل واجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر . وبدون تدخل جيش الدفاع الاسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة .

ان جميع الانتهاكات المباشرة والضمنية بأن جيش الدفاع الاسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الانسانية لا أساس لها من الصحة تبها . وان حكومة اسرائيل ترفض هذه الانتهاكات بكل الاحتقار الذى تستحقه .

وبالرغم من الآثار الداخلية فاننا ندعو شعب اسرائيل الى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخابا ديمقراطيا في نضالها من اجل امن اسرائيل وسلامتها وامن وسلام كل مواطن اسرائيلى . ولا يجوز لاحد ان يعلمنا الاخلاق واحترام حياة الانسان وهى قيم تطهناها وشبهنا عليها وسوف نمسبر في تلقيناها للاجيال القادمة من المغتربين الاسرائيليين .

وكما اوضح تقرير لجنة كاهان عن المسائل الاخلاقية لم تكن بهذه البساطة ، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع اقيمت على أساس من معلومات محددة . لقد تضمن أبسط تعبير رمزى عن الاسف والحزن لوت ملكت من الفلسطينيين . ورفض بيجين ان يصدر اى بيان شخصى بالاسف تبها كما استبعد قلق ايلى جينى من جـراء وقوع اصابات بين المدنيين عندما وقتت دببالت العقيد جينى في مواجهة غرب بيروت . وبعد ان شرح العقيد جينى لرئيس الوزراء أنه رأى الاطفال من خلال نظارته

المكبرة عندما اتجه بصره الى المدينة لأجل بيعين : « هل تلقيت تعليقات  
بقتل الأطفال ؟ وأجاب جيغى بالنفى وعندئذ سأله بيعين : « وفيهم شكواك  
اذن ؟ وقد اثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التي وقعت في معسكرات  
اللاجئين غضب الرئيس اسحاق نافون الامر الذي دفعه الى الظهور على  
شاشة التلفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه ومواساته  
للأسرى الكلى مشيراً الى أن بعضهم هم من العرب الاسرائيليين او الفلسطينيين  
الذين يعيشون في ظل الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة .

٢٨٣

وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الاسرائيلية ومن جانب  
الرأي العام الاسرائيلي اضطر بيعين الى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة  
للتحقيق في تورط اسرائيل في المذبحة . وحاول اول الامر أن يحدد سلطاتها  
في نطاق استدعاء الأشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية  
استطاعت أن تحبط محاولته هذه مدعومة من قبل مؤتمر شعبي ضم ٤٠٠.٠٠٠  
اسرائيلي اتفق في ميدان تل أبيب احتجاجاً على هذه الاعمال .

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قاضيين وجنرال متقاعد كنيسة  
السلطات القانونية ولقد تمخضت تحقيقاتها الثانية عن تقرير محدد واضح  
عن كل ما جرى في صبرا وشاتيلا وعن كل ما كُن ينفى الا يتع او يحدث .

وبالرغم من أنها برأت اسرائيل من المسؤولية المباشرة الا أنها اعتبرت  
اسرائيل مسؤولة مسؤولية غير مباشرة .

« ان قرار دخول الكتائبين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار  
للمخاطر التي كُن متخذ القرار قد رآها محتلة الوقوع وهي أن الكتائبين  
سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات ، كما اتخذ  
هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر . وبصورة مماثلة فقد كان  
واضحاً بين تتابع الاحداث أنه عندما بدأت الاتهام ترد عن أعمال الكتائبين في  
المعسكرات لم يلتفت اليها التفاهة مناسبة ولم تستخلص النتائج الصحيحة من  
هذه الاتهام ولم تتخذ أية أعمال نشطة وبمباشرة لكبح جماح الكتائبين ووضع  
حد لأمسهم » .

وانتحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله اخطار المذبحة ولفشله في  
اتخاذ الخطوات المؤدية الى منع وقوع المذبحة .

واوصت بلغة غير مباشرة — تسببت في اثارة المتاعب لرئيس الوزراء —  
بأن يستتيل شارون من وزارة الدفاع أو أن يطرد من الوزارة .

ووجهت نقداً شديداً للجنرال ايتان والمحت اللجنة بأنه لو لم يكن رئيس  
الاركان على وشك الاحالة الى الاستيداع لكانت قد اوصت بعزله . وادين كل

من ماجور — جنرال يوشوا ساجوس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد الحلى في بيروت العميد أموس يارون لتقصيرها .

واوصت لجنة كاهلن بعدم اتخاذ أى إجراء ضد بيجين ولكنها اتحت عليه باللائمة لتجاهله أخطار الذبحة عندما دخل الكتائبون المعسكرات ونشله في متابعة ما جرى بعد ذلك .

« نقد يفترض أن اظهار الاهتمام من قبل رئيس الوزراء في هذا الموضوع بعد أن علم بدخول الكتائبين كان فى الامكان أن يزيد من حالة تبه وزير الدفاع ورئيس الأركان الى الحلبة الى اتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة هذا الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الاندماج والمشاركة في المشكلة باكملها يلقي عليه قدرا معينا من المسؤولية ؟

ووجه النقد لوزير الخارجية اسحق شامير لعدم قيامه بما يكفى بمراجعة تقرير تلقاه من زميله مردخاي زيبورى وبلغت انتباه وزير الدفاع الى الشائعات بأن الكتائبين يقطون الحنين غير المحاربين .

ويشعور بالحس القانونى الاصيل كل بيجين يدرك منذ اللحظة الاولى التى شكل فيها لجنة كاهان أن عليه أن يقر توصيلها وينفذها مهما كانت تاسية ، فتتأججها سوف تكون ملزمة اخلاقيا حتى لو لم تكن ملزمة قانونيا . لكنه كان عزيزا عزونا تليا من طرد شارون اذا مارفض وزير الدفاع أن يخرج في همدوء .

وعلى أية حل فإن ما يهم رئيس الوزراء هو أن اسرائيل قد برئت تها من المسؤولية المباشرة . فجنود اسرائيل لم يقتلوا اللاجئين في صبرا وشاتيلا . وشارون يستحق مصير أفضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية مشينة لجرد وقوع مذبحه قام بها المسيحيون اللبنانيين وعلاوة على ذلك فلم يكن يراد بيجين الشك في أن أولئك الذين يريدون اسقاط شارون انما يريدون أيضا اسقاطه هو نفسه .

وعندما زار شارون بيجين في صباح يوم نشر التقرير سألته رئيس الوزراء ماذا ينبغي عمله . واجاب شارون ان بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه أن وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع أن يفصله . واجلب رئيس الوزراء : « أننى لن اطلب منك أن تستقيل » .

وكان المضمون واضحا . « وإذا ما استخلص شارون النتائج الشخصية » كما جاء في كلمات التقرير . فإن بيجين لن يقف في طريقه . لكن شارون لم يكن على استعداد لأن تسم الامور في سهولة . فانه لن يقبل أن يوصم بمحض اختياره بوصمة « قابيل » وقال بيجين انه اذا ثبت شارون في مكانه فالاختيار الوحيد امامه هو أن يذهب الى الرئيس ويقدم استقالته

بالاصالة من حكومته كلها ويطلب اجراء انتخابات في وقت مبكر . وكان يؤمن بأن الشعب يقف معه .

فالمغالبية رفضت تقرير كاهن لانه شديد القسوة . وبضربة واحدة يكون قد فعل الشيء المناسب وكسب تفويضا جديدا من الشعب ولكنه كان مستعدا لان يترك الحكومة بعض الوقت قبل ان ينفذ هذا المخطط .

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات في ثلاثة ايام . واخذت تلتقي التقرير ونتائج لدة احدى عشرة ساعة متصلة . وفي الاجتماع الثالث والذي استمر خمس ساعات في مساء العاشر من فبراير اصدرت الحكومة بيانا مقتضيا قالت فيه ان مجلس الوزراء قرر قبول توصيت اللجنة » .

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتا مقابل صوت واحد . وكان شارون هو الوحيد الذي صوت ضد هذا القرار . وقال وزير العدل موشيه نسييم للصحفيين : « ينبغي تنفيذ كل فقرة . واذا لم تنفذ فقرة من الفقرات فمجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذها » . وارتقى القرار الى مرتبة الانذار النهائي فلما ان يسارع شارون بالخروج او يدفع بقوة .

واكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميردور انه ليس هناك من احد يلعب بالالفاظ وقال مسئول آخر كبير انه يأمل في الا يتعين عليه ان يجلس مرة اخرى للاشتراك في مناقشة مسمية كهذه .

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء في تحد ولكن دون ان يتصل بأحد وفي اليوم التالي انحنى للقرار الذي لا يمكن تجنبه واتصل بيجين هاتنيا وقدم استقالته وكذب يقول انه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بابعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقبل من الحكومة . وبعد ان قال المدمى العلم اسحق زاجر انه يكفي ان يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس على الاكتفاء بذلك وابقاء شارون في الحكومة كرئيس بلا وزارة وبعد ذلك بأسبوع اعيد تعيينه في اللجنة الوزراية للدفاع ووجهت المعارضة نقد شديدا لبيجين لاحترابه كلمات والفاظ تعاريف كاهن دون احترام روح التقرير وجوهره . لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق في توصيته بصورة متعمدة وكان من حقيق بيجين ان يقول انه نفذ التزاماته .

## الفصل الثالث والعشرون

### « لا أستطيع الاستمرار »

ان ضعف الجسد والروح البطيء الذى كلن يعاني منه مناحيم بيجين ،  
والذى وصل الى الذروة باستقلته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ ، كلن قد بدأ  
قبل ذلك بعامين فى الاغلب يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٨١ .

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الاوراق الرسمية التى كان قد تم  
ارسالها الى مقره فى ركن شرعى ( بلفور ) و ( سبوليتلين ) فى منطقة  
( طالبية ) بالقدس . وبعبارة ان قرأ بيجين آخر برقية لديه ، ذهب ليفصل  
يديه قبل ان يلحق بزوجته وابنته ( ليه ) لتناول العشاء الا ان قدمه زلت  
بين الحوض وقضيب المنشفة وسقط بقوة على أرضية الحمام .

وسردت هذه الاحداث التى وقعت يوم الخميس هذا وفقا لتسلسلها  
الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير علانى أرسله بعد ذلك بأسبوع الى  
( يوثيل ماركوس ) المحرر بجريدة هاآرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه  
زعماء اسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لاختفاء الحقيقة بشأن العلل التى  
يعانون منها من الجمهور . وكتب مناحيم بيجين يقول :

« لقد ظلمت بلعيا على الارض أحاول النهوض وكنت اتنهد من الألم .  
وحاولت ان أنادى زوجتى لتأتى لمساعدتى ، لكنها لم تسمع نداءاتى لان صوت  
الاذياغ الذى كان معى كان مرتعجا . . لقد جاءت هى أيضا بحض الصدمة  
لتفصل يديها ، عندما فتحت الباب وجدته راقدًا على الارض . وتساءلت  
تائلة : ما الذى حدث لك ؟ وأجبته قائلا : « لقد وقعت » وقالت حينذاك . .  
« انهض » وقلت لها : « لا أستطيع » فقلت انتظر سأحضر « ليه » .  
وجاءت « ليه » وتساءلت ماذا حدث لك يا أبى وأجبت « وقعت »  
ولا أستطيع النهوض ، دعيتى راقدًا برهة وسأحاول النهوض ، وتشاورت  
حينذاك زوجتى وابنتى معا واتفقا على أن يرغمونى من على الارض ويضمونى  
فوق الفراش المجاور . وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهما  
« لا » ، لا تفعل ذلك « فليست لديكما القوة وستضطران لتحريكى والحركة  
ستسبب لى آلاما رهيبية واعتقد انى كبرت فى شيخا ، أحضرا الى التين من حراسى  
وسأذكر لهما ما يجب ان يفعلاه معى » .

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق ، وطلبت منهما ان يفعلوا  
الآتى فعا أيديكما تحتى ، دون أن تحركا ( أعضائى ) واحملانى فى ذلك الوضعم



الى الفراش وضعوني عليه واقترب حارسا الامن منى وفعلا بالضبط ما طلبته  
منها . شكرنا لهما فقد رقدت على فراشي على جانبي الايمن وكان الالم شديدا  
لكن محتسب .

وتم استدعاء اثنين من كبار الاطباء من مستشفى ( هلاماه ) كلن من  
بينهما ( مرقين جوتسمان ) ، الطبيب الشخصى لمناحيم بيجين ، وطلب سيارة  
اسعاف لنقله الى المستشفى في منطقة ( عين كريم ) على الطرف الغربى  
من المدينة ، حيث أثبتت أشعة اكس أنه يعاني من كسر في فخذ اليسرى ،  
وكلما اسرعوا باجراء عملية جراحية له كان أفضل وفي حجرة العمليات قيل  
لييجين أنه سيكون مستيقظا طوال الوقت حيث لم يتم اعطائه الا عقار:  
مخدرا موضعيا .

لقد كانت الالم شديدة ولكنها لم تزايد ، وقد شهدت استعدادات  
الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم ، وكيف تمت مساعدتهم في ربط أحزمة اربابهم  
وكلن جميع الموجودين في الحجرة يرتدون اقنعة على وجوههم ، وكلن من بينهم  
( البروفيسور جوتسمان ) وأحد رجال الامن وبدأ التخدير ، وحقن البروفيسور  
فلوريلا ( ماجورا ) عدة مرات بالقرب من عمودى الفقرى ، وبدأ التخدير  
تدريجيا في الجانب الايسر من جسدى .

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها بأننى مجهد ثم اختفت الالم وشعرت  
بتحسين كبير وأصدر البروفيسور ( مير ) ملكين أوامره بوضع سقالة بين  
النصف الاعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيه العملية . وقيل ان  
ذلك مطلوب حتى لا تصل الجراثيم التى تنبعث مع تنفسى الى منطقة العملية .

وتبليت ذلك التفسير ، الا اثنى اعتقدت انهم قد لا يريدون ان ارى كل  
ما يفعلوه وبالفعل لم أر شيئا .

وبدأت العملية ، ولم اشعر بانها بدأت . وتحذفت الى البروفيسور  
( جوتسمان ) الذى كان بجانبى وتحذث هو الى .

ولم اكن اشعر بأى ألم . ونجاة سمعت دق مطرقة على مسبار وزاد  
الدق ولم اشعر بشئ ولم احسب العدد ولكنى اعتقد اثنى مئز تسع أو عشرة  
دقات متقطعة . وبعد برهة قيل لى ان العملية ستنتهى على التو وان كل شئ  
سار على ما يرام . وبعد قليل ذكروا أنهم اكتملت . وأزاحوا الستار  
ورأيت قفاز البروفيسور ( ملكين ) وكان عليه بعض الدماء ، وأزالها وجاء  
وقال لى : لقد تم كل شئ بصورة طيبة وتم وضعى في نقالة واعادتى  
الى جناح البروفيسور ( جوتسمان ) الخلس بالعملية المركزة .

وفي هذه الليلة لم تعاوننى الآلام ولكن في يوم الجمعة وقد زال على الأرجح أثر المخدر الموضعى ، بدأت الآلام . وكنت شديدة الا انها كانت محبسة لانهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمدة يومين » .

وتم شفاء عظمة الفكذ ، العظمة التى توصل الفكذ بالحوض ، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوما . الا انه ظل يعانى من ألم شديد وعدم الشعور بالراحة لمعدة شهور بعد ذلك وعندما قلم الرئيس الفرنسى ( فرانسوا ميتران ) بزيارة رسمية لاسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢ ، الذى بيجين خطيبا فى الكنيسة وهو جالس على مقعد متحرك وفى اواخر شهر مايو ، اعتذر عن القاء بيان أمام لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيسة لان ساقه المكسور لمزال يؤلمه وقال لهيئة مكتبه انه لم يتعرض لثل هذا الألم فى حياته . وتخلى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجده غير مريح ، ويكثر صله اليومي وهو جالس على اريكة وعلى مقعدة لتناول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة واصل المشى مستعينا بالعصا .

لقد هل سقطوه لثقتة بنفسه وذكره بأنه أصبح مسنا . واعترف بانسه يخشى من السقوط مرة أخرى .

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين اصابته كدعوية فكان يقول للجماهير اليهودية الأمريكية الصاخبة عندما كتلت ادارة ريجان تهديد بممارسة ضغط على اسرائيل لقد كثرت سلفى لكن لم تنثن ركبتي .

وعلى الرغم من ذلك فان هذه الاصابة جعلته يشعر بأنه مريض مثلما لم تفعل ابدا حالة قلبه . وسال ذات مرة زميلا له فى مرض القلب « هل تشعر بأنك رجل مريض » ؟ ويلفرغم من ان بيجين لم يسفر ابدا بدون طبيبه المخلص ( جوتسمان ) فانه لم يشعر بأنه عرضة للخطر على نحو خالص .

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الاهرامات وهو يرتدى حلة وربطة عنق فى درجة حرارة أكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بدأ يبدو ضعيفا بسفله المكسورة وكان يحتاج الى مساعدة .

وفى الاغلب ، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه — منذ توليه منصب رئيس الوزراء — الأمراض التقليدية للمس والانتفاض وقد انغمس فى الاكتئاب والكسل لمعدة شهور ، فى المرة الواحدة ، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة أخرى فى عام ١٩٨٠ . وكان يعود الى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب قتال أو تعرضه لاهانة أو استغلال فرصة لصنع التاريخ . وفى الاثنين وعشرين شهرا التى تلت سقوطه فى حمله بالقدس ،

كان بيجين يتعرض لمعاداة الحياة ولنفحها ، إلا أن الدافع على العمل ضعف بالتدريج وأصبحت الفترات الانتقاضية أقل عدد أو أقل مدة .

وبدأت تضعف المرونة التي اتصف بها في ( الجولاج ) وفي الحركة السرية وكذلك إزدراءه للمعارضة الدائمة وتجارب الحكم . كان الاتجاه السلبي هو الاتحار الشديد .

لم يكن شيء من ذلك واضحا عندما خرج بيجين من مستشفى الهداماه يوم ١٤ ديسمبر . لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر أنه من السابق لاوانه القضاء عليه .

وانتفى يوم الاثنين الطويل ، الذي خرج فيه رئيس الوزراء محوطا بكل ما تتصف به عملية ينفذها رجال المخابرات : المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ .

وقد بدا ذلك اليوم في الساعة السابعة والربع صباحا عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى . واتصل تليفونيا بارييل شارون وسأله من خطه بالنسبة لذلك اليوم وأجاب وزير الدفاع الذي غضب بعض الشيء للاتصال في هذه الساعة بأنه سيذهب الى « ياميت » في شمال سيناء . واقترح بيجين عليه أن يتخل عن الذهاب الى ياميت ويحضر الى القدس . وتم أيضا استدعاء امحاق شلمير وزير الخارجية . وتساهلا ما هي المسألة ؟ وأجاب بيجين « سألغكم عندما تحضرون » وكان هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له في حزب حيرت أول من يحاطان علما لكن حتى هما لم يخمنا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات الجولان ، التي تم الاستيلاء عليها من سوريا في حرب ١٩٦٧ ، ودمى مجلس الوزراء الى عقد جلسة طارئة في وقت الظهيرة في شارع بلور . وكان بيجين في بيته مشغولا .

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئا في الاتفاق لكن ما هو ؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء ، وأعلن أنه سيصدر بيان في الكنيست بعد الظهر وبدات التساؤلات : هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور ؟ هل سيقدم استقالته ؟ هل هي عملية عسكرية ، ضربة ربما يتم توجيهها الى الموارخ السورية نصف المنسية في شرق لبنان ، لقد أظهر الامر كله سطوة بيجين وميله للتأمر .

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك اعلانه وأيا كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الاسرائيلي والتشريع الاسرائيلي والادارة

الاسرائيلية على المرتفعات بثلاث قراءات وعرضه على لجنة قبل منتصف الليل . وقد يجادل المحامون العالميون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة، الا انه بالنسبة للعالم اجمع كان قد ضم الـ ١٦٧٥ كيلو متر مربع بها فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦٠٠ في اربع قرى واقعة فوق التلال و ٣١ مستوطنة على التوالي . وذيل رئيس الوزراء المبادرة بنهاية درامية بالذهاب الى الكنيست في متعده المتحرك ، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء ، والدخول في معركة حامية مع الاعضاء البرلمانيين المعارضين .

وكان قد تم الايذان بالضم في الخطوط الارشادية اتى وضعا الانتفاخ للكنيست في دورته العاشرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم للاعلان عنه وهذه الوسيلة ؟

يقول مساعدوه ان اولويته الاولى كانت اسكات مدافع ( جويلا كوهين ) وحزب ( تحيا ) الجديد الذي فاز بثلاثة مقاعد في انتخابات عام ١٩٨١ والذي كان يترى الدوائر لكسلة ليكود من اليسين . لقد حاولت مرة مسز كوهين التي انشقت عن حزب حيروت بعد كامب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وهددت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذي كان بطيئا في العفو عن المنشقين على حرمانها من ارضائها فلا يهز الكلب الذيل .

وكان هناك أيضا شعوره المسرحي باستغلال الفرصة والرغبة الملحة في السيطرة على أضواء المسرح . الا أن الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثاليا للضم . وكان العالم مشغولا بازمة بولندا . وكانت سوريا تعمل لصالح اسرائيل بالادلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول «خيانة» وتكبت لتحقيق السلام مع اسرائيل . وكان الرئيس السوري حافظ الأسد قد صرح في اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف ابدا بالدولة اليهودية . حتى اذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك .

وقام ( ديفيد كيمنش ) مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية بتبرير تلك الضربة التي قام بها بيجين لاجهزة الصحافة العالمية بأنها اجراء وقائي لحماية النفس . وقال اذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمعاهدة للسلام لذلك هو السبيل الذي يتعين علينا أن نحققه .

وويخ بيجين المعارضة البرلمانية متهما اياها بمقتلية الجيتو وقال ان الظاهرة التي تتكرر في التاريخ اليهودي من جيل لآخر هي اتهام الذات، فلا بد أن يقع اللوم على اليهودي ، واذا تعرض اليهودي لذبحه فخل اللوم يقع عليه واذا سسكوا الدماء فاليهودي ايضا هو الملول . ويقول اعضاء الكنيست الان : لن تتفاوض سوريا معكم واللوم يقع في ذلك على الحكومة اليهودية . وكان رئيس الوزراء يؤكد

أن السوريين وبالتالي أتباعهم الفلسطينيين قد ظلوا في معسكر الرفض ، الذى منه لن يشكوا أى خطر على الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .  
لقد أقدم بيجين على هذه الضربة أيضا قبل الموعد النهائي لانسحاب اسرائيل من سيناء فى شهر ابريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى .

وقال ان القاهرة لن تفعل شيئا من شأنه ان يعرض للخطر استعادة أراضيها السليبة ، وبحلول شهر ابريل ستكون قضية الجولان قد ماتت .

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين ، الا انه قلل من قوة رد الفعل الامريكى ، فلم تشعر واشنطن بالغضب فقط لان اسرائيل ضمت اراضى سورية محتلة ولكن ايضا لانها فعلت ذلك بدون اشعار سبق ، وناهيك عن التشاور فهذه ليست الطريقة التى يجب ان يتصرف بها الحليف ، ردت ادارة ريجان على ذلك بارجاء العمل بذاكرة التفاهم الاستراتيجى التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخرا بمنع المكاسب الملية التى كلن قد تم التمهيد بها لاسرائيل وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل حول القيمة العملية للذاكرة الا ان بيجين وشارون قد حققا الكثير منها . وكان ارجاء العمل بها ضربة لمكانتها وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفويا اذ لم يكن لدى اسرائيل شيء ذو اهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه ، الا انه فى نطاق هذه الحدود أخذ بيجين يهدد بالكهات كما لو كانت اسرائيل هى الدولة العظمى وامريكا هى التبع المحض . ووجه ذلك الاجراء طمئنة لمبدئه الخاص بالتحالف المتوازن ولتكبرائه فى الاستغلال اليهودى . وكان بيجين يعامل الكهات على الدوام كالاسلحة ولابد ان تاتى الخطبة الملية التى ألقاها على السفير الامريكى سيمى الحظ « صموئيل لويس » فى مصاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صفيح الى راع ثرى وقوى .

لقد استدعى رئيس الوزراء ( لويس ) الى شارع بلفور ووجده السفير ما زال يعانى من ساقه المكسور ويلتزم بالصراة فيما اتضح انه مناجاة لنفس استغفرت خمسا وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر أن غضبه ليس مريحا الى لويس ، خرج بيجين عن سبيله لتبادل المجاملة بشأن صحتها وعائلاتها قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لو كان يضى نورا ، قال بيجين : والان يا سيادة السفير عندى تصريح أريد الادلاء به وتل انه رسالة شخصية يريد نقلها على الفور الى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الاوراق الى جانب بيجين الا أن رئيس الوزراء لم يشر اليها .

وأشار بيجين الى أن هذه هى المرة الثالثة خلال ستة أشهر « تعاقب » الادارة الامريكية فيها اسرائيل . وكانت المرة الاولى بعد تدمير اسرائيل للمفاعل العراقي ، أما المرة الثانية فكانت عندما قصفت اسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١ .

منذ اسبوع أقر الكنيست قانون الجولان ، ومرة اخرى تعلنون انكم تعاقبون اسرائيل ، ما هذا الحديث « تعاقبون اسرائيل هل نحن دولة تابعة ، هل نحن جمهورية ثانية » هل نحن صبية في الرابعة عشر من العمر بحيث اذا لم يلتزموا في تصرفهم يتم تهشيم مفاصل ايديهم وارجلهم . اننى سأحدث اليكم ممن تتكلف منهم هذه الحكومة . انها تتكلف من رجال قاتلوا وخاطروا بارواحهم وعلتوا انكم لا تستطيعون أن تخيبنوا ولن تخيبنونا بالمقبوبات والتهديدات . لقد عاش شعب اسرائيل طيلة ٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر في العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠ سنة اخرى .

وانهم يبيحون الادارة الامريكية بأنها اخلفت وعد الرئيس بفرض «عقوبات مالية عليها » ما الذى يريدون أن يفعلوه ؟ هل يريدون ضرب اسرائيل في جيبيها ( اقتصاديا ) ؟

فى عام ١٩٤٦ كان يقيم فى نفس ذلك المنزل جنرال بريطانى اسمه ( باركر ) وهكذا فاننى اعيش اليوم فى ذلك المنزل . وعندما ناضلنا وصغتمونا بأننا ارهابيون وواصلنا النضال . ويعد أن نفسنا مقر قيادته فى الجزء المنزول من فندق الملك داوود قال ( باركر ) انكم لا تستطيعون معاقبه ذلك الجنس الا بصرية فى جيبه » .

وأصدر أمرا الى جنوده البريطانيين بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية وكانت لمسة ( باركر ) هى خربنا فى جيوبنا .

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الامريكيين واصدقائهم فى الكونجرس فى الحديث بوضوح من أجل اسرائيل دون أن تخفيهم الدعاية المفاهضة للسامية أو اتهامهم بتفضيل بيجين على ريجان على نحو لا يتسم بالوطنية .

لن يخيف احد الجالية اليهودية الحرة فى الولايات المتحدة وستقف هذه الجالية الى جانبنا فهذه ارض اجدادهم . ومن حقهم ومن واجبهم مساندةنا . وهناك اولئك الذين يقولون انه يجب إلغاء القانون الذى أقره الكنيست . وكلمة إلغاء هى مجرد مفهوم انتقل الينا من عهد محكم التفتيش . ومفضل اجدادنا الموت على إلغاء عقيدتهم ابا نحن فلن نبوت . واننى اشكر الله ، اذ لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لموزير الخارجية ان قانون الجولان سيظل سارى المفعول ، وليست هناك قوة فى المعالم يمكن أن تلغيه .

وفيما يتعلق بالاتهام الخاص بالحراج الولايات المتحدة ، أمر بيجين على أن اسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تخرج الرئيس وقال .. اننا لا نريد أن نقولوا لا ثم نطبق نحن القانون على مرتفعات الجولان » .

ولم يخفف ذلك عن صموئيل نوبس ، الذى ادعته ان يرى الحكومة  
بأكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار ، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة  
أخرى باللغة العبرية . بل شعر السفير بدهشة أكبر عندما سمع تقريراً  
شفوياً فى مذياع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب الى تل أبيب وارسل . .  
رسالة للبيت الأبيض وشعر بان ذلك انتهاك كبير لليقة الدبلوماسية بين بلدين  
صديقين ، لقد قال بيجين الكثير عندما أتحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء  
بأنه يندم حتى عندما أشارت الصحف الاسرائيلية الى أن الجنرال باركر كان  
يعيش بالفعل فى المنزل المجاور .

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضاً فى مؤشر العلاقات  
الاسرائيلية الامريكية ، واعتقد الاسرائيليون فى واشنطن أن ( جيبس ريستون )  
كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن  
كبار المسئولين الاسرائيليين يشعرون بأن بيجين كثرة مؤكدة على إسرائيل وبقية  
العالم وأشار الى أنهم ينتظرون لان يفعل الشعب الاسرائيل شيئاً تجاه ذلك .

ولم تظهر تنهما للقضية الاسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين إحدى  
وأربعين صحيفة امريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان .

وإثناء عودة ( كاسبار واينبرجر ) وزير الدفاع الامريكى الى وطنه بعد  
جولة فى الشرق الأوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سئل عما اذا كان هناك  
جهد منسق لتقاييد الولايات المتحدة عن اسرائيل وتكثرت من العرب .  
فاجاب قائلاً : أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لاسرائيل فى السياسة  
العسكرية » .

وانفصح واينبرجر الذى كان ينظر اليه بيجين على أنه مسيحي مضطر  
للتعايش مع اسمه اليهودى للبراسلين بأن الادارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس  
ليبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقدمة طراز  
( اف - ١٦ ) الى الاردن وعلى الفور قامت اسرائيل بتعبئة اصدقائها للتصديق  
للمسقة الاردنية ، التى دفعت بأنها ستعمل على تغيير التوازن الاستراتيجى ،  
الا أن واشنطن لم تعمل على تصعيد الأزمة بصورة كبيرة ، وكان ريجان لا يريد  
أن يعطى ذريعة لاسرائيل للتراجع من الجلاء من سيناء ، الذى كان من المقرر  
أن ينتهى يوم ٢٥ أبريل . وفى سلسلة من الخطابات والتصريحات اكسد الرئيس  
من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتفوق بها اسرائيل على الجيوش  
العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية بالأمم متعرف بحق اسرائيل  
فى الوجود فى حدود آمنة ومعترف بها .

ويبدو أنه قد ثبت — مرة أخرى — صحة اعتناع بيجين بأن الامريكيين سوف  
يعودون مرة أخرى فى النهاية الا ان العزى قد أخذ حقه مساهماً بنصيبه فى الانتهاك

ايضا الانسحاب من سيناء الذى قبله بارتياك شديد والذي تعارض مع قدراته كلها . وكان اليهود قد استقروا في شبه جزيرة سيناء لان الحكومات المتلاحقة ذكرت ان اسرائيل تحتاجهم هناك وبعد ثلاثة شهور من تولي السلطة حصل بيجين على عضوية شرفية في مستوطنة ( نيوت سيناء ) وهي مستوطنة تقع بين العريش وياميت انشأها اعضاء تنظيم شباب حروت ، وتعهده بان يعتزل هناك في الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠ شخص تعويضا كبيرا مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير « حرب اليهود » واصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين ، الذين لم يعيش معظمهم ابدا في سيناء والذين يرابطون هناك في الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائي . وفي النهاية تم اجلاء المستوطنات اللبنانية عشر كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية الا أن ذلك خلق سابقة وكان بيجين يعرفها . وبالتالي فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك في السلام بدون ان يطالب بمستوطنات .

وبعد مرور ستة اسابيع على الانسحاب من سيناء ، كانت اسرائيل في حرب في لبنان . وكان بيجين يؤمن بأهدافها ، لكنه كان يريد ان تنتهى بسرعة ويثن زهيد وفي الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح الدفاع الاسرائيلى قوتاً في المستنقع اللبناني ويزداد فيه عدد الخسائر في الارواح اسبوعا بعد اسبوع اكثر من اثني عشر شهرا كان رئيس الوزراء يزداد حزنا . وبدت كل خسارة في الارواح اتهاما شخصيا ، وعندما كان ( اذريل نيفو ) يحمل اليه انباء حدوث ضحية اخرى، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه . وقال ( ييهيل كاديشي ان هذه الانباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال ( يونا كليمو فيتزكي ) سكرتيره الخاص ، بعد أن قدم استقالته ، انه شعر بالخيانة من جانب بعد الاشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة .

ومن المعتقد أن بعض الاشخاص الذين اشار اليهم هم وزير الدفاع ورئيس الاركان ولاحظ الاسرائيليون أن بيجين لم يحضر أية جنازة عسكرية ولم يزر ابدا المصلين في المستشفى . ويبدو أن ذلك كان محزنة كبيرة بالنسبة له . وفي يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى ارسل فيه خطاب الاستقالة الى الرئيس ( حاييم هرتوج ) كان سلاح الدفاع الاسرائيل قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت ارواحهم ضحية للحرب اللبنانية ، كان جنديا برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما اصلته قتيعة باثوكا في كمين بالقرب من صور .

وازداد العبء الذى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت في مخيمات اللاجئين في بيروت واثرت فيه المظاهرات الضخمة والحملات الصحفية والانتهاكات بالقتل التى وجهت اليه وكان بيجين ووزراؤه وجزائراته تحت المحاكمة طيلة



سنة شهور تقريبا وابتداء من شهر نوفمبر كلفت هناك تسع شخصيات عامة ، من بينهم بيجين وشارون وشلمير تحت اشعار بأنهم قد يضطرون للمشاركة في تحمل اللوم .

ولفتت لجنة كاهان نظرم الى انهم في خطر وامطتهم فرصة للدفاع عن انفسهم ولم ينسب تقريرها الذي تم نشره في شهر فبراير الا قدرا محدودا من المسؤولية لرئيس الوزراء ، وهي اخطاء تتعلق بالاهمال وليست اخطاء ارتكبتها .  
«لا أن بيجين بمعقلته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره أن يغفل هذه التوصية . واضطرته الازمة التي نشبت حول استقالة شلرون الى تأكيد سلطته ، لكنه فعل ذلك بقلب متقبض وفي الوقت نفسه في خريف عام ١٩٨٢ كلن يتصدى لمشروع ريجان الذي استهدف جر الاردن الى صليبة السلام . ورفض بيجين المشروع باعتباره خطرا آخر على وحدة ارض اسرائيل وكان يجب الا ينزعج ، لان الملك حسين لن يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس الفلسطينيون مرة اخرى مع ذلك حقهم في الفيتو .

وحدث ذلك كله في ظل تدهور صحة ( اليزا بيجين ) ثم وفاتها يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٨٢ . وقد علفت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة سنوات ، وفي شهورها الاخيرة كانت تتنفس بصعوبة كبيرة وطبقا لما ذكره احد اصدقاء العائلة ، فان ٣٠٪ فقط من كمية الاوكسجين الطبيعى هي التي كانت تصل الى رئتيها . ولم يكن بوسع الاطباء أن يفعلوا شيئا سوى الإبقاء على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية .

كان بيجين يزورها كل يوم في مستشفى الهاداساه بل واحيانا مرتين في اليوم ويتصل بها تليفونيا عندما يتسنى له ذلك . وقبل وفاتها باسابيع قليلة ارسل ( آرشد هابر ) قطب شركة البترول اليهودية الامريكية وهاوى الفن الذي استخدم صلاته بالكريطين لمساعدة بيجين في الحيلة من اجل اليهود السوفييت ، اثنين من المنضمين لفحص حالتها ، وقد اوصيا بعلاج جعل تنفسها اكثر سهولة لبعض الوقت . وشعرت انها في حالة طيبة تبكتها من أن تحت رئيس الوزراء على أن يتبل دعوة لزيارة واشنطن لمعد أول اجتماع له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور . وفي الطريق الى واشنطن كلن من المقرر ان يدلى بخطاب في حفل عشاء لجمع التبرعات في لوس انجلوس . وقام ابنه ( بنيامين ) بنقل اثناء وفاة ( اليزا ) الى جناح بيجين في الفندق هناك . وتلقى الرسالة ( ييهيل كاد يشاي ) الا انه أراد أن يكون الدكتور جوتسمان موجودا عندما يبلغ رئيس الوزراء بقاتبا . وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت في كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب الى احد المعابد اليهودية ، واتصل به السكرتير السياسى لمناجم بيجين بطريق المذياع . وفي الوقت الذي كان فيه «جوتسمان» في طريقه علدا الى الفندق ، كان بيجين قد ارتدى ملابس السهر ورباط عقق اسود لتناول العشاء . وكان حاضرا ايضا ( هارت

هاستين ) وهو يهودى أمريكى مخضرم من حزب حيروت وزوجته بالاضافة الى (ليه) ابنة بيجين والمضيئة الارضية التى اصطحبتهما فى الرحلة وانفجرت (ليه) فى البكاء عندما نقل النبا لها ولوالدها وتم اعداد الترتيبات لموتهما الى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الاسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء وقال (كديشى) ان عدم وجوده الى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها قد سبب له ألما كبيرا .

ولم يخرج بيجين من كابينة نومه الصغيرة المزودة بالسلاسل خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس انجلوس الى تل ابيب وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لاعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك . وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت .

وعندما عاد بيجين الى شارع بلغور ، اقام حدادا على «مروس شبابه» لمدة سبعة ايام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لاكثر من شهر واقتنع اصداؤه العاملون من هيئة مكتبه بان وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٢ عاما هو القصة الأخيرة التى قصت رغبته فى الحكم . وقال احدهم ان بيجين مر بأوقات قبل اتخاذ قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشمر بالياس ابدا ولم يفقد قدرته على الزميلة .

لقد أصبح شخصا وحيدا ، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرائيا ، حتى لو كان يستطيع ان يكون فطليا سلحرا بكلياته . وهو يتحدث الى الناس وليس معهم وياعتباره شخصية مهينة فهو لم ينقل المسئولية ابدا الى الآخرين . وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها واشراكها فى مسئولياته ومشاكله وكفأ قريبين للغاية من بعضهما . وبعد ان توفيت كان يعود الى بيته ولا يجد احدا يتحدث اليه . لقد كان فى حرب وكان الناس يموتون ولم يكن معه احد ليشركه فيها .

وحاول بنيامين ابن بيجين ان يملأ الفراغ وكان قريبا جدا من رئيس الوزراء — شخصيا وسياسيا ، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حاسمة — الا ان (بنيامين) لم يستطع ابدا ان يملأ مكانة أبيه ، فقد كانت له زوجة وسعة اطفال بالاضافة الى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول لقد اصدقته ان بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الأمر كان مختلفا ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدأ بيجين يفقد وزنه وقوته . ولم يكن يتناول طعامه بصورة طيبة ، وعلى مائدته المفضلة فى صالة تناول العشاء فى الكنيست لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضروات . وقد توقف عن طلب طبق الدجاج والشورى ، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى . وأصبح وجهه ورقيه شاذين وهزلين وعندما ألح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام ، رد قائلا : لم تعد عندي شهية .

وعلى الرغم من تدهوره الواضح أصر كبار المسؤولين في العلانية وفي السر على أنه لا يتلقى أى علاج خلس سواء كان طبييا أو نفسيا . الا أن حالة الاكتئاب كانت تزداد سوءا وقال أحد مستشاريه المقربين « لقد كان يتعامل مع الأشياء الكبيرة أكثر من تعامله مع الأشياء الصغيرة ولم يكن يقرأ الصحف بنفس كمادته . وقتت اجتماعاته وأصبح هربا . وشعر ديبلوماسى امريكى يعرف ببيجين جيدا أنه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء اسرائيل ، فقد أصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيا بل عملا شاقا وكان يشترك في المناوشات ويهجم ما يجرى مناقشته الا أنه ترك جانبها كبيرا من التمثيل الاسرائيلى لرفاته وولت هيمنته وسيطرته . وفقدت مشاركته شرارتها الاخلاقية ولم يعد يتطلع الى صيغ جديدة وطرق للالتفاف حول المشاكل وقلت المناسبات التى يتأهل فيها ورابطت حركة ( السلام الان ) أربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعهما لوحة بالقتلى يطاردون بها عند خروجه أوعودته . ورد ( مائير كوهين ) العضو البرلمانى بطاردونه بها عند ذلك بالاضراب عن الطعام وظهر ببيجين ليطلب منه الاقلاع عن اضرابه . الا أنه سار كائنسان آلى في اتجاه خاطيء . فلأخذ أحد رجال الامن من كتفيه وقاده الى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من اصقاء اسرائيل من الشباب الامريكى المسيحى ، سألهم زعيمهم عما اذا كان رئيس الوزراء لديه اية رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم الى الوطن ، رد عليه ببيجين بالنصيحة التى اعتاد أن يقدمها ليهود الشتات وهى « تعلموا العبرية وأتدبوا وعيشوا في اسرائيل » .

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة أن بيجين مازال يدير دولاب العمل الا أن قبضته على ناصية الامور قد ضعفت وقد شعر بالخرج من دموة له بزيارة الرئيس ريجان في نهاية شهر يوليو ، بالرغم من أنه كان يلح عليها بشدة في وقت مبكر من العام . ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويش فيها رسالة الرئيس كان بيجين يبحث عن مخرج . وقال لموظفيه اننى لست قادرا على الوقوف امام الجمهور وطلب السفير ردا ملجلا لأن البيت الابيض يريد الاعلان عن الزيارة في اليوم التالى يوم الجمعة ، لكن ببيجين طلب بعض الوقت وقال له : « ومن فضلك ان تبلغ الرئيس باننى سأرد عليه في بداية الاسبوع القادم » .

وبمساعدة يهودا أفنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الانجليزية قيل ببيجين الدموة في الاسبوع التالى الا أنه حس عبارة كمرخرج له . وقال أنه سيكون سعيدا لأن يزور واشنطن . ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد في ذلك اليوم وكانت هناك ثلاثة اسابيع لا تزال أمام الزيارة ، وحقت له الرسالة فترة سماح مدتها اسبوعين الا أن ذلك لم

يحقق شيئا ، فمزال بيجين غير قادر على مواجهة العالم وتمت صياغة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية ، الا ان رئيس الوزراء قرر ان السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيا بالرئيس ريجان ويطرح اسبابه الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة في نفوس الاسرائيليين ان البيت الابيض اصدر اعلانا لبقا استخدم فيه تلك الكلمات لاسباب شخصية بدون اى تفسير اكثر من ذلك . وامسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بيانا مشتركا متفقا عليه . وكانت الاسباب الشخصية مناسبة للقدس مظهر كانت مناسبة لواشنطن .

وفي اسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة او على شاشة التلفزيون ولم يعط أية احاديث وكان الاقتصاد في حالة نوسى وكان الوزراء يتجادلون بحدة حول اجراء خفض في الميزانية ، واصاب الخدمات الطبية شلل بطيء نتيجة لاضراب الاطباء الذى استمر ١١٧ يوما ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان وانزوى بيجين بعيدا معظم الوقت ومع ذلك لم يتول احد سلطته . وتوفى ( سيحا ارليك ) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو ، وبدا الرئيس بدون هدف اكثر من اى وقت مضى وتم ترك الامر الى ( امرون بوزان ) الذى ينتمى الى حزب ( تاي ) الصغير الثالث ليكسر مؤامرة الصمت . وقال ( اوزان ) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس ان ( الحكومة تشبه سفينة بدون قائد ) وعلى سبيل المثال فان مناقشة الميزانية قد جرت في جو من الفوضى لا يمكن تصديقه .

( كانوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار وفي النهاية لا يعرفون ما تقرر وكان جيبس الوزراء يصطفون في سكرتيرة الحكومة للنظر في الماخر ليعرفوا ما تقرر ) .

وبالتأمل في الاحداث الماضية كانت هناك حثية حول تقاعد بيجين ، وليس من الممكن اخفاء الحقيقة الى الابد ، وكان يزداد احساسا بعدم قدرته . وقد قال مرارا انه سيتقاعد في السبعين من عمره ، ومع ذلك كان اعلانه في نهاية اجتماع روتيني للوزارة يوم ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٣ بأنه يعتزم الاستقالة قد ادهش الجميع ، اللهم الا حفنة من المقربين اليه . بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخططه حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة .

وكما كن يحدث في معظم الاحيان في السر وفي الحكومة ، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك ابلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السيامي ( ييهيل كاديشائ ) وسكرتير الحكومة ( دان مريهور ) ورفيقه القديم في جامعة ( ارجون ) ( يعقوب مريهور ) وكان الاعلان عن هذا القرار امام الحكومة تمهيدا دستوريا ضروريا قبل الذهاب الى الرئيس .

وقال بيجين لزملائه الذين جاءوا الى حجرتة بعد ان انفض اجتماع الوزارة .. « اننى اشعر بأنه ليس بمقدورى تحمل مسؤولياتى تجاه الامور كما هى عليه ، وبالطريقة التى اودها والطريقة الواجبة » .

ومع ذلك ، وافق على الاستماع الى ممثلين من جميع احزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون فى اقناعه باعادة النظر فى الموضوع وناشدوه لمدة يومين باسم الله وجابوتينسكى ، فى الوقت الذى اسطف فيه مئات من الناخبين فى كتلة ليكود خارج منزله ينشدون قائلين : « بيجين ، ملك اسرائيل » . لكن كان ذلك كله بدون جدوى .

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذى كان يثير الفزع فى نفوس اتباعه — ويضطربهم الى الوقوف فى صف واحد مهددا بالاستقالة . ( ميريدور ) بصورة قاطعة اسكتت المتضمرين اليه « لا استطيع الاستمرار » .

وكخدمة اخيرة لحزبه ، وافق بيجين على الانتظار الى حين ان يتم اختيار خليفة له . وكان متاكدا من الفوز بالثايد البرلماني قبل ان يبلغ الرئيس هيرتزوج وكانت المناورة السياسية هى التى انتقصت من كرامة رحيله ، ولاسيما عندما بقي اكثر من اللازم ، الا أن تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن أن يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير . وكان التوازن بين كتلة ليكود وحزب العمل دقيقا للغاية لدرجة ان اننى خطأ فى التقدير قد يجلب المعارضة .

وتم اسدال الستارة النهائية فى دراما الحياة العامة لمناحيم بيجين على مسرح خلو . وانكشف رئيس الوزراء فى توقعته وبك لا ياكل الا قليلا ولم يعد يخلق ولا يزي سوى عائلته ومستشاريه المقربين .

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزارة ولم يحضر صلوات العام اليهودي الجديد ولم يكن لديه رسالة وداع الى البلد ولم يلعب دورا فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لاسحق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أية نهائى . وفى ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ، أرسل بيجين ( دان ميريدور ) الى منزل الرئيس باستقالته الرسمية .

وقال متحدث انه لا يريد الظهور عل الملأ لانه يعانى من طفح جلدي يمتعه من الحلاقة . وتم الاعتراف فيها بعد بأنه كان يستخدم مرهما لحلقته طيلة ٣٥ عاما ومرة اخرى لم استطع بيجين ببساطة أن يواجه العالم وبعد ذلك بسبمة اسابيع اتقيت صلوات تذكارية فى مفن جبل الزيتون فى الذكرى الاولى لوفاة ( اليزا ) ولم يحضرها بيجين ، الذى ملأل يعيش كما لو كان يمتزل العالم فى مقر رئيس الوزراء .

## الفصل الرابع والعشرون

### البيت الذي شيدته مناحيم

لقد حكم مناحيم ببيجين اسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور ، مما جعله رئيس نائزراء الذي يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة في ذلك المنصب بعد ( ديفيد بن جوريون ) الابن المؤسس للدولة . وقد اكتشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضا . ورجل متناقض في صفاته الظاهرية وان كان غير لغز . وهو ارهابي لم يسبق له مثيل فاز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حربا اخرى .

وهو ديمقراطي ولكنه مستبد . كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندي ويطلق شرقي يحظى بالاعجاب . وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متأثر يجد من العسر الحفاظ على سر .

ووصفه الاسرائيليون بأنه أول رئيس وزراء له أيديولوجية ومن المؤكد أنه أكثر الرجال عزما في اسرائيل . وكانت الاولوية الكبيرة بالنسبة له هي ضمان الوطن القديم كله في غرب الاردن للشعب اليهودي . وفي الوقت الذي تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيما ليس أقل تنظيما وليس أقل قوة لعودة خطوط التقسيم . وفي شهر مايو عام ١٩٧٧ ، عندما وعد بيجين « الكثيرين في الون موريه » كانت هناك ٢٣ مستوطنة يهودية في الضفة الغربية وواحدة في قطاع غزة وفي شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ كانت هناك ١١٢ مستوطنة في الضفة الغربية وخمس مستوطنات في غزة . كما ان عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف « الخط الأخضر » القديم قد زاد من ٢٠٠ الى ٤٠٠٠ نسمة ( بما في ذلك مدينتا « معاليه أوديم » و « أمثوريل » الجدينتين ) .

وذلك علاوة على ان نمط الاستيطان قد تغير . وفي ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الاردن وعلى استيطان الحدود الاستراتيجية . وتم مبدا الإبقاء على المستوطنات بعيدا عن منطقتي يهودا والسامرة الواقعتين على التلال حيث يتركز معظم السكان العرب . ويريد حزب العمل الإبقاء على خيل النسوية اللائيمية أما مناحيم بيجين فقد طلب الاتجاه الذي تسير فيه الامور وسحب الموارد بعيدا عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات مفتثرة بين المسكن والقرى العربية .

وفي أول الامر لم يتطوع سوى الذين لديهم أيديولوجية للاتحاد في تلك المواقع المتقدمة ، لكن بالتدرج تجرعت العائلات العادية الطعم الذي نصبته لهم الحكومة

وانتقلت الى الضفة الغربية لان الاسكان هناك اكثر رخصا واصبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل أبيب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقل منها بين المدينة والضفة .

وبعد سنوات من العداء المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بأن المستوطنين يوجهون هناك ليعقوا . وفى اليوم الثانى من اغسطس عام ١٩٨٣ ، صرح ( شارلز ليتشمتيستين ) نائب مندوب الولايات المتحدة فى الامم المتحدة لمجلس الامن بما يلى :

« اننا لا نعتقد أنه امر عملى أو حتى مناسب المطلوبة بإزالة المستوطنات الغالبية . ان مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التى تحتاج الى معالجة فى المفاوضات . وليس بوسعنا ان نقبل استمرار الدفع الذى يتسائل عما اذا كانت المستوطنات غير شرعية » وهو دفع سيطر — لسوء الحظ — على المناقشات التى جرت فى الامم المتحدة حول هذه المسألة مما لم يكن فى صالح القضية الاساسية ، الا وهى كيف يمكن تحقيق حل عادل وسلمى للنزاع القائم حول الاراضى المحتلة » .

وبكلمة أخرى ، تم خلق حقائق وكانت ادارة ريجان واقعية للغاية بحيث لا يمكنها ان ترغب فى ازالتها . وفى الوقت نفسه فان الحكم الذاتى الفلسطينى كما هو متصور فى كليب ديفيد كان بمثابة خطاب ميت . وبعد مرور خمسة أعوام على اتفاق بيجين — والسادات ، لم يكن هناك مجلس للحكم الذاتى فقط بل لم تكن هناك مفاوضات ايضا وبدأ الفلسطينيون الذين يرضحون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما أن وضع المستوطنين قد تدهم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر .

ومع ذلك لم تلغ مصر مهادنة السلام لقد كان سلاما ناترا على كلا الجانبين ، الا انه سمح لبجيين أن يشن حربا فى لبنان بدون أن يترفع بلا داع حول جناحه الجنوبى . وسمح له بالفعل عندما فى كسب معركته من أجل ارض اسرائيل .

وفى عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء ، كتبت صحيفة « التايمز » الصادرة فى لندن والتى لم تعتبر أبدا من بين معجبيه تقول ما يلى :

« على أية حال فان بيجين لديه الآن وهو فى السبعين من عمره مبرر للشعور بالارتياح أن السياسات التى انتهجتها تشكل ضغوطا على المجتمع الاسرائيلى وعلى اقتصاده » .

الا انه يسلك الآن فى يده بزمام المبادرة الاستراتيجية ضد جيرانه ، وهم يعرفون ذلك . وذلك موقف غير عادى بالنسبة لاسرائيل ولا يحظى

بترحيب بالنسبة للعرب ، وهو ايضا موقف غير مريح بالفلسفة لجميع الاطراف المتفرجة التي تريد اتحلام نفسها في الامر » .

ويعترف العالم بأنه في ظل حكومة ليكود تحت القوات المسلحة الاسرائيلية وصبة العار التي ترتبت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وسواء كان ذلك امرا طبييا أم سيئا فان موقف اسرائيل قد تأثر ككوة اقلية عظمى . وادى تصف المناهل العراقي واخضاع منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت والسوريين في شرق لبنان الى استعادة الردع الاسرائيلي . ومع ذلك ، ففي غضون أيام من المقال الافتتاحي الذي أوردته صحيفة التايمز ، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم الصتور بأن بيجين . . « قام بالتصاوص واكد من جديد ثقة الاسرائيليين في انفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون ، جزئيا على الاقل تقرير الظروف التاريخية » . وكان تجدد الحرب الاهلية في لبنان بعد ان انسحبت القوات الاسرائيلية من جبال الشوف آخر مسمار في نعش المخطط الكبير الذي وضعه ارييل شارون . وانهار المحور الاسرائيلي الماروني وكانت سوريا لا تزال الشقيق الاكبر للبنان ، كما بدأ يتسائل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الديبلوماسية العربية هي أمل الرئيس أمين الجميل الاخير . وفي الصيف الماضي ، طالبت الكتائب اسرائيل بالكثير ، وكانوا يتوقون لنجح الفلسطينيين وليس لمحاربة منظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك ، كان هناك حد للتضحية التي يمكن ان تفكر اسرائيل في تقديمها لصالحهم والتضحية في الارواح وفي السمعة . ونتيجة لذلك لم يتم طرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولم يكن أمين الجميل ، الذي حل محل ( بشر ) الذي قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية . لقد عقد اتفاق يرقى الى معاهدة سلام بين القدس وبيروت في بداية عام ١٩٨٣ ، الا ان اللبنانيين لم يصنعوا عليه أبدا وسرعان ما زال . وكان هناك حليف من النعمة في زيارة قام بها شارون الى حلفائه المسيحيين القدامى في شهر اغسطس وقد ذكر عند عودته الى تل أبيب ما يلي :

( لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات انه على الرغم من ان اسرائيل لم تخض حربا لتخليق موقنا جديدا في لبنان ، او لتمكينهم من الحكم في لبنان فمارالت لديهم فرصة اعتقد انها لن تحين مرة أخرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفي تدريجيا . واعتقد ان ايلامها معدودة . وقد فقدت لبنان بيديها فرصة في الوجود ككولة مستقلة ) .

ولم يعد اللبنانيون يعطون آذانا صاغية ، وفي اسرائيل كان يقوم بصنع السياسة رجال آخرون اكثر ملاما . وكان الاهتمام الاول لموشى ارينز حليف شارون هو الحد من خسائر اسرائيل ، في الوقت الذي ينتقد فيها الاهداف الاصلية المتواضعة لعملية السلام من اجل الجليل . وعندما قدم



( بيجين ) استقالته ، بدا كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع اسرائيل ان تضمن به عدم سقوط صواريخ كاتيوشا اخرى على كريات شونة هو :  
الابقاء على حامية دائمة على طول نهر الاولى .

خلال الايام الستة التى قضاها مناحيم بيجين فى السلطة اعاد رسم خريطة فلسطين ، الا انه لم يهمل مشكلة الفلسطينيين وكثرت ارض اسرائيل التى ورثها لاسحق شلمير هى دولة ثقافية القوية قيد الاعداد وارض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب . وكان الفلسطينيون يوجودون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه . ولم تكن الاطماع الصهيونية لاسرائيل هى اطباعهم . ولم تكن كذلك فى معظم الاحيان ، ديمقراطيتهم او جيش مواطنيهم او مؤسساتهم ، التى عرضتهم للخطر نتيجة لفسادة الاحتلال . لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجابوتينسكى الا انهم لم يذعنوا للهيمنة الاسرائيلية . ان هناك اعداد كبيرة منهم للفاية - فى الاراضى المحتلة وفى اسرائيل الحقيقية لدرجة لا يمكن ان يتم معها استيعابهم كاتلية سلالية كما ان معدل مواليدهم المرتفع جعل الجانب السكانى فى صالحهم . وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافا ضمنيًا بالمشكلة الا انه لم يبذل جهدا اكيدا لوضعه موضع التنفيذ ولم تنجح الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعامل سياسى فى المعادلة ملها فشلت أيضا فى تغذية زعامة محطية مستقلة مستعدة لتحقيق سبلان بشروط اسرائيل .

واصبحت الاراضى المحتلة ساحة للواجهة بين تنفيذيين : الارهاب العربى مقابل الارهاب اليهودى ، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب . ان الرجال والنساء الذين تصدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة ليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف . واصبح الشاذ هو القاعدة وفرض اعضاء لجان الامن الاهلية المسلحون بأسلحة ثوات الدفاع الاسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام النعيم بالعمى . وعلى سبيل المثال ، عندما تم قتل أحد اليهود فى الخليل ماتهم خرجوا فى هياج واحرقوا السوق العربية وشكت قوات الامن من التدخل السياسى عندما حارلوا محاسبتهم . وكان قاطعوا الطرق « صبية يهود طبيين » يقومون بالاعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى او حاكم ليذكر الشرطة . وفى ظل الجنرال ( ايتان ) اصبح الجيش فى الضنة الغربية أداة لحركة ( جوش ابيونيم ) واصبح تماسكها فى خطر . وقدم الجيش لمبتوطنين الزيد من المساعدة والمساندة .

وكتب ( يورام بيرى ) فى مقال بعنوان « بين الممارك والانتراع » .  
دراسة للمسكرية فى السياسة . قال فيها :

لم يتم إعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط ، بل كان يصل الامر فى بعض الحالات الى حصد ايوائهم فى معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلى وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التى يقوم بها المستوطنون ضد السكان العرب فى هذه الأراضى . ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الاسرائيلى المستوطنين على انشاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتسم تزويدهم بالاسلحة والسلاح لهم بضبط امنهم الخاص فى الأراضى .

ومنذ اللحظة التى انحاز فيها رئيس الأركان الى جانب واحد فى المناقشة العامة مورطاً معه قوات الدفاع الاسرائيلى - فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة فى نظر المجتمع برمته . ولم يعد ينعكس المجتمع كله ، بالرغم من انه أصبح يعطى باعجاب معسكر سياسى واحد ، نظر اليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسى . وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية - هى المرحلة التى تبتعد فيها جماعات معينة تماماً عن الجيش .

وعجل بالعمليّة « خيار الحرب » الذى انتهجه بيجين فى لبنان . فقد طالب قائد لواء أن يتم إعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب الى السجن عن العمل شمال الحدود . وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال أبنائهم الجنود ، وأردأت شدة الانقسام الثقافى وأدين المنشقون بأنهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هياؤا الجو لعمليات العنف بل والقتل .

وكان بيجين مثله فى ذلك مثل جميع رؤساء وزراء اسرائيل السابقين مشغولاً بالامن وبالشئون الخارجية . الا ان عهده عانى من اسلوبه المستبد فى الزعامة . وقد عهد ( بن جوريون ) بالشئون المالية والداخلية الى ليفى أشكول ( أما جولدا مائير ) فكان لديها بنحاس سايير وكتابه الاسود الصغير . ولم يعين ( بيجين ) أى سيد اعلى محل . وكان يفوض المسئولية دون السلطة . وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أى محور منافس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه .

وعلى سبيل المثال ، فان تجديد المشروعات ، وهو مشروع خيالى لاصلاح الاحياء الفقيرة ومدن التنمية من خلال مشاركة الشتات الاسرائيلى انما هو مشروع من بنات افكار رئيس الوزراء . الا انه بمجرد أن أطلق شرارته فى حمية النصر الانتخابى الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض فى ايدي موعوسيه . وفى كل مكان آخر غائيه وقع رهينة للسياسات الاقتصادية المغامرة الخاطئة ( ليورام أريودور ) .

وفى الوقت الذى تقاعد فيه ( بيجين ) كان التضخم قد وصل الى حوالى ١٤٠٪ فى العلم وكلفت قيمة الشيكال تنخفض بمعدل ١٪ كل يومين . ألم الدولار الأمريكى وكان الركود يخيم على الإنتاج الصناعى وكل

الفلاحون يواجهون الافلاس وزادت الواردات على الصادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة . وزاد الدين الخارجى الاسرائيلى ٥٠٠ مليون دولار حتى اصبح اجماله ٢١٥ بليون فى النصف الاول من عام ١٩٨٣ . وحل محل المسئولون بالبنك المركزى الحكومة من نشوب أزمة اذا استمر ذلك الاتجاه . وعلى الرغم من تحدى ( بيجين ) لاثنتين من الرؤساء ، كانت اسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحدة وبالتالي أكثر عرضة للضغط من أى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التى تحسن إليها .

واسرائيل التى خلقها مناحيم بيجين فى تصوره أكثر يهودية على وجه التحديد وأكثر عداً وأكثر عزلة . وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية أكثر قرباً من السطح ألا أنه كما أوضحت لجنة ( كاهان ) فإن الحكومة كانت ولا تزال مسئولة امام الشعب وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين . ولم تسكت الصحافة النداءات الى الوطنية . وفى خريف عام ١٩٨٣ ، أظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الاسرائيليين يملكون حدودهم وجوانب قوتهم ولم يكن ذلك هو التراث الذى قصد رئيس الوزراء السادس أن يتركه لشعبه ، الا أنه تراث يستحق الاعزاز .





